الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨هـ)

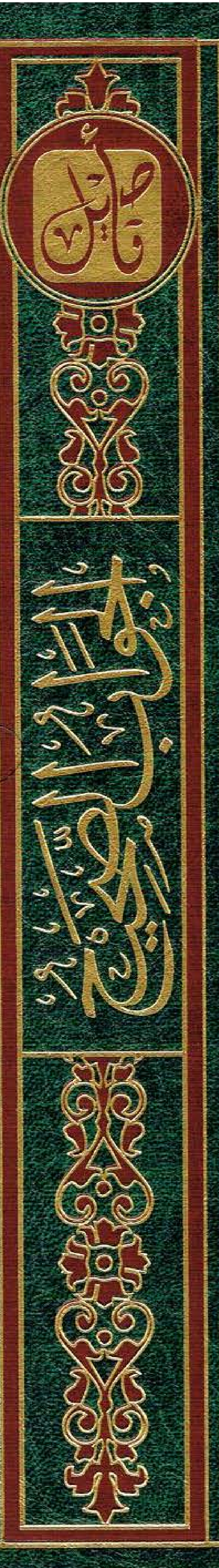
تحقيق

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

إشراف

د. علي بن محمد العمران

المجلد الأول



طبع برعاية

مؤسسة عبد اللطيف العيسى الخيرية



راجع هذا المجلد

د. عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عُمَر الدُّمَيْجِي

الشَّيْخ عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ بْنُ صَالِحٍ ٱلسُّدَيْس

ح مركز دار التأصيل للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. /احمد بن عبد الحليم ابن تيمية ؛ علي محمد العمران - جدة ، ١٤٤٠ هـ

٥ مج.

ردمك: ٧-٠-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٤-١-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١- الإسلام و النصرانية ٢- الديانات المقارنة أ-العمران ، علي محمد (محقق) ب.العنوان

ديوي ٢٩١ ١٤٤٠/١١٣١٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١٣١٧
ردمك: ٧-٠-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٤-١-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠١٩م



مركز التأصيل للدراسات والبحوث
Taseel Center for Studies & Research

جدة، شارع عبدالله السليمان، مقابل اكسترا
المملكة العربية السعودية

هاتف: 00966126288685
جوال: 00966596747896

الرمز البريدي: 22246، الرقم الإضافي: 6929
البريد الإلكتروني: sabban.taseel@gmail.com



لمن بدّل دين المسيح

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)

تحقيق

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

إشراف

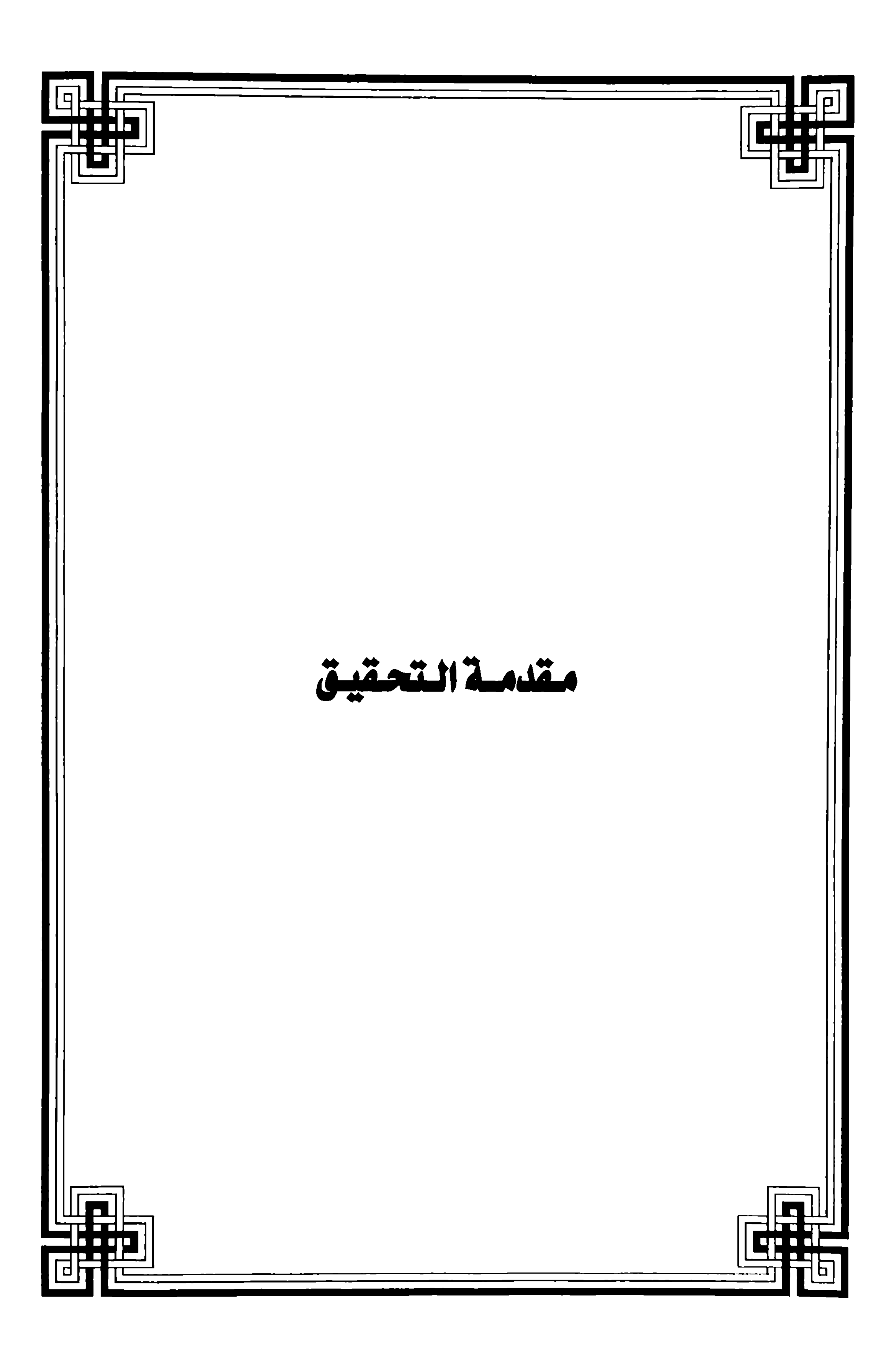
د. علي بن محمد العمران

المجلد الأول





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



مقدمة التحقيق

مقدمة

مركز تأصيل للدراسات والبحوث

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ نبيه ومصطفاه.

وبعد، فقد وقف النصارىٰ من دعوة نبينا محمد ﷺ موقف المعادي والمحارب لها من أول يوم صدع فيه بدعوة الحق، وقد أخبرنا الله تعالىٰ عن عدواتهم فقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

فعدواتهم للإسلام مستمرة إلىٰ يوم القيامة، فهم لا يفتأون يكيدون للإسلام والمسلمين بكل ما استطاعوا من سبل ووسائل، وسلكوا في هذا السبيل طرائق شتىٰ، ما بين حروب أوقدوها ضد المسلمين، أو حملات لإخراج المسلمين من دينهم، أو الكتابة والتأليف لتشويه شرائع الإسلام والطعن فيها، أو التشكيك في عقيدة المسلمين، أو تشويه تاريخهم وأعلامهم.

لكن هذا الكيد والعداوة للإسلام من أعظم أسباب ظهوره وإقبال الناس عليه، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (من أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ظهور المعارضين من أهل الإفك المبين... وذلك أن الحقَّ إذا جُحِد وعُورِض بالشبهات، أقام الله تعالىٰ له ممَّا يُحِقُّ به الحقَّ ويُبْطِل به الباطل من الآيات البينات، بما يظهره من أدلة الحقِّ وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الدَّاحضة)[1].

(١) «الجواب الصحيح»: ١/ ٢١

ومن فضل الله أن سخّر لهذا الدين علماء ربّانيين يدافعون عن الحق ويجاهدون الباطل وأهله، وممن حمل راية الدفاع والجهاد في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمه الله، فقد رد علىٰ شبهات وتضليل النصارىٰ في كتابه العظيم (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح).

ومع أنه قد رد علىٰ النصارىٰ قبله وفي زمانه فئامٌ من العلماء ـ علىٰ اختلاف مشاربهم ـ مثل الجاحظ، والقاضي عبد الجبار الهمَذاني، وابن حزم، والباجي، والغزالي، والرازي، والقرطبي، والقرافي، وغيرهم من العلماء، لكن نقد ابن تيمية للنصارىٰ تميّز عن كافة الردود الأخرىٰ بأنه أقواها حجة، وأفضلها منهجًا، وأعمقها فكرة، وذلك أن المنطلقات السنية، والمنهجية السلفية التي اعتمد عليها جعلته يتميز بقوة الحجة، وتناسق المنهج، وشمولية المجادلة، هذا إضافة إلىٰ ما تميزت به شخصية ابن تيمية العلمية من سعة الاطلاع والمعرفة، فقد ناقش الفلسفة والمنطق اليوناني بمنهجية فريدة يندر وجودها، وكان واعيًا بالحركة الفكرية عند المسلمين والنصارىٰ وما يكون بينها من التداخل.

وكذلك استمر الرد علىٰ النصارىٰ، وبيان باطلهم بعد ابن تيمية، لتجدد عقائد وأحوال وأفكار النصارىٰ والعقائد النصرانية.

وإسهامًا في الدفاع عن الدين وحماية المسلمين وتثبيت عقيدتهم، وبيان عقائد النصارىٰ الباطلة، وما طرأ علىٰ دينهم المحرف والمبدل، اقتضىٰ ذلك العناية بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» من وجوه متعددة، فرأينا أولا إعادة تحقيق الكتاب تحقيقًا علميًّا منهجيًّا، وذلك بعد أن وجدنا عشر نسخ خطية بعضها قريب العهد من المؤلف،

وفي بعضها فصل جديد ملحق بالكتاب لا يوجد في كل المنشورات السابقة يقدر بأربعين صفحة.

ونرجو أن يتلو هذا التحقيق دراسة علمية مطولة حول الكتاب بعنوان «المدخل إلىٰ الجواب الصحيح»، ثم اختصار وتقريب للكتاب ليكون سهل التناول حيث تبين لنا بعد إجراء استطلاع رأي المختصين في العقيدة أن الأغلب لم يقرأ الكتاب كاملا، فإذا كان هذا حال المختصين بالعقيدة فكيف سيكون حال غير المختصين فيها، بله بقية العلوم الأدبية أو الطبيعية وغيرهم.

وهذا العمل الذي يقوم «مركز التأصيل للدراسات والبحوث» بالدور العلمي والمنهجي فيه، وتقوم «مؤسسة العيسىٰ الخيرية» بالتمويل والرعاية، هو جزء من الواجب المتحتم علىٰ أهل العلم القيام به، نصرة للدين، وإقامة للحجة، وانتصارا للشريعة الغراء، والواجب كبير، وهو بحاجة إلىٰ تظافر الجهود الإسلامية المباركة، ونرجو أن ينهض لها دعاة الإسلام، وأهل الغيرة فيهم بإذن الله تعالىٰ.

وفي الختام نشكر الله تعالىٰ أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا علىٰ توفيقه في اكتمال تحقيق هذا الكتاب، كما نشكر مؤسسة العيسىٰ الخيرية، علىٰ رعايتهم للمشروع، ونسأل الله تعالىٰ أن يتقبل ذلك ويجعله في ميزان حسنات أبيهم رحمه الله، وفي ميزان حسناتهم جميعًا وهو الغني الكريم، والحمد لله رب العالمين.

إدارة مركز التأصيل

مقدمة المشرف على تحقيق الكتاب

د. علي بن محمد العمران

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الرسل أجمعين محمد بن عبدالله، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد طبع كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية أول مرة عام ١٣٢٢هـ - ١٩٠٥م أي قبل نحو مئة وعشرين عامًا، ولم نعرف على وجه التحديد على أي النسخ اعتمد طابعوه آنذاك. ثم طبع بعد ذلك في مصر في مطبعة المدني بالاعتماد على تلك الطبعة دون الرجوع للمخطوطات. ثم طبع محقّقًا في ثلاث رسائل جامعية معتمدين على أربع نسخ خطية، وفاتهم الوقوف على ست نسخ أخرى للكتاب، وفيها ما هو بالغ الأهمية من حيث القدم والقرب من المؤلف، ومن حيث صحة القراءة، ومن حيث الزيادات، كما سنشرحه عند الكلام على نسخ الكتاب.

وكان معلومًا لدى الفاحصين لطبعات هذا الكتاب والمعتنين بكتب شيخ الإسلام أن هذه الطبعات الثلاث وما تلاها من طبعات معتمدة عليها قد اعتوَرَها العديد من أوجه النقص؛ ليس في فوات نسخ الكتاب المهمة فحسب، بل في العناية به، وفي قراءة كثير من نصوصه، وفي التعليق عليه وخدمته بالفهارس الكاشفة.

وحينما ناقش «**مركز تأصيل للدراسات والبحوث**» معنا فكرةَ إعادة العمل في تحقيق الكتاب، وخلص الأمر بعد التداول والمناقشة إلى أن الكتاب

بحاجة إلىٰ تحقيق جديد يقدم الخدمة التي يستحقها الكتاب بإخراجه علىٰ نهج صحيح، واستكمال النظر في مخطوطاته الجديدة، وما إليها من وجوه التجويد والخدمة.

وكانت الركيزة الأولىٰ لهذا العمل هي البحث عن جميع مخطوطات الكتاب وتحصيل ما أمكن منها، تمهيدًا لفحصها والانتفاع بها، فكان ذلك والحمد لله، فتمكنّا من تحصيل عشر نسخ خطية ست منها لم تستخدم في الطبعات السابقة، منها نسخ قديمة غاية في الجودة تُقدِّم قراءاتٍ جديدة وتزيد علىٰ المطبوع نصوصًا جديدة.

وقد سار العمل في خمس مراحل:

الأولىٰ: تكوين الفريق العلمي للعمل في الكتاب، وتحرير المنهج الذي يسير عليه العمل، وهو نهجٍ طالما سلكناه في تحقيق كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في المشاريع العلمية التي دأبنا علىٰ إخراجها ضمن سلسلة آثار شيخ الإسلام وابن القيّم وما لحقهما من أعمال، وقد شرحنا تفاصيله مرارًا في مقدمات تيك الكتب، وفي كتيّب صدر بعنوان «التعريف بمشروع نشر آثار العلماء ومنهج تحقيقها». وسنشرح ما يتعلق بخصوص هذا الكتاب في مكانه من هذه المقدمة.

الثانية: الشروع في تفاصيل عملية التحقيق، وقد تولىٰ كل محقق من الفريق مجلّدًا خاصًّا يقوم عليه بكل متطلباته، وقد استغرق العمل في هذا الكتاب نحو سنة ونصف، وسرنا فيه سيرةً مقتصدة في التعليق سابغة في مراجعة النص وضبطه، والتعليق بما يفيد القارئ ويخدم الكتاب.

الثالثـة: بعـد الانتهـاء مـن التحقيـق أوكـل كـل مجلـد مـن مجلداتـه إلـىٰ محكّمَين مختصَّين في العقيدة وكتب شيخ الإسلام أو في أحدهما، عاد بعدها الكتاب لفريق التحقيق للمراجعة والتعديل.

الرابعة: بعد استقرار صفحات الكتاب دفع للفهرسة العلمية واللفظية.

الخامسة: كتابة مقدمة التحقيق، وقد اشترك الفريق في كتابة جملة المقدمة مع مراجعتها.

ومباحث المقدمة كالتالي:

١) بين يدي الكتاب
٢) اسم الكتاب
٣) تاريخ تأليفه
٤) سبب التأليف
٥) إثبات نسبته إلىٰ المؤلف
٦) منهج المؤلف
٧) موضوع الكتاب، وأهميته، وترتيبه
٨) موارده
٩) نسخه الخطية
١٠) أهم مطبوعاته، وتقويمها
١١) منهج التحقيق

فامتازت هذه الطبعة بحمد الله بميزات عديدة:

◈ استيعاب النسخ الخطية للكتاب وقد بلغت عشرًا، وإخراج نصه بالاعتماد عليها.

- العنايـة اللائقـة بـه مـن حيـث الضـبط وتصـحيح الـنص. واسـتدراك مـا فـات الطبعات السابقة من نقص أو سقط أو خطأ أو تصحيف.
- التعليق علىٰ ما يحتاجه النص ويكمل غرضه.
- العزو إلىٰ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية الأخرىٰ التي اشتركت في مباحثها مع كتابنا هذا.
- مقدمة تكشف أهمية الكتاب وما يتعلق به.
- الفهارس الكاشفة لعلومه وكنوزه بما لم يصنع في طبعة أخرىٰ.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر لكل من أسهم لإنجاح هـذا العمـل، فنشـكر مركز الملك فيصـل للبحـوث والدراسـات الإسـلامية، ومركـز جمعـة الماجـد، ودارة الملـك عبـد العزيـز، والإخـوة المشـايخ إبـراهيم بـن منصـور الأمير، ود. خالد الزهراني= علىٰ تفضلهم جميعًا بالإعانة علىٰ تـوفير أو تصـوير بعـض النسـخ الخطيـة. وكـذلك الشـيخ جليـل عيّـاد إذ تفضّـل بقـراءة بعـض المصـادر والموسوعات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية وترجمة ما احتجنا إليه منها إلىٰ اللغة العربية، لاسيما فيما يخص تاريخ النصرانية وتراجم أعلامها.

ونرجـو بـذلك أن نكـون قـد قـدمنا الكتـاب للقـراء في صـورة أقـرب إلـىٰ ما تركه مؤلفه، في عمل علميّ يليق به وبمؤلفـه، وصـلىٰ الله وسـلم علـىٰ محمـد النبي الخاتم.

وكتب

د. علي بن محمد العمران

٦/ رمضان/ ١٤٤٠هـ



بين يدي الكتاب

ألّف شيخ الإسلام ابنُ تيمية المتوفىٰ في سنة ٧٢٨هـ كتابه المرجعي: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جوابـًا علىٰ رسالة الرَّاهب بولس الأنطاكي أسقف صيدا، وهي رسالة انتشرت ـ أو نُشِرت ـ بين المسلمين علىٰ نطاق واسع، في عصر ابن تيمية وقبله بقرن من الزمان.

وقد ألّف ابن تيمية موسوعته (الجواب الصحيح) في علم الجدل الديني مع علماء النصرانية، وجرت في أوربا بعد ابن تيمية بقرنين من الزمان وقائع (حركة الإصلاح الديني علىٰ يد كل من مارتن لوثر، وكالفن، وزونجلي) وقد حققت حركة الإصلاح الديني هدفها بتقييد سلطات البابا المطلقة، وإصلاح بعض ما لحق بالكنيسة من فساد، وقد تمخض الإصلاح عن حدث كبير هو: انقسام المسيحية إلىٰ فرقتين كبيرتين هما: الكاثوليكية والبروتستانتية.

وقد مثل الإصلاح الديني تحولاً هائلاً في سيرورة التاريخ في الغرب، لأن انحسار طغيان الكنيسة وبابواتها فتح الباب أمام الإصلاح المنهجي الفكري الذي وقع في القرن السابع عشر، وقد كان لعلماء المسلمين ومفكريهم دور مؤثر في تحولات الأحداث في الغرب، وهذه مسألة لم تجد من عناية الباحثين المسلمين ما تستحقه من بيان للكشف عن مدىٰ تأثير الحضارات وفاعلية بعضها في بعض.

ولم تحرك رسالة الراهب بولس الأنطاكي الملكاني أسقف صيدا، ابنَ تيمية وحده لكتابة رد عليها[1]، لكنها استفزت عالمـًا كبيرًا في مصر هو أحمد

(١) ينظر مبحث سبب تأليف الكتاب من هذه المقدمة.

ابن إدريس القرافي المتوفىٰ سنة٦٨٢هـ لكتابة رد عليها سماه: (الأجوبة الفاخرة في الرد علىٰ الأسئلة الفاجرة).

كما أن عالمـًا معاصرًا لابن تيمية، هو شمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفىٰ سنة ٧٢٧هـ قد كتب ردًّا ثالثًا علىٰ رسالة الأسقف بولس الأنطاكي.

وأما رسالة بولس، فهنالك مخطوطات باقية للرسالة منها مخطوط بالمتحف القبطي بالقاهرة (رقم ٩٥/ ٢٥٤، ويقع في ٢٦ صفحة)، وبه بعض اختلاف عما أورده كل من ابن تيمية وأبي طالب الدمشقي والقرافي.

وهناك المخطوطة السينائية للرسالة وهي التي نشرها بولس خوري مع بعض الرسائل الأخرىٰ للراهب الأنطاكي، مع ترجمة فرنسية لها في كتابه بعنوان (بولس الأنطاكي أسقف صيدا الملكاني، سنة ١٩٦٤م).

وهناك أكثر من ترجمة إنجليزية لرسالة الراهب بولس الأنطاكي أسقف صيْدا.

هذا وقد أورد المستشرق الأب لويس شيخو في كتابه (المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، نشرة مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ١٩٢٤م) ترجمة مختصرة لصاحب الرسالة بولس الراهب، جاء فيها: (هو أسقف صَيْدا الأنطاكي الرُّومي الملكي من أهل القرن الثالث عشر الميلادي... له عشر مقالات حسنة الإنشاء جليلة الفائدة، بليغة المعنىٰ، سديدة البرهان... منها:

١) شرح العقيدة النصرانية.

٢) خلاصة معتقد النصارىٰ في التوحيد والاتحاد.

٣) رسالة إلىٰ بعض المسلمين من صيدا.

٤) رسالة في فرق النصارىٰ... إلخ).

وجاء في مقدمة كتاب «مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارىٰ»، (طبعته المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٠٦م بعناية بعض المستشرقين والرهبان): (أن معظم هذه المقالات لأحد كتبة الروم الملكية بولس الراهب الأنطاكي أسقف صَيْدا، وكان في القرن الثالث عشر كما يظهر من كتابات تقي الدين ابن تيمية المتوفىٰ سنة ٧٢٨هـ - ١٣٢٨م ويؤخذ من كتاباته أنه رحل إلىٰ بلاد الروم والفرنج واجتمع بأساقفتها، وأنه زار مدينة روما، ومقالاته كلها سديدة الرأي واضحة البرهان).

ويلاحظ أن علماء النصارىٰ المعاصرين قد تنبهوا إلىٰ أهمية رسالة بولس الأنطاكي هذه؛ يقول الدكتور ديفيد توماس[1]: (ربما كانت هذه الرسالة أعمق وأقوىٰ رسالة في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية).

ويرىٰ أن ردّ ابن تيمية لم يكن موجها بالدرجة الأولىٰ إلىٰ رسالة بولس، وإنما كتبه إجابة عن رسالة متأخرة وردت إليه من قبرص من نصراني مجهول الاسم أعاد صياغة رسالة بولس، فغيّر نبرة الرسالة، كما شملت حذفًا وإضافات وتعديلات وسلامة لغتها العربية[2].

(١) في تقديمه لرسالة بولس في الكتاب المشار إليه أعلاه (ص٢٠٣ - ٢٢٣).

(٢) بحث بعنوان: الدفاع والجدل من خلال رسالة قبرص وردّ ابن تيمية، لديفيد توماس، نشرت ضمن كتاب ابن تيمية وعصره ص٢٨٦-٢٨٧.

أما من حيث محتواها فيرىٰ ديفيد توماس: أن الرسالة تهدف إلىٰ تقديم نظرة لا تريح الطرف المسلم وتسبب له إزعاجًا، وتتمثل هذه النظرة في اعتبار القرآن وثيقة نصرانيّة مشفّرة! مستندًا علىٰ بعض الآيات أو أجزاء منها[1].

ويرىٰ ديفيد توماس أن ابن تيمية قد فطن إلىٰ أن الرسالة التي قد وصلته من أهالي قبرص قد تأسّست علىٰ رسالة بولس الأنطاكي، كما كان واعياً بأن هذه الرسالة قد نشرت بين المسلمين علىٰ نطاق واسع.

أما ابن تيمية فيتحدث عن علاقته بالرسالة التي ألّف موسوعته (الجواب الصحيح) في تفنيدها ودحض ما جاء فيها من افتراءات وشبهات، ويقول: «وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارىٰ، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم ـ قديماً وحديثاً ـ من الحجج السمعية والعقلية. فاقتضىٰ ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلًا فصلًا، وأُتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً وعقداً وحلًّا»[2].

ثم يبين جانباً من أهمية الرسالة قائلاً: «وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم علىٰ بعض بحسب الأحوال، فإن هذه الرسالة قد وجدناهم

---

(١) المصدر السابق ص٢٨٤.

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٢٨).

يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم، والنُّسخ بها موجودة قديمة، وهي مُضافة إلىٰ بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلىٰ بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصرانية، وذكر أنه لما سافر إلىٰ بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة وبعض أعمال الإفرنج وروميَة، واجتمع بأجلاء علماء الديانة. كتب رسالته واسمها: الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم»[1].



(١) (١/ ٢٩). وقد استفدنا أكثر هذا التمهيد مع تصرف وإضافة مما كتبه الدكتور محمد الشرقاوي في دراسة له عن أثر كتاب الجواب الصحيح في الأكاديميا الغربية، ستنشر إن شاء الله مع دراسات أخرىٰ في كتاب بعنوان «المدخل إلىٰ الجواب الصحيح» عن مركز تأصيل.

اسم الكتاب

لم يصرح المصنف باسم الكتاب في مقدمته كما يفعل بعض المصنفين، أو في أثناء الكتاب أو خاتمته كما يقع من البعض الآخر، لكنه سماه في مواضع أخرىٰ من كتبه وفتاويه، كما ورد اسمه علىٰ ظهور نسخ الكتاب الخطية، وعند مترجمي المصنف، والناقلين عن كتبه ممن جاء بعده، وذلك علىٰ أنحاء سنوردها فيما يلي، ثم ننتهي إلىٰ ما هو الأقرب في تحرير اسمه العَلَمي الموضوع له إن شاء الله.

(١) «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**».

هكذا نصَّ المصنف علىٰ تسميته في بعض تآليفه، كما قال في موضع: «وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في الكتاب الذي سمَّيناه **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»[١].

وقال في موضع آخر معلِّلًا تلك التسمية: «وقد ذكرت في الرد علىٰ النصارىٰ من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل ما يظهر به من كفرهم ما يظهر؛ ولهذا قيل فيه: **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»[٢].

وهكذا سماه غير واحد من كبار أصحابه العارفين به.

قال ابن القيم بعد أن ذكر القول بالتوسط في مسألة ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل والتحريف، وأنه قد زيد فيها وغيِّر ألفاظ يسيرة، ولكن

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٣٦٢).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ١٨٩).

أكثرها باقٍ علىٰ ما أنزل عليه: «وممن اختار هذا القول شيخنا في كتابه **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»[1].

وقال ابن عبد الهادي في سياق ذكره لكتب الشيخ وتصانيفه: «ومنها كتاب الرد علىٰ النصارىٰ سماه: **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، في مجلدين وبعض النسخ منه في ثلاث مجلدات وبعضها في أكثر ...» [2].

وقال ابن رشيق في رسالته التي ذكر فيها أسماء مؤلفات شيخ الإسلام: «ومما صنفه في الأصول مبتدئًا أو مجيبًا لمعترض أو سائل: ... كتاب **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح في مجلدين**»[3].

وكذلك سماه مترجمو المصنف من أهل عصره فمن بعدهم، كالصفدي وابن رجب وغيرهما[4]، وسماه بعض العلماء الناقلين عنه الواقفين عليه كالسفاريني[5].

(٢) «بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

ورد اسم الكتاب بهذه الزيادة في أوله «بيان» علىٰ ظهور عدد من نسخه الخطية، كنسخة المكتبة التيمورية التي وصلتنا قطعة من أولها كتبها المحدث الصوفي الثقة محمد بن أبي بكر الساوجي سنة ٧٣٦ بعد وفاة المصنف ببضع سنين، ونسخة متحف طوب قابي المنسوخة سنة ٧٣٠

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١١٣٨).

(٢) «العقود الدرية» (٤٤)، وذكره كذلك في «مختصر طبقات علماء الحديث» (٤/ ٢٨٩).

(٣) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تمية» (٢٩٥).

(٤) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تمية» (٣٥٤، ٣٧٧، ٤٨٢، ٦٠٩، ٦١٩).

(٥) «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (١/ ٢١٨، ٢/ ١٠، ٢٦٤)، و«لوائح الأنوار السنية» (١/ ٢٤٩).

بعد وفاة المصنف بسنتين وعليها تملك سنة ٨٦١، ونسخة مكتبة ينى جامع المنسوخة سنة ١٠٩٤، والنسخة المتأخرة التي استكتبها العلامة نعمان الآلوسي وعليها خطه سنة ١٣٠١.

وعلىٰ النسختين المحفوظتين في خزائن إسطنبول اعتمد حاجي خليفة في تسميته للكتاب[١].

(٣) «الرد الصحيح على من بدل دين المسيح».

وقع الاسم بصيغته هذه عند الحافظ ابن حجر[٢] وهو ينقل قول شيخ الإسلام في مسألة تحريف التوراة والإنجيل التي سبقت الإشارة إليها.

(٤) «الرد على النصارى».

أشار المصنف إلىٰ كتابه بهذا الوصف في بعض كلامه، فقال: «وكذلك بيّنّا طرق الناس في إثبات العلم بالنبوات في شرح الأصبهانية وكتاب **الرد علىٰ النصارىٰ** وغيرهما»[٣].

وقال في موضع آخر: «وقد بسطنا ذلك في **الرد علىٰ النصارىٰ**، وبيّنّا أن الحواريين لم يكونوا رسلا ...»[٤]، وفي سياق آخر بعد كلام له: «وقد بُسِط هذا في **الرد علىٰ النصارىٰ**»[٥]، ونحو ذلك في مواضع أخرىٰ[٦].

---

(١) «كشف الظنون» (١/ ٢٦٠).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٥٢٤).

(٣) «الرد علىٰ المنطقيين» (٢٥٤).

(٤) «جامع الرسائل» (١/ ٦٦).

(٥) «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٢٦٨).

(٦) «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٢٧٥، ١٩/ ١٨٩).

وسمي بهذا الاسم بخط قديم علىٰ طرة الورقة الأخيرة من نسخة مكتبة بودليان، فكتب أحدهم: «هذا آخر الكتاب وهو **الرد علىٰ النصارىٰ** تأليف سيدنا شيخ الإسلام أبي العباس ...».

وسمي بهذا الاسم أيضًا في القطعة التي بين أيدينا من نسخة مكتبة الإفتاء التي كتبها الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسىٰ سنة ١٢٧٤، فكتب في صفحة عنوانها: «الجزء الأخير من **الرد علىٰ النصارىٰ** تأليف فاروق زمانه ...»، ثم استدرك بجوارها اسم الكتاب العلمي، فكتب: «من كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

وكذلك فرَّق ناسخ نسخة المتحف البريطاني بين وصف الكتاب واسمه العلمي، فكتب: «الجزء الثاني من كتاب **الرد علىٰ النصارىٰ** المسمىٰ بالجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

(٥) «تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد على من بدل دين عيسى ابن مريم المسيح».

كذا وقع اسم الكتاب علىٰ ظهر نسخة مكتبة بودليان بجامعة أكسفورد بخط ناسخ متأخر كتب صفحة العنوان ووضع مقدمة للكتاب من إنشائه أو إنشاء غيره ورد فيها: «فيقول العبد المتمسك بذيل الألطاف الخفية، أبو العباس أحمد بن تيمية، الحنبلي، عامله المولىٰ بغفران ذنبه الخفي والجلي، هذا كتاب سميته **تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد علىٰ من بدل دين عيسىٰ بن مريم المسيح**، أذكر فيه بنص الحديث والكتاب الفصيح،

فأقول والله الهادي ...»، وهي مقدمة مصنوعة لا تشبه كلام شيخ الإسلام ولم ترد في نسخ الكتاب الأخرىٰ. ولسقوط صفحة العنوان الأصلية من هذه النسخة العتيقة اضطرب الواقفون عليها في تسمية الكتاب، فكتب هذا الناسخ المتأخر ما كتب، وكتب أحدهم في نهاية النسخة: «**تمت النبوات** تصنيف الشيخ الإمام ...»، وكتب آخر علىٰ طرة الورقة: «هذا آخر الكتاب وهو **الرد علىٰ النصارىٰ** تأليف سيدنا شيخ الإسلام أبي العباس ...»، كما سبق.

وبعد، فهذه هي العنوانات التي وقفنا عليها في تسمية الكتاب، والأقرب أن الاسم العَلَمي الذي اختاره المصنف لكتابه هو ما سماه به في مواضع من كتبه وصرح به في قوله: «في الكتاب الذي سمَّيناه **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»، وهو الذي ذكره أصحابه ومترجموه والناقلون عنه من أهل العلم علىٰ ما مضىٰ تفصيله.

أما استبدال الحافظ ابن حجر لفظ «الرد» بلفظ «الجواب» فتسمُّحٌ ونقلٌ بالمعنىٰ كما هو ظاهر.

وأما زيادة «بيان» قبله، فهي وإن وردت علىٰ ظهور بعض النسخ القديمة إلا أنها لم ترد في كلام المصنف ولا غيره، وهي زائدة لا حاجة إليها، وهي بالتفسير والعبارة عن موضوع الكتاب أشبه.

وكذلك القول في عنوان «الرد علىٰ النصارىٰ»، فهو وصف لموضوع الكتاب لا تسميةٌ له، ولذا جمع بعضهم بينه وبين الاسم العلمي، كما مر.

ومِن وصفِ الكتاب بموضوعه قول ابن القيم في نونيته[1]:

وكذا جوابٌ للنصارىٰ فيه ما   يشفي الصدور، وإنه سِفرانِ

أما الاسم الأخير الطويل المسجوع، فهو ظاهر الصناعة، بيِّن الوضع، علىٰ فسادٍ في لفظه، إذ وصفَ نهج النصارىٰ أهل الإنجيل بالصحيح، إلا أن تكون الجملة مستأنفة، وهو محتمل.

❁ ❁ ❁

(١) «الكافية الشافية» لابن القيم (٧٧٠).



إثبات نسبة الكتاب إلى المؤلف

لا ريب أن لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا مفردًا في الرد على النصارى، ذكره في كتبه وذكره له أصحابه ومترجموه، وسمَّاه وسمَّوه «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»، كما رأيت في مبحث «اسم الكتاب»، ثم لا ريب أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو ذاك الكتاب المذكور المنعوت بأنه «من أجل الكتب وأكثرها فوائد» وأنه «يشتمل على تثبيت النبوات وتقريرها بالبراهين النيرة الواضحة، وعلى تفسير آي كثيرة من القرآن، وعلى غير ذلك من المهمات»[1]، ودلائل ذلك وقرائنه كثيرة متضافرة من داخل الكتاب ومن خارجه.

فمن الدلائل والقرائن المستخرجة من نصِّ الكتاب:

(١) إحالته في الكتاب على بعض مصنفاته المشهورة مصرحًا بأسمائها، فمن ذلك:

أ) أحال على كتابه «درء التعارض»، فقال: «الثالث: أن يبين فساد تلك الحجة العقلية، إن كانت من باب الخبريات بين فسادها، كما قد بسطنا القول في ذلك في كتاب درء **تعارض العقل والشرع**، وذكرنا أن جميع ما يحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليات فإنه باطل»[2].

ب) أحال على كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، فقال: «ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين، ويكون

(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (٤٤).
(٢) (٣/ ٤٩٥).

مـن إضـلال الشـياطين، كمـا قـد بسـط الكـلام في هـذا البـاب في غيـر هـذا الكتـاب، مثـل **الفرقـان بـين أوليـاء الـرحمن وأوليـاء الشـيطان**، وغيـر ذلك»(١).

ت) أحال علىٰ كتابه «الإيمان»، فقال: «وقد بسطنا الكلام علىٰ هـذه في **مسألة الإيمـان**، وبينـا أن مـا يقـوم بالقلـب مـن تصـديق، وحـب الله ورسـوله، وتعظيم، لا بد أن يظهر علىٰ الجوارح، وكذلك بالعكس»(٢).

ث) أحال علىٰ رسالته في تفسير سورة الإخلاص، كما سيأتي في النص الآتي.

ج) أحال علىٰ جوابه المشهور في أن سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ [الإخلاص:١] تعدل ثلث القرآن، فقال: «ولنا مصنفٌ مبسوطٌ في تفسير هذه السورة، وآخر في بيان أنها تعادل ثلث القرآن ...»(٣).

ح) أحـال علـىٰ رده علـىٰ الرافضـة، ويشـبه أن يكـون أراد كتابـه «منهـاج السـنة»، فقال: «كما بينّا في الرد علىٰ الرافضة أنه لا يقدح أحد في الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان إلا أمكن أن يقدح بمثل ذلك وبأعظم منه في علي»(٤).

(٢) إحالته المجملة في الكتاب علىٰ ما كتبه في بعض مسائله في موضع آخر، ووجدنا تصديقه في تصانيفه، ومن ذلك:

أ) ذكر ظن بعض الناس أن الـذي صـاهره موسـىٰ عليـه السـلام كـان شـعيبًا النبي عليه السلام، وقال: «وحكي أنه شعيب عمن لا يعرف من العلمـاء

---

(١) (٢/ ٣٢١).

(٢) (٤/ ٥٧٢).

(٣) (٣/ ٣١٥، ٣١٦). وكلاهما مطبوع مفردًا وضمن «مجموع الفتاوىٰ».

(٤) (٣/ ٤٩٤).

ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين، كما بسطناه في موضعه»(١)، وقد بسط ذلك في رسالة لطيفة منشورة(٢).

ب) ذكر غلط الفلاسفة وغيرهم في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوىٰ نفسانية أو طبيعية أو قوىٰ فلكية وأن الفرق بين النبي والساحر إنما هو حسن قصد هذا وفساد قصد الآخر، ثم قال: «كما قد بسطنا الكلام عليه وبينا جهل هؤلاء وضلالهم في غير هذا الموضع»(٣). وقد بيَّن ذلك في مواضع من كتبه(٤).

وأمثلة هذا كثيرة لا حاجة للإطالة بها.

(٣) وقوع بعض ما لم نقف علىٰ سياقه بلفظه في المصادر، كما وقع في كتب الشيخ الأخرىٰ، كما في سياق حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولىٰ الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبيٌّ**»(٥)، وحديث عياض بن حمار عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمَقَتَهم عربَهم وعجمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب ...**»(٦)، وغيرهما.

ومن الدلائل والقرائن الخارجية المستفادة من الأصول الخطية المعتمدة ونقول العلماء:

---

(١) (١/ ٤٢٩).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٥٩- ٦٦).

(٣) (١/ ٤٨٥).

(٤) «النبوات» (١٣٨، ٥٠٦، ٦٧٨-٧٠٤، ٨٣٧- ٨٦٦)، و«الصفدية» (١/ ١٣٤- ١٦٣، ١٦٥، ٢٢٢)، و«شرح الأصبهانية» (٥٧٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٣٣٧، ١٩/ ١٥٨).

(٥) (١/ ١٠).

(٦) (١/ ٤٧٣).



١) قراءة الكتاب علىٰ مصنفه شيخ الإسلام وكتابته استدراكًا في طرة النسخة المقروءة عليه بخطه المعروف (ق٩٧/ ظ)، وقد أكَّد ذلك أحد العلماء الذين طالعوا النسخة فكتب تحت خط شيخ الإسلام: «حاشية: هذه التخريجة بخط المصنف ﷺ»، وهي نسخة دار الكتب المصرية المرموز إليها في تحقيقنا برمز (د)، وأصلها من مكتبة العلامة أحمد تيمور باشا.

٢) نسبة الكتاب إليه علىٰ ظهور وخواتيم نسخ خطية قريبة العهد بحياته بخطوط علماء معروفين بالثقة والعناية بتراث شيخ الإسلام، كنسخة التيمورية التي بخط المحدث محمد بن أبي بكر الساوجي (ت: ٧٤٩)، ونسخة الظاهرية التي بخط المحدث أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبدالله المقدسي (ت: ٧٧٦)، ونسخة متحف طوبقبو المكتوبة سنة ٧٣٠ بعد وفاة المصنف بسنتين.

٣) نقل أهل العلم عن الكتاب منسوبًا إلىٰ شيخ الإسلام، ووجود ما نقلوه في كتابنا، كما مضىٰ في نقل الحافظ ابن حجر والسفاريني وغيرهما.



سبب تأليف الكتـاب

أشار المصنف رحمه الله في مقدمته إلىٰ سبب تـأليف الكتـاب، فـذَكَر أنـه ألفـه جوابًا عـن كتـابٍ ورد إليـه مـن «قـبرص» يُنسـب إلـىٰ أحـد علمـاء النصـارىٰ ومؤلِّفيهم وهو «بولس» الراهب أسقف «صيدا» الأنطاكي، وقـد سـمَّىٰ كتابـه: «الكتـاب المنطيقـي الدولـة خـاني المـبرهن عـن الاعتقـاد الصـحيح والـرأي المستقيم»[1].

وكان «بولس» قد كتب هذه الرسالة إلىٰ بعض أصـدقائه، وذكـر فيهـا أن رسالة محمد ﷺ خاصة بالعرب، وأن المسلمين علىٰ دين محـرَّف، وأنـه لمـا سافر إلىٰ بـلاد الـروم والقسـطنطينية، واجتمـع بـأجلاء أهـل تلـك الناحيـة مـن المسلمين، وفـاوض أفاضـلهم، ونـاظر علمـاءهم= أفحمهـم، وأبطـل ديـنهم، وحطَّم شبهاتهم..!

وقد ضمَّن رسالته هذه الاحتجاج لدين النصـارىٰ، بمـا يحـتج بـه علمـاء دينهم وفضلاء مِلَّتهم من الحجج السمعية والعقلية، والاستدلال علىٰ عقيـدة التثليـث وتناسـخ الأرواح والاتحـاد والحلـول، وغيـر ذلـك مـن معتقـدات النصارىٰ.

ولذلك صارتْ هذه الرسالة عمدةَ النصارىٰ التي يعتمد عليها علمـاؤهم في زمان المصنف وقبل زمانه، ويتناقلونها بينهم.

(١) وهي رسالة صغيرة لها نسخ خطية كثيرة، ونشرت مرارًا.

ومـا زالـت إلـىٰ الآن معتمـد النصـارىٰ ومسـتندهم في حـواراتهم ومناظراتهم[1].

وهي من أهم مصادر النصرانية؛ لأنها تحوي خلاصة معتقد النصارىٰ، وقد تلقوها بالقبول والتقدير، بل ذهب بعضهم إلىٰ وجوب الاكتفاء بها، ولاسيما في بيان موقف النصرانية من الإسلام[2].

قال لويس شيخو: «ومن يطلع علىٰ هذه المقالة يقر بلا شك لصاحبها بسعة العلم وسداد الرأي وحسن البيان؛ إذ ميّز كل فرقة من نصارىٰ زمانه، وعرّف ما في قولها من الشطط، مفندًا مزاعمها تفنيدًا لطيفًا قريب المنال»[3].

وقد تصدىٰ لنقضها والرد عليها طائفة من علماء المسلمين، منهم:

- شهاب الدين القرافي (ت: ٦٨٤) في كتابه «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة»، وقال في أوله: «أما بعد، فإن بعض النصارىٰ قد أنشأ رسالة علىٰ لسان النصارىٰ، مشيرًا أن غيره هو القائل، وأنه هو السائل، مشتملة علىٰ الاحتجاج بالقرآن الكريم علىٰ صحة مذهب النصرانية، فوجدته قد التبس عليه المنقول، وأظلمت لديه قضايا العقول...»[4].

- محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت: ٧٢٧) في جواب أفرده للرد عليها، طبع بتحقيق بولس الخوري سنة ٢٠١٢م عن المكتبة البولسية بلبنان، كما سجل رسالة دكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة

---

(١) انظر: «منهج أهل السنة والجماعة في الرد علىٰ النصارىٰ» لعبد الراضي عبد المحسن (ص٦٣).

(٢) المصدر السابق، و«الصحائح في جواب النصائح» للشماس ابن العسال (ص٤٠).

(٣) مجلة المشرق، السنة ٧، العدد ١٥، آب سنة ١٩٠٤م (٧/ ٧٠٢).

(٤) «الأجوبة الفاخرة» للقرافي (ص ٤٧).

المنورة سنة ١٤٣٢ للباحث عبد الإله بن عبد العزيز التويجري، بعنوان: كتاب فيه جواب رسالة أهل جزيرة قبرص في الرد على النصارى لشمس الدين محمد ابن أبي طالب الدمشقي المتوفى ٧٢٧هـ دراسة وتحقيقًا.

◊ شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨) في كتابنا هذا «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، وهو أوسع الكتب التي أفردت لنقض الرسالة وإبطالها.

وقد اختلف الباحثون في تقدير عصر مؤلفها، فظن لويس شيخو أن مؤلفها كان **في القرن السابع الهجري**، معاصرًا لشيخ الإسلام، وذهب آخرون إلى أنه **في القرن السادس**، بينما رجح بعض المحققين أنه كان **في القرن الرابع** الهجري وكان معاصرًا للحسن بن أيوب صاحب الرسالة التي أوردها شيخ الإسلام كاملة في معرض الردّ على ما جاء في رسالة «بولس»، يؤيد ذلك ما جاء في رسالة الحسن بن أيوب من حكاية بعض ألفاظ بولس وعباراته بنصها، مما يؤكد تزامنهما، إضافةً إلى أن المصنف قد أشار إلى قِدَم هذه الرسالة وتعدّد نسخها واختلاف حجمها[1].

وأيًّا ما كان، فقد تجرَّد شيخ الإسلام رحمه الله للجواب عن هذه الرسالة بما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ طلبًا للنفع، وإحقاقًا للحق، ونشرًا ودعوة للدين الصحيح.



(١) ينظر: «منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى» لعبد الراضي عبد المحسن (ص٦٨، ٦٩).



موضوع الكتاب، وترتيبه، وأهميته

موضــوع الكتاب:

أبان المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن موضوع الكتاب في مقدمته، وأنه في الرد علىٰ رسالة «بولس» المذكورة، وردًّا علىٰ ما فيها من معتقد النصارىٰ ومزاعمهم، وقد انحصر موضوع رسالة «بولس» في ستة فصول:

الفصل الأول: دعواهم أن محمدًا ﷺ لم يُبعث إليهم بل إلىٰ أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أن في القرآن ما يدل علىٰ ذلك، والعقل يدل علىٰ ذلك.

الفصل الثاني: دعواهم أن محمدًا ﷺ أثنىٰ في القرآن علىٰ دينهم الذي هم عليه، ومدَحَه بما أوجب لهم أن يَثبتوا عليه.

الفصل الثالث: دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين، كالتوراة والزبور والإنجيل وغير ذلك من النبوات تَشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم، والتثليث، والاتحاد، وغير ذلك، بأنه حق وصواب، فيجب التمسك به، ولا يجوز العدول عنه إذا لم يعارضه شرعٌ يرفعه، ولا عقل يدفعه.

الفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافق للأصول.

الفصل الخامس: دعواهم أنهم موحّدون، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظٍ يظهر منها تعدُّد الآلهة، كألفاظ الأقانيم: فإن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.

الفصل السادس: أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسىٰ عليه السلام بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلىٰ شرعٍ يزيد علىٰ الغاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعًا غير مقبول.

فتصدَّىٰ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرد علىٰ تلك الدعاوىٰ، وانتصر للمذهب الحق، وحشد من الأدلة النقلية والعقلية =الدالة علىٰ رد مذهبهم وتقرير العقيدة الإسلامية الصحيحة= ما لا يدع مجالًا للشك أو الريب.

❁ ❁ ❁

ترتيب الكتــاب:

بنىٰ المؤلف ترتيب كتابه ـ في الجملة ـ علىٰ فصول رسالة «بولس» الستة المذكورة آنفًا في موضوع الكتاب، لكنه فصّل القول فيها، واستطرد في ذِكر مسائل وقواعد يفوتها الحصر.

◈ فبدأ كتابه بمقدمة ضمَّنها أمورًا، منها: تقرير أن الدين عند الله الإسلام، وأنه دين الأنبياء كلهم، وهو الدين الذي ارتضاه لنفسه سبحانه وتعالىٰ، ولا يَقبل من أحد دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين.

◈ كما أشار في المقدمة إلىٰ سبب تأليف هذا الكتاب، وما تضمنته رسالة «بولس» من دعاوىٰ، وبيّن منهجه ـ باختصار ـ في ردِّ تلك الدعاوىٰ.

◈ ثم عَرَض الشبهة الأولىٰ من شبهاتهم وهي ادِّعاؤهم أن الرسول لم يبعث إلا إلىٰ أهل الجاهلية من العرب، وأبطل ما يتمسكون به مما يدَّعونه أدلة، وذكر في مقابل ذلك النصوص النقلية والعقلية القاطعة بعموم رسالته ﷺ، وأنه

بعث للناس كافة، وللثقلين الإنس والجن.

◈ ثم عقد فصولًا للردِّ علىٰ النصارىٰ في بعض عقائدهم، كالصلب والفداء، والاتحاد والحلول، وادعائهم أن النبي ﷺ لم يبشَّر به، وبين ـ أيضًا ـ في ثنايا ذلك حقيقة الروح، والفرق بين ما يضاف إلىٰ الله من صفاته، وما يضاف إليه من مملوكاته.

◈ ثم كرَّ أخرىٰ علىٰ النصارىٰ في رد احتجاجهم علىٰ صحة مذهبهم بأن الإسلام عظَّم الإنجيل والحواريين، كما قدَّس معابدهم، وشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرًا، وأن القرآن صدَّق كتبهم التي بين أيديهم، وأنه أقرَّهم علىٰ ما هم عليه، وأن بعض آياته جاءت في امتداحهم والثناء عليهم، كقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وكقوله تعالىٰ ـ في الثناء علىٰ الرهبانية ـ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

◈ وقرّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ثنايا ذلك قضايا عدة، منها: ثبوت صدق محمد ﷺ عند أهل الكتاب وأن التبديل والتحريف في ألفاظ التوراة والإنجيل من قبل مبعث النبي ﷺ وبعده، إضافة إلىٰ انقطاع سندهما، وعلىٰ هذا فقياس النصارىٰ كتبهم علىٰ القرآن قياس باطل.

◈ كما تعرَّض لبيان أسباب ضلال النصارىٰ، والخوارق التي تُضِلُّ بها الشياطين بني آدم.

◈ ثم توسَّع في بعض ما أورده في المقدمة مختصرًا من إلزام اليهود والنصارىٰ بدين الإسلام، وذكر أنه دين الأنبياء جميعًا، وأن علىٰ المسلمين الدعوة إليه ومحاجة الظالمين، لإقامة الحجة، وبيان المحجة.

◈ ثم رجع أخرىٰ لرد بعض دعاوىٰ النصارىٰ، وذكر منها: دعواهم أن الظلم اتصف به اليهود دونهم، وأن القرآن نفىٰ عنهم الشرك، بل سوَّىٰ بين جميع الأديان، كما أنه لا يليق بهم أن يتركوا كلمة الله عندهم التي عظَّمها القرآن، والمسيح الذي وصفه بأنه عبد الله ورسوله.

◈ ثم أسهب في بيان اضطراب النصارىٰ الشديد في قضايا الاعتقاد الأساسية عندهم كالتثليث، ومعنىٰ الروح، وطبيعة المسيح، وحقيقة الاتحاد والحلول، والجواهر والأقانيم، وردَّ ما تعلقوا به من نصوص الأنبياء، وادعائهم تصديق الكتب السماوية لما قالوه.

◈ ونقل في خلال ذلك رسالة لأحد علمائهم ممن أسلم وهو الحسن بن أيوب، يذكر فيها سبب إسلامه ويذكر الأدلة والحجج العقلية والسمعية علىٰ بطلان دين النصارىٰ وصحة دين الإسلام، وهو من أخبر الناس بمقالاتهم، وقد أسلم علىٰ بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومعتقداتهم.

◈ ثم أورد كلام بعض المنتصرين لدين النصرانية، كسعيد ابن البطريق، بطريرك الاسكندرية، الذي صنف كتابًا سماه: «نظم الجوهر» ذكر فيه أخبار النصارىٰ ومجامعهم واختلافهم، وتاريخ النصرانية، وسبب إحداثهم ما أحدثوه، مع انتصاره لقول الملكية والرد علىٰ من خالفهم.

وقد استوعب المؤلف رحمه الله كلامه في ذلك مع نقده ونقضه.

◊ ثم ذكر فصلًا في ردِّ ما احتجّوا به من التوراة والإنجيل وغيرهما مما يدَّعون أنه من كلام الأنبياء، ولم يَقُم دليلٌ علىٰ نبوة من احتجوا بكلامه، كميخا وعاموص وغيرهما.

◊ ثم عقد فصلًا طويلًا في بشارات الأنبياء، وبين طرق معرفتها، وشهادات الكتب المتقدمة لمحمد ﷺ وضرب لذلك أمثلة من الزبور، وأسفار التوراة، وبشارات المسيح عليه السلام.

◊ **وأخيرًا** ختم الكتاب بسرد دلائل نبوة محمد ﷺ وآيات صدقه، وبعض معجزاته عليه الصلاة والسلام.

وقد رتب هذه الدلائل وصنفها بحسب أنواعها، وذكر أمثلة لكل نوع، وتخلل ذلك ذكر بعض المسائل المهمة المتعلقة بدلائل النبوة.

❁ ❁ ❁

أهميــة الكتــاب:

يعد هذا الكتاب معلمة في علم مقارنة الأديان، ومن أجل ما أُلِّف في بابه، بل لا نظير له في فنّه، وهو أغزر ما كتب عن المسيحية في الإسلام.

قال ابن عبد الهادي مبينًا بعض جوانب جلالة الكتاب وأهميته: «وهذا الكتاب من أجلّ الكتب وأكثرها فوائد، ويشتمل علىٰ تثبيت النبوات وتقريرها بالبراهين النيرة الواضحة، وعلىٰ تفسير آي كثير من القرآن، وعلىٰ غير ذلك من المهمات»[١].

(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٤٤).

ولجلالة هذا الكتاب قال العلامة أبو زهرة: «هو -وحده- جديرٌ بأن يَكتب ابنَ تيمية في سجلّ العلماء العاملين، والأئمة المجاهدين، والمفكرين الخالدين».

ولا غرو، فقد قال الذهبي عن إمامة شيخ الإسلام في هذا الباب: «أما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له نظيرًا»(١).

وقال ابن سيد الناس: «ألفيته ممن أدرك العلوم حظًّا، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظًا، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته أو أفتىٰ في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكَرَ في الحديث فهو صاحب عَلَمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته»(٢).

ويمكن إبراز أهمية كتابه هذا في أمور:

منها: اعتماده الوحيين (الكتاب والسنة) المصدر الأول في مقام الاستدلال والاحتجاج، وهذا النَّهج التأصيلي في الاستدلال يظهر من خلال ما رسَّخه من قواعدَ محكمةٍ تتمثَّل في تقديم النقل علىٰ العقل مطلقًا، وأن تقرير أي معتقد من المعتقدات متوقّف علىٰ ثبوته بنقل صحيح أو دلالة العقل الصريح عليه، إضافة إلىٰ أن الشريعة المحمديَّة هي المهيمنة علىٰ سائر الشرائع، والقرآن هو النصّ الوحيد المحكم الذي يُمكن الركون إليه، والتعويل عليه، والمشهود له ـ بشهادة النصارىٰ أنفسِهم ـ بصحة نقله وتواتره.

---

(١) نقله عنه البرزالي مما كتبه بخطه في بعض الإجازات. ينظر: «العقود الدرية»: (ص٣٩)، و«الرد الوافر»: (ص٣٣).

(٢) حكاه عنه ابن عبد الهادي في «العقود الدرية»: (ص٢٦)، والذهبي في «المعجم المختص بالمحدثين»: (ص٢٥)، وابن رجب في «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة»: (٤/ ٥٠٠).

ومنها: توظيف الأساليب المختلفة واستعمال المناهج المتعددة في طرح القضايا، وبيان الأدلة، ومناقشة النصارىٰ في استدلالاتهم، فقد جمع في ذلك بين منهج الوصف والتحليل، ومنهج النقد والجدل، والناظر إليه بإنصاف يقرُّ بيقين ما يقره من فِكرٍ واعتقاد، فهو لا يكاد يذكر شبهة إلا ويُظهر فسادها ويجلِّي الحق فيها، بأصدق حجة، وأقوىٰ محجّة، شأنه في ذلك شأن سائر مؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومنها: توسُّعه في المقارنة بين الإسلام والأديان الأخرىٰ، فلم تقف الموازنة عند الإسلام والنصرانية فحسب، بل تخطَّت ذلك إلىٰ الأديان والعقائد الأخرىٰ؛ كاعتقادات اليونان والهنود والفرس والتُرْك والبربر وغيرهم، وذلك لبيان وجوه المشابهة، وأوجه الاختلاف، ونقاط الالتقاء والافتراق..

فكان في ذلك كله تصويرٌ واضحٌ لمحاسن الإسلام، وإظهارٌ بَيِّنٌ لفضائل تعاليمه وشرائعه..

وحصل بهذا التوسع في الموازنة والمقارنة والعمق في النظر والتحليل أنْ تبيَّن للمطالع مدىٰ تأثير الوثنية في النصرانية، وتأثر النصرانية بها، ودخول التبديل والتحريف إليها عن طريقها، وهو ما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

كما فتح هذا التوسُّع بابًا جديدًا للرد علىٰ النصارىٰ، ونقد معتقداتهم، وذلك بتوظيف مواضع الإجماع والمسلَّمات بين أهلل الملل؛ لتكون ألزم في الاحتجاج بها عليهم.

ومنها: اشتماله علىٰ أكثر ما يورده النصارىٰ من شبهات وردود، وما يستشكلونه من نصوص قرآنية يدَّعون تناقضها، مع الإحاطة بمذاهب القوم وآرائهم، ومسالكهم في الاستدلال والاحتجاج، ومعرفة بطرائق الرد ودفع الافتراءات، ممهِّدًا لذلك بكليّات يشدها بأدلة الاستقراء من صحيح المنقول وصريح المعقول.

ومنها: دراسته الكتاب المقدس ـ عندهم ـ دراسة نقدية قائمة علىٰ أسس علمية منهجية، وقد وضع جملة من المعايير المنهجية التي تتوقف عليها معرفة البرهان اليقيني علىٰ صحة كتاب من الكتب الإلهية التي أوحىٰ الله بها إلىٰ أنبيائه ورسله، من ذلك:

- ثبوت نُبوة من تُنسب إليه هذه الكتب.
- العلم القطعي بإملاء النبي أو كتابته تلك الكتب بناء علىٰ وحي إلهي.
- اتصال السند المتواتر إلىٰ هذه الكتب حتىٰ وصولها إلينا.
- نَقْل متونها دون تغيير أو تبديل.
- صحة ترجمتها من لسان النبي المعيَّن إلىٰ اللغات الأخرىٰ.

وهذا كله مما يفقده كتابهم المقدس؛ إذ ليس عند اليهود ولا النصارىٰ نقل متواتر ولا آحاد بهذه الأسفار والأناجيل في الجملة، بل وقع فيها من التحريف والتبديل والتغيير ما هو ظاهر بيِّن، يدل علىٰ ذلك اختلاف نسخها في نصوصها، وترجمتها، وتفسيرها، ولذا اختلفت النسخ المعتمدة في العهد القديم، لدىٰ كل من اليهود والنصارىٰ والسّامرة كما هو معروف، وكذا العهد الجديد فإن أسفاره المعتمدة اليوم لا تمثِّل إلا نزرًا يسيرًا من عشرات الكتب المماثلة، والتي استبعدها علماء النصارىٰ في القرن الخامس الميلادي.

إضافة إلىٰ اختلاف النصوص والألفاظ بين النسخ، وتناقض المعاني وتضاربها.

ومنها: الاحتجاج علىٰ النصارىٰ بما في كتبهم، وترجمته نصوص التوراة والإنجيل من العبرانية إلىٰ العربية، ونقله منها عند الحاجة لإلزام الخصم ورد الشُّبَه والدعاوىٰ.

وللشيخ اطلاع علىٰ التوراة باللغة العبرية، كما له إلمام ومعرفة بهذه اللغة، فقد قال عن نفسه(١): «والألفاظ العبرية تقارب العربية بعض المقاربة، كما تتقارب الأسماء في الاشتقاق الأكبر. وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمة أهل الكتاب فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب، حتىٰ صرت أفهم كثيرًا من كلامهم العبري بمجرد المعرفة بالعربية».

ولذا لم يكتف بنقل البشارات بالنبي ﷺ من كتب دلائل النبوة، بل رجع إلىٰ كتب النصارىٰ بنسخها المتعددة، وقارن بينها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الاختلاف في نسخ التوراة ونسخ الإنجيل والزبور **قد رأيناه نحن بأعيننا**، ورآه غيرنا، فرأيت عدة نسخ من الزبور يخالف بعضها بعضًا اختلافًا كثيرًا»(٢).

إلا أنه في نقل البشارات من التوراة والإنجيل اعتمد علىٰ المصنفين السابقين، وعلىٰ الترجمات التي اعتمدوها، ولا سيما ثلاثة علماء، هم: ابن قتيبة، وأبو البقاء الهاشمي، وابن ظفر.

---

(١) في «مجموع الفتاوىٰ»: (٤/ ١١٠).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٣٠٨، ٢/ ٥٧، ٨٧، ٩٣).

ومنها: استيفاؤه ما كُتب قبله في الملل والنحل، بل أربىٰ عليه، حيث كشف عمّا كتبه الشهرستاني والأشعري وابن حزم وغيرهم في الرد علىٰ النصارىٰ، وزاد علىٰ ذلك.

ومنها: اشتماله علىٰ فنون كثيرة، وعلوم شتىٰ، ليس فيما يتعلق بالرد علىٰ النصارىٰ فحسب، بل تطرق لمواضيع أخرىٰ، منها:

مباحث في علم العقيدة، وفي النبوات، والتفسير، والحديث ومصطلحه، والتاريخ عمومًا، وتاريخ النصرانية خصوصًا، بل حرر مسائل فقهية قد لا توجد في كتاب، وتعرض لعلم النفس والاجتماع والسياسة الشرعية، وقارن أحوال المسلمين في ذلك بأحوال الروم، ونَقَد المنطق، وأشار إلىٰ بعض مسائله، وفنّد شبهات الفلاسفة، وذكر أبحاثا في الأدب واللغة والترجمة عند حديثه عن الكتاب المقدس ـ عندهم ـ، إلىٰ آخر تلك العلوم التي تضمنها هذا السفر العظيم.

ومنها: تضمُّنه رسائل مفقودة، ورجوعه إلىٰ مصادر ربما تكون نادرة أو مخطوطة، كرسالة الحسن بن أيوب المشار إليها، وكتاب بولس المتقدِّم ذكره في سبب تأليف الكتاب، مما يكشف سعة اطلاع الشيخ علىٰ تلك النِّحلة ومصادرها.

هذا فضلا عن مصادر إسلامية لم تتصل بنا في هذا الزمان، مثل دلائل النبوة لأبي زرعة الرازي.

ومنها: الإفادة من كتابات المهتدين للإسلام، وتوظيفها في الرد علىٰ النصارىٰ، فقد نقل رسالة الحسن بن أيوب إلىٰ أخيه علي بن أيوب،

التي أشار إليها النديم[1] حيث قال: «الحسن بن أيوب من المتكلمين، وله من الكتب كتابٌ إلىٰ أخيه: عليِّ بن أيوب في الرد علىٰ النصارىٰ، وتبيين فساد مقالتهم، وتثبيت النبوة». ولم نعثر عليها في غير هذا المصنَّف.

وقد تضمنت هذه الرسالة الردّ علىٰ معتقدات النصارىٰ ممن كان من أهلها، والشهادة بأن الدين الصحيح هو الإسلام، حيث قال الحسن بن أيوب: «ثم أُعلمُك ـ أرشدك الله ـ أن ابتداء أمري في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه والاستبشاع بالقول به منذُ أكثر من عشرين سنة؛ لِما كنت أقف عليه في المقالة من فساد التوحيد لله عز وجل بما أُدخل فيه من القول بالثلاثة أقانيم وغيرها مما تضمَّنته شريعة النصارىٰ، ووضْع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تَثْبُت في تقرير ذلك، وكنت إذا تبحَّرته وأَجَلْتُ الفكر فيه، بان لي عوارُه، ونَفَرتْ نفسي من قَبوله، وإذا فكَّرت في دين الإسلام الذي منَّ الله علي به، وجدتُّ أصولَه ثابتةً وفروعَه مستقيمةً وشرائعَه جميلةً».

ومنها: تميُّزه عن سائر كتب الردود بتوسُّعه في المصادر، وإشرافه علىٰ أغلبها، فقد اعتمد في إثبات عقائد النصارىٰ علىٰ كتبهم، واعتاد الإشارة إلىٰ مصادره ـ غالبًا ـ إما بالتصريح أو التلميح، متلافيًا بذلك قصور المؤلفات قبله في اكتفائها بالنقل من المؤلفات الإسلامية في بيان عقائد النصارىٰ والرد عليهم، كما هو شأن كتاب القرافي وغيره، وسيأتي الكلام عليه.

---

(١) في «الفهرست» (ص٢١٤).

ومنها: التحرير العلمي في نقل الأقوال والمذاهب، وكذا سرد التواريخ والأحداث، أدَّىٰ إليه اعتماده علىٰ مصادر أصيلة موثوق بها، وسلوكه منهج الفحص والتحليل، غير مكتفٍ بمجرد النقل والتسليم دون نقد أو تمحيص.

ومنها: الموضوعية، والتحرّر من ركوب الهوىٰ والانقياد للميل الشخصي والنزعات الذاتية في الطّرح والتحليل وإصدار الأحكام والنتائج.

آية ذلك وشاهده: تقريره المسائل والقضايا بالاعتماد علىٰ دعائم ثلاث؛ هي: (العلم، وشمول الاستقراء والتتبع، والعدل والإنصاف في الحكم).

فقد تناول جميع جوانب النصرانية وقضاياها من زاويتين مهمتين:

- تبديل دين المسيح.
- وتكذيب محمد ﷺ.

ولم يكن الإمام في ذلك إلا متعصِّبًا للحق وحده، دائرًا معه حيث يدور، وبهذا تنطق كتبه ورسائله وآراؤه.

وليس أدلّ علىٰ التزامه التام بالعدل والإنصاف من تفضيله النصارىٰ وعلومهم بعد النسخ والتبديل علىٰ الفلاسفة وإن كانوا من المنتسبين للإسلام، وعلىٰ بعض الملاحدة كغلاة الشيعة القائلين بألوهية علي بن أبي طالب، والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية، لأن النصارىٰ يؤلّهون المسيح وهو نبي أفضلُ ممن يؤلهه هؤلاء، كعليٍّ وغيره. كقوله: «اليهود والنصارىٰ بعد النسخ والتبديل أعلم من هؤلاء بالعلوم الإلهية والأخلاق والسياسات فضلًا عما وراء ذلك».

ومنها: التزامه الحسنىٰ في الحوار، والهدوء في المناقشة، وامتثاله الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد أكد علىٰ ذلك في أكثر من موضع، لكنه قسّم أهل الكتاب إلىٰ ثلاثة أقسام:

- **أهل الذمة والعهد والمستأمن** يدخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن.
- **والظالمون** في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهم نوعان: ظالم مستحق للقتال، طالب للعلم معاندٌ يعلم أنه علىٰ باطل، وهذا لا يجادل بالتي أحسن، بل بطرق أخرىٰ تبين عناده وظلمه.
- **والمستجير المستأمن من أهل الحرب** فهذا قد أُمِر بإجابته وإبلاغه مأمنه، حتىٰ تقوم حجة الله عليه، لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، والمراد بالسمع هنا السمع الذي يمكن معه من فهم المعاني.

ولهذا يُعدّ منهجه في دراسة النصرانية خير مثال للجدل بالتي هي أحسن، ولعل هذا الكتاب أهدأ ما كتب ابن تيمية في الجدال.

ومنها: تفرُّده بمسائل وفوائد لم يسبق إليها، كتقسيمه المبتكر لأنواع المعجزات إلىٰ:

- **معجزات العلم**، كالإخبار بالغيوب.
- **ومعجزات القدرة**، ومنها ما هو في العالم العلوي، كانشقاق القمر، والإسراء والمعراج. وما في العالم السفليّ كتصرفه في الإنسان والجن والبهائم.
- **ومعجزات الغنىٰ**(١).

(١) ينظر: «منهج أهل السنة والجماعة في الردِّ علىٰ النصارىٰ، دراسة علمية من خلال جهود الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ»، للدكتور: عبد الراضي بن محمد عبد المحسن، و«المداخل إلىٰ آثار شيخ الإسلام ابن تيمية»، للشيخ بكر أبو زيد، و«ابن تيمية؛ حياته وعصره، آراؤه وفقهه» للشيخ محمد أبو زهرة.

منهـج المـؤلف في كتابــه

بيَّن المؤلف رحمه الله منهجه باختصار في مقدمة كتابه، فقال: «وأنا أذكر ما ذكروه (أي: النصارىٰ) بألفاظهم بأعيانها فصلًا فصلًا، وأُتبِع كلَّ فصلٍ بما يُناسبه مِن الجواب فرعًا وأصلًا، وعقدًا وحلًّا»[1].

وقال: «ونحن ولله الحمد والمنة نبيّن أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية من القرآن، أو من الكتب المتقدمة علىٰ القرآن، أو عقلية، فلا حجة لهم في شيء منها، بل الكتب كلها مع القرآن والعقل حجة عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازين التي هي مقاييس عقلية»[2].

وعلىٰ ضوء هذين النصين يمكن الحديث عن معالم منهجه في أمور:

أولًا: يذكر المؤلف رحمه الله شبهات النصارىٰ مقسّما كلام علمائهم إلىٰ فقرات، بحسب موضوعاتها.

ثانيًا: يفرد كل فقرة بعنوان فصل مستقل، يتناول ما جاء فيها بالبيان والرد، سالكًا مسلك الوصف والتحليل، والنقد والجدل.

ثالثًا: يستوعب في ردِّ الشبه الأدلة من القرآن والسنة، إضافة إلىٰ الاستشهاد بالبراهين العقلية، والقواعد المنطقية، بل يحتجّ علىٰ النصارىٰ بما في

---

(١) (١/ ٢٨).

(٢) (١/ ٣١).

كتبهم، ويترجم ما فيها، وينقل أقوال مَن أسلم من علمائهم، إذ هم بهذا الطريق أعرف، وبمسالكه أخبر.

رابعًا: يعتمد علىٰ المنهج التاريخي في بعض القضايا، كإثبات ضياع التوراة الأصلية بعد استيلاء «بختنصر» علىٰ بيت المقدس، وتبديل دين المسيح بإقرار «الأمانة» في مجمع نيقية (٣٢٥م)، وكذلك عند ذكره بعض دلائل نبوة محمد ﷺ.

خامسًا: قلب الأدلة التي يأتي بها أهل الضلال ليستدلوا بها علىٰ باطلهم، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان يبطل مذهبهم بنفس ما احتجوا به، ويبين من أي الجهات أُتوا.

سادسًا: كان رَحِمَهُ اللَّهُ في كثير من ردوده يكتفي (بالمنع) لأنه أصَّل قاعدةً لمناقشة ما ينقله النصارىٰ ابتناها علىٰ ثلاثة أركان، وقد استعملها في عامة أجوبته، وكان أحيانًا يشير إليها ويحيل عليها، اكتفاء بذكرها في بعض المواضع.

وهذه الأركان هي:

- أن ما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتم الحجةُ به إذ عُلِم إسنادُه ومتنُه، فيُعْلَم أنه منقول عنهم نقلًا صحيحًا.
- **الركن الثاني**: أن نعلم أن ترجمته من العبرية إلىٰ اللسان الآخر، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة.
- **الركن الثالث**: أن يُعلم أنهم أرادوا به ذلك المعنىٰ[1].

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٢٩-٢٣٠).

فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أفسد ما ذكروه بنقض هذه المقدمات يتنزّل معهم أحيانًا بعرض ما نقلوه ويردّ عليهم بالحجج البيّنة والبراهين الواضحة التي لا تجعل لهم معها بعد ذلك أدنىٰ شبهة.

سابعًا: تنظيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ النصارىٰ ببعض الفرق المنتسبة إلىٰ الإسلام في غلوّهم وما آل إليه أمرهم فيه سواء بسواء.

ثامنًا: من الأمور التي انتهجها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وهي عادته في عموم كتبه ـ إحالته للمسألة أو القضية التي يناقشها علىٰ مواضع أخرىٰ من الكتاب أو إلىٰ مصنفاته الأخرىٰ. وقد اجتهدنا في عزو هذه الإحالات إلىٰ مواضعها.

تاسعًا: كثيرًا ما يذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسألة ثم يأخذ في تقسيمات وتفصيلات تثري الباب وتزيد المسألة بيانًا ثم يعود بقوله: والمقصود كذا وكذا. وقد تكرر مجيء هذه العبارة في هذا الكتاب كثيرًا. وهي من سمات بحوث المؤلف الطويلة، فإنه عادة ما يستطرد، ثم يعود إلىٰ المسألة الأصلية بنحو هذه العبارات، وهذا من سيلان قلمه وذهنه المعروفين عنه.

عاشرًا: يعيد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض التفصيلات أو الأوجه التي مرّت في أجوبته أحيانًا، ويكون سبب الإعادة أن الشبهة مقصودها واحد، أو أن الجواب فيه ذكر قواعد عامة تصلح لكثير مما أوردوه، أو أن المقام يستدعي التكرار بتفصيل أكبر، وهكذا فإن ما في هذا الكتاب من التكرار والاستطراد لا ينفكّ عن بيان زائد وتأكيد علىٰ القواعد وزيادة علم وتحقيق.

حادي عشر: ناقش المؤلفُ النصارىٰ بالعلم والعدل لا بـالظن والهـوىٰ. ولـم يحمله بغضـه لهـم علىٰ ردّ كـل مـا جـاؤوا بـه، فإنـه كـان إذا ورد شيء من الحق مـن جهتهم يقـرّه ويبين أن هـذا ممـا لا ينـازَعون فيه، وإذا ردّ عليهم باطلهم ردّه بحجج وأدلة دامغة.



مـوارد الكتـاب

يمكن تقسيم موارده إلىٰ ثلاثة أقسام:

- ➢ كتب صرّح بأسمائها.
- ➢ كتب لم يصرح بأسمائها.
- ➢ أعلام نقل آراءهم، وهي علىٰ قسمين، ما عرف الكتاب الذي نقل عنه، وما لم يعرف.

۞ **أما التي صرح بأسمائها**: فهي إما كتب أو رسائل أو وثائق.

۞ **أما الكتب:**

فمن كتب الفِرق والطوائف:

- ➢ «**التاريخ المجموع علىٰ التحقيق والتصديق**» أو «**نظم الجوهر**»، لافتيشيوس، المعروف بسعيد ابن البطريق، بطريرك الاسكندرية.
- ➢ «**الملل والنِّحل**»، لأبي الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ).
- ➢ «**الفَصْل في الملل والأهواء والنِّحَل**»، لأبي محمد ابن حزم (ت ٤٥٦هـ).

ومن كتب الدلائل:

- ➢ «**دلائل النبوة**»، لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).
- ➢ دلائل النبوة للبيهقي (ت٤٥٦).

ومن كتب السنة:

- ➢ **الكتب الستة.**
- ➢ مسند أحمد. (ت٢٤١هـ).
- ➢ صحيح ابن حبان (٣٥٤هـ)

- كتاب السنة. للخلال (٣١١هـ).
- «الموضوعات»، لأبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).
- جامع الترمذي (ت٢٧٩).
- سنن أبي داود (ت٢٧٥).
- الأموال لأبي عبيد (ت٢٤١).
- الصحيحان

ومن كتب التفسير:

- تفسير ابن أبي حاتم (ت٣٢٧).
- تفسير الطبري (ت٣١٠).
- تفسير سنيد (ت٢٢٦).

ومن كتب التاريخ:

- «التاريخ الكبير»، للإمام البخاري (ت٢٥٦هـ).
- الحلية لأبي نعيم (ت٤٣٠)
- السيرة لابن إسحاق (ت١٥١)
- شرح السيرة «الروض الأنف» للسهيلي (ت٥٨١)
- الطبقات لابن سعد (ت٢٣٠).
- الفتوح لمحمد بن عائذ
- أخبار النصارىٰ = التاريخ لابن البطريق
  - كتاب فراكسيس.
- الأناجيل
- الزبور

ومن كتب الاعتقاد:

- «**الرد علىٰ الجهمية**»، للإمام أحمد (ت٢٤١هـ).
- «**الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**»، لإمام الحرمين الجويني (ت٤٧٨هـ).
- «**شرح الإرشاد**» لأبي القاسم الأنصاري، صاحب الجويني (ت٥١٢هـ).

ومن كتب الفلسفة:

- «**كتاب أثولوجيا**». وهو فصول منتزَعة من «**التاسوعات**» لأفلاطون، وقد دفع هذا بعضَهم إلىٰ التشكيك في نسبته لأرسطو.
- «**آراء أهل المدينة الفاضلة**» للفارابي.
- «**رسائل إخوان الصفا**»
- «**المضنون به علىٰ غير أهله**»، لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥).
- «**نظم السلوك**» لابن الفارض (ت٦٣٢).

وأما الرسائل، فهي:

- «**رسالة بولس الأنطاكي**»، وهي سبب تأليف الكتاب، كما سبقت الإشارة إليه.
- «**رسالة الحسن بن أيوب، إلىٰ أخيه علي بن أيوب**»، يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلة والبراهين علىٰ صحة دين الإسلام ومزاياه، وعلىٰ بطلان دين النصارىٰ، وقد وصفه شيخ الإسلام بأنه كان من أعلم الناس بدين النصارىٰ، وأخبرهم بأقوالهم ومقالاتهم.

وأما الوثائق، فهي:

- **الأمانة المقدسة**، وهي قانون الإيمان، وخلاصة العقائد النصرانية، التي وضعها آباء المجمع المسكوني الأول المنعقد في نيقية سنة (٣٢٥هـ)

وأما الموارد التي لم يصرح بأسمائها فمنها:

- التعليقة للقاضي أبي يعلىٰ (ت٤٥٨) (١/ ٧٢).
- الشفا للقاضي عياض (ت ٥٤٤) (١/ ٢٢٧).
- نهاية العقول للرازي (ت ٦٠٦) (١/ ١١٣).

ومنها: موارد نص علىٰ أسمائها دون أسماء مؤلفيها:

مصنَّف في حيل الرهبان (١/ ٤٩١).

وأما الأعلام الذين أفاد منهم أو نقل آراءهم وصرح بأسمائهم دون أسماء كتبهم، فهم علىٰ النحو التالي مرتبين علىٰ المعجم، ويراجع فهرس الأعلام:

- ابن إسرائيل.
- ابن الجوزي، من المنتظم وكشف المشكل وزاد المسير
- ابن الفارض.
- ابن حزم، من الفصل
- ابن رشد (الجد).
- ابن رشد (الحفيد).
- ابن سبعين.
- ابن سينا.
- ابن عربي.
- ابن عقيل، من الواضح.

- ابن هشام، من السيرة.
- أبو الحسن ابن الزاغوني.
- أبو الحسن التَّميمي.
- أبو الحسن الدارقطني.
- أبو الخطاب الكلوذاني، من التمهيد
- أبو القاسم الأنصاري.
- أبو القاسم سعد بن علي الزَّنجاني.
- أبو المعالي الجويني.
- أبو بكر الأثرم.
- أبو بكر الأنباري.
- أبو بكر القفَّال.
- أبو جعفر العقيلي.
- أبو حاتم ابن حبان.
- أبو حامد الغزالي.
- أبو حنيفة النعمان.
- أبو زرعة الرازي.
- أبو سعيد الخراز.
- أبو عبد الله الرازي.
- أبو عبد الله بن حامد.
- أبو نصر السِّجزي.
- أبو نصر الفارابي.

- أبو نعيم الأصبهاني.
- أبو يعلىٰ القاضي.
- الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة).
- ارسطو.
- إسحاق ابن راهويه.
- أشهب (عبد العزيز بن داود).
- الأصمعي.
- الباقلاني.
- البويطي (يوسف بن يحيىٰ).
- البيهقي.
- التلمساني (سليمان بن علي).
- الثعلبي، من تفسيره الكشف والبيان
- الجعد بن درهم.
- الجهم بن صفوان.
- الحاكم.
- حرملة بن يحيىٰ.
- الحسن بن أيوب.
- الحلاج.
- الخلال، من السنة
- الربيعي.
- زفر بن الهذيل.

- سعيد بن البطريق.
- سفيان الثوري.
- سفيان بن عُيينة.
- السهروردي.
- الشافعي.
- الششتري.
- عبد الله البلياني.
- عبد الله بن المبارك.
- عبد الله بن كُلَّاب.
- الفارابي.
- فم الذهب (من علماء النصارىٰ)
- قباد بن فيروز.
- قزمان.
- الليث بن سعد.
- محمد بن إسحاق القونوي.
- محمد بن إسحاق. (إمام المغازي).
- محمد بن الحسن الشيباني.
- محمد بن جبير.
- محمد بن نصير.
- محمود بن لبيد.
- مناني (مؤسس المنانية).
- يعقوب البرادعي.

وصف النسخ الخطية

تمكّنا بحمد الله تعالىٰ من الحصول علىٰ كل النسخ الخطية التي وجدنا إشارة إليها في الفهارس، وقد بلغ مجموعها عشر نسخ خطية، وهذا وصفها:

١. نسخة دار الكتب المصرية (د):

محفوظة بدار الكتب المصرية من مقتنيات المكتبة التيمورية برقم (٢٧٨ عقائد تيمور)، وعدد صفحاتها: (٨٣٤) صفحة، أسطر كل صفحة ما بين (٣١ ــ ٣٤) سطرًا تقريبًا، في كل سطر ما بين (١١ ــ ٢٣) كلمة؛ لتفاوت الخطوط.

وهي نسخة عتيقة ــ في أصلها ــ كتبت في حياة المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقرئت عليه، كما يظهر من التصويبات وعلامات المقابلة، بل عليها خطه كما في (٩٨/ أ)، وعُلّق تحته: «حاشية: هذه التخريجة بخط المصنف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

وقد تَعاقب علىٰ كتابة هذه النسخة نُسَّاخ بخطوط مختلفة متغايرة.

ووقع بها خروم في مواضع كثيرة من أولها وأثنائها وآخرها، وقد عمد بعض الناسخين وهو الحاج علي اللبدي الحنبلي فقام بترميمها وأكمل أغلب مواضع الخروم والنقص بها سنة (١٢٨١هـ)، ومع ذلك لم تسلم من طمس كثير وبياض لاسيما أعلىٰ الصفحة وأسفلها.

في أعلىٰ صفحة العنوان كتب بخط واضح: (الجواب الصحيح)، وفي وسطها ختمٌ وقفيةٍ لم يتبين في التصوير.

وفي آخرها: «تم الكتاب، آخر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، والحمد لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم

تسليمًا كثيرًا، بقلم أحقر الورىٰ، وأذلّ الفُقَرا، الراجي رحمة اللطيف المبْدي، الحاج علي اللبدي الحنبلي، اللهم اغفر له ذنوبه واستر عيوبه، واجمعه بحبيبه سيد المرسلين، واغفر لمن دعا له بالمغفرة والرضوان، آمين آمين، آمين.

وذلك ليلة الأربعاء في غرة ربيع الأول المبارك، من شهور سنة ألف ومائتين وواحد وثمانين من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية، اللهم صل وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد عبدك ورسولك، النبي الأمي، وعلىٰ آله وصحبه وسلم، تم».

وعلىٰ النسخة تعليقات منقولة من نسخة السفاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨).

وهذه النسخة اعتمد عليها محققو طبعة النيل، وقلّ أن تخرج عنها، ولعلها من الأصول التي وقفوا عليها وأشاروا إليها بقولهم: «وكل تلك الأصول صحيحة مقروء بعضها علىٰ المؤلف، وبعضها عليه قراءة بعض الأفاضل كالحافظ ابن حجر، وبهذا جاءت نسختنا غاية في الصحة والاعتناء».

٢. نسخة المكتبة الظاهرية (ظ):

محفوظة في دار الكتب الظاهرية برقم (٥٦٦٦).

وكاتب النسخة هو أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبدالله المقدسي، من آل المحب المقادسة الذين كانت لهم عناية كبيرة بنسخ تراث شيخ الإسلام وجمعه والاهتمام به، قال فيه ابن حجر: «وتمهّر وَتكلم علىٰ

النَّاس [١] فأجاد وكانت له عناية بالحديث»[٢]، وكانت وفاته سنة (٧٧٦هـ) في ربيع الآخر.

بيَّن ابن المحب أنه نقل النسخة من أصل عمه إبراهيم أبي إسحاق، وأن عمه نقل من نسخة المصنف.

وكتب في أواخر النسخة (ق:١٧٣): «بلغ مقابلة بنسخة عمي أبي إسحاق إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي قوبلت علىٰ الأصل خط المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن نقلها منه ولله الحمد والمنة علىٰ الإسلام والسنة». وذكر نحو ذلك في (ق: ١٨٥).

ومما يدل علىٰ أن الأصل المنقول منه مقابل علىٰ نسخة المؤلف ما ذكره في (ق:١٦٣) حيث كتب في أول الجملة: (لا)، وفي آخرها (إلىٰ)، ثم كتب في الهامش: كذا عليه بخط الشيخ (لا إلىٰ).

وأبو إسحاق إبراهيم عم الناسخ من تلاميذ المؤلف، فقد وُلد بعد سنة (٧٠٢هـ)، وَطلب الحَدِيث وقتًا، وقد وُصف بحسن الكتابة، حتىٰ قال الذهبي: «سمع جملَة وَقَرَأَ ولديه فَضِيلَة وذهنه جيد وكتابته سريعة حلوة»[٣].

وكانت وفاته فِي العشرين من رَجَب سنة (٧٤٩هـ) في الطاعون [٤].

وليست هذه النسخة هي النسخة الوحيدة التي قابل عليها ابن المحب، بل هي الأصل، وقد قابل علىٰ نسخ أخرىٰ، وأثبت الفروق بين أصله وبين

---

(١) مراده من الكلام علىٰ الناس: الوعظ، فقد كان مشهورا به، فقد ذكره ابن حجر في إنباء الغمر (١/ ١٠٦) وقال: وكان لوعظه وقع في القلوب.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٢٨٩. إنباء الغمر ١/ ٨٠.

(٣) المعجم المختص ٥١.

(٤) الدرر الكامنة ١/ ٨.

هذه النسخ، ولكنه لم يبين ما هي هذه النسخ، وإنما يكتفي بالرمز: (خـ). وفي موضع واحد (ق١٦٧) كتب: «نسخة: دعوىٰ النبوة مع..».

وما أثبته الناسخ في آخر النسخة يفيد أنه قابل علىٰ عدة نسخ، حيث ثبت فيها (ق:١٧٣): «آخر النسخ كلها».

تمتاز هذه النسخة بجودتها، وقلة السقط والتصحيف، وبأنها مقابلة علىٰ الأصل المنقول منه، حيث يثبت في الهامش بلاغات المقابلة في موضعها، وقد صان النسخة بهذه المقابلة فأثبت في هوامشها ما سقط عليه أثناء النسخ، ويضبط ذلك بكتابة: (صح) في آخر السقط.

ولا تخلو هذه النسخة من حواشٍ مفيدة، وهي علىٰ ثلاثة أنواع: إما تعريف بغريب، أو تخريج لحديث، أو عزو لبشارة في الإنجيل. وأطول هذه الحواشي ما يكون في تخريج الأحاديث، وقد أثبتناها كلها في أماكنها.

ويميز الناسخ ذلك كله بأن يكتب أولها: (حشه)، وآخرها: (صح). وربما ميّز آخرها بدائرة منقوطة.

وللناسخ تصويبات يسيرة، علق فيها علىٰ ما ثبت في الأصل.

وخط هذه النسخة واضح ومسطرتها ثابتة، ففي كل صفحة منها (٢١) سطرا، وتقع في (١٨٥) ورقة في كل ورقة صفحتان.

وعلىٰ نفاسة هذه النسخة الخطية إلا أن الموجود منها مجلد واحد فقط، وفي أوله سقط، وأول الموجود يبدأ من: «فصل نبوة حبقوق»، فتمت المقابلة علىٰ هذه النسخة في المجلد الرابع فقط، والأصل المعتمد لتحقيق هذا المجلد.

وتمتاز هذه النسخة بأن فيها زيادات عن باقي النسخ، أثبتها الشيخ أبو إسحاق في آخر نسخته التي نقلها من خط المصنف، وهذه الزيادات بقدر كراسة، تقع في (١٣) ورقة من الأصل، وهي تطبع لأول مرة.

وجاء في آخر الأصل ما صورته: «ووجدت في نسخة عمي أبي إسحاق إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ التي بخطه المنقولة من الأصل المقابلة عليه قال: وجدت فصولا في كراس منفرد، فظننت أنها إما أن تكون بعد هذا الكلام وإما أن تكون سقطت من وسطه، وإما أن تكون مستقلة، وهي علىٰ كل حال مناسبة لهذا الكلام فأحببت أن أكتبها هاهنا لتتم الفائدة».

ولا شك أن هذه الكراسة من تصنيف الشيخ، لكن هل هي من هذا الكتاب أو من غيره؟ موضع احتمال، كما ذكر أبو إسحاق ابن المحبّ، فألحقناها به كما صنع هو.

ثبت تاريخ النسخ في آخر المخطوط، وهو العشر الأوسط من شهر رمضان سنة (٧٧٢هـ)، حيث جاء في آخر الأصل ما صورته: «آخر ما وجد في الكراس وبه كمل جميع الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

علقه لنفسه: أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبدالله المقدسي، عفا الله عنهم، وفرغ منه في العشر الأوسط من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، والحمد لله علىٰ الإسلام والسنة».

ولم يذكر في هذه النسخة اسم الكتاب لا في أولها ولا في آخرها، ولا في أثنائها، ولا شك أن اسم الكتاب كان مسطورا في الورقة الأولىٰ، إلا أن أول

المجلدة مخروم.

٣.نسخة طوبقبو سراي (و):

هذه النسخة من محفوظات متحف طوبقبو سراي من مكتبة أحمد الثالث بإستانبول برقم (٢٨٧).

وتقع في (٢٩٢) ورقة، في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا، نسخت سنة ٧٣٠ أي بعد وفاة المؤلف بسنتين[١]، وهي تمثل المجلدين الأوَّلَين من طبعتنا، أي نصف الكتاب، وتعتبر نسخة (مكتبة جامعة ليدن) المشار إليها بحرف (ل) مكمِّلة لها، كما سيأتي الحديث عنها.

وقد كتب علىٰ صفحة العنوان: «كتاب فيه (**بيان الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**)، تأليف شيخ الإسلام مفتي فرق الأنام مظهر سنن المرسلين وقامع الكفرة والملحدين الإمام العلامة **أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية** ﷺ».

ثم كتب تحته تملك بلفظ: «انتقل بالبيع الشرعي إلىٰ أحمد بن محمد بن زيد علىٰ يد شمس الدين اللولوي الكتبي، وعلىٰ يد ولده في أوائل شعبان **سنة إحدىٰ وسبعين وثمانمائة**. والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا».

وتحت الكتابة السابقة ختمان لم يتبينا.

(١) كما جاء في خاتمة المجلد الثاني من نسخة ليدن الآتي وصفها.

وفي أعلىٰ هذه الصفحة عبارة تملك مؤرخة: «دخل في ملك الفقير: عبد العليم ١٣٠٠هـ» وبجانب هذه العبارة توقيع علىٰ شكل ختم في داخله رقم: (٦٥)، وكتب تحته بخط حديث: «من كتب العقائد ٥٩».

ورد في هامش هذه النسخة كثيرًا وضع (مطالب) توضيحية لإبراز موضوع ما أو قضية معينة تناولها المصنف، ومما تكرر في هامشها كذلك تصويب بعض الكلمات التي قد لا تتوافق مع السياق، أو تكون مطموسة، وذلك بقوله: «لعله كذا» وتكون غالبًا هي الأنسب للنصّ. وثمّ تعليقات تدل علىٰ كونها وضعت بعد عام (٩٠٠هـ).

وهذه النسخة جيدة واضحة الخط، وهي أقرب النسخ من عهد المؤلف، وقد كان المعوَّل عليها أن تتخذ أصلًا، إلا أنه اعتراها سقط في مواضع كثيرة لانتقال النظر وغيره، وكذلك فإنها انفردت كثيًرا عن سائر النسخ في مواضع بقراءات وتصحيفات وزيادات، وفروق في السياق والكلمات. ونصّ هذه النسخة يتفق في مواضع كثيرة مع نسخة (يني جامع) فيحتمل أنها منسوخة منها.

٤ .نسخة ليدن (ل):

هذه النسخة من محفوظات مكتبة ليدن بإيرلندا، برقم (٣٣٠١).

وتقع في مجلد كبير في (٣٢٤) ورقة، في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا، وهي تمثل المجلدين الثالث والرابع من طبعتنا، أي نصف الكتاب الثاني، وتعتبر مكملة لنسخة (متحف طوبقبو) المشار إليها برمز (ق)، كما سبق الحديث عنها، ومن خاتمتها عرفنا تاريخ نسخها، وهو سنة ٧٣٠. حيث جاء في خاتمتها: «نجز الكتاب المسمىٰ **بالجواب الصحيح لمن بدل دين**

المسيح صلىٰ الله عليه وعلىٰ نبينا وسائر المرسلين، تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية ﷺ، في سنة ثلاثين وسبعمئة، **وقوبل علىٰ أصل صحيح نقل من خط مؤلفه**».

كتب علىٰ صفحة العنوان داخل إطار مذهّب: «الجزء الثاني من (**الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**)، تأليف شيخ الإسلام مفتي فرق الأنام، مظهر سنن المرسلين وقامع الكفرة والملحدين الإمام العلامة **أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية** ﷺ». ثم كتب خارجه عن الإطار جهة اليسار: «وبتمامه تم جميع الكتاب».

ثم كتب تحته تملك نصه: «انتقل بالبيع الشرعي إلىٰ أحمد بن محمد بن زيد علىٰ يد شمس الدين اللولوي الكتبي، وعلىٰ يد ولده في أوائل شعبان **سنة إحدىٰ وسبعين وثمانمائة**. والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا».

وفي أعلىٰ هذه الصفحة تملّكان غير مؤرّخين، الأول: «تملّكه علي بن عبد [الله] الحنبلي غفر الله له»، ثم كتب تحته: «ثم ملكه سراج الدين عمر الحلبي عفىٰ الله عنه».

ويقال في هذا المجلد ما قيل في وصف نسخة طوبقبو فهي الجزء الثاني منها، تفرقت النسخة في مكتبتين في دولتين مختلفتين. ونصّ هذه النسخة يتفق في مواضع كثيرة مع نسخة (ي) الآتي وصفها.

٥ .نسخة مكتبة يني جامع (ي):

أصلها محفوظ بمكتبة يني جامع (yeni cami) أي: الجامع الجديد، ويسمىٰ جامع والدة السلطان، بإسطنبول، وهي اليوم ضمن المكتبة السليمانية، برقم (٧٣٢).

تقع في (٢٣١) ورقة، تمثل نصف الكتاب الأول كنسخة متحف طوب قابي سراي، وكتب ناسخها معلقًا علىٰ آخر جملة فيها مشيرًا إلىٰ نقص نسخته بعربية فيها عجمة: «أقول: بعد قوله: معقول، كما في النسخ، قوله: فصل، قالوا: وقد جاء ...الخ. فعلىٰ هذه النسخ أن هذه النسخة نصف الكتاب، بل ناقص أيضًا عن النصف، فلا تغفل».

لم يذكر اسم الناسخ، إلا أنه قيّد تاريخ فراغه من نسخها يوم السبت الخامس عشر من رجب الفرد سنة ١٠٩٤.

وهي مكتوبة بخط نسخي جميل، وعلىٰ طررها تصحيحات واستدراكات للسقط مختومة بالتصحيح تدل علىٰ مقابلتها علىٰ أصلها، والتزم الناسخ بكتابة بلاغ المقابلة في رأس كل عشر ورقات (ق٢١/ و، ٣١/ و، ٤١/ و، ...) فيقول: «بلغ مقابلة»، وفي الطرر كذلك توضيح لبعض الكلمات التي أشكل رسمها يبدؤها بقوله: «بيان»، وإشارات إلىٰ مقابلتها علىٰ نسخة أخرىٰ بذكر فروقها مبدوءة برمز (خـ) كما في (ق٢٢/ ظ).

ومع ذلك فلم تخل النسخة من تحريف وسقط دلّ عليه ما وقع في الأصول الأخرىٰ، ولا يبعد أن تكون هي ونسخة المتحف تعودان إلىٰ أرومة واحدة، وإن اختلفتا في بعض المواضع.

وقد وضع الناسخ أو غيره خطوطًا بالحمرة فوق أوائل الجمل والفقرات لتسهيل متابعة القراءة.

وكتب أحدهم بقلم أحمر في طرة (ق١٥٥/ و): «هذا أول الجزء الرابع من الجواب الصحيح» ولم يسبق ذلك أو يتلوه إشارة إلىٰ بدايات باقي الأجزاء.

وفي آخر النسخة ختم وقفية السلطان أحمد خان بن السلطان محمد.

ويغلب علىٰ الظن أنها النسخة المصححة التي أشار إليها العلامة نعمان الآلوسي في صدر نسخته الآتي وصفها بقوله: «هذا الكتاب يوجد منه أيضًا نسخة في المكتبة المقابلة لجامع الحميدية قرب الجسر في إسلامبول المحمية، لكنها قطعة، وناقصة، نمرة ٧٣٢»، وقال في إحدىٰ طرره علىٰ نسخته: «أقول: قد راجعتُ نسخةً مصحَّحةً في إسلامبول ...».

ووقع اسم الكتاب في صفحة العنوان: «بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» وبعده: «تأليف شيخ الإسلام، مفتي فرق الأنام، مظهر سنن المرسلين، وقامع الكفرة والملحدين، الإمام العلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية عفي عنهم».

وتحته ختم لم يتبين، ثم قيد سنة ١١٣٧.

٦. النسخة التيمورية (ت):

أصلها في مكتبة العلامة أحمد تيمور المحفوظة في دار الكتب المصرية، برقم (٧٥٦ عقائد تيمور).

وهي قطعة جليلة قريبة العهد بالمصنف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تمثل الجزء الأول الكتاب، وتقع في (١٧٨) صفحة من القطع الصغير، في الصفحة عشرة

أسطر، في السطر نحو ثمان كلمات، بخط نسخي متقن، كتبها المحدث الصوفي الثقة محمد بن أبي بكر بن أحمد بن هارون الساوجي المتوفىٰ سنة ٧٤٩[١]، وقيّد تاريخ نسخه لها في آخر الجزء بقوله: «وكان الفراغ منه في بكرة السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ست وثلاثين وسبعمئة، كتبه لنفسه العبد المعترف بتقصيره في يومه وأمسه محمد بن أبي بكر بن أحمد بن هارون الساوجي عفا الله عنه».

وعلىٰ النسخة من دلائل الإتقان وآثار المقابلة والتصحيح واستدراك السقط ما يزكي الثقة بها وبما تفردت به من الزيادات في بعض المواضع.

وصلتنا هذه القطعة من الكتاب أوراقًا مبددة مشوشة الترتيب سقطت منها أوراق كثيرة، وقد حاول أحدهم ترتيبها فرقّم ما بقي من صفحاتها فلم يصب في مواضع عديدة. ولا ريب أن طبعة النيل الأولىٰ للكتاب قد اعتمدت علىٰ هذه النسخة، لانفرادها بالصواب في مواضع موافقة لها، وتفردها بزيادات لا توجد إلا فيها، والظاهر أنهم كانوا يصفّون منها الحروف في المطبعة مباشرة؛ لجمال خطها ووضوحه، فتفرقت أوراقها وتبددت ملازمها بين أيدي عمال المطبعة وضاع بعضها في أثناء طباعة الكتاب، والذي بقي منها اشتراه العلامة أحمد تيمور باشا، ولعل أصل هذا الجزء الأول هو الذي كان عند الشيخ عبد السلام الأمير، كما ذكر ناشر طبعة النيل في خاتمة الطبع.

---

(١) ترجمته في «وفيات ابن رافع» (٢/ ٨٩)، و«ذيل العبر» للحسيني (٢٧٤)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ١٣٧)، و«ذيل التقييد» (١/ ١٨١)، وغيرها.

وقد كتب الناسخ اسم الكتاب في صفحة العنوان بخط ثلث محبّر: «الأول من بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تصنيف الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمة الله عليه وأحله جنته بمنه».

وأشار في آخرها إلىٰ نهاية الجزء الأول وبداية الثاني، فقال: «الثاني: فصل وكان يأتيهم بالآيات الدالة علىٰ نبوته ﷺ، ومعجزاته ...»، ثم ذكر تاريخ فراغه من نسخ الجزء.

٧. نسخة مكتبة بودليان (ب)

محفوظة بجامعة أكسفورد بإنجلترا برقم ٤٥/ ٢

ثبت اسم الكتاب في ورقة العنوان هكذا: «كتاب تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد علىٰ من بدل دين عيسىٰ ابن مريم المسيح تأليف: شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين بن أحمد بن تيمية الحراني رضي الله تعالىٰ عنه، آمين».

كذا في صفحة العنوان، ويظهر أن صفحة العنوان والتي تليها بخط مختلف عن الورقة الثالثة. وفي أول الكتاب بعد البسملة حمدلة تخالف ما في باقي النسخ، بل تخالف أسلوب المصنف، وفيها: «الحمد لله الذي شرع لنا الدين، والصلاة والسلام علىٰ أفضل من اعتصم بحبله المتين، سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله الأمين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الرحماء فيما بينهم الأشداء علىٰ الكافرين، صلاة دائمة متعاقبة في كل وقت وحين، وسلم تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد، فيقول العبد المتمسك بذيل الألطاف الخفية، أبو العباس

أحمد بن تيمية الحنبلي، عامله المولىٰ بغفران ذنبه الخفي والجلي، هذا كتاب سميته: تخجيل أهل الإنجيل والنهج الصحيح في الرد علىٰ من بدل دين عيسىٰ بن مريم المسيح، أذكر فيه بنص الحديث، والكتاب الفصيح، فأقول والله الهادي...».

ثم بدأت النسخة بقوله: (إن النصارىٰ لهم سؤال مشهور بينهم ...) وهذا يقابل في مطبوعتنا: (٣/ ٥٠٨).

في حين أنه سمىٰ الكتاب في آخر النسخة: الرد علىٰ النصارىٰ، وسماه كذلك: النبوات. فجاء في آخر النسخة جهة اليمين بخط مغاير ما صورته:

«هذا آخر الكتاب وهو الرد علىٰ النصارىٰ ما ألف سيدنا شيخنا الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه فسيح الجنان بمنه وكرمه».

وكتب الناسخ في آخر الكتاب:

«تمت النبوات تصنيف الشيخ الإمام العالم العلامة أوحد العصر فريد الدهر شيخ الإسلام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه وأرضاه آمين».

ولا شك أن هذا من وهم الناسخ، فإنه لم يكن متقنًا.

ثبت اسم الناسخ في آخر النسخة، إلا أن الأرضة قد أتت علىٰ بعض اسمه وعلىٰ تاريخ النسخ، وبقي منه ما يلي:

«كتبها العبد الفقير إلىٰ ... محمد بن يوسف بن أحمد بن ... الحنبلي المقدسي ... الله له ولوالديه وكان الفراغ ...».

ولم نهتد لمعرفة الناسخ ولا لقراءة التاريخ، ويغلب على الظن من أمارات هذه النسخة أنها مكتوبة في القرن التاسع، والله أعلم.

عدد أوراق هذه النسخة (٢٠٠) ورقة في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة (٢١) سطرًا، وخطها واضح، وهي نسخة كثيرة التصحيف، وفيها اختلال في ترتيب الجمل أحيانًا، وقد نبهنا على بعض ذلك في مواضعه، ومع أن الناسخ يكتب بلاغات في هوامش نسخته، إلا أننا لم نجد ما يدل على أنه قابلها إلا في موضع واحد، حيث كتب (ق:١٤٢): «بلغ المقابلة من عند الفصل».

وكذا أثبت بعض الفروق بين أصله وبين نسخة يشير إليها بـ (خـ) في موطنين، ويحتمل أن يكون هذا من هوامش الأصل لا من معارضته هو على نسخة أخرى، ولم نجد ما يدل على أصله الذي انتسخ منه.

ويظهر أن الناسخ كان عجلا في كتابة هذه النسخة، ولا أدل على ذلك من كثرة السقط والضرب والبياض في النسخة، بل الخطأ في اسم مؤلف الكتاب!

وبين هذه النسخة ونسخة (ل) تشابه ظاهر، فربما انحدرا من أصل واحد، ومن دلائل ذلك: اشتراكهما في مواطن كثيرة من اللحق، فمثلا في (ب: ق٧٧، ول: ق٢٣٥) وكذا اشتراكهما في مواضع البياض وقدره، كما في (ب: ٨٠، ل: ٢٣٨).

٨. نسخة المتحف البريطاني (ح):

محفوظة فيه برقم (١٠٦٠٧/١)، وهي جزءان، تَوفّر بين أيدينا الجزء الثاني منهما، وهو يمثّل الثلث الأخير من الكتاب، وينتهي قبل نهاية الكتاب بنحو مائة ورقة، وعدد أوراقه (٧٨) ورقة، في كل ورقة لوحتان، في كل لوحة

(٢٦) سطرًا.

وهذه النسخة كتبت بخط نسخ دقيق، ولم يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، ويظهر أنها تعود للقرن الثاني عشر. والله أعلم.

وجاء في أعلىٰ الصفحة الأولىٰ: الجزء الثاني من كتاب الرد علىٰ النصارىٰ المسمىٰ بالجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .... (كذا؛ إشارة لسقط) عليه الصلاة والسلام، تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم.

وفي آخرها عبارة قريبة.

وهذه النسخة كثيرة الخروم والسقط الطويل الذي يتجاوز عشرات الأوراق، فهي بما بقي منها قد لا تُمثِّل سوىٰ سدس الكتاب، وفي أولها اضطراب في ترتيب صفحاتها.

ومما يظهر في هذه النسخة جليًا إثقال الهوامش بكثرة احتمالات القراءة للألفاظ، مع كتابات ليست قليلة بلغة إنجليزية، وتكون عند مواضع السقط غالبًا، وكأنها إشارة إلىٰ السقط ومقداره.

وهذه النسخة تسير ونسخة الإفتاء في صف واحد، أو هما من أصل واحد، لكثرة توافقهما عند اختلاف النسخ في القدر المشترك بينهما من الكتاب.

٩. النسخة النعمانية (ع):

استكتب هذه النسخة نعمان الآلوسي كما سيأتي. وهذه النسخة جزآن وتمثل كامل الكتاب، إلا أن الذي وجد هو الجزء الأول منها ويقع في (٢٩٣ ورقة) وهي تمثل المجلدين الأولين من طبعتنا، أي نصف الكتاب.

وقد كُتِبت كما صرَّح ناسخها في آخر النسخة في دمشق سنة (١٣٠١هـ) بقلم: رسلان العطار، الشهير بالكلاس الدمشقي. وقد أشار الناسخ في آخر الجزء الأول إلىٰ أنه يليه الجزء (الثاني) أوله: «فصل قالوا: وقال أيضًا في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾».

والنسخة حالتها ممتازة، وهي قليلة السقط والخطأ. في كل صفحة منها خمسة وعشرون سطرًا، في كل سطر نحو عشر كلمات، مكتوبة بخط واضح جميل.

كتب علىٰ صفحة العنوان: «كتاب بيان **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، تأليف شيخ الإسلام مفتي فرق الأنام مظهر سنن المرسلين وقامع الكفرة والملحدين الإمام العلامة **أبي العباس** تقي الدين **أحمد بن عبد الحليم** بن عبد السلام **ابن تيمية الحنبلي الحراني الدمشقي** عليه الرحمة».

وكتب بجانب العنوان: الكراس أول من كتاب «رد النصارىٰ» للشيخ ابن تيمية الحنبلي عليه الرحمة.

وكتب العلامة نعمان الآلوسي في أسفل الورقة من يسارها: «هذا الكتاب يوجد منه أيضًا نسخة في المكتبة المقابلة لجامع الحميدية قرب الجسر في إسلامبول المحمية، لكنها قطعة، وناقصة، نمرة ٧٣٢». ولعله يشير إلىٰ نسخة مكتبة يني جامع (ي) المتقدم وصفها.

وكتب تحتها ما يلي: استكتبه العبد الفقير إليه سبحانه **نعمان ابن السيد محمود أفندي الشهير بآلوسي زاده مفتي بغداد** غفر لهما الجواد، وذلك سنة (١٣٠١هـ).

والظاهر أن هذه النسخة مأخوذة عن نسخة دار الكتب المصرية (د) فهي تطابقها إلىٰ حد كبير في جملة الاختلافات الواقعة، وكذلك في السقط والتصحيف والتكرار، ولغير ذلك من القرائن كوجود بعض التعليقات في هامش (د) فتجدها بنصّها هنا، وقد تكرر هذا في أكثر من موضع. ومن الأدلة الظاهرة: وجود سقط كبير في (د) وكتب في هامشها: (يتلوه في وريقة) ولم يوجد الكلام فيها، وهي كذلك هنا سواء بسواء.

كذلك من المرجحات أنه قد كتب في هامش هذه النسخة: (بياض في الأصل) وهو كذلك في (د). ثم كُتِبَ في هامشهما ذات النص، وهو قوله: «ولعله: فلما رآه النبي ﷺ ساكتًا لا يتكلم أنشده. أو نحو هذا» ولم يوجد هذا النص في سائر النسخ.

وللعلامة نعمان الآلوسي تعليقات قليلة متفرقة بخطه علىٰ هذه النسخة، وقد راجع بعض المواضع المشكلة علىٰ نسخة أخرىٰ في إسطنبول، لعلها نسخة يني جامع المشار إليها آنفًا، كما قال في موضع: «أقول: قد راجعتُ نسخةً مصحَّحةً في إسلامبول، فوجدتها محرَّرة مثل هذا الكتاب».

١٠. نسخة الإفتاء (ف):

وهي نسخة كانت ضمن مكتبة الرياض العامة بالمملكة العربية السعودية برقم ٤٤٢، ثم آلت إلىٰ مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

وتقع في ١١٠ ورقات، ٢٢٠ صفحة بحسب الترقيم علىٰ النسخة.

وهي تمثل الجزء الأخير من الكتاب، كما كتب علىٰ الورقة الظهرية: «الجزء الأخير من الرد علىٰ النصارىٰ، تأليف فاروق زمانه وصديق أوانه شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية قدس الله روحَه». ثم كتب مقابلا لهذا الكلام: من كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

وتمثل هذه النسخة نحو ثلث الكتاب، فتبدأ من طبعتنا من ٣/ ٥٠٧ إلىٰ آخر الكتاب. عدا الزيادات التي في نسخة الظاهرية.

وعلىٰ الورقة ختمان، الأول للشيخ محمد بن عبداللطيف آل الشيخ، وختمٌ آخر لمكتبة الرياض العامة مؤرخ بـ ٢٣/ ٦/ ١٣٩٢هـ. ويبدو أنها آلت إليها إهداء من الشيخ محمد بن عبداللطيف.

وفي أعلىٰ الصفحة تملّك نصه: تملّكه العبد الفقير إلىٰ الله محمد بن عبداللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ.

وعلىٰ الغلاف فوائد متعدد عن ابن الجوزي.

كتبت النسخة سنة ١٢٧٦ كما جاء في آخرها بخط أحمد بن إبراهيم بن عيسىٰ، في شهر ربيع الأول من السنة.

والنسخة معتنىٰ بها، كما يظهر في الطرر قيود المقابلة والتصحيح والاستدراك وغيره. وكتب في آخرها في حرد النص: بلغ مقابلة بحمد الله تعالىٰ علىٰ أصله.





طبعـات الكتـاب وتقويمها

للكتاب طبعات عديدة، وقد طبع مبكرًا قبل أكثر من مئة وخمسة عشر عامًا، وسنعرض هنا للكلام علىٰ أربع طبعات، بدءًا بأقدمها، ثم ما أضاف جديدا إلىٰ ما قبله، مع بيان أهم الملاحظات علىٰ تلك الطبعات علىٰ وجه الإيجاز:

(١) **طبعة النيل**: وهي أولىٰ طبعات هذا الكتاب، حيث طبعت عام ١٣٢٢هـ-١٩٠٥م، بمطبعة النيل بمصر، في أربعة أجزاء، وكان ذلك بمعرفة فرج الله زكي الكردي، والشيخ مصطفىٰ القباني الدمشقي.

وقد ذكرا بأنهما تحصّلا ـ بعد بذل غاية الجهد ـ علىٰ نسخة من أجزاء متفرقة للكتاب بعد أن كاد الكتاب يُفقد، ولا تكاد توجد نسخة كاملة له في قطر من الأقطار. وتحصَّلا علىٰ الأجزاء المذكورة من بعض الأعيان في بغداد ومصر، بعضها مقروء علىٰ المؤلف، وبعضها عليه قراءة للحافظ ابن حجر.

وهذه الطبعة موافقة في الجملة لنسخة دار الكتب المصرية (د)، لكنها مع ذلك انفردت عن جميع النسخ بزيادات في مواضع كثيرة، بزيادة كلمة أو كلمتين، وهو الأكثر، وربما كانت الزيادة نحو سطر، اعتمادًا علىٰ نسخة المكتبة التيمورية علىٰ ما مضىٰ استظهاره.

كما اعتمدت طبعة النيل علىٰ نسخة عبد الرحمن الكيلاني (١٨٤١ - ١٩٢٧) نقيب أشراف بغداد الذي ذكرته بلقبه ولم تسمّه في خاتمة الطبع، ويبدو أنها نسخة قديمة وعليها خط السفاريني.

وقد تميزت هذه الطبعة بقلة السقط فيها فلا تكاد تجد ذلك إلا في مواضع قليلة جدًّا، لكنها خلت من الخدمات التي تعين علىٰ قراءة النصّ والإفاده منه؛ فلم توثّق نصوص الكتاب، ولم يضبط ما يحتاج ضبط، ولم تخرج الأحاديث ولا الآثار، ولا ما يتبع ذلك من نصوص الإنجيل، وكذلك فإن الكتاب يخلو من تفقير النص وعلامات الترقيم وما إلىٰ ذلك من وجوه الخدمة.

وأما الفهارس العلمية فقد خلت منها هذه الطبعة، وليس فيه سوىٰ فهرسة تتعلق بفصول الكتاب، حيث يعنونُ بـ (فصل) ثم يُنقل بجانبه أول الكلام الوارد تحت الفصل. وقد يصل الكلام المنقول في الفهرس إلىٰ اثني عشر سطرًا.

(٢) **طبعة المدني**، سنة ١٣٧٩هـ في مجلدين مجموع صفحاتهما ١٤١٢ صفحة، قدم له وأشرف علىٰ طبعة علي السيد صبح المدني.

قدم للكتاب مقدّمةً مقتضبة فيها تعريفٌ بالكتاب من حيثُ اسمُه، وسبب تأليفه، ومنهجه، ومضمون الكتاب، في نحو ثلاثِ صفحات.

ثم قسّم الكتاب إلىٰ أربعةِ أجزاء، بناءً علىٰ أربعةِ عناصرَ كان قد أثبتها في مبحث مضمون الكتاب.

ثم فصّل ما احتوىٰ عليه كلُّ جزءٍ من الأجزاء الأربعة، فذكر في الجزء الأول أنّ المؤلّف ردّ علىٰ الدّعاوىٰ ودحَض الأباطيل. ونقلَ نقولا تبين ذلك في نحو ست صفحات.

ثم ابتدأ الكلامَ عن الجزء الثاني، وذكر كذلك فيه ردّ المؤلّف علىٰ بعض الدَّعاوىٰ، مع نقله لبعض النقول في نحو أربع صفحات. وكذلك صنع في الجزء الثالث.

وفي الجزء الرابع: ابتدأ فيه بالنقْل عن المؤلف بذكر بعض نقول الأنبياء، ثم ذكر أن المؤلّف انتقل من التمهيد إلىٰ صلب الدعوىٰ، ثم ختم ذلك بالأدلة الدّالة علىٰ صدق الرسول ﷺ.

لم يذكر المعتنون بهذه الطبعة أنهم قد تحصَّلوا علىٰ نسخٍ خطية أو مطبوعةٍ اعتمدوا عليها في إخراج هذا الكتاب، ولم يذكروا اختلافَ النسخ في ثنايا الكتاب وصفحاته إلا نادرا جدا، فذكروا في (١/ ٣٥) اختلاف عبارة أحالوا فيه إلىٰ (المطبوعة الأولىٰ)، وبالرجوع إلىٰ طبعةِ النيل تبيَّن أنها هي المقصودة.

وأما الاختلاف الثاني ففي (٢/ ٢٩٤)، فقد ذكروا أن العبارة الأخرىٰ في (نسخة أخرىٰ)، ولم يذكروا ما هي النسخة التي اعتمدوا عليها، إذ الخلاف المذكور كانت عليه جميع الأصول التي بأيدينا.

والذي يظهر من صنيعهم أنهم اعتمدوا علىٰ طبعة النيل في مقابلة ما أخرجوه، والذي رجّح ذلك أمور:

منها: متابعةُ طبعةِ المدني لمطبوعة النيل فيما وقفنا عليه من الأخطاء والزيادات والتحريفات التي انفردت فيها عن الأصول.

ومنها: مطابقةُ طبعة المدني لمطبوعة النيل في تقسيم الكتاب إلىٰ أربعة أجزاء.

ومنها: انتهاء كل جزء من طبعة المدني عند ذات النص الذي انتهت إليه مطبوعة النيل.

ومنها: مجاراةُ نصوصِ صفحات طبعةِ المدني وأرقام صفحاتها لمطبوعة النيل وأرقامها، ولم يقع إلا اختلاف قليل في الفرق بين أرقام الصفحات.

إلّا أن طبعة المدني قد زادت علىٰ طبعة النيل بوضعِ عناوينَ - ليست في الأصول - مع كل فصل من فصول الكتاب، وهذه العناوين هي التي وضعت فهارس موضوعية للكتاب في آخر كل جزء.

وقد حاول الذين اعتنوا بالكتاب تقسيمَ وتفقيرَ نصوص الكتاب، وقد فعلوا ذلك في كثير من صفحاته، وتركوا كثيرًا. وكذلك يقال في علامات الترقيم.

(٣) **طبعة دار العاصمة**: وهي ثلاث رسائل علمية لنيل درجة الدكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. أعدَّها: علي بن حسن عسيري، وعبدالعزيز العسكر، وحمدان الحمدان، عام ١٤٠٦ و ١٤٠٧هـ، ثم طبعت في دار العاصمة ١٤١٩ -١٩٩٩ في ٧ مجلدات مع الفهارس.

وقد اعتمدوا في المقابلة علىٰ أربع نسخ خطية، واحدة منها تمثل الكتاب كاملًا، وهي نسخة دار الكتب المصرية التي رمزنا لها بحرف (د)، والنسخ الثلاثة الباقية هي: نسخة «طوب قابي سراي» المشارة إليها عندنا بحرف (و) ونسخة «يني جامع» بإسطنبول، ورمزها عندنا حرف (ي). ونسخة «مكتبة جامعة ليدن» ورمزنا لها بحرف (ل). بالإضافة إلىٰ اعتمادهم كذلك علىٰ نسخة مطبوعة، وهي طبعة المدني التي طبعت عام ١٩٦١م، وقد أشاروا إلىٰ أنها

مطابقة لطبعة النيل التي تقدّمتها بنحو خمس وخمسين سنة عام١٩٠٥م، ولا ندري لماذا تركوا الرجوع إلىٰ طبعة النيل مع أنها الأصل.

وقد ذكر محققوها أن هذه الطبعة قد لاقت من التحقيق والضبط وخدمة النص درجة كبيرة يظهر من خلالها الفرق الشاسع بين الكتاب في طبعته القديمة وهذه الطبعة.

ولا شك أن الباحثين قد بذلوا جهدًا مشكورًا في إخراج هذا الكتاب، خاصة فيما يتعلق بتوثيق النقل عن العهد القديم والجديد، وترجمة أعلام النصارىٰ، وكذلك فيما يتعلق بتقسيم النصّ إلىٰ فقرات، وجعل عناوين عند كل فصل توضح مضمونه في الجملة، وتضمين المقدمة عرضًا لمحتوىٰ الكتاب.

إلا أنه قد كثر الخلل في هذه الطبعة من جهات متعددة، سواء فيما يتعلق بقراءة النصّ، أو فيما يتعلق بالتعليقات.

أما فيما يتعلق بقراءة النص:

فقد وقع السقط والتحريف والتغيير والإضافة في مواضع كثيرة جدًّا، فمن أمثلة السقط:

- في (١/ ١٢٥) سقط قوله: «قبل أن يُعْلَم ما يذكره، وقد يُعْلَم ما يذكره قبل أن يُعْلَم صدقُه أو كذبه».
- في (١/ ١٦٢) سقط قوله: «وإن قالوا: نحن مقصودنا بيان تناقضه، وأن كلامه ينقض بعضه بعضًا. قيل: فهذا أيضًا يستلزم أنه ليس رسولًا صادقًا، فلا يصحُّ لكم الاحتجاج بشيءٍ من قوله علىٰ هذا التقدير، وإن كنا نحن نبيِّن أنه ولله الحمد قوله يصدِّق بعضه بعضًا، وكذلك يصدِّق قول الأنبياء قبله،



وأن قول الأنبياء كلهم يوافق صريح العقل، فلا يتناقض شيءٌ من الحقِّ المعلوم بسمعٍ أو عقل».

- في (٢/ ٣٧٧) سقط قوله: «في موضعين» بعد سياق آية المائدة.
- في (٣/ ١٧٥) سقطت عبارة: «كان عن هوىٰ» في قوله: «لأن أصل ابتداعهم هذه البدعة كان عن هوىٰ من أنفسهم مع ظن كاذب».

ومن أمثلة التحريف:

- في (٣/ ١٨٤): ما يناقض صريح النقل. وهي في جميع النسخ: **العقل**.
- في (٣/ ١٩٤): والمراد بالابن عنده المسيح الذي رباه. في جميع النسخ: عبده.

وقد يجعلون الكلام ساقطًا وهو مثبت إما في الأصل أو في الهامش. وقد يكون نفي السقط المزعوم أسطرًا. وكثيرًا ما يقع هذا معهم في نسخة دار الكتب المصرية.

مثل ما ورد في (٣/ ٣١٠) قوله: «فهذا أشد استحالة، وليس فيهم من يقول بهذا». فقد زعم المحقق سقوطها من نسخة دار الكتب. وهي ليست كذلك.

وكذلك قوله في: (٣/ ١٧٧) (وكان اليهود قد أسرفوا في ذم المسيح عليه السلام). قال في الحاشية: كلمتا (ذم) و (عليه السلام) ساقطتان. والصواب أنها مثبتة.

وقد وقع كذلك منهم عكس ما فعلوه في الفقرة الماضية فيثبتون ويضيفون كلمات ليس لها وجود في جميع النسخ. كإثباتهم (هل) في

(٣/ ٣٠٣): (هل هو صفة قائمة بغيرها). حيث زعم أن: (هل) ساقطة من (ط) فقط. وأنها مثبتة في جميع النسخ المخطوطة!

وكإثباتهم (قال) الثانية، كما في (٣/ ٢٦٠): «كما قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ...﴾. وهي ليست في جميع النسخ.

وربما وقع خلط كبير وحذف وتقديم وتأخير في مواضع من بعض النسخ ولم يشيروا إليه. مثل قوله في: (٣/ ٢٧٤): «فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح... إلىٰ قوله: قد اتحد به أقنومان». وهو بمقدار خمسة أسطر.

وأما ما يتعلق بالتعليقات والتخريج:

۞ فقد أخذ عليهم إثقال الحواشي بكثير من الفروق التي لا تؤثر.

۞ وكذلك إطالة الحواشي بالتخريج بما لا طائل تحته، كأن يكون الحديث في الصحيحين أو أحدهما: انظر: (٢/ ٣٨٢)، (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، (٢/ ٤٣٥)، (٢/ ٤٤٦-٤٤٧)، (٣/ ١٠٤-١٠٥)، (٣/ ١٦٠)، (٣/ ١٦١-١٦٢)، (٣/ ٢٦٧).

۞ أو بالتعليقات الطويلة التي لا تناسب المقام: انظر: (٢/ ٣٩٥). (٢/ ٣٩٩)، (٢/ ٤١١)، (٢/ ٤١٣-٤١٤) (٢/ ٤٢١)، (٢/ ٤٣٦)، (٢/ ٤٤١)، (٢/ ٤٥٠)، (٣/ ٢٩).

۞ أو بالإسهاب في تعريف بعض الفرق، أو المواضع المعروفة كمصر أو العراق، أو الأعلام المشهورين كالبخاري وأحمد بن حنبل وابن معين... الخ: انظر: (٢/ ٤٠٣-٤٠٥)، (٢/ ٤٤٣-٤٤٥)، (٣/ ١٦)،

(٣/ ٢٣)، (٣/ ٩١)، (٣/ ١٤٣)، (٣/ ١٦٨)، (٣/ ١٧٧)، (٣/ ١٨٧)

۞ والتكرار قد وقع كثيرًا في الحواشي سواء في تراجم الأعلام، أو تخريج الأحاديث، أو الفرق، أو غيرها، وبعضها قد يتكرر في ثلاثة مواضع:

انظر: (٣/ ١٤٥)، (٣/ ١٦١)، (٣/ ١٦٨)، (٣/ ١٦٩)، (٣/ ١٧١)، (٣/ ١٧٥-١٧٦)، (٥/ ١١٠)، (٤/ ٣٠٣)، (٣/ ٢٢٣)، (٤/ ٣٠٧).

۞ وقد تزاد بعض الكلمات أو العبارات في الأصل معلّلين ذلك بأن العبارة لا تستقيم بدونها. والأمر ليس علىٰ ما قاله المحقق.

كقولهم في (٣/ ٣٦٥): «بل لم تخصه إلا بما خصه الله به علىٰ لسان محمد في قول الله تعالىٰ...» وهي بدل قوله «بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد ﷺ في قوله...» هكذا زاد المحقق في عبارته معلّلًا بأن عبارة الأصل تحيل المعنىٰ وتجعل الآية منسوبة للنبي ﷺ!

۞ ومما يؤخذ عليهم تركهم الإحالة إلىٰ كثير من المواضع التي ذكر المصنف أنه بحثها أو تكلم عليها في مواضع أخرىٰ.

➢ جرىٰ المحققون في إثبات الآيات القرآنية علىٰ رواية حفص من طريق عاصم ابن أبي النجود الكوفي، بينما كانت القراءة المثبتة في النسخ الخطية علىٰ قراءة أبي عمرو البصري، وهي القراءة التي كان يقرأ بها المصنف وأهل الشام في عصره.

(٤) **طبعة مكتبة البيان**، عناية د. سفر بن عبدالرحمن الحوالي، في مجلدين ضخمين، طُبعت عام ١٤٣٢هـ، ذكر في المقدمة أنه اعتمد علىٰ طبعة دار العاصمة في إثبات النص دون الرجوع لأيّ من النسخ الخطية.

- قدّم لها بمقدّمة في نحو سبعين صفحة، ابتدأها بعرضٍ موجزٍ للبداية التاريخية لعداوة النصارىٰ وجهود المنصِّرين، ذاكرًا تحتَ هذا العنوان أربعة مباحث:
- تحريف العقيدةِ النصرانية.
- نشر الديانة النصرانيّة في أوربا.
- تحريف الدين النصرانيّ ونشرُه في العالم الإسلامي.
- جهود التنصير قديمًا في الدخول إلىٰ الجزيرة العربية.
- ثم عرّف بالمؤلف والكتاب، مبيّنًا في تعريفه للمؤلف تمكُّنه من انتقاد الفكر اليوناني وتفوّقَه فيه، وبراعةَ أساليبِه في كشف انحرافاتِهم وضلالاتهم.
- ثم ذكر سببَ تأليف الكتاب، وعرَضَ خصائصَه وما تميَّز به في تسعة نقاط.
- ثم نقل المحقِّقُ نقولا من الكتاب تحت خمسةَ عشرَ عُنوانًا في نحو ثلاثَ عشْرةَ صفحة، مبيّنًا سبب هذه النقول في كونه قد رأىٰ كثيرًا من العلماء وطلبة العلم قد عزَفوا عن قراءة هذا الكتاب؛ لظنّهم أنّه يتعلّق بالأقانيم والصَّلْب وفرقِ النصارىٰ ونحوِها من الأمور التي قد لا يحتاجها إلّا المتجرِّدُ في الردّ عليهم= فأورد المحقّق هذه النقول ليبيّن غزارةَ ما في هذا الكتاب من العلم وتنوّع موضوعاتِه.
- ثم ذكر أنه بذل الجهد في جمع الفقراتِ التي تتحدّث عن موضوع واحد في مكان واحد، ذاكرًا أرقامها كلًّا بحسب موضوعه، آخذةً بذلك نحوَ نصف المقدّمة.

- وأخيرًا بيَّن المحقق عمله في الكتاب، وأنه قسّمه حسب المواضيع العامّة إلىٰ مجلدين، وقام بترقيم فقرات الكتاب حسب الموضوع وجعلها في عناوين جانبية، وقام بتخريج الآيات والأحاديث والآثار، وعرّف بالأعلام والفرق.

*** بعض المآخذ علىٰ الطبعة:**

- لم يعتمد المحقّق علىٰ نسخٍ خطيةٍ للكتاب، فقد ذكر أنه اعتمد علىٰ طبعة «دار العاصمة» التي تقدّم الكلام عنها، وقام بمقابلة أجزاء من الكتاب علىٰ بعض المصوّرات. فجاء الكتاب بطبيعة الحال تابعًا لجملة ما وقعت فيه طبعة دار العاصمة من سقط أو تحريفٍ أو زيادة.
- عدمُ بيانِ درجةِ صحةِ وضعفِ كثيرٍ من الأحاديث، مع تَكْرَارِ تخريج كثيرٍ منها.
- عدم ضبط الأبيات الشعرية، وإغفال عزوها إلىٰ قائلها.
- عامة المواضع التي ذكر المؤلف أنه قد بسطها أو بحثها في موضع آخر لم تجر الإحالة إلىٰ مواضع بسْطِه فيها، سواء في نفس الكتب أو في كتبه الأخرىٰ.



منهج التحقيق

- اعتمدنا طريقة النص المنتخب من النسخ الخطية؛ وذلك لتقاربها في الجودة، ونسخة «دار الكتب» وإن تميزت بكون أصلها مكتوبًا في حياة المصنف ومقروءًا عليه، غير أن الباقي من تلك النسخة النفيسة أقل مما فُقد منها، فضلًا عما اعتراها من آفات وعلل.

وأما المجلد الرابع فقد اعتمدنا علىٰ النسخة (ظ) وهي نسخة المكتبة الظاهرية، التي نسخها ابن المحب من أصل عمه أبي إسحاق، وقد نقلها عمه من نسخة المصنف، فهي نسخة في غاية الصحة والإتقان.

- أشرنا إلىٰ مواضع السقط والفروق بين النسخ غالبًا، واكتفينا بما له أثر وفائدة، أو نماذج من التصحيف أو التحريف الواقع في النسخ، وكذا الطبعات السابقة خاصة (النيل، والعاصمة) أشرنا إلىٰ ما وقع فيها من أخطاء أو سقط أو زيادات مقحمة ليست في النسخ الخطية.

وحيثما أطلق (المطبوع) فإنه ينصرف إلىٰ طبعة العاصمة، و(المطبوعتان) إشارة إلىٰ النيل والعاصمة.

- وثقنا نصوص أهل الكتاب من «الكتاب المقدس» عندهم، بذكر عنوان السِّفر ورقم الإصحاح والعدد، مع المقارنة بين النسخ، والإشارة إلىٰ اختلاف الترجمات حال تعارضها، لاسيما إذا كانت الترجمات الحديثة لا تتوافق مع النص الذي نقله المصنف.
- ترجمنا لأعلام النصارىٰ من مراجعهم المعتمدة، ورجعنا إلىٰ المصادر الأجنبية (الإيطالية والإنجليزية) وترجمنا ما يُحتاج إليه منها.
- عرَّفنا بالأعلام والأماكن والمصطلحات ــ باختصار ــ عند الإبهام أو الاشتباه أو الغرابة.

- ضبطنا ما يحتاج إلىٰ ضبط من نصوص الكتاب وأسماء الأعلام والأماكن والمصطلحات.
- أشرنا إلىٰ ما في الأصول الخطية من زيادات، ولحق، وحواش، وتتمات.
- تتبعنا مصادر المؤلف المختلفة، سواء التي نص عليها أو التي لم ينص، مع عزو الأقوال المنقولة منها وتوثيقها، ومعارضة ما نقله المصنف بالأصول التي صدر عنها وتقييد الفروق المهمة إن وجدت.
- وإحالة المسائل إلىٰ المواضع الأخرىٰ في كتب المؤلف التي توسّع فيها أو أضاف إليها إضافة مهمة.
- جرينا في تخريج الأحاديث علىٰ الإيجاز والتوسط، والاكتفاء بعزوها إلىٰ الصحيحين إن كانت فيهما، مع بيان الحكم عليها صحة وضعفًا ـ إن كانت في غيرهما ـ بنقل أحكام الأئمة المحققين، بعد تخريجها دون استقصاء.
- راعينا تقسيم المؤلف لكتابه وترتيبه له، ولم نضف عناوين جديدة للفصول ولا للفقرات.
- اعتنينا بتوزيع النص ووضع علامات الترقيم من النقط والفواصل وغيرها.

- وبالنسبة للأصلين (ب)، (ل) فالتشابه بينهما كبير جدًّا، حتىٰ إنه ليخيل للقارئ أنهما ينقلان من أصل واحد، ومن شدة التشابه بينهما: اشتراكهما في مواطن كثيرة في مواضع اللحق، وكذا اشتراكهما في مواضع البياض وقدره، كما في (ب: ٨٠، ل: ٢٣٨). فحصلت المقابلة علىٰ النسخة (ب) كاملة، ومواضع منتقاة من (ل).

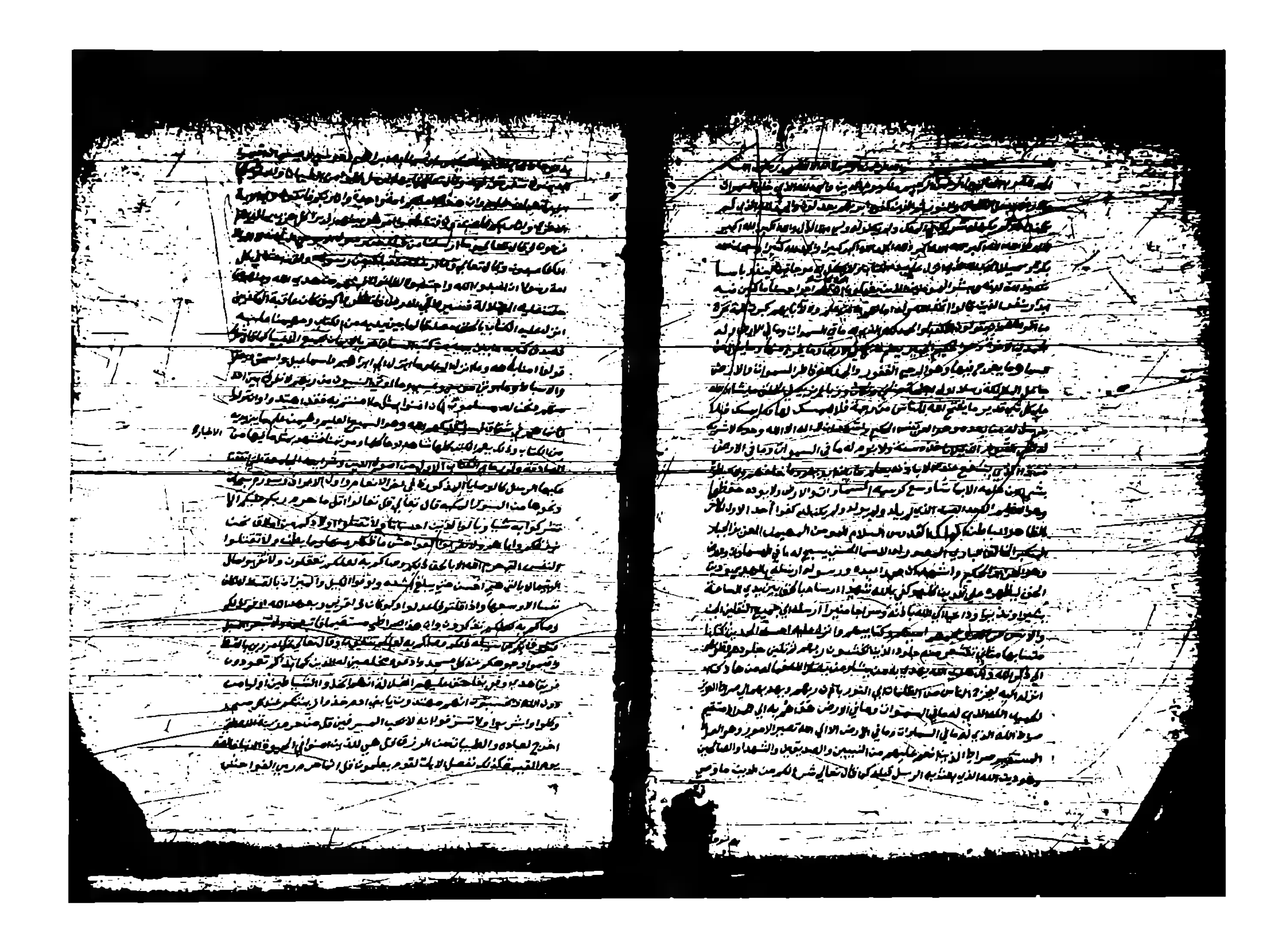
وأما التشابه ـ إلىٰ حد التطابق ـ بين نسخة دار الكتب المصرية المرموز لها (د) وبين طبعة النيل التي طبعت سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٥م، فلا يخفىٰ علىٰ الناظر فيهما.

وتمتاز النسخة (د) بأنها جمعت كل ما زادته النسخ علىٰ بعضها البعض، إلا أنه أحيانا لا يفرق في هذه الزيادات بين ما ثبت منها، وما ضرب عليه في الأصل المنقول منه.

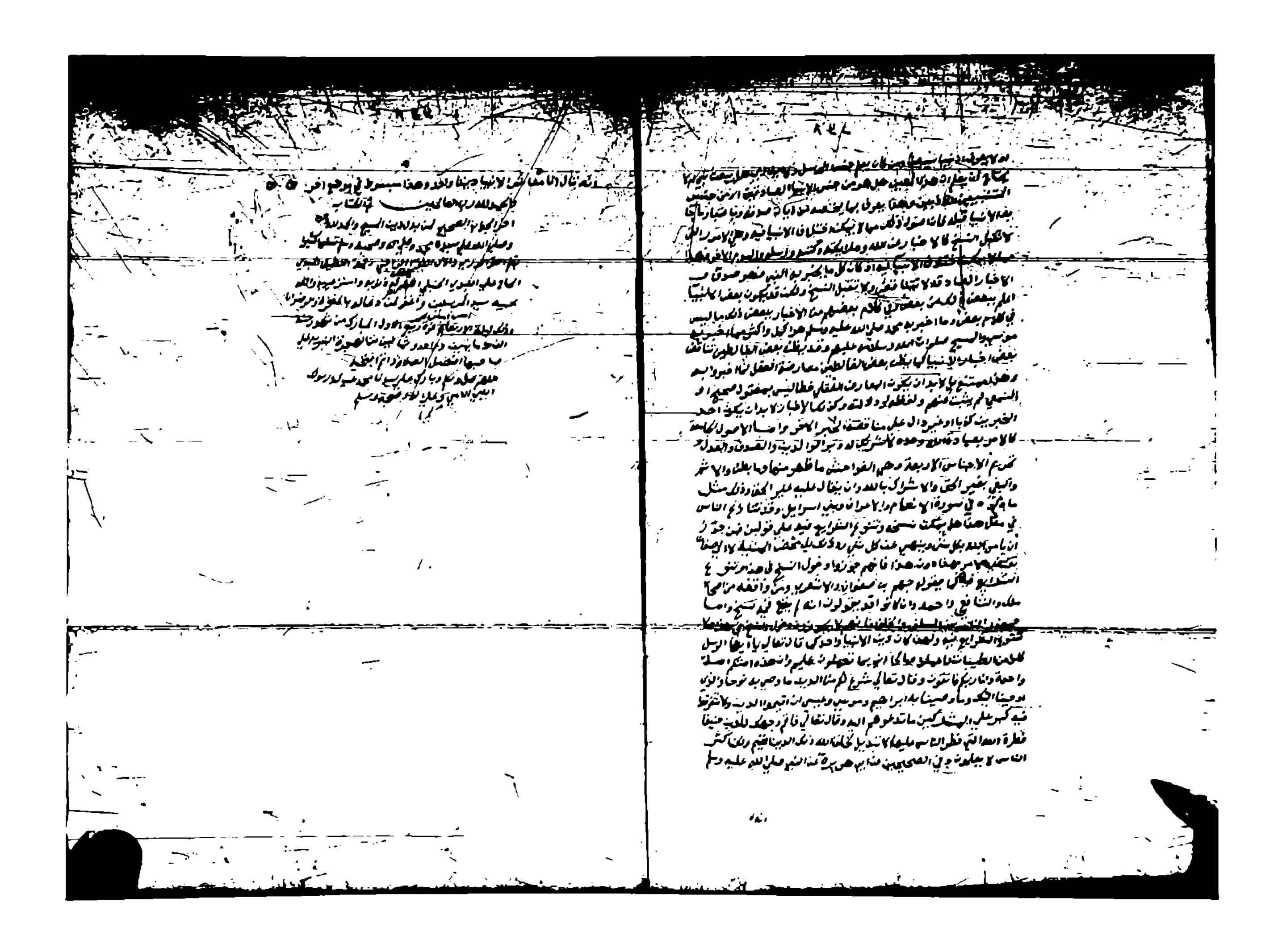
والله الموفق.



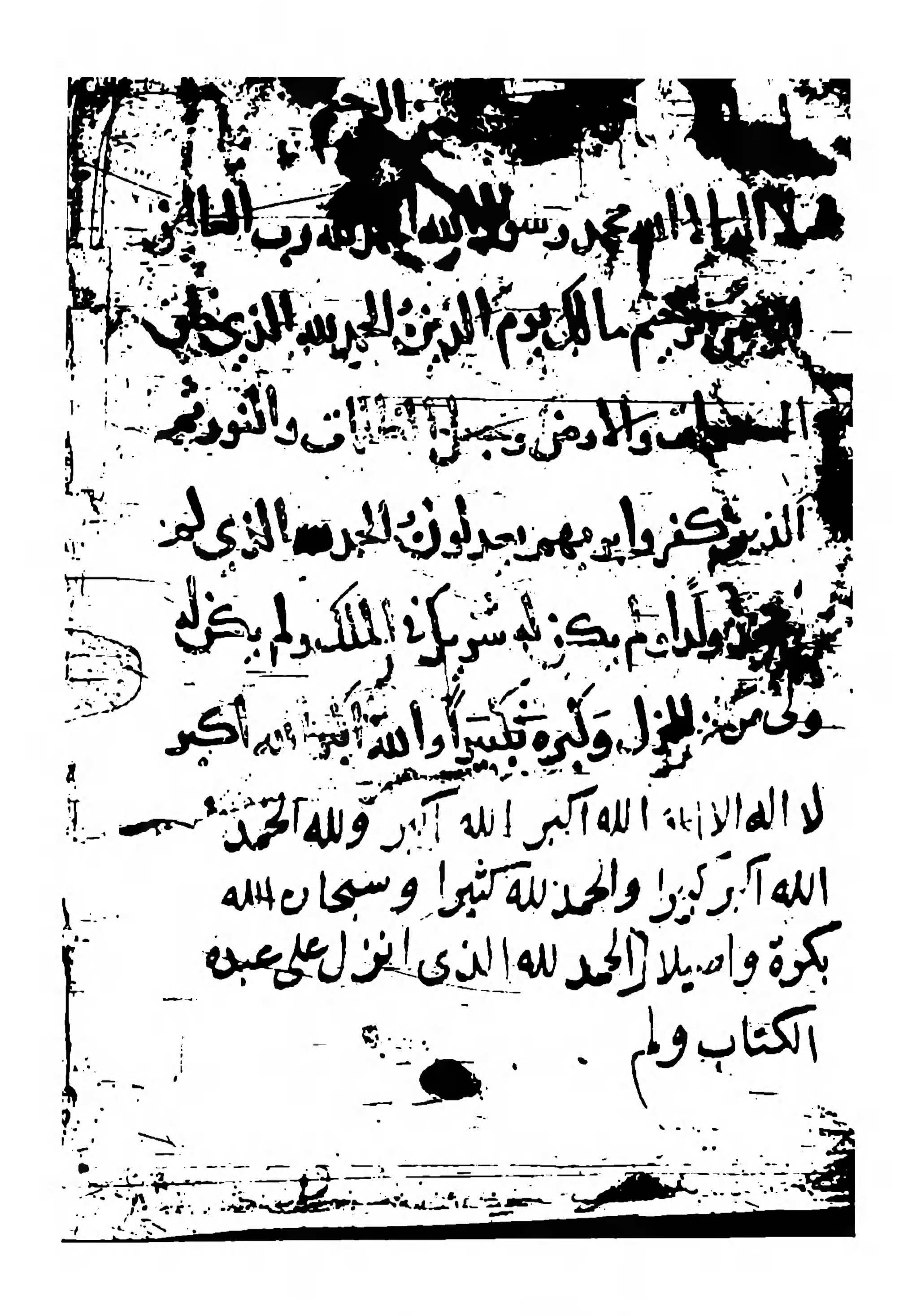
نماذج من النسخ الخطية



الورقة الأولى من نسخة دار الكتب (د)



الورقة الأخيرة من نسخة دار الكتب (د)



... الرحيم

... لا اله الا الله محمد رسول الله الحمد لله رب العالمين

الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الحمد لله الذي خلق

السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم

الذين كفروا بربهم يعدلون الحمد لله الذي لم

يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له

ولي من الذل وكبره تكبيرا والله اكبر [illegible] اكبر

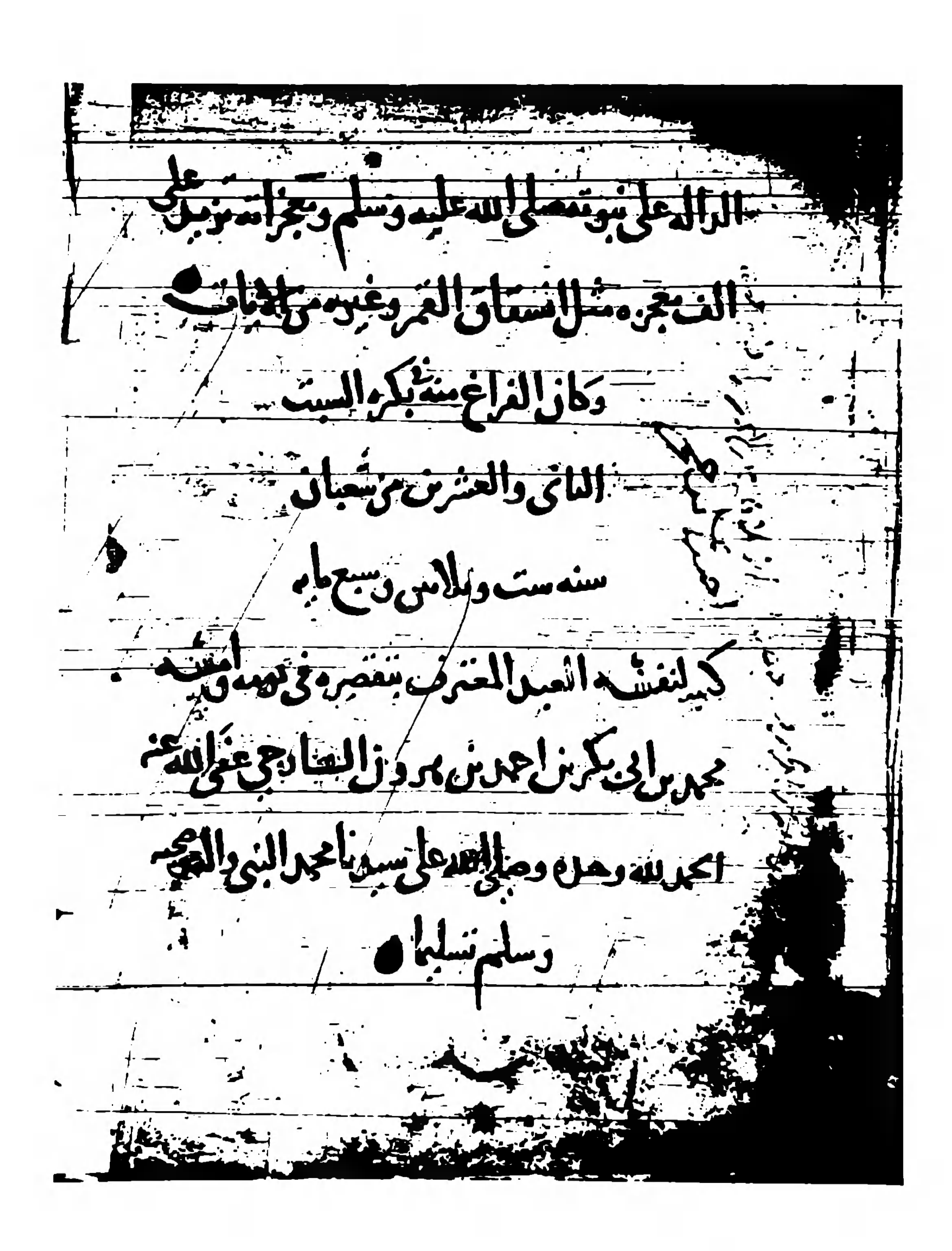
لا اله الا الله الله اكبر الله اكبر ولله الحمد

الله اكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله

بكرة واصيلا الحمد لله الذي انزل على عبده

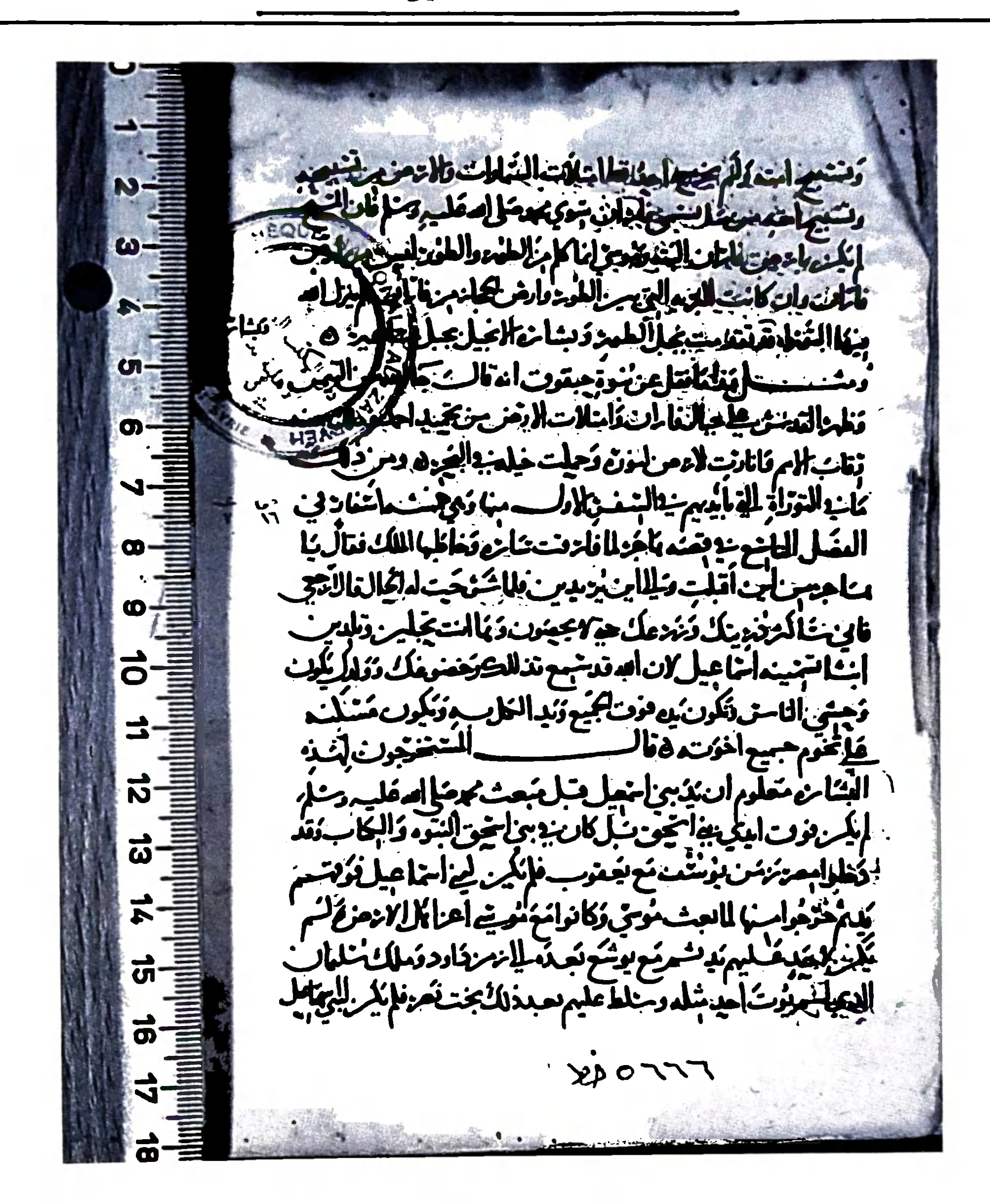
الكتاب ولم

الصفحة الأولى من النسخة التيمورية (ت)



الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم وتجرا منه نيف على
ألف معجزة مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات
وكان الفراغ منه بكرة السبت
الثاني والعشرين من شعبان
سنة ست وثلاثين وسبعمائة
كتبه لنفسه العبد المعترف بتقصيره في يومه وأمسه
محمد بن أبي بكر بن أحمد بن مروان الفارجي عفى الله عنه
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه
وسلم تسليما

الصفحة الأخيرة من النسخة التيمورية (ت)



الورقة الأولى من النسخة الظاهرية (ظ)

الورقة الأخيرة من النسخة الظاهرية (ظ)

الورقة الأولى من نسخة المتحف البريطاني (ح)

يزيد على عشرات الالوف من الكلمات وهذان غيرهما في كتب اهل الكتاب من الاخبار به وهذا الاخبار
الثلاثة غير ما في شريعته التي بعث بها وغير مشاهد امته
ومن ايات الانبياء اهلاك الله لمكذبيهم ونصره المؤمنين بهم فهذا من اعلام نبوتهم ودلايل
صدقهم كما اغرق الله قوم نوح لما كذبوه

الجزء الثاني من كتاب الرد على النصارى المسمى بالجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
وعليه الصلاة والسلام تاليف شيخ الاسلام بركة الانام الامام
العلامة اوحد عصره وفريد دهره النبوية والملة الحنيفية بالايات
الزاهرة والبراهين العقلية ما خفي من اثار المرسلين ومانع الكفرة
المبدعين والمارقين ابي العباس احمد بن عبد الحليم

carte n.° 58

الورقة الأخيرة من نسخة المتحف البريطاني (ح)

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، والحمد لله الذي خلق السموات
والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، والحمد لله الذي
لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل والله اكبر الله اكبر
لا اله الا الله والله اكبر الله اكبر ولله الحمد الله اكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله
بكرة واصيلا، الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر
باسا شديدا من لدنه ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات ان لهم
اجرا حسنا ماكثين فيه ابدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم
ولا لابائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا، والحمد لله الذي
له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج في الارض
وما يخرج منها وما ينزل من السما وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور، الحمد لله فاطر
السموات والارض جاعل الملايكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في
الخلق ما يشا ان الله على كل شي قدير ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما
يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له الحي القيوم الذي لا تاخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي
يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشي من علمه
الا بما شا وسع كرسيه السموات والارض ولا يوده حفظهما وهو العلي العظيم، الاحد
الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد، الاول الاخر الظاهر الباطن
الملك القدوس السلام المومن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور
له الاسما الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم، واشهد
ان محمدا عبده ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى
بالله شهيدا، ارسله بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه
وسراجا منيرا، ارسله الى جميع الثقلين الجن والانس عربهم وعجمهم اميهم وكتابيهم
وانزل عليه احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون
ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من
يشا

ومن يضلل الله فما له من هاد، كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات
الى النور باذن ربهم ويهديهم الى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في
السموات وما في الارض، هداهم به الى صراط مستقيم صراط الله الذي
له ما في السموات وما في الارض وهو الصراط المستقيم الذي انعم الله عليهم
من النبيين والصديقين والشهدا والصالحين، وهو دين الله الذي بعث به الرسل
قبله كما قال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما
وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وقال
تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم
وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون، وقال في الاية الاخرى وانا
ربكم فاعبدون فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون، وقال
تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون
وقال تعالى ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت
فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا
كيف كان عاقبة المكذبين، انزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من
الكتاب ومهيمنا عليه، فصدق في كتابه ما بين يديه من كتب السما وامر بالايمان
بجميع الانبيا كما قال تعالى قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق
ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق
بين احد منهم ونحن له مسلمون فان امنوا بمثل ما امنتم به فقد اهتدوا وان
تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، وهيمن عليه ما بين
يديه من الكتاب وذلك ان الكتب كلها شاهدا وحاكما ومومنا يشهد بمثل ما فيها
من الاخبار الصادقة وقرر ما في الكتاب الاول من اصول الدين وشرايعه الجامعة
التي اتفقت عليها الرسل كالوصايا المذكورة في اخر الانعام واول الاعراف وسورة
سبحان ونحوها من السور المكية، قال تعالى قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا
تشركوا به شيا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم
ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق

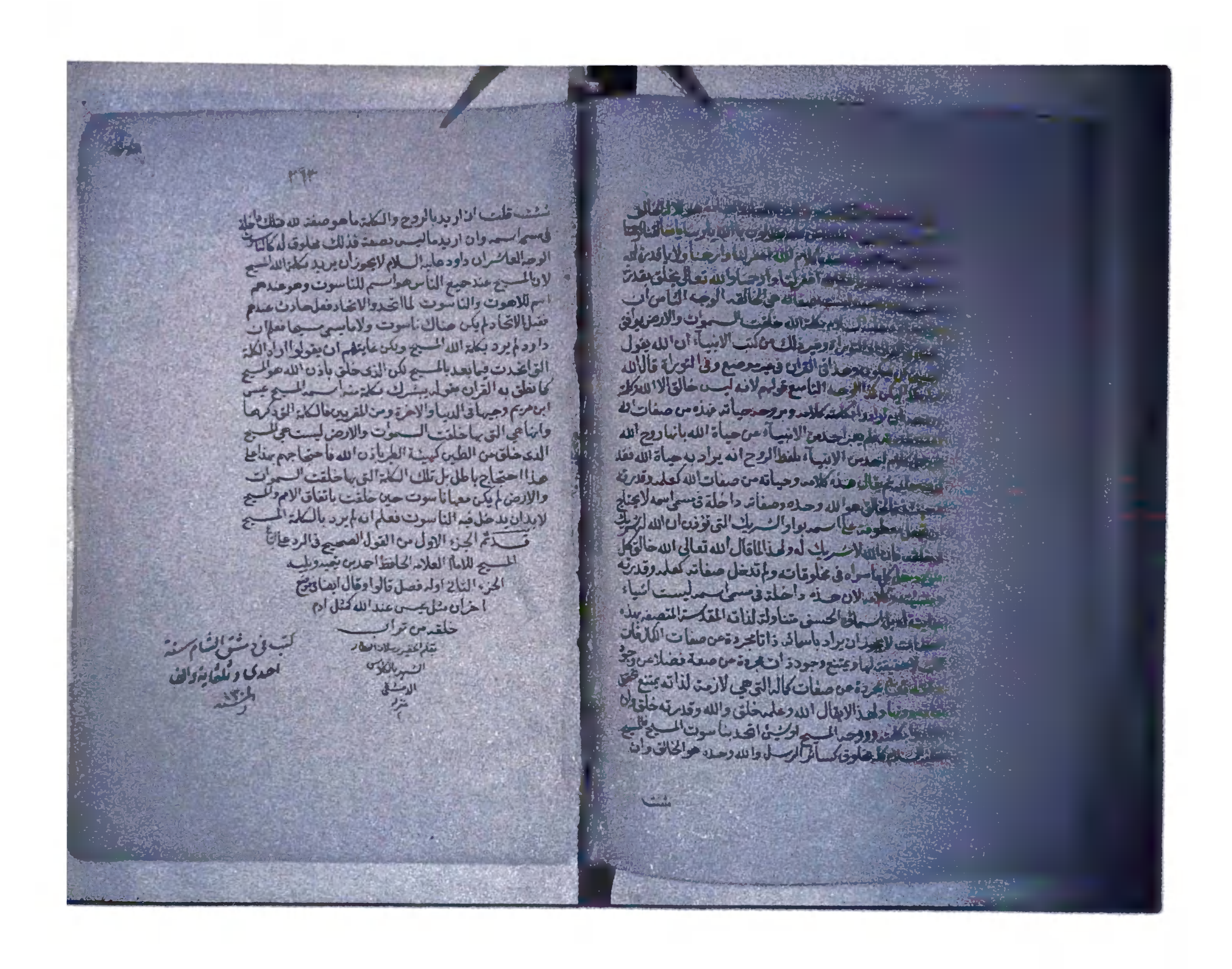
الورقة الأولى من نسخة يني جامع (ي)



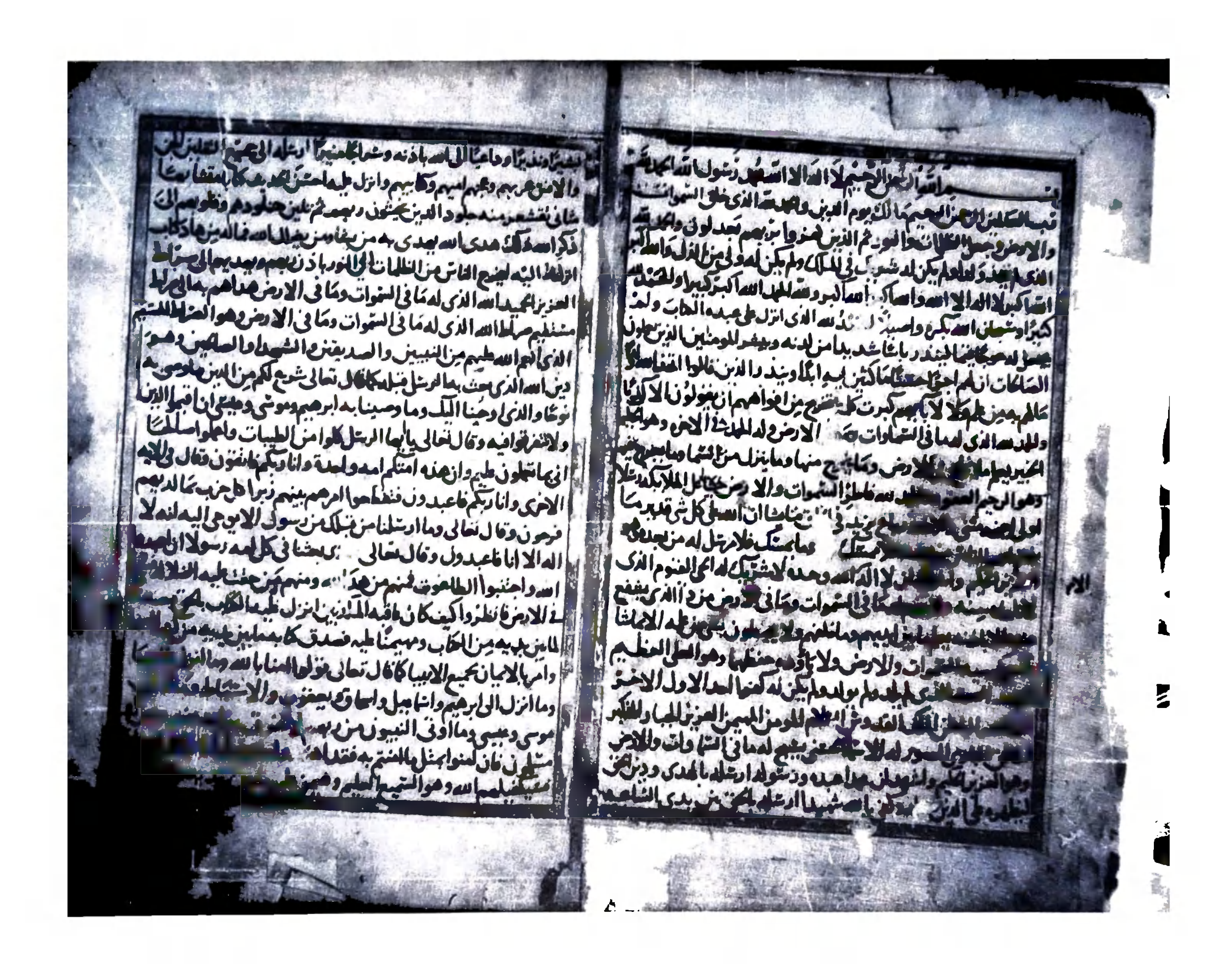
الورقة الأخيرة من نسخة يني يجامع (ي)



الورقة الأولى من النسخة النعمانية (ع)

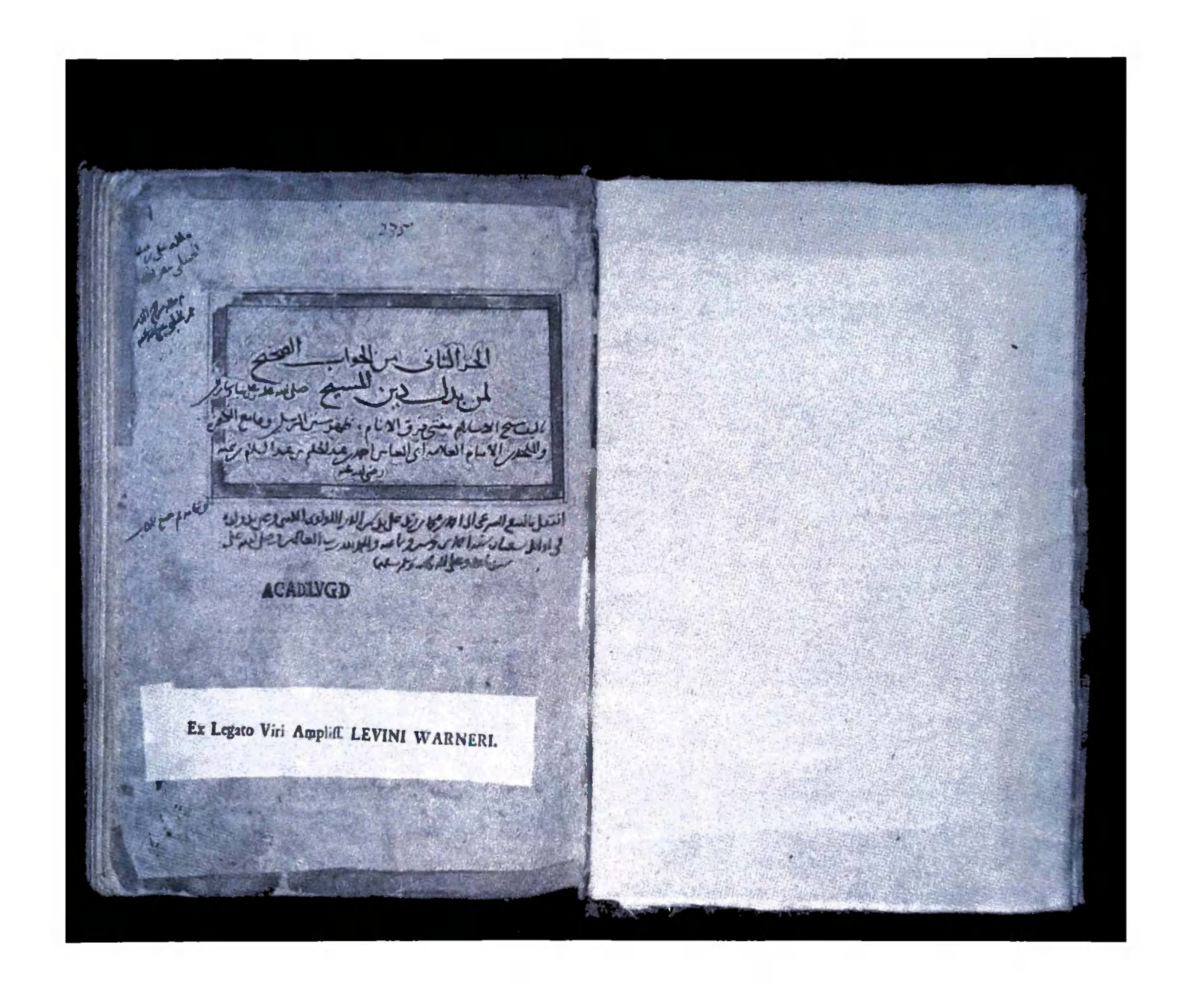


الورقة الأخيرة من النسخة النعمانية (ع)



الورقة الأولى من نسخة طوبقبوسراي (و)

الورقة الأخيرة من نسخة طوبقبوسراي (و)



صفحة العنوان من نسخة ليدن (ل)



الورقة الأولى من نسخة ليدن (ل)

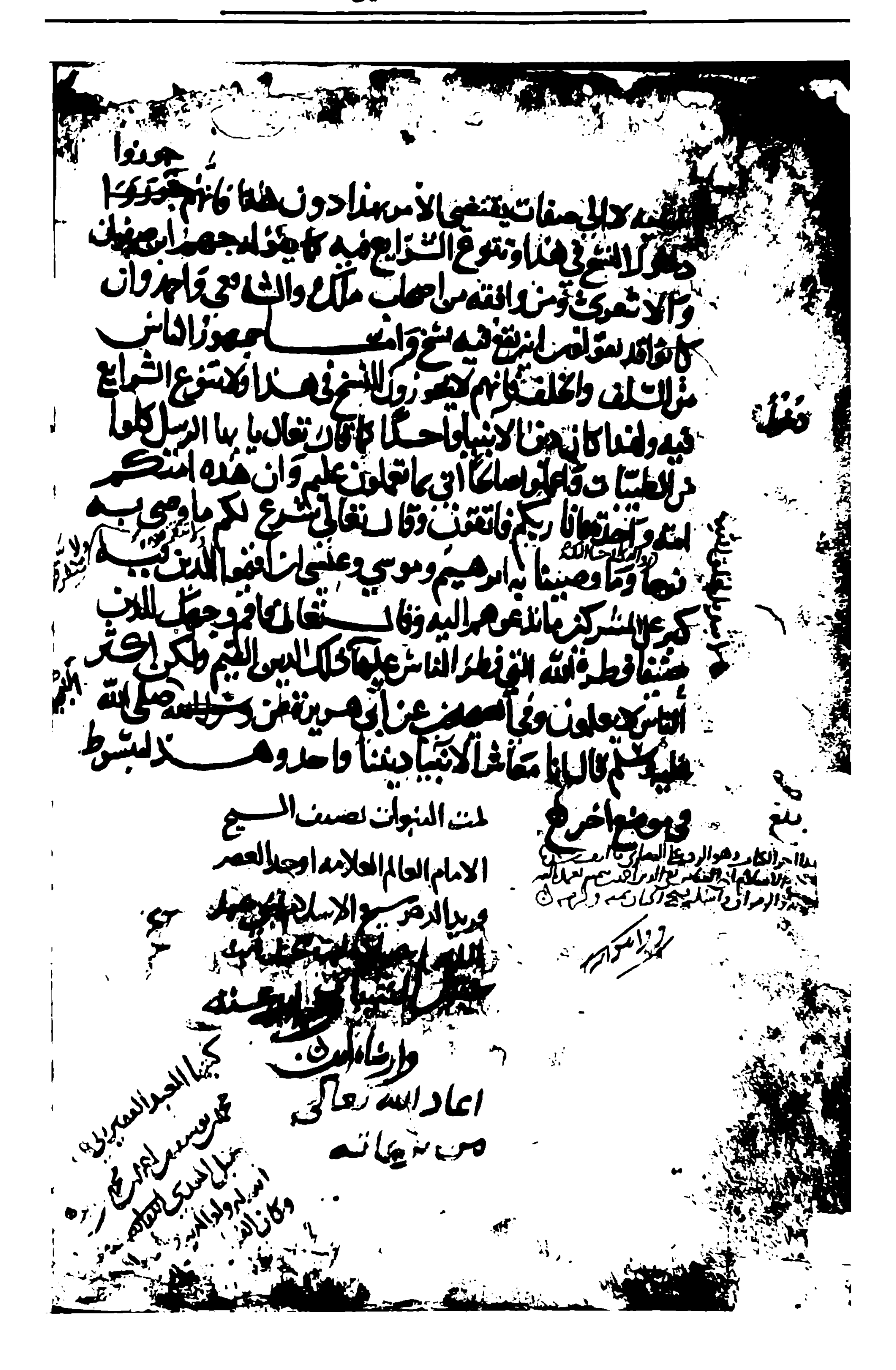


الورقة الأخيرة من نسخة ليدن (ل)

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي شرع لنا الدين والصلاة والسلام على
افضل من اعتصم بحبل المتين سيدنا ونبينا محمد عبده ونبيه ورسوله الامين صلى الله عليه وعلى اله وصحبه الرحما
فيما بينهم الاشداء على الكافرين صلاة دائمة متعاقبة في كل وقت وحين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين
اما بعد فيقول العبد المتمسك بذيل الالطاف الخفية ابو العباس احمد بن تيمية الحنبلي عامله الجلي بغفران
ذنبه الخفي والجلي هذا كتاب سميته تخجيل اهل الانجيل والنهج الصحيح في الرد على من بدل دين
عيسى بن مريم المسيح اذكر فيه اعلام النبوات بنص الحديث والكتاب الفصيح فاقول والله
الهادي وعليه توكلي واعتمادي واليه ملجاي واستنادي اعلم وفقك الله وايانا ان
النصارى لهم قولان مشهوران بينهم وهو ان منهم من يقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم تبشر به النبوات في
المسيح فانه بشرت به النبوات وزعموا انه من لم تبشر به النبوات فليس بنبي وهذا القول يورد عليه جوابين
احدهما انه لا يكون نبيا حتى يبشر به والثاني ان من بشر به اكمل وافضل ممن لم يبشر به او ان هذا
طريق يعرف به نبوة المسيح اختص به وانتم قد قلتم ما هو طريق ثبت به نبوة نبي الا ومحمد ثبتت نبوته
بمثل تلك الطرق وافضل فاما هذا الثاني فيستحق الجواب واما الاول فنحن نجيبهم عنه ايضا لكن هل يجب
الاجابة عنه فيه قولان بناء على اصل وهو انه هل من شرط النسخ الاشعار بالناسخ وللنظار المسلمين فيه
قولان احدهما انه لا بد اذا شرع حكما يريد ان ينسخه فلا بد ان يشعر المخاطبين بانه سينسخه لئلا
يظنوا دوامه فيكون ذلك تجهيلا لهم والثاني لا يشترط ذلك وايضا من بعث بعد موسى
بشريعة هل يجب ان يكون مبشرا به فيه قولان وبكل حال فلا ريب
عند علماء المسلمين ان المسيح عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم
كما قال تعالى واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني
رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التورية ومبشرا برسول
ياتي من بعدي اسمه احمد وقال تعالى الذين يتبعون الرسول
النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التورية والانجيل يامرهم
بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث
وقال

مع المخاطبين

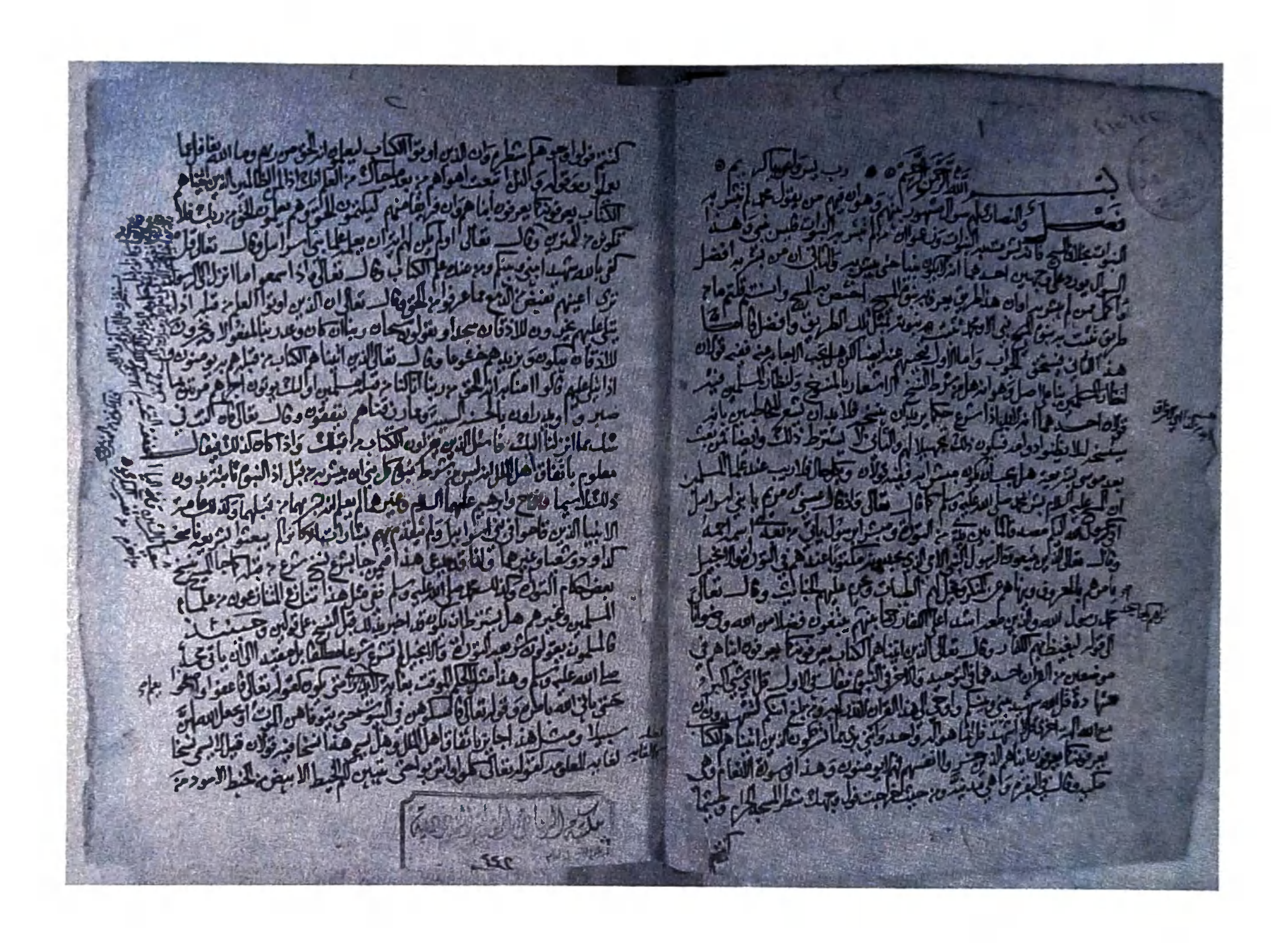
الورقة الأولى من نسخة بودليان (ب)



... الصفات يقتضي الامر بهذا دون هذا فانهم جوزوا
دخول النسخ في هذا وتنوع الشرائع فيه كما يقوله جهم ابن صفوان
والاشعري ومن وافقه من اصحاب مالك والشافعي واحمد وان
كان قد نقل عن ابن عقيل فيه نسخ وامثاله وجمهور الناس
من السلف والخلف فانهم لا يجوزون النسخ في هذا ولا تنوع الشرائع
فيه ولهذا كان دين الانبياء واحدا كما قال تعالى يا ايها الرسل كلوا
من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وان هذه امتكم
امة واحدة وانا ربكم فاتقون وقال تعالى شرع لكم ما وصى به
نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابرهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه
كبر على المشركين ما تدعوهم اليه وقال تعالى فاقم وجهك للدين
حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن اكثر
الناس لا يعلمون وفي الصحيح عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال انا معاشر الانبياء ديننا واحد وهذا مبسوط
في موضع اخر

تمت المنوات لمصنف الشيخ
الامام العالم العلامة اوحد العصر
وفريد الدهر شيخ الاسلام ...

الورقة الأخيرة من نسخة بودليان (ب)



الورقة الأولى من نسخة الإفتاء (ف)

الورقة الأخيرة من نسخة الإفتاء (ف)







تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية
(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)

تحقيق

د. عبد الرحمن بن حسن قائد

إشراف

د. علي بن محمد العمران

المجلد الأول





الأصول المعتمدة في تحقيق هذا الجزء

(ت) نسخة المكتبة التيمورية (كتبت سنة ٧٣٦)

(د) نسخة دار الكتب المصرية (نسخة عتيقة عليها خط المصنف، ثم جرىٰ ترميمها وإكمال خرومها سنة ١٢٨١)

(و) نسخة متحف طوبقبوسراي (كتبت سنة ٧٣٠)

(ي) نسخة مكتبة يني جامع (كتبت سنة ١٠٩٤)

(ع) نسخة المكتبة النعمانية (عليها تعليقات بخط نعمان الآلوسي، كتبت في دمشق سنة ١٣٠١)

ط. النيل (الطبعة الأولىٰ للكتاب بمطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٢)

لا إله إلا الله محمد رسول الله

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

والله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ - ٢].

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ١ - ٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدِّين كله، وكفىٰ بالله شهيدًا.

أرسله بالحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

أرسله إلىٰ جميع الثقلين، الجن والإنس، عربهم وعجمهم، أميِّهم وكتابيِّهم، وأنزل عليه ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

كتابٌ أنزله إليه[1] ليُخرِج النَّاس من الظُّلمات إلىٰ النُّور بإذن ربهم ويهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١ - ٢].

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة. وأصلحت في (ع) لتوافق لفظ الآية: «أنزلناه إليك لتخرج الناس».

هداهم به ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] [الشورى: ٥٢-٥٣]، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعَم عليهم[2] من النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين.

وهو دينُ الله الذي بعث به الرسل قبله، كما قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ -وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] - ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

أنزل عليه الكتاب بالحقِّ مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

فصدَّق كتابُه ما بين يديه من كتب السَّماء، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء،

---

(١) أكملت الآية في (د)، ولعله من الناسخ.

(٢) (ي، و، ع): «وهو الصراط المستقيم الذي أنعم الله عليهم».

كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧].

وهيمَن علىٰ ما بين يديه من الكتاب، وذلك يعمُّ الكتب كلَّها، شاهدًا وحاكمًا ومؤتمنًا.

فشهد[١] بمثل ما فيها من الأخبار الصَّادقة، وقرَّر ما في الكتاب الأوَّل[٢] من أصول الدِّين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل، كالوصايا المذكورة في آخر الأنعام، وأول الأعراف، وسورة سبحان، ونحوها من السُّور المكية.

قال تعالىٰ[٣]: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

---

(١) (و، ي، ع): «يشهد». والمثبت من (د) أجود.

(٢) ط. النيل: «ما في الكتب المتقدمة».

(٣) زادت ط. العاصمة الآية (١٥٠) ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ إلىٰ آخرها، وليست في الأصول ولا في ط. النيل.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١) [الأعراف: ٢٩ - ٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا

---

(١) الآية الأخيرة ساقطة من ط. العاصمة.

بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩].

فدين الأنبياء والمرسلين دينٌ واحد، وإن كان لكلٍّ من التوراة والإنجيل والقرآن شرعةٌ ومنهاج.

ولهذا قال ﷺ في الحديث المتَّفق على صحَّته عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولىٰ الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبيٌّ**»(١).

فدينُ المرسلين يخالفُ دينَ المشركين المبتدعين الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيَعًا.

قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢].

(١) لم أجده بهذا اللفظ في الصَّحيحين والجمع بينهما للحميدي (٣/ ٧٣). وكذلك يورده الشيخ في كتبه. انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (٢٩٠)، و«التدمرية» (١٦٧)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٩٠، ١٥/ ١٥٩)، وغيرها. وزاد في «الصفدية» (٢/ ٣٠٥): «ولهذا ترجم البخاري علىٰ ذلك: باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد»، ولم أجد التبويب كذلك، ولعلها رواية وقف عليها. والحديث في البخاري (٣٤٤٢) ومسلم (٢٣٦٥) بنحوه. وفي (د، ع): «وأنا أولىٰ الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي».

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رُبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ -وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾[1] [الأنبياء: ٩٢]- ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٠ - ٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقد خصَّ الله تعالىٰ محمدًا ﷺ بخصائص ميَّزه بها علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شِرْعةً ومنهاجًا أفضلَ شِرْعةٍ وأكملَ منهاجٍ مبين[2].

كما جعل أمَّته خير أمَّةٍ أُخرِجت للناس، فهم يُوفُون سبعين أمَّةً هم خيرُها وأكرمها علىٰ الله[3] من جميع الأجناس.

هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختُلِف[4] فيه من الحقِّ قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلًا خيارًا، فهم وسطٌ في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام.

فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحلَّ لهم الطيبات، وحرَّم عليهم الخبائث.

---

(١) قوله: «وقال في الآية الأخرىٰ فاعبدون» ليست في (ي، و).

(٢) ليست في (ي، و، ع).

(٣) سيأتي تخريجه (١/ ٤١٨).

(٤) (و، د، ي، ع): «اختلفوا». وصححت في طرة (ت).

لم يحرِّم عليهم شيئًا من الطيبات كما حرَّم علىٰ اليهود، ولم يحِلَّ لهم شيئًا من الخبائث كما استحلَّتها النصارىٰ.

ولم يضيِّق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيَّق علىٰ اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبَث كما رفعته النصارىٰ، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة، ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتنابَ النجاسة في الصلاة، بل يَعُدُّ كثيرٌ من عبَّادهم مباشرةَ النجاسات من أنواع القُرَب والطاعات، حتىٰ يقال في فضائل الراهب: «له أربعون سنةً ما مسَّ الماء»[(١)]، ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة لا يؤاكِلونها، ولا يُشَارِبونها، ولا يقعدون معها في بيتٍ واحد[(٢)]، والنصارىٰ لا يحرِّمون وطء الحائض.

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة، بل إذا أصاب[(٣)] ثوبَ أحدهم قَرَضه بالمقراض، والنصارىٰ ليس عندهم شيءٌ نجسٌ يحرُم أكله أو تحرُم الصلاة معه.

وكذلك[(٤)] المسلمون وسطٌ في الشريعة؛ فلم يجحدوا شرعَه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيَّروا شيئًا من شرعه المُحْكَم ولا ابتدعوا شرعًا[(٥)] لم يأذن به الله كما فعلت النصارىٰ.

---

(١) وكلما كان الراهب أبعد عن الطهارة وأكثر ملابسة للنجاسة كان معظمًا عندهم. انظر: «منهاج السنة» (٥/ ١٧١)، و«الصفدية» (٢/ ٣١٣)، و«اقتضاء الصراط» (١/ ٢١٦)، ومجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٧٢، ٢١/ ١٨، ٣٣٢، ٢٨/ ٦١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) كذا في الأصول، من باب الحمل علىٰ المعنىٰ، والجادة: أصابت.

(٤) (و، ي): «ولذلك».

(٥) (ع): «شيئا».

ولا غَلَوا في الأنبياء والصالحين كغلوِّ النصارىٰ، ولا بخسوهم حقوقَهم كفعل اليهود.

ولا جعلوا الخالقَ سبحانه متَّصفًا بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه من الفقر والبخل والعجز كفعل اليهود، ولا المخلوقَ متَّصفًا بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثله فيها شيءٌ كفعل النصارىٰ.

ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارىٰ.

وأهل السُّنَّة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل المِلَل[1].

فهم وسطٌ في باب صفات الله ﷻ بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التشبيه والتمثيل، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله، من غير تعطيل ولا تمثيل، إثباتًا لصفات الكمال، وتنزيهًا له عن أن يكون له فيها أندادٌ وأمثال، إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيهٌ بلا تعطيل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ الممثِّلة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ المعطِّلة.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، فالصَّمد: السَّيِّد المستوجِب لصفات الكمال، والأحد: الذي ليس له كفوٌ ولا مثال.

وهم وسطٌ في باب أفعال الله ﷻ بين المعتزلة المكذِّبين بالقدر[2]،

(١) قال أبو بكر بن عياش: «السُّنة في الإسلام كالإسلام في الشرك». أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٥١٨).
(٢) (و، ي): «للقدر».

والجبريَّة النافين لحكمة الله ورحمته وعدله، والمعارضين بالقدر أمرَ الله ونهيَه وثوابه وعقابه.

وفي باب الوعد والوعيد بين الوعيديَّة الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين في النار، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد وما فضَّل الله به الأبرار على الفجَّار.

وهم وسطٌ في أصحاب رسول الله ﷺ بين الغالي في بعضهم الذي يقول بإلهيَّةٍ أو نبوَّةٍ أو عصمة، والجافي فيهم الذي يكفِّر بعضهم أو يفسِّقه وهم خيار هذه الأمَّة.

والله سبحانه أرسل محمدًا ﷺ للناس رحمة، وأنعم به نعمةً يا لها من نعمة!

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ فإرساله أعظمُ نعمةٍ أنعم الله بها على عباده.

فجمَع[١] الله لأمته بخاتم المرسلين[٢]، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم أجمعين، ما فرَّقه في غيرهم من الفضائل، وزادهم من فضله أنواع الفواضل، بل آتاهم كِفلَين من رحمته، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨ - ٢٩].

---

(١) (و، ي): «يجمع».

(٢) (ت): «النبيين».

وفي الصَّحيحين[1] عن ابن عمر وأبي موسىٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما أجلُكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلىٰ مغرب الشَّمس، وإنما مثَلُكم ومثَل اليهود والنصارىٰ كرجلٍ استعمل عمَّالًا فقال: من يعمل لي إلىٰ نصف النهار علىٰ قيراطٍ قيراط؟ فعملت اليهود إلىٰ نصف النهار علىٰ قيراطٍ قيراط**[2]**، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلىٰ صلاة العصر علىٰ قيراطٍ قيراط؟ فعملت النصارىٰ من نصف النهار إلىٰ صلاة العصر علىٰ قيراطٍ قيراط، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلىٰ مغرب الشَّمس علىٰ قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلىٰ مغرب الشَّمس، ألا لكم الأجر مرتين. فغضبت اليهود والنصارىٰ، فقالوا: نحن أكثر عملًا، وأقلُّ عطاءً، فقال الله تعالىٰ: فهل ظلمتكم من حقِّكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال الله: فإنه فضلي أعطيه من شئت**».

أما بعد؛ فإن الله ﷻ جعل محمدًا ﷺ خاتم النبيين، وأكمل له ولأمَّته الدِّين، وبعثه علىٰ حين فترةٍ من الرُّسل، وظهور الكفر وانطماس السُّبل، فأحيا به ما دَرَس من معالم الإيمان، وقمع به أهل الشرك والكفر[3] من عبَّاد الأوثان والنِّيران والصُّلبان، وأذلَّ به كفَّار أهل الكتاب، أهل الشَّكِّ[4] والارتياب، وأقام به منار دينه الذي ارتضاه، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه، وأظهر به ما كان مخفيًّا عند أهل الكتاب، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصَّواب، وحقَّق به صدق التوراة والزَّبور والإنجيل، وأماط به عنها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧١، ٣٤٥٩)، وهو من أفراده كما في «الجمع بين الصَّحيحين» للحميدي (١/ ٣١٥، ٢/ ٢٦٩).

(٢) «علىٰ قيراط قيراط» ليست في (و، ي).

(٣) ليست في (ي)، واستدركت في طرة (و).

(٤) (ع): «الشرك»، وفي طرة (ت) إشارة إلىٰ أنها في نسخة.

ما لُبِس[1] بحقِّها من باطل التَّحريف والتبديل.

وكان من سنَّة الله ﷻ مُواترةُ الرُّسل، وتعميمُ الخلق بهم، بحيث يبعَث في كلِّ أمةٍ رسولًا؛ ليُقِيم هداه وحجَّته[2]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

ولما أهبط آدم إلىٰ الأرض[3] قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال في الآية الأخرىٰ[4]: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) أي: خُلِط. وفي الأصول سوىٰ (ت): «ليس» بالياء المعجمة، وهو تحريف.
(٢) (د، ع): «لتتم هداة حجته». (ي، و): «لتعم هداه حجته». والمثبت من (ت).
(٣) (ي، و): «أهبط آدم الأرض».
(٤) من قوله: «فإما يأتينكم» إلىٰ هنا ساقط من (و، د، ي، ع) لانتقال النظر، واستدرك في طرة (ت) مختومًا بالتصحيح. وبسبب السقط غيَّرت ط. العاصمة صدر الآية الأولىٰ ليوافق لفظ الثانية. ووقع نحو هذا السياق في «الاستقامة» (٢/ ١٦٨).

﴿أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

وقال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠ - ١٣١].

فصل

وكان دينُه الذي ارتضاه لنفسه هو دينَ الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحدٍ دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين.

وهو دينُ الأنبياء وأتباعهم، كما أخبر الله بذلك عن نوحٍ ومن بعده إلىٰ الحواريين.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢].

وقال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وقال تعالىٰ عن يوسف الصديق: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالىٰ عن موسىٰ أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وأخبر تعالىٰ عن السَّحرة أنهم قالوا لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقال تعالىٰ عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال تعالىٰ عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالىٰ عن المسيح: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(1) [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

فهذا دينُ الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

وعبادته تعالىٰ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ بطاعة رسله عليهم السلام؛ فلا يكون عابدًا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله، كالذين قال فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) الآية الأخيرة ساقطة من ط. العاصمة.

فلا يكون مؤمنًا به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنًا به ولا عابدًا له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسِل إليه، فيطاع[1] كلُّ رسولٍ إلىٰ أن يأتي الذي بعده، فتكون الطاعةُ للرسول الثاني، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله[2]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

ومن فرَّق بين رسله، فآمن ببعضٍ وكفر ببعضٍ كان كافرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

فلما كان محمدٌ ﷺ خاتم النبيين، ولم يكن[3] بعده رسولٌ ولا من يجدِّد الدِّين، لم يزل الله ﷻ يقيم لتجديد الدِّين من الأسباب ما يكون مقتضيًا لظهوره، كما وعد به في الكتاب، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده.

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدِّين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين: ظهور المعارِضين[4] لهم من أهل الإفك المبين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) (د، ع): «ليطاع».

(٢) قوله: «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله» لحقٌ مختومٌ بالتصحيح في طرة (ت)، وليس في باقي الأصول، وأثبتته ط. النيل.

(٣) (ع): «يأت».

(٤) (د، ع): «المعارض».

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٣١].

وذلك أن الحقَّ إذا جُحِد وعُورِض بالشبهات، أقام الله تعالىٰ له ممَّا يُحِقُّ به الحقَّ ويُبْطِل به الباطل من الآيات البينات، بما يظهره من أدلة الحقِّ وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الدَّاحضة.

فالقرآن لما كذَّب به المشركون، واجتهدوا علىٰ إبطاله بكلِّ طريق، مع أنه تحدَّاهم بالإتيان بمثله، ثم بالإتيان بعشر سُوَر، ثم بالإتيان بسورةٍ واحدة، كان ذلك ممَّا دلَّ ذوي الألباب علىٰ عجزهم عن المعارضة، مع شدَّة الاجتهاد وقوَّة الأسباب، ولو اتَّبعوه من غير معارضةٍ وإصرارٍ[1] علىٰ التَّبطيل، لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتمُّ الدليل.

---

(١) (د): «وصد». (ع): «وصر».

وكذلك السَّحرة لما عارضوا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأبطل الله ما جاؤوا به، كان ذلك ممَّا بيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به صِدْقَ ما جاء به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمَّىٰ بالمعجزات، وبين ما قد يشتبه بها من خوارق السَّحرة وما للشَّياطين[1] من التصرُّفات؛ فإن بين هذين فروقًا متعددة:

منها: ما ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

ومنها: ما بيَّنه في آيات[2] التحدِّي من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تُعَارَض بالمِثْل فضلًا عن الأقوىٰ، ولا يمكِنُ أحدًا إبطالها، بخلاف خوارق السَّحرة والشياطين؛ فإنه يمكن معارضتُها بمثلها وأقوىٰ منها، ويمكِنُ إبطالها.

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجنِّ الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورًا، إذا أظهروا من حججهم ما يحتجُّون به علىٰ دينهم المخالف لدين الرسول، ويموِّهون في ذلك بما يلفِّقونه من منقولٍ ومعقول، كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وَعَد بظهوره علىٰ الدِّين كلِّه بالبيان والحجَّة والبرهان، ثم بالسَّيف واليد والسِّنان[3]، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) (ت، ي، و): «للشيطان».

(٢) (د، ع): «من آيات».

(٣) (د، ع): «واللسان»، تحريف.

وذلك بما يقيمه الله ﷻ من الآيات والدلائل، التي يظهَر بها الحقُّ من الباطل، والحَالِي[1] من العَاطِل، والهدىٰ من الضلال، والصِّدق من المحال، والغيُّ من الرشاد، والصَّلاح من الفساد، والخطأ من السَّداد، وهذا كالمحنة للرجال التي تميِّز بين الخبيث والطيب، قال تعالىٰ[2]: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٤].

والفتنة هي الامتحانُ والاختبار، كما قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: امتحانُك واختبارُك، تُضِلُّ بها من خالف الرسل وتهدِي بها من اتَّبعهم.

والفتنة للإنسان، كفتنة الذَّهب إذا أُدْخِل كِيْرَ الامتحان، فإنها تميِّز جيِّده من رديئه، فالحقُّ كالذَّهب الخالص كلما امتُحِن ازداد جودةً، والباطلُ كالمغشوش المَطْلِيِّ[3] إذا امتُحِن ظهر فسادُه.

فالدِّين الحقُّ كلما نظر فيه الناظِر، وناظر عنه المُناظِر، ظهرت له البراهين، وقَوِيَ به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

---

(١) (ت، د، ع) وط. النيل والعاصمة: «الخالي» بالمعجمة، وهو تصحيف. والحالي من عليه الحُلِيّ، وضده العاطل.

(٢) سقطت من هنا أوراق كثيرة من الأصل (ت).

(٣) (د) وط. النيل: «المغشى». (ع): «الغشي». وفي (و): «المضى» وزادتها ط. العاصمة همزة: «المضيء»! والوجه ما أثبت. واستشكلها ناسخ (ي) فأسقطها.

والدِّينُ الباطلُ إذا جادل عنه المجادِل، ورام أن يُقِيم عودَه المائل، أقام الله ﷻ من يقذف بالحقِّ علىٰ الباطل فيَدْمَغُه فإذا هو زاهِق، وتبيَّن أن صاحبه الأحمق كاذبٌ مائق، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمُحَال، ما يظهر به لعموم الرجال، أن أهله من أضلِّ[1] الضُّلَّال، حتىٰ يظهر فيه من الفساد، ما لم يكن يعرفه أكثرُ العباد، ويتنبَّه بذلك من سِنَة الرُّقاد[2]، من كان لا يميِّز الغيَّ من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميِّت القلب لا يعرِف معروفَ الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، ولا ينكِر منكرَ المغضوب عليهم والضَّالِّين.

فإن ما ذمَّ الله به اليهود والنصارىٰ في كتابه، مثل تكذيب الحقِّ المخالف للهوىٰ، والاستكبار عن قبوله، وحسد أهله، والبغي عليهم، واتباع سبيل الغيِّ، والبخل، والجبن، وقسوة القلب[3]، ووَصْفِ الله تعالىٰ بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم، وجَحْدِ ما وصفَ به نفسه من صفات الكمال المختصَّة به التي لا يماثله فيها مخلوق، وبمثل الغلوِّ في الأنبياء والصالحين، والإشراك في العبادة لربِّ العالمين، والقولِ بالحلول والاتحاد الذي يجعل العبدَ[4] المخلوق هو ربَّ العباد، والخروجِ في أعمال الدِّين عن شرائع الأنبياء والمرسلين، والعمل بمجرَّد هوىٰ القلب وذوقِه ووَجْدِه في الدِّين، من غير اتباع العلم الذي أنزله الله في كتابه المبين، واتخاذِ أكابر العلماء والعبَّاد أربابًا يُتَّبَعون فيما يبتدعونه من

---

(١) (د، ع): «أصل» بالمهملة، ويتجه أن تكون «أهل» بالهاء، وكلاهما يقتضي تخفيف لام «الضلال»، وهو أوفق للسجع.

(٢) ط. النيل: «من كان غافلا من سنة الرقاد».

(٣) (و، ي): «القلوب».

(٤) ليست في (د، ع).

الدِّين المخالف للأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، ومخالفةِ صريح المعقول وصحيح المنقول بما يُظَنُّ أنه من التنزُّلات الإلهية[١]، والفتوحات القُدسيَّة، مع كونه من وساوس اللعين، حتىٰ يكون صاحبها ممن قال الله فيه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، إلىٰ غير ذلك من أنواع البدع والضلالات التي ذمَّ الله بها أهل الكتابَيْن = فإنها ممَّا حذَّر الله منه هذه الأمة الأخيار، وجعل ما حلَّ بأهلها[٢] عبرةً لأولي الأبصار.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنه لا بدَّ من وقوعها في بعض هذه الأمة، وإن كان قد أخبر ﷺ أنه لا يزال في أمته أمةٌ قائمةٌ علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة[٣]، وأن أمته لا تجتمع علىٰ ضلالة[٤]، ولا يغلبها من

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٤٠٣، ٣٥/ ١١٧)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٩٦).

(٢) (و، ي): «بها».

(٣) ورد من حديث جماعةٍ من الصحابة في الصَّحيحين وغيرهما، وهو متواتر كما ذكر المصنف في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨١). وانظر: «قطف الأزهار المتناثرة» للسيوطي (٢١٦)، و«نظم المتناثر» للكتاني (١٤١).

(٤) أخرج هذا الأصل أبو داود (٤٢٥٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه بإسناد فيه ضعف. وأخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند ضعيف، وقال: «غريب من هذا الوجه». وأخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده لين. =

سواها من الأمم، بل لا تزال ظاهرةً[1] منصورةً متَّبعةً لنبيِّها المهديِّ المنصور.

لكن لا بدَّ أن يكون فيها من يتَّبع[2] سنن اليهود والنصارىٰ والروم والمجوس، كما في الصَّحيحين[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لتتَّبعنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة، حتىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن؟!**».

وفي الصَّحيحين[4] أيضًا عن أبي سعيد الخدري[5] رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لتأخذنَّ[6] أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع**»، قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: «**فمن الناسُ إلا أولئك؟!**».

وفي المُظْهِرين للإسلام منافقون، والمنافقون في الدَّرك الأسفل من النار تحت اليهود والنصارىٰ؛ فلهذا كان ما ذمَّ الله به اليهود والنصارىٰ قد يوجدُ في المنافقين المنتسبين إلىٰ الإسلام الذين يُظْهِرون الإيمان بجميع ما جاء به

= وروي من وجوه أخرىٰ لا تخلو من مقال، ولعل مجموعها يدل علىٰ أن له أصلًا. انظر: «تحفة الطالب» لابن كثير (١١٩)، و«تذكرة المحتاج» لابن الملقن (٥١)، و«موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٠٥- ١١٥).

وصحَّ عن أبي مسعود رضي الله عنه عند ابن أبي شيبة (٣٨٣٤٧) موقوفًا، ومثله لا يقال من قبل الرأي، كما قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٥/ ٢٢٢٥).

(١) ليست في (و، ي).

(٢) (و، ي): «يتتبع».

(٣) صحيح البخاري (٧٣١٩) بمعناه، وهو من أفراده كما في «الجمع بين الصَّحيحين» (٣/ ٢٤٨)، ولفظه فيه قريبٌ مما أورده المصنف من حديث أبي سعيد رضي الله عنه دون قوله: «حذو القذة بالقذة» فليس في الصَّحيح، وهو عند أحمد (١٧١٣٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري (٣٤٥٦)، وصحيح مسلم (٢٦٦٩) بمعناه.

(٥) ليست في (و، ي).

(٦) (و، ي): «لتأخذ». وليس اللفظ في الصَّحيحين.

الرسول، ويُبْطِنون خلاف ذلك، كالملاحدة الباطنيَّة، فضلًا عمن يُظْهِر الإلحاد منهم.

ويوجدُ بعض ذلك في أهل البدع، ممَّن هو مقرٌّ بعموم رسالة النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، لكنْ اشتبه عليه بعضُ ما اشتبه علىٰ هؤلاء، فاتَّبع المتشابه، وترك المُحْكَم، كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء.

وللنصارىٰ في صفات الله ﷻ واتحاده بالمخلوقات ضلالٌ شاركهم فيه كثيرٌ من هؤلاء، بل من الملاحدة من هو أعظمُ ضلالًا من النصارىٰ[١].

والحلول والاتحاد نوعان: عامٌّ، وخاص[٢].

فالعامُّ، كالذين يقولون: إن الله بذاته حالٌّ في كلِّ مكان، أو إن وجوده عين وجود المخلوقات.

والخاصُّ، كالذين يقولون بالحلول والاتحاد في بعض أهل البيت، كعليٍّ وغيره، مثل النصيرية وأمثالهم. أو بعض من ينتسب إلىٰ أهل البيت، كالحاكِم[٣] وغيره، مثل الدُّرزية وأمثالهم. أو بعض من يعتقد فيه المَشْيَخة، كالحَلَّاجيَّة[٤] وأمثالهم.

---

(١) سيأتي بسط هذا المعنىٰ (٣/ ٢١٧-٢٣١).

(٢) انظر: «درء التعارض» (٦/ ١٥١)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٦/ ٥٤٩)، و«الرد علىٰ الشاذلي» (١٦١، ١٧٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ١٧١).

(٣) منصور بن نزار بن المعز بالله العبيدي، الملقب بالحاكم بأمر الله، أبو علي، صاحب مصر، كان خبيثًا ماكرًا رديء الاعتقاد مضطرب العقل سفاكًا للدماء. توفي سنة ٤١١. انظر: «وفيات الأعيان» (٥/ ٢٩٢)، و«تاريخ الإسلام» (٩/ ١٩٨).

(٤) طائفة من الحلولية تنتسب إلىٰ الحسين بن منصور الحلاج المقتول علىٰ الزندقة سنة ٣٠٩. انظر: «الفرق بين الفرق» (٢٤٦)، و«التبصير في الدين» (١٣٢).

فمن قال: «إن الله ﷻ حلَّ واتَّحد بأحدٍ من الصحابة، أو القَرابة، أو المشايخ»، فهو من هذا الوجه أكفرُ من النصارىٰ الذين قالوا بالاتحاد والحلول في المسيح؛ فإن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضلُ من هؤلاء كلهم.

ومن قال بالحلول والاتحاد العامِّ، فضلاله أعمُّ[1] من ضلال النصارىٰ.

وكذلك من قال بقدم أرواح بني آدم، أو أعمالهم، أو كلامهم، أو أصواتهم، أو مداد مصاحفهم، أو نحو ذلك، ففي قوله شعبةٌ من قول النصارىٰ.

فمعرفة[2] حقيقة دين النصارىٰ وبطلانه يُعْرَف به بطلان ما يشبه أقوالهم من أقوال أهل الإلحاد والبدع.

فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وأبان الله ﷻ من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقًا.

وكان من أسباب نصر الدِّين وظهوره أنَّ كتابًا ورد من قبرص، فيه الاحتجاج لدين النصارىٰ بما يحتجُّ به علماء دينهم وفضلاء ملَّتهم قديمًا وحديثًا من الحجج السَّمعية والعقلية، فاقتضىٰ ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصُل به فصلُ الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهَر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب.

وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلًا فصلًا، وأُتْبِعُ كلَّ فصلٍ بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلًا، وعَقدًا وحَلًّا.

---

(١) كذا في الأصول، وهي مناسبة للقول بالحلول والاتحاد العام. وربما كانت «أعظم»، كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ١٢٥، ١٣١، ١٧٣، ٢٩٦).

(٢) (ي): «ومعرفة». (و): «فبمعرفة»، وهي أجود إن حذفت «به».

وما ذكروه في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمِد عليها علماؤهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم علىٰ بعض بحسب الأحوال؛ فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم، والنُّسَخ بها موجودةٌ قديمة، وهي مضافةٌ إلىٰ بولص الرَّاهب أُسْقُف صَيْدا الأنطاكي[1]، كتبها إلىٰ بعض أصدقائه، وله مصنفاتٌ في نصر النصرانية، وذكر أنه لما سافر إلىٰ بلاد الرُّوم والقسطنطينيَّة وبلاد المَلافطة[2] وبعض أعمال الإفرنج ورُومِيَة، واجتمع بأجلَّاء أهل تلك الناحية، وفاوَض أفاضلهم وعلماءهم.

---

(١) من طائفة الروم الملكيين، اشتهر في القرن الثاني أو الثالث عشر الميلادي، وقيل: القرن الثامن، وله رسائل في اللاهوت والفلسفة والدفاع عن النصرانية، طبع كثيرٌ منها. ونُشِرت رسالته هذه في باريس مع دراسة مطولة بالفرنسية سنة ١٩٠٣م، ثم نشرها لويس شيخو في مجلة المشرق سنة ١٩٠٤م (٧/ ٧٠٢- ٧٠٩)، ثم في «مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارىٰ من القرن التاسع إلىٰ القرن الثالث عشر»، ثم حققها ودرسها بولس خوري سنة ١٩٦٤م، وأعاد نشرها مع جواب محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي عنها سنة ٢٠١٢م. انظر: «المخطوطات العربية لكتبة النصرانية» للويس شيخو (٦٩)، وتقدمته لرسالة بولس الأنطاكي «خلاصة معتقد النصارىٰ في التوحيد والاتحاد» مجلة المشرق (١/ ٨٤٠، سبتمبر ١٨٩٨م)، و«تاريخ الكنيسة الملكية» ليوسف الشماس (٢/ ٩٦)، و«الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية» لعيسىٰ أسعد الخوري (٢٠١)، و«المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتي (٢٦٨- ٢٧٠)، و«صيدا عبر حقب التاريخ» لمنير الخوري (١٣٥).

(٢) (د، ع): «الملافظة». وفي رسالة بولس (٤١٣): «الملاطفة»، وهو أقرب لاسم البلدة اللاتيني: maldavic. انظر: «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتي (٢٦٨). وهي بلدة قديمة في الجزء الجنوبي الشرقي لأوروبا، كانت إحدىٰ الإمارتين اللتين تتكون منهما رومانيا، وتقع اليوم بين دولتي رومانيا وأوكرانيا، وتعرف بمُلْدَافيا moldavia. وينسب إليها أهلها فيقال: «المَلادِفة» أو «المَلاطِفة»، أما تقديم الفاء «الملافطة» فخطأ، وكذلك وقع في «البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان» لعماد الدين الأصفهاني (٨١)، وهو مألوفٌ فيما يذكره العرب من أسماء البلدان الأعجمية القصيَّة.

وقد عظَّم هذه الرسالة، وسمَّاها: «الكتاب المَنْطِقي الدولة خاني[1] المُبَرْهِن عن الاعتقاد الصَّحيح والرأي المستقيم».

ومضمون ذلك ستَّة فصول:

الفصل الأول: دعواهم أن محمدًا ﷺ لم يُبْعَث إليهم، بل إلىٰ أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أن في القرآن ما يدلُّ علىٰ ذلك، والعقل يدلُّ علىٰ ذلك.

والفصل الثاني: دعواهم أن محمدًا ﷺ أثنىٰ في القرآن علىٰ دينهم الذي هم عليه، ومدَحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.

والفصل الثالث: دعواهم أن نبوَّات الأنبياء المتقدمين، كالتَّوراة والزَّبور والإنجيل وغير ذلك من النبوَّات، تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك بأنه حقٌّ وصواب، فيجب التمسُّك به، ولا يجوز العدول عنه إذا لم يعارضه شرعٌ يرفعُه، ولا عقلٌ يدفعُه.

والفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأن ما هم عليه من التثليث ثابتٌ بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافقٌ للأصول.

والفصل الخامس: دعواهم أنهم موحِّدون، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظٍ يظهر منها تعدُّد الآلهة - كألفاظ الأقانيم - بأن ذلك[2] من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.

(١) السلطاني، نسبة إلىٰ «خان» من ألقاب الملوك والسلاطين. «معجم المصطلحات والألقاب التاريخية» (١٥٧). والمنطيقي: نسبة إلىٰ المنطق، ويطلق علىٰ الجدليّ العالم بالمنطق. «تكملة المعاجم» (١٠/ ٢٤٤).

(٢) (و، ي): «فإن ذلك». وهو تحريفٌ مفسد للمعنىٰ، واختارته ط. العاصمة وخطَّأت الصواب. والمثبت من (د، ع) وط. النيل.



والفصل السادس: أن المسيح ﷺ جاء بعد موسىٰ ﷺ بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلىٰ شرعٍ يزيد علىٰ الغاية، بل يكون ما بعد ذلك شرعًا غير مقبول.

ونحن -ولله الحمد والمنَّة- نبيِّن أن كل ما احتجُّوا به من حجَّة سمعيَّة من القرآن، أو من الكتب المتقدِّمة علىٰ القرآن، أو عقليَّة، فلا حجَّة لهم في شيءٍ منها، بل الكتب كلُّها مع القرآن والعقل حجَّةٌ عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجُّون به من نصوص الأنبياء ومن المعقول فهو نفسه حجَّةٌ عليهم، ويظهَر منه فسادُ قولهم مع ما يُفْسِدُه من سائر النصوص النبوية، والموازين التي هي مقاييسُ عقلية.

وهكذا[١] عامة ما يحتجُّ به أهلُ البدع من كتب الله ﷻ، ففي تلك النصوص ما يبيِّن[٢] أنه لا حجَّة لهم فيها، بل هي بعينها حجَّةٌ عليهم، كما ذُكِر أمثال ذلك في الردِّ علىٰ أهل البدع والأهواء وغيرهم من أهل القبلة[٣]، وإنما عامة ما عند القوم ألفاظٌ متشابهةٌ تمسَّكوا بما ظنُّوها تدلُّ عليه، وعَدَلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة، مع ما يقترن بذلك من الأهواء.

---

(١) (و، ي): «وهكذا يوجد».

(٢) (ي): «نبين».

(٣) نقل ابن القيم في «حادي الأرواح» (٢/ ٦١٨) عن شيخ الإسلام قوله: «أنا ألتزم أنه لا يحتجُّ مبطلٌ بآية أو حديث صحيح علىٰ باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل علىٰ نقيض قوله». وانظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٥١)، وما سيأتي (٢/ ٤٧٤).
وفي «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٢٨٨- ٣٠٢) قاعدة في أن «جميع ما يحتجُّ به المبطِل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدل علىٰ الحق لا تدل علىٰ قول المبطِل»، وهي ناقصة فيه، وتمامها في بعض مجاميع العمرية. وتطبيقات «قلب الدليل علىٰ المخالف» سواء أكان الدليل شرعيًّا أم عقليًّا مستفيضة في آثار شيخ الإسلام.

وهذه حال جميع[1] أهل الباطل، كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، فهم في جهلٍ وظلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء عليهم السلام؛ فإن الأنبياء[2] بُعِثوا بالعلم والعدل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤]، فبيَّن ﷻ أنه ليس ضالًّا جاهلًا، ولا غاويًا متَّبعًا هواه، فلا ينطق عن هواه، إنما نطقُه وحيٌ أوحاه الله ﷻ.

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، فالهدىٰ يتضمَّن العلم النافع، ودينُ الحقِّ يتضمَّن العمل الصالح، ومبناه علىٰ العدل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ[3] وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) ليست في (و، ي).
(٢) (د، ع): «الأنبياء الذين تاب الله عليهم»، وهو سهو.
(٣) من أول الآية إلىٰ هنا ليس في (و، ي).

وأصل العدلِ العدلُ[1] في حقِّ الله تعالىٰ، وهو عبادته وحده لا شريك له؛ فإن الشرك ظلمٌ عظيم، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي الصَّحيحين[2] عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢][3]، شقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ليس هو كما تظنُّون، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلىٰ قول العبد الصَّالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؟**»[4].

ولمَّا كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسُّنة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل، لا بالظنِّ وما تهوىٰ الأنفس، ولهذا قال النبي ﷺ: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل عَلِم الحقَّ وقضىٰ به فهو في الجنة، ورجل عَلِم الحقَّ وقضىٰ بخلافه فهو في النار، ورجل قضىٰ للناس علىٰ جهلٍ فهو في النار**»[5] رواه أبو داود وغيره.

---

(١) ليست في (د، ع).

(٢) صحيح البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤). وقوله: «العبد الصالح» لم أجده فيهما، وذكره الحميدي في «الجمع بين الصَّحيحين» (١/ ٢٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٨٩)، وأبي عوانة في مستخرجه علىٰ صحيح مسلم (٢٨٠، ٢٨٢).

(٣) زادت ط. العاصمة: «الآية»، وليست في الأصول.

(٤) من هنا إلىٰ قوله: «وكفر النصارىٰ بتكذيب محمد» ساقط من (د)، وقد أشار إليه ناسخها في الطرة.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، وابن ماجه (٢٣١٥)، والترمذي (١٣٢٢) وغيرهم من حديث بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو حديثٌ حسنٌ أو صحيح، كما قال ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٥/ ٦٢). وصححه ابن حبان (٣٦١٦)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٩/ ٥٥٢)، والعراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٧٨، ١٢٣٧).

فإذا كان من يقضي بين الناس في الأموال والدماء والأعراض إذا لم يكن عالمًا عادلًا كان في النار، فكيف بمن يحكُم في المِلَل والأديان وأصول الإيمان والمعارف الإلهية والمعالم الكليَّة بلا علمٍ ولا عدل؟! كحال أهل البدع والأهواء، الذين يتمسَّكون بالمتشابه المشكوك ويَدَعون المحكَم الصَّريح من نصوص الأنبياء، ويتمسَّكون بالقَدْر المشترك المتشابه في المقاييس والآراء، ويعرضون عما بينهما من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء، كحال الكفار وسائر أهل البدع والأهواء، الذين يمثِّلون المخلوق بالخالق والخالق بالمخلوق ويضربون لله مثَل السَّوء بالقول الهُرَاء[1].

وذلك أن دين النصارىٰ الباطل إنما هو دينٌ مبتدَع، ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام، وغيَّروا به دينَ المسيح، فضلَّ منهم من عَدَل عن شريعة المسيح إلىٰ ما ابتدعوه.

ثم لما بعث الله محمدًا ﷺ كفروا به، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني، كما كان كفرُ اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام.

ونبيِّن إن شاء الله أن ما عليه النصارىٰ من التثليث والاتحاد لم يدلَّ عليه شيءٌ من كتب الله لا الإنجيل ولا غيره، بل دلَّت علىٰ نقيض ذلك، ولا دلَّ علىٰ ذلك عقل، بل العقل الصَّريح مع نصوص الأنبياء تدلُّ علىٰ نقيض ذلك، بل وكذلك عامة شرائع دينهم محدثةٌ مبتدعةٌ لم يشرعها المسيح عليه السلام.

---

(١) (ع) وط. النيل: «الهزء». وهو تحريف، والسجعة تأباه. ومشت عليه ط. العاصمة وأسقطت كلمة أخرىٰ: «ويضربون لله المثل بالقول الهزء». وعلىٰ الصواب في (ي، و): «الهرا». وانظر هذا التركيب في «التسعينية» (١/ ٢٢١).

ثم التكذيب لمحمدٍ ﷺ هو كفرهم المعلوم[1] لكلِّ مسلم، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام وأبلغ.

وهم يبالغون في تكفير اليهود بأعظم ممَّا يستحقُّه اليهود من التكفير، إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحرٌ كذاب، بل يقولون: إنه ولدُ غِيَّة[2]، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، والنصارىٰ يدَّعون أنه الله[3] الذي خلق الأوَّلين والآخرين، وأنه ديَّان يوم الدِّين؛ فكانت الأمَّتان فيه علىٰ غاية التناقض والتعادي والتقابل، ولهذا كلُّ أمةٍ تذمُّ الأخرىٰ بأكثر ممَّا تستحقُّه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

ذكر محمدُ بن إسحاق[4]، عن محمد بن أبي محمد مولىٰ زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا قدم وفدُ نجران

---

(١) (ي، و، ع): «مثل المعلوم».

(٢) أي: زنا. وفي (ع): «ولد بغيَّة»، وهو محتمل. وقد وقع نحو هذا الاختلاف في الرسم في أصول «منهاج السنة» (٤/ ٢٠).

(٣) ط. العاصمة: «أن الله». وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٧). وأخرجه من طريقه ابن جرير في التفسير (٢/ ٤٣٤)، وابن أبي حاتم (١١٠٣).
ومحمد بن أبي محمد تفرد عنه ابن إسحاق، وليس فيه توثيقٌ معتبر، ولم يعرفه أبو زرعة كما في «الضعفاء» للبرذعي (٥٦٤)، وقال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٥٧): «لا يُعْرَف». وقد يقوِّي أمره تخريج الضياء في «المختارة» (١٠/ ٣٥١، ١٢/ ٢٥٥) من نسخته هذه التي يرويها ابن إسحاق، ولعل ذلك مستند ابن حجر في تجويد إسنادها في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٣٥١)، وتبعه السيوطي في «الإتقان» (٢٣٣٦).

من النصارىٰ علىٰ رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حُرَيْمِلة[1]: ما أنتم علىٰ شيء، وكفَر بعيسىٰ والإنجيل جميعًا، فقال رجلٌ من أهل نجران من النصارىٰ لليهود: ما أنتم علىٰ شيء، وجحَد نبوة موسىٰ، وكفَر بالتوراة؛ فأنزل الله ذلك في قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال[2]: كلٌّ يتلو في كتابه تصديقَ ما كفَر به[3]، أي: تكفُر اليهودُ بعيسىٰ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم علىٰ لسان موسىٰ بالتصديق بعيسىٰ، وفي الإنجيل بإجابة عيسىٰ بتصديق موسىٰ[4]، وبما جاء به من التوراة من عند الله، وكلٌّ يكفر بما في يدي صاحبه.

قال قتادة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: بلىٰ، قد كان أوائل النصارىٰ علىٰ شيءٍ ولكنهم ابتدعوا وتفرَّقوا. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: بلىٰ، قد كانت أوائل اليهود علىٰ شيءٍ ولكنهم ابتدعوا وتفرَّقوا[5].

فاليهود كذَّبوا بدين النصارىٰ، وقالوا: ليسوا علىٰ شيء، والنصارىٰ كذَّبوا بجميع ما تميَّز به اليهود عنهم، حتىٰ في شرائع التوراة التي لم ينسَخها المسيح،

---

(١) الأصول: «ربيع بن حرملة». وهو تحريف، صوابه في مصادر التخريج، وله ذكرٌ كثير في أخبار اليهود.
(٢) يعني ابن إسحاق، تفسيرًا للآية.
(٣) ساقطة من (و، ي) وط. العاصمة.
(٤) سيرة ابن هشام: «وفي الإنجيل ما جاء به عيسىٰ عليه السلام من تصديق موسىٰ عليه السلام».
(٥) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٣٧)، وابن أبي حاتم (١١٠٤).

بل أمرهم بالعمل بها، وكذَّبوا بكثيرٍ من الذي[1] تميَّزوا به عنهم، حتىٰ كذَّبوا بما جاء به عيسىٰ عليه السلام من الحق.

لكنَّ النصارىٰ وإن بالغوا في تكفير اليهود ومعاداتهم علىٰ الحدِّ الواجب عمَّا ابتدعوه من الغلوِّ والضلال، فلا ريب أن اليهود لما كذَّبوا المسيحَ صاروا كفَّارًا، كما قال تعالىٰ للمسيح: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وكفرُ النصارىٰ بتكذيب محمدٍ ﷺ وبمخالفة المسلمين أعظمُ من كفر اليهود بمجرَّد تكذيب المسيح؛ فإن المسيح لم ينسَخ مِن شرع التوراة إلا قليلًا، وسائر شرعِه إحالةٌ علىٰ التوراة، ولكنَّ عامة دين النصارىٰ أحدثوه بعد المسيح، فلم يكن في مجرَّد تكذيب اليهود له من مخالفة شرع الله ما في تكذيب النصارىٰ لمحمدٍ ﷺ[2] الذي جاء بكتابٍ مستقلٍّ من عند الله لم يُحِلْ شيئًا[3] من شرعه علىٰ شرع غيره.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

والقرآن أصلٌ كالتوراة، وإن كان أعظمَ منها، ولهذا كان علماء النصارىٰ يقرِنون بين موسىٰ ومحمد ﷺ، كما قال النجاشيُّ ملكُ النصارىٰ لمَّا سمع

---

(١) ط. العاصمة: «الذين». وهو خطأ مخالف للأصول.
(٢) قوله: «ما في تكذيب النصارىٰ لمحمد ﷺ» ساقط من ط. العاصمة.
(٣) (د، ع): «شيء».

القرآن: إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاةٍ واحدة[1].

وكذلك قال ورقة بن نوفل - وهو من أحبار نصارىٰ العرب - لمَّا سمع كلام النبي ﷺ، فقال له: إنه يأتيك الناموسُ الذي يأتي موسىٰ، يا ليتني فيها جَذَعًا حين يخرجك قومُك، فقال النبي ﷺ: «أوَمخرجيَّ هم؟!» قال: نعم، لم يأت أحدٌ بمثل ما أتيتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك أنصُرْك نصرًا مؤزَّرًا[2].

ولهذا يقرِن سبحانه بين التوراة والقرآن في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعني: التوراة والقرآن، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿قَالُواْ سَٰحِرَانِ﴾[3] أي: محمد وموسىٰ[4]، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨ - ٤٩]، فلم ينزل كتابٌ من عند الله أهدىٰ من التوراة والقرآن. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وهؤلاء النصارىٰ ذكر كاتبُ كتابهم في كتابه[5]: أنه لما سأله سائلٌ أن يفحص له فحصًا بيِّنًا عمَّا يعتقده النصارىٰ المسيحيُّون المختلفة ألسنتهم،

---

(١) سيأتي سياق خبره تامًّا (١/ ١١٧ - ١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (٤٩٥)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٢٥٤).

(٤) (د، ع): «موسىٰ ومحمد».

(٥) رسالة بولس الراهب أسقف صيدا الأنطاكي التي تقدم ذكرها.

المتفرِّقة في أربع زوايا العالم، من المشرق إلىٰ المغرب، ومن الجنوب الىٰ الشمال، والقاطنون بجزائر البحر، والمقيمون بالبرِّ المتَّصل إلىٰ مغيب الشمس، وأن الأُسْقُف دَمْيَان المَلَكِي[1] الرُّومي اجتَمع بمن اجتمع به من أجلَّائهم ورؤسائهم، وفاوَض من فاوَض من أفاضلهم وعلمائهم، فيما عَلِمَه من رأي القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلىٰ قبرص، وخاطبهم في دينهم وما يعتقدونه ويحتجُّون به عن أنفسهم.

قال الكاتب علىٰ لسان الأُسْقُف: إنهم يقولون: إنا لمَّا سمعنا[2] أن قد ظهَر إنسانٌ من العرب اسمه محمَّد، يقول: إنه رسول الله، وأتىٰ بكتابٍ فذكر[3] أنه منزَّلٌ عليه من الله، فلم نزل إلىٰ أن حصل الكتابُ عندنا.

قال: فقلت لهم: إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان، واجتهدتم علىٰ تحصيل هذا الكتاب الذي أتىٰ به عندكم، فلأيِّ حالٍ لم تتَّبعوه، ولا سيما وفي الكتاب يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]؟!

أجابوا قائلين: لأحوالٍ شتىٰ.

قال: فقلت: وما هي؟

قالوا: منها: أن الكتاب عربيٌّ، وليس بلساننا، حسب ما جاء فيه، يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال

(١) Damian من طائفة الروم الملكيين، وفيهم غير واحد بهذا الاسم. وتحرفت نسبته في (و، ي) إلىٰ «المللي». (د، ع) وط. النيل: «ديان الملك».
(٢) (و، ي): «إنا سمعنا».
(٣) في رسالة بولس الأنطاكي: «يذكر».

في سورة الشعراء: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩]، وقال في سورة البقرة: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالىٰ في سورة القصص: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال في سورة السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، وقال في سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

قالوا: فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأتِ إلينا، بل إلىٰ جاهلية العرب الذين قال[2]: إنه لم يأتهم رسولٌ ولا نذيرٌ من قبله، وأنه لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله، خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسِّكون به يومنا هذا، وسلَّموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا، علىٰ ما يشهد لهم هذا الكتاب الذي أتىٰ به هذا الرجل، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال في سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الروم: ٤٧]؛ فقد صحَّ في هذا الكتاب أنه لم يأتِ إلا إلىٰ الجاهلية من العرب.

---

(١) من قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إلىٰ آخر الآية ساقط من ط. العاصمة.

(٢) أي القرآن. وفي (ع): «قالوا»، وهو خطأ.

وأما قوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فيريد - بحسب مقتضىٰ العدل - قومَه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممَّن لم يأتهم بما جاء فيه. ونعلم أن الله عدلٌ، وليس مِن عدله أن يطالِبَ يوم القيامة أمةً من الأمم[1] باتباع إنسانٍ لم يأتِ إليهم، ولا وقَفوا له علىٰ كتابٍ بلسانهم، ولا من جهة داعٍ من قبله.

هذه ألفاظهم بأعيانها في الفصل الأول[2].

وهذا الفصل لم يتعرَّضوا فيه لا لتصديقه ولا لتكذيبه، بل زعموا أن في نفس هذا الكتاب أنه لم يقل: إنه مرسلٌ إليهم، بل إلىٰ جاهلية العرب، وإن العقل أيضًا يمنع أن يرسَل إليهم.

فنحن نبدأ بالجواب عن هذا، ونبيِّن أنه ﷺ أخبر أنه مرسلٌ إليهم وإلىٰ جميع الإنس والجنِّ، وأنه لم يقل قطُّ: إنه لم يرسَل إليهم، ولا في كتابه ما يدلُّ علىٰ ذلك، وأن ما احتجُّوا به من الآيات التي غلطوا في معرفة معناها، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة في كتابه التي تبيِّن أنه مرسلٌ إليهم، من جنس ما فعلوه في التوراة والإنجيل والزبور وكلام الأنبياء، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة، وتمسَّكوا بقليلٍ من المتشابه الذي لم يفهموا معناه.

ومعلومٌ أن الكلام في صدق مدَّعي الرسالة وكذِبه متقدِّمٌ علىٰ الكلام في عموم رسالته وخصوصها، وإن كان قد يُعْلَم أحدُهما قبل الآخر، لكن هؤلاء القوم ادَّعوا خصوصَ رسالته، وذكروا أن القرآن يدلُّ علىٰ ذلك.

فنجيب عمَّا ذكروه علىٰ حسب ترتيبهم فصلًا فصلًا، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) «من الأمم» ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٣- ٤١٤).

الكلام فيمن خاطب الخلقَ بأنه رسول الله إليهم، كما فعل محمدٌ ﷺ وغيره ممَّن قال: إنه رسول الله، كإبراهيم وموسىٰ ونحوهما من الرسل[1] الصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وآل كلٍّ من الصَّالحين، وكمسيلمة الكذاب والأسود العَنسِيِّ ونحوهما من المتنبِّئين الكاذبين = ينبني علىٰ أصلين:

أحدهما: أن يُعْرَف ما يقوله في خبره وأمره، فيُعْرَف ما يخبر به ويأمر به، وهل قال: إنه رسول الله إلىٰ جميع الناس، أو قال: إنه لم يرسَل إلا إلىٰ طائفةٍ معيَّنة لا إلىٰ غيرها؟

والثاني: أن يُعْرَف هل هو صادقٌ أو كاذب؟

وبهذين الأصلين يتمُّ الإيمان المفصَّل، وهو معرفة صدق الرسول، ومعرفة ما جاء به.

وأما الإيمان المجمل فيحصل بالأول، وهو معرفة صدقه فيما جاء به، كإيماننا بالرسل المتقدمة، وقد يُعْلَم صدقُه أو كذبه قبل أن يُعْلَم ما يذكره، وقد يُعْلَم ما يذكره قبل أن يُعْلَم صدقُه أو كذبه[2].

وهؤلاء بدؤوا في كتابهم هذا بما ذكره الرسول ممَّا زعموا أنه حجَّةٌ لهم علىٰ عدم وجوب اتباعه، وعلىٰ مدح دينهم الذي هم اليوم عليه بعد النسخ والتبديل، ثم ذكروا حججًا مستقلَّة علىٰ صحة دينهم، ثم ذكروا ما يقدح فيه وفي دينه؛ فلهذا قدَّمنا الجواب عمَّا احتجُّوا به من القرآن، كما قدَّموه في كتابهم.

---

(١) (د، ع): «الأنبياء».

(٢) من قوله: «قبل أن يُعْلَم ما يذكره» إلىٰ هنا ساقط من ط. العاصمة.

فصل

ودلائل صدق النبي الصادق، وكذب المتنبِّي الكذاب، كثيرةٌ جدًّا.

فإن من ادَّعىٰ النبوَّة وكان صادقًا فهو من أفضل خلق الله وأكملهم في العلم[1] والدِّين، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وإن كان بعضهم أفضل من بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وإن كان المدَّعي للنبوة كاذبًا فهو من أكفر خلق الله وشرِّهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٢ - ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

فالكذب أصلٌ للشرِّ، وأعظمُه الكذبُ علىٰ الله ﷻ، والصدق أصلٌ للخير[2]، وأعظمُه الصدقُ علىٰ الله تبارك وتعالى.

---

(١) (د، ع): «العدل».

(٢) (د، ع): «الخير».



وفي الصَّحيحين[1] عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: **«عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلىٰ البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلىٰ الجنة، ولا يزال الرجل يَصْدُق ويتحرَّىٰ الصدق حتىٰ يُكْتَب عند الله صدِّيقًا. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّىٰ الكذب حتىٰ يُكْتَب عند الله كذابًا»**.

ولمَّا كان هذا في[2] أعلىٰ الدرجات، وهذا في أسفل الدَّركات، كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين التي تدلُّ علىٰ صدق أحدهما[3] وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما. ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة علىٰ صدقهم كثيرةً متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبِّئين كثيرةً متنوعة، كما قد بُسِط في موضعٍ آخر[4].

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٩٤)، وصحيح مسلم (٢٦٠٧).
(٢) ط. العاصمة: «من». وهو خطأ مخالف للأصول.
(٣) ط. العاصمة: «أحدها». وهو خطأ مخالف للأصول.
(٤) بسط القول في ذلك في قاعدته في النبوات.

فصل

إذا عُرِف هذا، فهؤلاء القوم في هذا المقام ادَّعوا أن محمدًا ﷺ لم يُرسَل إليهم، بل إلىٰ أهل الجاهلية من العرب.

فهذه الدعوىٰ علىٰ وجهين:

إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدَّعِ أنه أُرسِل إليهم، ولكنَّ أمته ادَّعوا له ذلك.

وإما أن يقولوا: إنه ادَّعىٰ أنه أُرسِل إليهم، وهو كاذبٌ في هذه الدعوىٰ.

وكلامهم في صدر هذا الكتاب يقتضي الوجه الأول. وفي آخره قد يقال: إنهم أشاروا إلىٰ الوجه الثاني، لكنهم في الحقيقة لم ينكروا رسالته إلىٰ العرب، وإنما أنكروا رسالته إليهم، وأما رسالته إلىٰ العرب فلم يصرِّحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه، [وإن كان ظاهر لفظهم يقتضي الإقرار برسالته إلىٰ العرب][1]، بل صدَّقوا بما وافق قولهم وكذَّبوا بما خالف قولهم.

ونحن نبيِّن أنه لا يصحُّ احتجاجهم بشيءٍ ممَّا جاء به النبيُّ ﷺ.

ثم نتكلَّم علىٰ الوجهين جميعًا، ونبيِّن أنه لا يصحُّ احتجاجهم بشيءٍ من القرآن علىٰ صحَّة دينهم بوجهٍ من الوجوه، ونبيِّن أن القرآن لا حجَّة فيه لهم ولا فيه تناقض.

وكذلك كتب الأنبياء المتقدِّمين التي يحتجُّون بها هي حجَّةٌ عليهم، ليس في شيءٍ منها حجَّةٌ لهم ولو لم يُبعَث محمدٌ ﷺ، فكيف والكتاب الذي جاء به محمدٌ ﷺ موافقٌ لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام في إبطال دينهم وقولهم في

---

(١) زيادة من ط. النيل، وليست في الأصول التي معنا، ويشبه أن يكون لحقًا في طرة (ت)، كنظائره.

التثليث والاتحاد وغير ذلك، مع العقل الصريح؟!

فهم احتجُّوا في كتابهم هذا بالقرآن، وبما جاءت به الأنبياء قبل محمدٍ ﷺ، مع العقل، ونحن نبيِّن أنه لا حجَّة لهم فيما جاء به محمدٌ ﷺ، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله، ولا في العقل. بل ما جاء به محمدٌ ﷺ وما جاءت به الأنبياء قبله، مع صريح العقل، كلُّها براهين قطعية علىٰ فساد دينهم.

ولكن نذكر قبل ذلك أن احتجاجهم بما جاء عن النبي ﷺ لا يصحُّ بوجهٍ من الوجوه، وأنه لا يجوز أن يَحتجَّ بمجرَّد المنقول عن محمد ﷺ من يكذِّبه في كلمةٍ واحدة ممَّا جاء به، وكذلك كلام[1] سائر الأنبياء عليهم السلام، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض، وأما ما أخبَرت به الأنبياء عليهم السلام، أو من قال: إنه نبيٌّ، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض، سواءٌ قُدِّر صدقُهم أو كذبهم.

فيقال لهم - علىٰ كل تقدير، سواءٌ أقرُّوا بنبوَّته إلىٰ العرب أو غيرهم، أو كذَّبوه في قوله: إنه رسول الله[2]، أو سكتوا عن هذا وهذا، أو صدَّقوه في البعض دون البعض -: إن احتجاجكم علىٰ صحة ما تخالفون[3] فيه المسلمين ممَّا جاء به محمدٌ ﷺ لا يصحُّ بوجهٍ من الوجوه؛ فاحتجاجكم علىٰ أنه لم يرسَل إليكم أو علىٰ صحة دينكم بشيءٍ من القرآن حجَّةٌ داحضةٌ علىٰ كل تقدير.

مع أنا سنبيِّن - إن شاء الله تعالىٰ - أن الكتب الإلهيَّة كلَّها مع المعقول لا حجَّة لكم في شيءٍ منها، بل كلها حجَّةٌ عليكم[4].

---

(١) ليست في (و).

(٢) ط. النيل: «رسول الله مطلقًا».

(٣) (ي، د، ع): «احتجاجهم علىٰ صحة ما يخالفون».

(٤) (١/ ١٩٢- ٢/ ٤٩٩).

وهذا بخلاف المسلمين، فإنه يصحُّ احتجاجهم علىٰ أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ، وأهل الكتاب لا يصحُّ احتجاجهم بما جاء به محمد ﷺ؛ وذلك أن المسلمين مقرُّون بنبوة موسىٰ وعيسىٰ وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وعندهم يجبُ الإيمان بكل كتابٍ أنزله الله، وبكل نبيٍّ أرسله الله، وهذا أصلُ دين المسلمين، فمن كفر بنبيٍّ واحدٍ أو كتابٍ واحدٍ فهو عندهم كافر، بل من سبَّ نبيًّا من الأنبياء فهو عندهم كافرٌ مباح الدم، كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

و«الكتاب» اسمُ جنسٍ لكل كتابٍ أنزله الله، يتناول التوراة والإنجيل، كما يتناول القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، وفي القراءة الأخرىٰ[1]: ﴿وكتابه﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]، فذكر أن هذا الكتاب الذي أنزِل عليه هدًىٰ للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وبالآخرة هم يوقنون. ثم أخبر أن هؤلاء هم المفلحون، فحصَر الفلاح في هؤلاء، فلا يكون مفلحًا إلا من كان من هؤلاء.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هو صفةٌ للمذكورين، ليس هؤلاء صنفًا آخر؛ فإن عطف الشيء علىٰ الشيء قد يكون لتغاير الصفات وإن كانت الذاتُ واحدة. هذا هو الصَّحيح هنا.

وإن كان قد قيل: إن الصنف الثاني مؤمنُ[3] أهل الكتاب، والأول هم المسلمون[4]، فهذا ضعيف.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (١٩٥)، و«معاني القراءات» للأزهري (١/ ٢٣٨).

(٢) زادت (و) وتبعتها ط. النيل والعاصمة: «كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾»، وهو تكرارٌ وسهوٌ من الناسخ.

(٣) ط. العاصمة: «مؤمنو»، خلاف الأصول وط. النيل.

(٤) يروىٰ عن ابن عباس وغيره، واختاره ابن جرير (١/ ٢٤٤، ٢٤٦). وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٩٩، ٢٧/ ٢٧٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧٠).

وأفسد منه قول هؤلاء النصارى: إن «الكتاب» المراد به الإنجيل، كما سيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى[1].

والعطفُ لتغاير الصفات، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٥]، وهو سبحانه الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٥] إلى آخر الآيات[2].

وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، وهم الذين على هدًى من ربهم، وهم المفلحون.

ولكن فصَّل إيمانهم بعد أن أجمله لئلَّا يظنَّ ظانٌّ أن مجرَّد دعوى الإيمان بالغيب ينفعُ وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمدٍ ﷺ وما أنزل إلى من قبله. فلو قال أحد من الناس: أنا أؤمن بالغيب، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمدٍ ﷺ، أو ببعض ما أنزل على من قبله، لم يكن مؤمنًا حتى يؤمن بجميع ما أنزِل إليه وما أنزل إلى من قبله.

ولو كانوا صنفًا آخر لكان المفلحون قسمين:

قسمًا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون بما أنزِل إليه وما أنزِل إلى من قبله.

---

(١) (١/ ٤٤٧- ٤٤٩).

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٨/ ٤٩٨)، و«النبوات» (٧٥٩)، و«مجموع الفتاوى» (١٣/ ٩).

وقسمًا يؤمنون بما أنزِل إليه وما أنزِل إلىٰ من قبله، ولا يؤمنون بالغيب.

وهذا باطلٌ عند جميع الأمم: المؤمنين واليهود والنصارىٰ؛ فإن الإيمان بما أنزِل إليه وإلىٰ من قبله يتضمَّن الإيمانَ بالغيب، والإيمانُ بالغيب لا يتمُّ إلا بالإيمان[1] بجميع ما أنزله الله ﴿تبارك وتعالى﴾.

والمسلمون لا يستجيز أحدٌ منهم التكذيبَ بشيءٍ ممَّا أُنزِل علىٰ مَن قبلَ[2] محمَّدٍ ﷺ.

لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلىٰ ثلاث مقدمات:

إحداها[3]: ثبوت ذلك عن الأنبياء ﵈.

والثانية: صحَّة الترجمة إلىٰ اللسان العربي، أو اللسان الذي يخاطَب به، كالرُّومي والسُّرياني؛ فإن لسان موسىٰ وداود والمسيح وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل كان عِبرانيًّا[4]، ومن قال: إن لسان المسيح كان سُريانيًّا أو روميًّا فقد غلط[5].

والثالثة: تفسير ذلك الكلام ومعرفة معناه.

فلهذا كان المسلمون لا يردُّون شيئًا من الحجج بتكذيب أحدٍ من الأنبياء في شيءٍ قاله، ولكن قد يكذِّبون الناقل عنهم، أو يفسِّرون المنقول عنهم بما أرادوه أو بمعنًىٰ آخر علىٰ وجه الغلط.

---

(١) (و، د، ع): «بأن يؤمن».

(٢) ط. النيل: «كان قبل».

(٣) (و، ي): «أحدها ... والثاني ... والثالث».

(٤) (و، د، ع، ي): «كانت عبرانية». والمثبت من ط. النيل.

(٥) انظر: «التسعينية» (٨١٨)، وما سيأتي (١/ ٣١٠، ٢/ ٧٩).

وإن كان بعض المسلمين قد يغلط في تكذيب بعض النقل، أو تأويل بعض المنقول عنهم، فهو كما يغلط من يغلط منهم ومن سائر أهل الملل في التكذيب علىٰ وجه الغلط ببعض ما يُنقَل عمَّن يقرُّ بنبوَّته أو في تأويل المنقول عنه، وهذا بخلاف تكذيب نفس النبيِّ؛ فإنه كفرٌ صريحٌ به[١].

بخلاف أهل الكتاب؛ فإنه لا يتمُّ مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله، ومتىٰ كذَّب بكلمةٍ واحدة ممَّا أخبر به من قال: إنه رسول الله بطل احتجاجُه بسائر كلامه، فكانت حجَّتهم التي يحتجُّون بها داحضة.

وذلك أن الذي يقول: إنه رسول الله، إما أن يكون صادقًا في قوله: إني رسول الله، وفي جميع ما يخبر به عن الله، وإما أن يكون كاذبًا ولو في كلمةٍ واحدة عن الله.

فإن كان صادقًا في ذلك امتنع أن يكذِب علىٰ الله في شيء ممَّا يبلِّغه عن الله؛ فإن من كذَب علىٰ الله ولو في كلمةٍ واحدة كان ممن افترىٰ علىٰ الله الكذب، ولم يكن رسولًا من رسل الله.

ومن افترىٰ علىٰ الله الكذب تبيَّن أنه من المتنبئين الكذابين، ومثل هذا لا يجوز أن يُحْتَجَّ بخبره عن الله؛ فإنه قد عُلِم أن الله لم يرسله.

وإذا قال هو قولًا، وكان صدقًا، كان كما يقوله غيرُه، لا يُقْبَلُ[٢] لأنه بلَّغه عن الله ولا لأنه رسولٌ عن الله، بل كما يُقْبَلُ من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحقِّ؛ فإن عبَّاد الأوثان إذا قالوا عن الله ما هو حقٌّ، مثل إقرار مشركي العرب بأن الله خلق السماوات والأرض، لم نكذِّبهم في ذلك وإن كانوا كفارًا، وكذلك إذا قال الكافر: إن الله حيٌّ قادرٌ خالق، لم نكذِّبه في هذا القول.

---

(١) ليست في (و) وتبعتها ط. النيل وما تلاها، وإثباتها ضروري.
(٢) ط. النيل وما تبعها: «يقبل لا»، والمثبت من الأصول، وهما بمعنًى.

فمن كذب علىٰ الله في كلمةٍ واحدةٍ قال: إن الله أنزلها عليه، ولم يكن الله أنزلها عليه، فهو من الكذَّابين الذين لا يجوز أن يُحْتَجَّ بشيءٍ من أقوالهم التي يقولون: إنهم يبلِّغونها عن الله ﷻ، وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس، بل كأمثالهم من الكذَّابين، إن عُرِفَ صحةُ ذلك القول من جهة غيرهم قُبِل؛ لقيام الدليل علىٰ صحَّته، لا لكونهم قالوه، وإن لم يُعْرَف صحَّتُه من جهة غيرهم لم يكن في قولهم له مع ثبوت كذبهم علىٰ الله حجَّة.

وحينئذٍ، فهؤلاء إن أقرُّوا برسالة محمدٍ ﷺ، وأنه صادقٌ فيما بلَّغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمانُ بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة، كما يجب الإيمانُ بكل ما جاءت به الرسل.

وإن كذَّبوه في كلمةٍ واحدةٍ أو شكُّوا في صدقه فيها، امتنع مع ذلك أن يقرُّوا بأنه رسول الله، وإذا لم يقرُّوا بأنه رسول الله كان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بسائر ما يقوله مَن ليس من الأنبياء، بل من الكذَّابين أو من المشكوك في صدقهم.

ومعلومٌ أن من عُرِف كذبُه علىٰ الله فيما يقول إنه يبلِّغه عن الله أو شُكَّ في صدقه، لم يُعْلَم[1] أنه رسول الله، ولا أنه صادقٌ في كل ما يقوله ويبلِّغه عن الله. وإذا لم يُعْلَم ذلك منه لم يُعْرَف أن الله أنزل إليه شيئًا، بل إذا عُرِف كذبُه عُرِف أن الله لم ينزل إليه شيئًا ولا أرسله، كما عُرِف كذبُ مُسَيْلِمة الكذَّاب، والأسود العَنْسِي، وطُلَيْحَة الأسَدي، وغيرهم[2]، وكما عُرِف كذبُ مَانِي[3]،

---

(١) (و): «لا يعلم».

(٢) ليست في (و).

(٣) ماني بن فاتك الحكيم، مجوسي الأصل، وقيل: كان من أساقفة النصارىٰ، ثم ادعىٰ النبوة وأحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، وإليه تنسب «المانوية»، قتله بهرام بن هرمز ملك الفرس. انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٤٩)، و«المنتظم» (٢/ ٨٧)، و«درء التعارض» (٥/ ٣٦٢)، وما سيأتي (١/ ٣٢٥، ٣/ ١٢٥).

وأمثاله[1] من المتنبئين الكذابين.

وإذا شُكَّ في صدقه في كلمةٍ واحدة، بل جُوِّز أن يكون كَذَبها عمدًا أو خطأً، لم يَجُز تصديقُه مع ذلك في سائر ما يبلِّغه عن الله؛ لأن تصديقه فيما يخبر به عن الله إنما يكون إذا كان رسولًا صادقًا لا يكذِب عمدًا ولا خطأً، فإن كل من أرسله الله لا بدَّ أن يكون صادقًا في كل ما يبلِّغه عن الله، لا يكذِب فيه عمدًا ولا خطأً.

وهذا أمرٌ اتفق عليه الناسُ كلهم: المسلمون، واليهود، والنصارىٰ، وغيرهم، اتفقوا علىٰ أن الرسول لا بدَّ أن يكون صادقًا معصومًا فيما يبلِّغه عن الله، لا يكذِب علىٰ الله خطأً ولا عمدًا؛ فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك، كما قال موسىٰ عليه السلام لفرعون: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥]. وفي القراءة المشهورة[2] يخبر أنه جديرٌ وحريٌّ وثابتٌ ومستقرٌّ علىٰ أن لا يقول[3] علىٰ الله إلا الحق، وعلىٰ القراءة الأخرىٰ[4] أخبر أنه واجبٌ عليه أن لا يقول علىٰ الله إلا الحق.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

---

(١) ط. العاصمة: «وأمثاله وغيرهم»، وهو خطأ. وضرب علىٰ «وغيرهم» في (و، د).

(٢) قراءة (علىٰ) بالتخفيف. وبها قرأ عامة القراء غير نافع فقرأ (عليَّ) بتشديد الياء. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (٢٨٧)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (٢٨٩).

(٣) (د، ي، ع): «أقول».

(٤) قراءة (عليَّ) بتشديد الياء.

[الشورى: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية [يونس: ١٥]، وهذا لبسطه موضعٌ آخر[١].

وإنما المقصود هنا أن احتجاجهم بكلمةٍ واحدة ممَّا جاء به محمدٌ ﷺ لا يصحُّ بوجهٍ من الوجوه:

فإنه إن كان رسولًا صادقًا في كل ما يخبر به عن الله ﷻ فقد عَلِم كلُّ أحدٍ[٢] أنه جاء بما يخالف دينَ النصارىٰ، فيلزم إذا كان رسولًا صادقًا أن يكون دينُ النصارىٰ باطلًا.

وإن قالوا في كلمةٍ واحدة ممَّا جاء به: إنها باطلة، لزم أن لا يكون عندهم رسولًا صادقًا مبلغًا عن الله. وحينئذٍ، فسواءٌ قالوا: هو ملِكٌ عادل، أو هو عالمٌ من العلماء، أو هو رجلٌ صالحٌ من الصالحين، أو جعلوه قدِّيسًا عظيمًا من أعظم القَدَادِيس[٣]، فمهما عظَّموه به ومدحوه به لِمَا رأوه من محاسنه الباهرة

---

(١) (ي، ع، د): «بسطه في موضع آخر». وانظر: «شرح الأصبهانية» (٧٢٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٥٤)، وما سيأتي (١/ ٢٤٥).

(٢) (و): «واحد».

(٣) جمع قدِّيس، وهو استعمالٌ قليل، ووقع كذلك في «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٣٣١، ٤٥٥، ١٩/ ٤٧)، وما سيأتي (٣/ ٣٦٣)، والأشهر استعماله جمعًا للقُدَّاس، من صلوات النصارىٰ. وفي ط. النيل وما تلاها: «القديسين» علىٰ الجادة. والمثبت من الأصول.

وفضائله الظاهرة وشريعته الطاهرة، متىٰ كذَّبوه في كلمةٍ واحدة ممَّا جاء به أو شكُّوا فيها كانوا مكذِّبين له في قوله: إنه رسول الله، وأنه بلَّغ هذا القرآن عن الله.

ومن كان كاذبًا في قوله: إنه رسول الله، لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجَّةً البتة، لكن له أسوة أمثاله، فإن عُرِف صحةُ ما يقوله بدليل منفصل قُبِل القول؛ لأنه عُرِف صدقُه من غير جهته، لا لأنه قاله، وإن لم يُعْرَف صحةُ القول لم يُقْبَل.

فتبيَّن أنه إن لم يُقِرَّ المُقِرُّ لمن ذَكَر أنه رسول الله بأنه صادقٌ في كل ما يبلِّغه عن الله، معصومٌ عن استقرار الكذب خطأً وعمدًا[1]، لم يصحَّ احتجاجُه[2] بقوله.

وهذا الأصل يُبْطِل قول عقلاء أهل الكتاب، وهو لقول جهَّالهم أعظمُ إبطالًا، فإن كثيرًا من عقلاء أهل الكتاب - أو أكثرهم[3]- يعظِّمون محمدًا ﷺ؛ لِمَا دعا إليه من توحيد الله تعالىٰ، ولِمَا نهىٰ عنه من عبادة الأوثان، ولِمَا صدَّق التوارة والإنجيل والمرسلين قبله، ولِمَا ظهَر من عظمة القرآن الذي جاء به، ومحاسن الشريعة التي جاء بها، وفضائل أمَّته التي آمنت به، ولِمَا ظهر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجزات والكرامات.

لكن يقولون مع ذلك: إنه بُعِث إلىٰ غيرنا، وإنه ملكٌ عادل، له سياسةٌ عادلة، وإنه مع ذلك[4] حصَّل علومًا من علوم أهل الكتاب وغيرهم، ووَضَع لهم ناموسًا

(١) (و): «أو عمدا».

(٢) ط. النيل: «احتجاجهم»، وهو خطأ. وتبعتها ط. العاصمة خلافًا للأصول.

(٣) (و) وط. العاصمة: «وأكثرهم»، وعلىٰ الصواب في باقي الأصول وط. النيل.

(٤) (ي، د، ع): «او انه ملك عادل... او انه مع ذلك».

بعلمِه ودينِه[1]، كما وضع أكابرهم لهم القوانينَ والنواميسَ التي بأيديهم.

ومهما قالوه من هذا فإنهم لا يصيرون به مؤمنين به، ولا يسُوغ لهم بمجرَّد ذلك الاحتجاجُ بشيءٍ ممَّا قاله؛ لأنه قد عُرِف بالنقل المتواتر الذي يعلمه جميعُ الأمم من جميع الطوائف أنه قال: إنه رسول الله إلىٰ جميع الناس، وأن الله أنزل عليه القرآن. فإن كان صادقًا في ذلك، فمن كذَّبه في كلمةٍ واحدة فقد كذَّب رسول الله، ومن كذَّب رسول الله فهو كافر. وإن لم يكن صادقًا في ذلك لم يكن رسولًا لله، بل كان كاذبًا، ومن كان كاذبًا علىٰ الله يقول: إن[2] الله أرسلني بذلك، ولم يرسِله به، لا يجوز أن يُحْتَجَّ بشيءٍ من أقواله.

وأما من كان من جهلاء أهل الكتاب الذين يقولون: إنه كان مَلِكًا مسلَّطًا عليهم، وإنه رسولُ غضبٍ أرسله الله إرسالًا كونيًّا لا دينيًّا[3] لينتقم به منهم، كما أرسَل بُخْت نَصَّر وسِنْحَارِيب[4] علىٰ بني إسرائيل، وكما أرسَل جَنْكِس خان وغيره من الملوك الكافرين والظالمين ممَّا ينتقِم به ممَّن عصاه، فهؤلاء أعظم تكذيبًا له وكفرًا به من أولئك؛ فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحدٌ منهم: إن الله أنزل عليه كتابًا، ولا أن هذا الكلام الذي أبلِّغه إليكم هو كلام الله، ولا أن الله أمركم أن تصدِّقوني فيما أخبرتكم به، وتطيعوني فيما أمرتكم به، ومن لم يصدِّقني باطنًا وظاهرًا فإن الله يعذِّبه في الدنيا والآخرة، بل هؤلاء أرسلَهم إرسالًا كونيًّا قدَّره وقضاه، كما يرسِل الريحَ بالعذاب، وكما يرسِل الشياطين،

---

(١) أي بما معه من العلم والدين. وهو تركيبٌ مألوفٌ في كلام شيخ الإسلام كثير الوقوع. وفي ط. النيل والعاصمة: «بعلمه ورتبه»، خلاف الأصول.

(٢) ليست في (و).

(٣) «لا دينيًّا» ساقطة من ط. العاصمة، وهي في الأصول وط. النيل.

(٤) من ملوك الفرس ببابل، وهم ملوك الصابئة بعد الخليل إبراهيم عليه السلام. انظر: «المعارف» (٤٦، ٥٠)، و«تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٥٣٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٤٤٦)، و«تاج العروس» (٤/ ٤٣٧، ١٤/ ٢٢٦).

قال تعالىٰ: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٥].

وهذا بخلاف قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥]، فإن هذا يعني به الإرسال الدِّينيَّ الذي يحبُّه تعالىٰ ويرضاه، الذي هدىٰ به من اتَّبعهم وأدخله في رحمته، وعاقب من عصاهم وجعله من المستوجبين للعذاب، وهو الإرسال الذي أوجب الله به طاعة من أرسله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذه الرسالة التي أقام بها الحجَّة علىٰ الخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وهذا كما اصطفىٰ روحَ القُدس جبريل عليه السلام؛ لنزوله بالقرآن علىٰ من اصطفاه من البشر وهو محمدٌ ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٢]، فأخبر أنه نزل به جبريل، وسمَّاه «الروح الأمين»، وسمَّاه «روح القُدس».

وقد ذكره أيضًا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِظَنِينٍ[1] ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٢ - ٢٩]، فهذا الرسول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٧]، فهذا الرسول محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الإرسال الكوني الذي قدَّره وقضاه، مثل إرسال الرياح، وإرسال

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعهده.



الشياطين، فذلك نوعٌ آخر، قال تعالىٰ: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًا[1] بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨].

والله تعالىٰ له الخلق والأمر.

فلفظ: الإرسال، والبعث، والإرادة، والأمر، والإذن، والكتاب، والتحريم، والقضاء، والكلام، ينقسم إلىٰ: خَلْقِيٍّ وأمرِيٍّ، كونيٍّ[2] ودينيٍّ.

وقد ذكرنا الإرسال.

وأما البعث، فقال تعالىٰ في البعث الدِّينيِّ[3]: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال في الكونيِّ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [الإسراء: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ٣١].

وأما الإرادة، فقال تعالىٰ في الكونيَّة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤].

---

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو.

(٢) ط. النيل والعاصمة: «وكوني»، وفي الأصول بلا واو.

(٣) «في البعث الديني» ساقط من ط. العاصمة.

وقال تعالىٰ في الإرادة الدِّينيَّة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالىٰ في الأمر الكونيِّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكذلك في أظهر القولين[1] قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

وأما الأمر الدِّينيُّ مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وأما الإذن الكونيُّ مثل قوله في السَّحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والدِّينيُّ مثل قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

---

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٨/ ٤٢٠ - ٤٢٩)، و«شفاء العليل» لابن القيم (٤٨، ٢٨١).

والكتاب الكونيُّ مثل قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

والدِّينيُّ مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨].

والقضاء الكونيُّ كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢].

والدِّينيُّ كقوله[1]: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: أمَرَ.

والتحريم الكونيُّ مثل قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

والدِّينيُّ مثل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

والكلمات الكونيَّة مثل قول النبي ﷺ: **«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر»**[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٤٦١)، وأبو يعلى (٦٨٤٤) وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن خنبش رضي الله عنه في سياق خبر النبي ﷺ حين كادته الشياطين، وليس إسناده بالقوي، وقال البخاري كما في «الإصابة» (٦/ ٢٧٥): «في إسناده نظر». وجوَّده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٠٣)، وثبَّته شيخ الإسلام وذكر استفاضته. انظر: «جامع الرسائل» (١/ ١٠)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦). وشواهده كثيرة.

[التحريم: ١٢].

والدِّينيَّة مثل قول النبي ﷺ: «**اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[1]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر[2].

والمقصود هنا أنَّ[3] تفرُّق أهل الكتاب في النبي ﷺ كلٌّ يقول فيه قولًا هو نظيرُ تفرُّقِ سائر الكفار؛ فإن الكفار بالأنبياء من عادتهم[4] أن تقول كلُّ طائفةٍ فيه قولًا يناقض قول الطائفة الأخرىٰ، وكذلك قولهم في الكتاب الذي أُنزِل عليه، وأقوالهم كلُّها أقوالٌ مختلفةٌ باطلة.

وهذا هو الاختلافُ المذموم الذي ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وفي قوله: ﴿**إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**﴾ [الذاريات: ٨، ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ**﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿**وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) في حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حج النبي ﷺ.
(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١٩٤ - ٢٠١).
(٣) ساقطة من ط. النيل. وفي ط. العاصمة: «أنه»، وهو خطأ مخالف للأصول.
(٤) ط. العاصمة: «عاداتهم»، خلاف الأصول.

﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

ومثال أقوال الكفار في الأنبياء ما ذكره تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ١ - ٩].

فبيَّن سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالًا كلها باطلة، ضلُّوا فيها عن الحق، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلًا إلىٰ الحق.

وضربُ الأمثال له يتضمَّن تمثيلَه بأناسٍ آخرين، وجعلَه في تلك الأنواع التي ليس هو منها ولا مماثلًا لأفرادها، مثل قولهم: إنه(١) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، مثَّلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه علىٰ ما يفتريه، ومثَّلوه بمن يستكتبُ أساطيرَ الأوَّلين من غيره، فتُقْرَأ عليه طرفي النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله، ومثَّلوه بالمسحور.

---

(١) (و، ي): «إنه إفك»، وغيَّرته ط. العاصمة إلىٰ «إن هذا إلا إفك» ليوافق لفظ الآية.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٩٦].

قال كثيرٌ من السلف: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ هم الذين عَضَهُوه، فقالوا: سِحْر، وشِعْر، وكهانة، ونحو ذلك(١).

كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٥٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٤/ ١٣٧، ١٣٨).

وقال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩ - ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ٢٠٩].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦ - ٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩ - ٥١].

وقد أخبر تعالىٰ أن هذه سنَّة الكفار في الأنبياء قبله، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه ساحر، وإنه مجنون، فقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقال(١): ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

وكذلك قالوا عن المسيح ابن مريم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) (و، ي): «وقالوا» ذهابًا للفظ الآية، والمثبت من (د، ع) أجود. وفي ط. العاصمة: «وقوله: وقالوا»، وهو خطأ مخالف للأصول.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

وذكر تعالىٰ عن اليهود أنهم قالوا علىٰ مريم بهتانًا عظيمًا، فقول اليهود في المسيح من جنس أقوال الكفار في الأنبياء، وكذلك قول كفار أهل الكتاب في خاتم الأنبياء محمد ﷺ تسليمًا.

وإن قالوا: نحن مقصودنا بيان تناقضه، وأن كلامه ينقض بعضه بعضًا.

قيل: فهذا أيضًا يستلزم أنه ليس رسولًا صادقًا، فلا يصحُّ لكم الاحتجاج بشيءٍ من قوله علىٰ هذا التقدير، وإن كنا نحن نبيِّن أنه ولله الحمد قوله يصدِّق بعضه بعضًا، وكذلك يصدِّق قول الأنبياء قبله، وأن قول الأنبياء كلهم يوافق صريح العقل، فلا يتناقض شيءٌ من الحقِّ المعلوم بسمعٍ أو عقل[١].

فإذا عُلِمَ هذا فنقول بعد ذلك لمن قال: إنه رسولٌ أُرسِل إلىٰ العرب الجاهلية دون أهل الكتاب:

إنه من المعلوم بالضرورة لكلِّ من عَلِم أحواله، وبالنقل[٢] المتواتر الذي هو أعظمُ تواترًا ممَّا يُنقَل عن موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه، وسنَّته المتواترة عنه، وسنَّة خلفائه الراشدين من بعده = أنه ﷺ ذَكَر أنه أُرسِل إلىٰ أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، كما ذَكَر أنه أُرسِل إلىٰ الأمِّيِّين، بل ذَكَر أنه أُرسِل إلىٰ جميع بني آدم عربهم وعجمهم، من الروم والفُرس والتُّرك والهند والبربر والحبشة وسائر الأمم، بل إنه أُرسِل إلىٰ الثَّقلين الجن والإنس جميعًا.

---

(١) من قوله: «وإن قالوا نحن مقصودنا» إلىٰ هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٢) ط. العاصمة: «بالنقل»، وهو خطأ، والصواب المثبت من الأصول. وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٠٨).

وهـذا كلُّـه مـن الأمـور الظـاهرة المتـواترة عنـه التـي اتفـق علـىٰ نقلهـا عنـه أصحابه مع كثرتهم وتفرُّق ديارهم وأحوالهم، وقد صحبه عشراتُ ألـوفٍ لا يحصي عـددهم علىٰ الحقيقة إلا الله تعـالىٰ، ونقَل ذلك عنهم التـابعون وهـم أضعاف الصحابة عددًا.

ثم ذلك منقولٌ قرنًا بعد قرنٍ إلىٰ زمننا، مع كثرة المسلمين وانتشـارهم في مشـارق الأرض ومغاربهـا، كمـا أخبَر بـذلك قبـل أن يكـون، فقـال في الحـديث الصَّحيح: «**زُوِيَت لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغُ ملكُ أمتي مـا زُوِيَ لي منها**»[1].

وكان كمـا أخبَـر، فبلـغ ملـكُ أمَّتِـه طـرفي العمـارة شـرقًا وغربًـا، وانتشـرت دعوتـه في وسـط الأرض، كـالإقليم الثالـث والرابـع والخـامس[2]؛ لأنهـم أكمـل عقولًا وأخلاقًا، وأعدل أمزجةً، بخلاف طرفي الجنـوب والشـمال؛ فـإن هـؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم، وانحرفت أمزجتهم. أما طرف الجنـوب؛ فإنـه لقـوة الحـرارة احترقـت أخلاطهـم، فاسـودَّت ألـوانهم، وتجعَّـدت شـعورهم. وأمـا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) الإقليم: أماكن تقطعها الشمس في طلوعها وغروبها وارتفاع درجها. والأقاليم عند القدماء في الجزء المعمور من الأرض سبعةٌ علىٰ هيئة دوائر، يقع الإقليم الرابع في وسطها، والأقاليم الستة الأخرىٰ تدور حوله. ويبتدئ الإقليم الثالث من المشرق، فيمر علىٰ بلاد الصين، فبلاد الهند، إلىٰ جنوب العراق، ثم علىٰ بلاد الشام، فمصر، إلىٰ بلاد المغرب. والإقليم الرابع وهو إقليم العراق، ويقال له: إقليم بابل، يبتدئ من المشرق فيمر علىٰ بلاد التبت، ثم علىٰ خراسان ، إلىٰ أعالي العراق والشام، ثم يمر علىٰ جزيرة قبرص، إلىٰ شمال المغرب. والإقليم الخامس، وهو إقليم الروم، يبتدئ من المشرق، ثم يمر علىٰ شمال حرَّان، فبلاد الروم، إلىٰ الأندلس، ثم ينتهي إلىٰ بحر المغرب. انظر: «التنبيه والإشراف» للمسعودي (٢٩- ٣٠)، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١/ ٤٨- ٥٣).

طرف[1] الشمال؛ فلقوَّة البرد لم تنضُج أخلاطهم، بل صارت فِجَّة، فأفرطوا في سُبوطة الشعر، والبياض البارد الذي لا يُسْتَحْسَن[2].

ولهذا لمَّا ظهر الإسلام غلب أهلُه علىٰ وسط المعمورة، وهم أعدلُ بني آدم وأكملُهم، والنصارىٰ الذين تربَّوا تحت ذمَّة المسلمين أكملُ من غيرهم من النصارىٰ عقولًا وأخلاقًا، وأما النصارىٰ المحاربون للمسلمين الخارجون عن ذمَّتهم من أهل الجنوب والشمال فهم أنقصُ عقولًا وأخلاقًا، ولِمَا فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام.

والمقصود أن محمدًا ﷺ هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ إلىٰ الإيمان به وبما جاء به، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم.

وهو الذي أخبر عن الله تبارك وتعالىٰ بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يَصْلَون جهنَّم وساءت مصيرًا، وهو الذي أمر بجهادهم، ودعاهم بنفسه ونوَّابه.

وحينئذٍ، فقولهم في الكتاب[3]: «لم يأت إلينا، بل إلىٰ الجاهليَّة[4] من العرب»، سواءٌ أرادوا أن الله بعثه إلىٰ العرب ولم يبعثه إلينا، أو أرادوا أنه ادَّعىٰ أنه أُرسِل إلىٰ العرب لا إلينا، فإنه قد عَلِم[5] جميعُ الطوائف أن محمدًا دعا

---

(١) (ت، و): «أهل طرف».

(٢) في «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١٢٧٢ - ١٢٧٩)، و«مقدمة ابن خلدون» (١/ ١٤٧- ١٥٢) بحثٌ في المعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتأثيرها في ألوان ساكنيها وطباعهم وأخلاقهم، وذلك بحسب معارف عصرهم وما انتهىٰ إليه علمهم.

(٣) رسالة بولس الراهب الأنطاكي (ص: ٤١٤).

(٤) (د، ي، ع): «الجاهلين». والمثبت من (ت، و) يوافق نص رسالة بولس.

(٥) (د، ي، ع): «ثبت وعلم»، وعلىٰ الصواب في (ت)، وضرب علىٰ «ثبت و» في (و).

اليهود والنصارىٰ إلىٰ الإيمان به، وذَكَر أن الله أرسله إليهم، وأمرَه[1] بجهاد من لم يؤمن به منهم.

فإذا قيل مع هذا: إنه قال: «لم أُبْعَث[2] إلا إلىٰ العرب» كان كذبًا[3] ظاهرًا عليه، سواءٌ صدَّقه الإنسان أو كذَّبه، فإن المقصود هنا أنه نفسَه دعا جميعَ أهل الأرض إلىٰ الإيمان به[4]، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأمِّيِّين.

أما اليهود، فإنهم كانوا جيرانه في الحجاز وبالمدينة[5] وما حولها وخيبر، فإن المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيفٍ ولا قتال، بل لِمَا ظهَر لهم من براهين نبوَّته ودلائل صدقه آمنوا به، وقد حصَل من الأذىٰ في الله لمن آمن بالله ما هو معروفٌ في السيرة[6].

وقد آمن به في حياته كثيرٌ من اليهود والنصارىٰ، بعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، وكثيرٌ منهم كانوا بغير مكة والمدينة، فلما قدم المدينة عاهد من[7] لم يؤمن به من اليهود، ثم نقضوا العهد، فأجلىٰ بعضهم، وقتَل بعضهم؛ لمحاربتهم لله ورسوله.

وقد قاتلهم مرَّةً بعد مرَّة:

قاتل بني النضير، وأنزل الله تعالىٰ فيهم سورة الحشر.

---

(١) (د، ي، ع): «وأمر».
(٢) (د، ي، ع): «فإذا قيل مع هذا إنه لم يبعث». والصواب المثبت من (ت، و).
(٣) (و): «كان كاذبا كذبا». وضرب علىٰ «كاذبا» في (ت).
(٤) ليست في (و، ي، د، ع).
(٥) كذا في الأصول. وفي ط. النيل: «بالمدينة» دون الواو، وهو أجود.
(٦) من قوله: «فإن المهاجرين» إلىٰ هنا ثابتٌ في كافة الأصول، ولعله كان لحقًا في أصل المصنف ووضعه النساخ في غير موضعه.
(٧) (ت، د، ي، ع): «لمن». والمثبت من (و) هو الجادة.

وقاتل بني قريظة[1] عام الأحزاب، وذكرهم الله في سورة الأحزاب.

وقاتل قبلهم بني قينقاع.

وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة وكانوا ألفًا وأربعمئة، ففتح الله عليهم خيبر، وأقرَّ اليهودَ فيها فلَّاحين، وأنزل الله تعالىٰ سورة الفتح يَذْكُر فيها ذلك.

فكيف يقال: إنه لم يَذْكُر أنه أُرْسِل إلا إلىٰ مشركي العرب، وهذه حال[2] اليهود معه؟!

وأما النصارىٰ، فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصارىٰ، فقَدِم عليه وفدُهم ستُّون راكبًا، وناظرَهم في مسجده، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران، ولمَّا ظهرت حجَّته عليهم، وتبيَّن لهم أنه رسول الله إليهم[3]، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فلما دعاهم إلىٰ المباهلة طَلَبوا[4] أن يُمْهِلَهم حتىٰ يَشْتَوِروا[5]، فاشتَوَرُوا، فقال بعضهم لبعض: تَعَلَّموا[6] أنه نبيٌّ، وأنه ما باهل قومٌ نبيًّا إلا نزل بهم العذاب. فاستعفَوا من

---

(١) (ت، ي، و): «قاتل قريظة».

(٢) (د، ي، ع): «حالة».

(٣) ليست في (ك، ع).

(٤) ط. العاصمة: «طالبوا»، وهو خطأ.

(٥) تشاور القوم واشتوروا بمعنًى.

(٦) أي: اعلموا وتحققوا. انظر: «إكمال المعلم» (٨/ ٤٧٤). وتوهَّمته ط. العاصمة فعلًا مضارعًا فأضافت نون الرفع «تعلمون» متابعة لطبعة المدني، وهو في الأصول وط. النيل بغير نون. ولو كان مضارعًا فلا حاجة لإضافتها، فإن حذفها بلا ناصب أو جازم تخفيفًا مسموعٌ عن العرب وشواهده كثيرة.

المباهلة، فصالَحوه، وأقرُّوا له بالجزية عن يدٍ وهم صاغرون؛ لِمَا خافوا من دعائه عليهم، لعلمهم أنه نبيٌّ.

فدخلوا تحت حكمه، كما يدخل أهلُ الذمَّة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدَّوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهم أول من أدَّىٰ الجزية من النصارىٰ.

واستعمَل عليهم وعلىٰ من أسلم منهم[1] عمرو بن حزم الأنصاري، وكتب له كتابًا مشهورًا يَذْكُر فيه شرائعَ الدِّين[2]، فكانوا في ذمَّة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه.

وقصَّتهم مشهورةٌ متواترة، نقلها أهل السِّيَر، وأهل التفسير[3]، وأهل الحديث، وأهل الفقه، وأصل حديثهم معروفٌ في الصِّحاح والسُّنن، كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ[4].

ووفدُ نجران لمَّا قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ما جرىٰ صدر سورة آل عمران.

---

(١) ليست في (د، ي، ع)، وهي في (ت) واستُدرِكت في طرة (و).

(٢) أخرجه النسائي (٤٨٥٣)، وابن حبان (٦٥٥٩) وغيرهما، وفي سنده كلام، وروي مرسلًا، لكن الأمر فيه كما قال ابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/ ٣٣٨): «هو كتابٌ مشهور عند أهل السير، معروفٌ ما فيه عند أهل العلم معرفةً تستغني بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة». وقال الإمام أحمد: «أرجو أن يكون صحيحًا»، ونقل عنه شيخ الإسلام قوله: «لا شك أن النبي ﷺ كتبه». مسائل أبي القاسم البغوي (٣٨، ٧٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٢٦٦). وحكىٰ الإجماع علىٰ تصحيحه في «شرح العمدة» (٤/ ٢٣). وانظر: «تنقيح التحقيق» (١/ ٢٣٠)، و«التلخيص الحبير» (٥/ ٢٦١٣).

(٣) «وأهل التفسير» ساقطة من ط. العاصمة.

(٤) (١/ ٧٨-٩٢).

وذكر تعالىٰ فرضَ الحجِّ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهذا نزل إما سنة تسعٍ وإما سنة عشر، كما ذكر ذلك غير واحدٍ من العلماء، منهم القاضي أبو يعلىٰ وغيره، قالوا: «وجوب الحج ثبت بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، ورُوِي[١] أنه نزل في سنة عشر، ورُوِي أنه نزل في سنة تسع»[٢]، وهذا قول جمهور العلماء[٣]، قالوا: إنَّ فرضَ الحجِّ إنما ثبت بهذه الآية[٤].

وقال بعضهم: بل ثبت ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦][٥].

وهذه الآية نزلت سنة ستٍّ، عام الحديبية، لمَّا صدَّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت، وصالحَهم ذلك العام، وبايع المسلمين تحت الشجرة، وأنزل الله فيها سورة الفتح، ثم رجع إلىٰ المدينة، وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع، وفيها قدم عليه جعفر بن أبي طالب مع وفد الحبشة، ثم أرسل جعفرًا وزيدًا وعبد الله بن رواحة لغزو النصارىٰ لمؤتة، ثم فتح مكة سنة ثمانٍ في رمضان.

ثم في أثناء سنة تسعٍ غزا النصارىٰ إلىٰ تبوك، وفيها حجَّ أبو بكر

---

(١) (د، ي، ع): «روي». والمثبت من (ت، و) و«التعليقة».
(٢) «التعليقة» للقاضي أبي يعلىٰ (١/ ١٢٦).
(٣) انظر: «المبسوط» (٤/ ١٦٤)، و«الذخيرة» (٣/ ١٨١)، و«زاد المعاد» (٢/ ١٢٣).
(٤) قال شيخ الإسلام: «وهذا هو الصَّحيح». انظر: «الإيمان الأوسط» (١٥١)، و«شرح العمدة» (٤/ ١١٢- ١١٧)، و«تفسير آيات أشكلت» (١/ ٣٩٩)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٦/ ٧، ٢٧/ ٢٦٥).
(٥) انظر: «الحاوي» (٤/ ٢٥)، و«هداية السالك» لابن جماعة (١/ ٣٢٤).

الصديق رضي الله عنه، وأمر أن لا يحجَّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان، وأردفه بعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه لنبذ العهود[1].

وأنزل الله آية السَّيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢][2]؛ فإن المشركين كانوا علىٰ نوعين:

نوعًا لهم عهدٌ مطلقٌ غير مؤقَّت، وهو عقدٌ جائزٌ غير لازم.

ونوعًا لهم عهدٌ مؤقَّت.

فأمر الله رسوله أن ينبذ إلىٰ المشركين أهل العهد المطلق؛ لأن هذا العهد جائزٌ غير لازم، وأمره أن يسيِّرهم أربعة أشهر، ومن كان له عهدٌ مؤقَّتٌ فهو عهدٌ لازم، فأمره الله أن يوفي له إذا كان مؤقتًا.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلىٰ أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقَّتة. وذهب بعضهم إلىٰ أنه يجوز للإمام أن يفسخ الهدنة المؤقَّتة[3] مع قيامهم بالواجب. والصواب

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ومن ظن أنها الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فقد غلط. انظر: «الصفدية» (٢/ ٣٢٠)، و«منهاج السنة» (٨/ ٥١٣)، و«الإيمان الأوسط» (١٤٢)، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٧٩).

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

هو القول الثالث، وهو أنها تجوز مطلقةً ومؤقتة، فأما المطلقة فجائزةٌ غير لازمةٍ يخيَّر بين إمضائها وبين نقضها، والمؤقتة لازمة[1].

قال تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ

---

(١) انظر: «الحاوي» (١٤/ ٣٥٢)، و«المغني» (١٣/ ١٥٤، ١٥٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٩/ ١٤٠)، و«زاد المعاد» (٣/ ١٧١، ٥/ ١٣٥)، و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٧٤).

وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١ - ١٣].

والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصارىٰ: السَّيِّد، والعاقِب، ومن معهما(١).

قال أبو الفرج ابن الجوزي(٢): «ثم دخلت سنة عشر من الهجرة، فمن الحوادث فيها: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلىٰ بني الحارث بن كعب، فروىٰ ابن إسحاق(٣) قال: بعث رسول الله ﷺ خالدًا في ربيع الآخر أو جمادىٰ الأولىٰ في سنة عشر إلىٰ [بني] الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلىٰ الإسلام قبل أن يقاتلهم»، وذكر القصَّة.

ثم قال: «وفيها قدم وفدُ الأزد ....، وفيها قدم وفدُ غسَّان ....، وفيها قدم وفدُ زبيد .... .

وفيها قدم وفدُ عبد القيس. قال ابن إسحاق: قدم علىٰ رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانيًّا، فأسلموا.

وفيها قدم وفدُ كِندة فأسلموا، وفيها قدم وفدُ بني حنيفة ....، وفيها قدم وفدُ بَجِيلة».

قال: «وفيها قدم العاقبُ والسَّيِّد من نجران، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابَ صُلْح».

---

(١) (د، ع، ي، و): «معهم».
(٢) «المنتظم» (٣/ ٣٧٩- ٣٨٤، ٤/ ٣).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٩).



وذكر محمد بن سعد في «الطبقات»[1] قدومهم في ذكر الوفود[2]، فقال: «ذِكرُ بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة عشرٍ إلىٰ بني الحارث بن كعب»[3]، ذكره بإسناده:

أخبرنا[4] محمد بن عمر[5]، حدثني إبراهيم بن موسىٰ المخزومي، عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه.

ثم ذكر قدوم نصارىٰ نجران من طريق علي بن محمد[6]، فقال:

أخبرنا[7] علي بن محمد القرشي -وهو المدائني المشهور[8]-، عن أبي معشر[9]، عن يزيد بن رومان، ومحمد بن كعب.

قال: وأخبرنا علي بن مجاهد[10]، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، وعكرمة بن خالد، وعاصم بن عمر بن قتادة.

---

(١) (١/ ٢٩٢).

(٢) (و): «في الوفود».

(٣) ذكر ابن سعد الخبر في «الطبقات» التي بأيدينا في «وفد الحارث بن كعب»، وليس فيه قوله: «ذكر بعث النبي ﷺ خالد ...».

(٤) (د، ع): «حدثنا»، واختُصِرت في (ي): «ثنا». وفي (و): «أبنا» وهي اختصار «أخبرنا»، وكذلك وقعت في «الطبقات». وأصلحت في (ت) بغير قلم الناسخ إلىٰ «أنبأنا».

(٥) الواقدي، ولم أر الخبر في مطبوع مغازيه، وبغير هذا الإسناد فيه (٢/ ٨٨٣).

(٦) «الطبقات» (١/ ٣٠٠).

(٧) (و): «أنا»، (ت): «أبنا»، ووقعت تامة في (د، ي، ع) و«الطبقات»، وذكر المعلق علىٰ ط. العاصمة أنها اختصار «أنبأنا»، وتلك لا تختصر.

(٨) «القرشي» و«المشهور» ليستا في (و، د، ع، ي).

(٩) (ت): «فقال أخبرنا علي بن محمد عن أبي معشر». وهو سهو.

(١٠) (و، ي، د، ع): «علي بن محمد بن مجاهد»، وضرب علىٰ «محمد بن» في (ت)، وعلىٰ الصواب في «الطبقات».

وأخبرنا[١] يزيد بن عِياض[٢] بن جُعْدُبة، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم.

وعن غيرهم من أهل العلم، يزيد بعضهم علىٰ بعض.

قالوا: وفَد فلانٌ وفلان[٣] في رجالٍ من خَثْعَم إلىٰ رسول الله ﷺ بعدما هدم جريرُ بن عبد الله رضي الله عنه ذا الخَلَصَة، وقُتِل من قُتِل من خَثْعَم، فقالوا: آمنَّا بالله ورسوله، فاكتب لنا كتابًا. وذكروا القصَّة، وقدوم وفودٍ متعدِّدة[٤].

قالوا: وقدم وفدُ نجران[٥]، وكتب رسول الله ﷺ إلىٰ أهل نجران، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارىٰ، وفيهم ثلاثة نفرٍ يتولَّون أمورهم:

العاقب: واسمه عبد المسيح، رجلٌ من كِندة، وهو أميرهم وصاحبُ مشورتهم، والذي يَصْدُرون عن رأيه.

وأبو الحارث: أُسْقُفُهم وإمامهم، وصاحبُ مِدْرَاسِهم[٦].

والسَّيِّد: وهو صاحبُ رحلتهم.

فدخلوا المسجد وعليهم ثيابُ الحِبَرة[٧] وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**»، ثم أتوا

---

(١) الأصول: «وأنا». وفي ط. العاصمة: «أنا» بلا واو، متصلة بما قبلها، وهو خطأ. وقائل «أخبرنا» هو علي بن محمد المدائني.

(٢) ط. العاصمة: «عايض»، وهو خطأ مخالفٌ للأصول.

(٣) هما: عثعث بن زحر وأنس بن مدرك، كما في «الطبقات».

(٤) في (د) زيادة مضروب عليها في ذكر بعض الوفود، وهي لحقٌ في (ت) لم يتبين آخره، وأثبتت في ط. النيل.

(٥) «وقدم وفد نجران» زيادة توضيحية من المؤلف، وليست في «الطبقات».

(٦) البيت الذي يدرسون فيه. ويطلق علىٰ صاحب دراسة كتبهم. «النهاية» (درس).

(٧) ثيابٌ يمانية من قطن أو كتان مخططة. «المصباح المنير» (حبر).

النبي ﷺ، فأعرض عنهم فلم يكلِّمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زِيِّكم هذا.

فانصرَفوا يومهم ذلك، ثم غَدَوا عليه بزيِّ الرُّهبان، فسلَّموا عليه، فردَّ عليهم ودعاهم إلىٰ الإسلام، فأبَوا، وكَثُر الكلام والحِجَاج بينهم، وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله ﷺ: «**إن أنكرتم ما أقول فهلمَّ أباهِلْكم**».

فانصرفوا علىٰ ذلك، فغدا عبدُ المسيح ورجلان من ذوي رأيهم علىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببتَ نُعْطِك[1] ونُصَالِحْك.

فصالَحَهم علىٰ ألفي حُلَّة في رجب، وألفٍ في صفر، أو قيمة كلِّ حُلَّةٍ من الأواقي، وعلىٰ عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين فرسًا، إن كان باليمن كيد، ولنجران وحاشيتهم جوارُ الله وذمَّةُ محمد رسول الله ﷺ علىٰ أنفسهم، ومِلَّتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبِيَعِهم، لا يُغَيَّر أُسْقُفٌ من سِقِّيفاه[2]، ولا راهبٌ من رهبانيَّته، ولا واقفٌ[3] من وقفانيَّته.

وأشهَد علىٰ ذلك شهودًا، منهم: أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، والمغيرة بن شعبة.

فرجعوا إلىٰ بلادهم، فلم يلبث السَّيِّد والعاقب إلا يسيرًا حتىٰ رجعا إلىٰ النبي ﷺ فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري.

---

(١) (و، د، ي، ع): «نعطيك» علىٰ الإشباع. والمثبت من (ت) و«الطبقات» هو الجادة.
(٢) السِّقِّيفىٰ مصدر، أي لا يُمْنَع من تسقُّفه وما يعانيه من أمر دينه. «النهاية» (سقف).
(٣) الواقف: خادم البيعة؛ لأنه وقف نفسه علىٰ خدمتها. «النهاية» (وقف).

وأقام أهل نجران علىٰ ما كتب لهم به النبي ﷺ حتىٰ قبضه الله صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه.

ثم وَلِيَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فكتب بالوصاة بهم عند وفاته.

ثم أصابوا رِبًا، فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم: «هذا ما كتَب عمرُ أمير المؤمنين لنجران، أنه من سار منهم أنه آمنٌ بأمان الله، لا يضرُّهم أحدٌ من المسلمين، ووفىٰ لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر.

أما بعد، فمن وَقَعُوا[1] به من أمراء الشام وأمراء العراق فليُوسِعْهم[2] مِن خَراب الأرض[3]، فما اعتَمَلوا من ذلك فهو لهم صدقة، وعُقْبَةٌ[4] لهم مكان[5] أرضِهم، لا سبيل عليهم فيه لأحدٍ ولا مَغْرَم[6].

(١) «الأصل» لمحمد بن الحسن (٧/ ٥٥٤): «وقفوا»، وفي «الخراج» لأبي يوسف (٧٣): «مرُّوا». والمثبت من الأصول و«الطبقات» و«الأموال» لأبي عبيد (٥١٨) و«مسند الفاروق» لابن كثير (٢/ ٣٣٩) وغيرها.

(٢) أي: يمكِّنهم. وفي «الخراج»: «فليوسقهم».

(٣) أي: الأرض الموات التي لم تُزْرَع. وفي «الأموال» من طريق آخر سيأتي: «خريب الأرض». قال أبو عبيد: «ما أراه إلا خراب الأرض ولكن الكاتب كتبه: خريب». وفي ط. العاصمة: «جريب الأرض» متابعة لمطبوعة «الطبقات». والمثبت من الأصول و«مسند الفاروق». وفي «الخراج» و«الأصل»: «حرث الأرض».

(٤) أي: بدل، كما في «فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد علىٰ خزانة كتاب الخراج لأبي يوسف» للرحبي (١/ ٤٨٦)، وانظر: «تاج العروس» (٣/ ٤٠١). وفُسِّرت في حاشية ط. العاصمة بأن المراد أنه يأخذها ذريتهم من بعدهم. وهو خطأ.

(٥) في الأصول وط. النيل والعاصمة: «فكان»، وهو تحريف. وفي «الطبقات»: «بمكان». وكما أثبتُّ في «الخراج» و«الأصل» و«مسند الفاروق».

(٦) «الأصل» لمحمد بن الحسن: «معترض»، وهو خطأ.

أما بعد، فمن حَضَرهم من رجلٍ مسلم فلينصرهم علىٰ من ظلمهم؛ فإنهم أقوامٌ لهم الذِّمَّة، وجِزيتُهم عنهم متروكةٌ أربعةً وعشرين شهرًا بعد أن يَقْدَموا، ولا يُكَلَّفُوا إلا من ضَيْعَتِهم[1] التي اعتَمَلوا، غير مظلومين ولا مَعْسُوفٍ[2] عليهم».

شَهِد عثمانُ بن عفان رضي الله عنه، ومُعَيْقِيب بن أبي فاطمة.

فوقع ناسٌ منهم العراق[3]، فنزلوا النَّجرانية التي بناحية الكوفة[4].

وما ذكره ابن سعد عن علي بن محمد المدائني عن أشياخه في حديث وفد نجران، فهو يوافق ما ذكره ابن إسحاق؛ فإن قوله: «أربعة عشر من أشرافهم» يوافق قول ابن إسحاق[5] عن محمد بن جعفر قال: قَدِم علىٰ رسول الله ﷺ وفدُ نجران ستُّون راكبًا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثةُ نفرٍ إليهم يؤول أمرُهم:

العاقبُ: أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحبُ مشورتهم، والذي لا يَصْدُرون إلا عن رأيه، واسمُه عبد المسيح.

---

(١) الضيعة: الحرفة والصناعة، والأرض المُغِلَّة، كما في «التاج» (ضيع). وفي «الخراج» و«الأصل»: «من صنعهم البر». وفي «فقه الملوك»: «البز» أي: لا يكلفوا بدفع الجزية إلا من حُلَل البزِّ التي يصنعون. وما في الأصول و«الطبقات» ظاهر.

(٢) كذا في الأصول، والعَسْف: الظلم والأخذ بقوة وعنف. وفي ط. العاصمة: «معنوف» متابعة للطبقات. وفي «الخراج»: «معتدىٰ»، وفي «الأصل»: «معنوفًا».

(٣) (ع): «في العراق». وفي بعض المصادر: «بالعراق».

(٤) «الطبقات» (١/ ٣٠٧- ٣٠٨).

(٥) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٢٢). ومن طريقه ابن جرير في التفسير (٥/ ١٧٢). وانظر: تفسير ابن المنذر (١/ ١٠٨)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٣٩٠٦)، و«الكشف والبيان» للثعلبي (٨/ ١٦، ١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٨٣).

والسَّيِّد: ثِمَالهم[1]، وصاحب رَحْلِهم ونُجْعَتِهم[2]، واسمه الأيهَم.

وأبو حارثة بن علقمة أحدُ[3] بني بكر بن وائل: أُسْقُفُهم، وحَبْرُهم، وإمامهم، وصاحبُ مِدْرَاسِهم.

وكان أبو حارثة قد شَرُفَ فيهم، ودَرَس كتبَهم حتىٰ حَسُنَ علمُه في دينهم، فكانت ملوك الرُّوم من أهل النصرانية قد شرَّفوه، وموَّلوه، وأخدَموه، وبنوا له الكنائس، وبسَطوا له الكرامات؛ لِمَا بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجَّهوا إلىٰ رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة علىٰ بغلةٍ له موجهًا، وإلىٰ جنبه أخٌ له يقال له: كُرْز بن علقمة، فعثَرت بغلةُ أبي حارثة، فقال كُرْز: تَعِسَ الأبعدُ، يريدُ رسولَ الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تَعِسْتَ، فقال: لم يا أخي؟ قال: والله إنه لَلنبيُّ الذي كنَّا ننتظِر، فقال له كُرْز: فما منعَك منه وأنت تعلم هذا؟! قال: ما صنَع بنا هؤلاء القوم، شرَّفونا، وموَّلونا، وأكرمونا، وقد أبَوا إلا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا منَّا كلَّ ما ترىٰ. فأضمر عليها منه أخوه كُرْز بن علقمة حتىٰ أسلم بعد ذلك، وهو كان يحدِّث عنه هذا الحديث فيما بلغني.

قال ابن هشام[4]: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبًا[5] عندهم، فكلما مات رئيسٌ منهم فأفضت الرِّياسة إلىٰ غيره ختَم علىٰ تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التي قبله ولم يَكْسِرها، فخرج الرئيسُ الذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ يمشي، فعَثَر، فقال ابنه: تَعِسَ الأبعدُ، يريد رسولَ الله ﷺ، فقال له أبوه:

---

(١) الثِّمال: الغِيَاث الذي يقوم بأمر قومه. «التاج» (ثمل).

(٢) كذا رسمت في الأصول دون ضبط. والنُّجعة: طلب الكلأ. وفي سيرة ابن هشام وعامة المصادر الناقلة عن ابن إسحاق: «ومجتمعهم».

(٣) (ت): «أخو»، وستأتي كذلك. والمثبت من (د، و، ع، ي) وسيرة ابن هشام.

(٤) «السيرة» (٢/ ٢٢٣).

(٥) ط. العاصمة: «كتابًا»، وهو خطأ مخالف للأصول و«السيرة».

لا تفعَل؛ فإنه نبيٌّ، واسمُه في الوضائع، يعني: الكتب. فلما مات لم تكن لابنه همَّةٌ إلا أن شدَّ فكسَر الخواتم، فوجد فيها ذكرَ النبيِّ ﷺ، فأسلم فحَسُن إسلامُه، وحَجَّ، وهو الذي يقول(1):

إليك تغدو قَلِقًا وَضِينُها

معترضًا في بطنها جنينُها

مخالفًا دينَ النصارىٰ دينُها

قال ابن إسحاق(2): وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قَدِموا علىٰ رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجدَه حين صلىٰ العصر، عليهم ثيابُ الحِبَرات جُبَبٌ وأرديةٌ، في جَمَال رجال بني الحارث بن كعب. قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذٍ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم. وقد حانت صلاتُهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ [يُصَلُّون]، فقال: «دعوهم». فصلُّوا إلىٰ المشرق.

قال ابن إسحاق: وكان تسمية الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمرُهم: العاقبُ وهو عبد المسيح، والسَّيِّد وهو الأيهَم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيس، ويزيد، ونُبَيْه، وخُوَيلد، وعمرو(3)، وخالد، وعبد الله، ويُحَنَّس، في ستِّين راكبًا.

فكلَّم رسولَ الله ﷺ منهم: أبو حارثة بن علقمة، والعاقبُ عبدُ المسيح،

---

(1) (ت، و): «وهو يقول».

(2) «السيرة» لابن هشام (2/ 223- 225)، وتفسير ابن جرير (5/ 172- 173).

(3) ط. العاصمة: «وعمر»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.



والأيهَم السَّيِّد، وهم من النصرانية على دين المَلِك، مع اختلافهم[1] من أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولدُ الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية.

فهم يحتجُّون في قولهم: «هو الله» بأنه كان يحيي الموتىٰ، ويبرئ الأسقام، ويُخْبِر بالغيوب، ويخلقُ من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا، وذلك كله بأمر الله، وليجعله آيةً الناس.

ويحتجُّون في قولهم: «إنه ولدُ الله» بأنهم[2] يقولون: لم يكن له أبٌ يُعْلَمُ، وقد تكلَّم في المهد، وهذا شيءٌ لم يصنعه أحدٌ من ولد آدم.

ويحتجُّون في قولهم: «ثالثُ ثلاثة» بقول الله: فَعَلنا[3] وأَمَرنا وخلَقنا وقضَينا، فيقولون: لو كان واحدًا ما قال إلا: فعلتُ وقضيتُ وأمرتُ وخلقتُ، ولكنه هو وعيسىٰ[4] ومريم.

ففي كلِّ ذلك من قولهم قد نزل القرآن.

فلما كلَّمه الحَبْران، قال لهما رسول الله ﷺ: «**أَسْلِما**»، قالا: قد أسلمنا. قال: «**إنكما لم تُسْلِما، فأَسْلِما**». قالا: بلىٰ، قد أسلمنا قَبلك. قال: «**كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولدًا، وعبادتكما للصَّليب، وأكلكما الخنزير**»، قالا: فمن أبوه يا محمَّد؟ فصمَت رسول الله ﷺ عنهما، فلم يُجِبْهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم كلِّه صدرًا من سورة آل عمران إلىٰ بضعٍ وثمانين آية.

---

(١) «السيرة» وتفسير ابن جرير: «اختلاف».

(٢) (و، ي): «فإنهم»، وهو خطأ، واختارته ط. العاصمة.

(٣) ط. العاصمة: «فعلمنا»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

(٤) ط. العاصمة: «هو عيسىٰ»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

وذكَر نزول الآيات بسببهم غيرُ واحد، مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره[1]، قال:

حدثنا المثنىٰ، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر - يعني عبد الله بن أبي جعفر الرازي- عن أبيه، عن الربيع في قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ - ٢]، قال: إن النصارىٰ أتوا رسول الله ﷺ، فخاصموه في عيسىٰ بن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا علىٰ الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو، لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولدًا، فقال لهم النبي ﷺ: «**ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا وهو يشبه أباه؟**»، قالوا: نعم. قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسىٰ يأتي عليه الفناء؟**»، قالوا: بلىٰ. قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا قيِّمٌ علىٰ كل شيءٍ يَكْلَؤُه ويحفظُه ويرزقه؟**»، قالوا: بلىٰ. قال: «**فهل يملك عيسىٰ من ذلك شيئًا؟**»، قالوا: لا. قال: «**ألستم تعلمون أن الله لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟**»، قالوا: بلىٰ. قال: «**فهل يَعْلَمُ عيسىٰ من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟**»، قالوا: لا. قال: «**فإن ربنا صوَّر عيسىٰ في الرَّحِم كيف شاء**»[2]، قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشربُ الشراب، ولا يُحْدِثُ الحَدَث؟**»، قالوا: بلىٰ. قال: «**ألستم تعلمون أن عيسىٰ حملته أمُّه كما تحمل المرأة، ثم وضعَته كما تَضَعُ المرأة ولدَها، ثم غُذِي كما يتغذَّىٰ الصَّبيُّ، ثم كان يَطْعَمُ الطعام ويشربُ الشراب ويُحْدِثُ الحَدَث؟**»، قالوا: بلىٰ. قال: «**فكيف يكون هذا كما زعمتم؟**». قال: فعرفوا، ثم أبَوا إلا جحودًا؛ فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

وقد ثبت في الصِّحاح حديثُ وفد نجران:

---

(١) (٥/ ١٧٤).

(٢) في ط. الحلبي لتفسير ابن جرير زيادة: «فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلىٰ».

ففي البخاري ومسلم[1] عن حذيفة[2].

وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: «**اللهمَّ هؤلاء أهلي**»[3].

وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: جاء السَّيِّد والعاقبُ صاحبا نجران إلىٰ رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبيًّا فلاعَنَنا لا نُفْلِح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنما نعطيك ما سألتنا، وابعَث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، قال: «**لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين**». قال: فاستشرفَ لها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «**قم يا أبا عبيدة ابن الجراح**»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمينُ هذه الأمة**»[4].

وفي سنن أبي داود وغيره[5]، قال أبو داود: أخبرنا مصرِّف بن عمرو

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٤٥، ٧٢٥٤)، ومسلم (٢٤٢٠).

(٢) «عن حذيفة» ليس في (ي، د، ع)، وهو في (ت) وألحق في (و). وسيأتي كذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (٩٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٤).

(٤) صحيح البخاري (٤٣٨٠).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٠٤١) ومن طريقه البيهقي (٩/ ١٩٥) بسند لا بأس به، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٩/ ٥٠٨).
وأعله المنذري في مختصر سنن أبي داود (٢/ ٣٤٣) بأن في سماع إسماعيل السُّدي من عبدالله بن عباس رضي الله عنهما نظرًا. وجوابه أن السُّدي قد أدرك سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فلا ينكَر أن يدرك ابنَ عباس وهو متأخرٌ عنه، كما أشار إلىٰ ذلك الحافظ ابن الأخرم. انظر: «تهذيب الكمال» (٣/ ١٣٧)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (١/ ٣٣٤).
وأعِلَّ بما في السُّدي من مقالٍ في «البدر المنير» (٩/ ١٩٥)، وبأسباط بن نصر في «ضعيف سنن أبي داود» (٢/ ٤٤٥). والأشبه أنهما صدوقان حسنا الحديث، وهو اختيار الذهبي في «الكاشف» (١/ ٢٤٧)، و«ديوان الضعفاء» (٣٠٦)، ولم يتفردا بما لا يحتمل، ولخبرهما شواهد ذكر بعضها المصنف وابن حجر في «التلخيص» (٦/ ٢٩٦٨).

اليامي، حدثنا يونس -يعني ابن بُكَير-، حدثنا أسباط بن نصر الهَمْداني، عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي، عن ابن عباس، قال: صالحَ رسولُ الله ﷺ أهل نجران علىٰ ألفي حُلَّة، النِّصف في صفر، والنِّصف في رجب، يؤدُّونها إلىٰ المسلمين، وعاريَّةٍ ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين من كل صنفٍ من أصناف السلاح، يَغْزُون بها، والمسلمون ضامنون لها حتىٰ يردُّوها عليهم، إن كان باليمن[1] كيدٌ[2] ذاتُ غدرٍ، علىٰ أن لا تُهْدَم لهم بَيْعَة، ولا يُخْرَج لهم قَسٌّ، ولا يُفْتَنون عن دينهم، ما لم يُحْدِثوا حَدَثًا، أو يأكلوا الرِّبا.

قال إسماعيل: فقد أكلوا الرِّبا.

قال أبو داود: إذا نقضوا بعض ما شُرِط عليهم فقد أحدَثوا.

وما ذكره أبو داود وأهل السِّيَر من مصالحته لأهل نجران علىٰ الجزية المذكورة معروفٌ عند أهل العلم.

وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الأموال»[3]، ذكره من طريقين:

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا أبو أيوب الدمشقي، قال: حدثني سَعْدان بن يحيىٰ، عن عبيد الله[4] بن أبي حُمَيد، عن أبي المَليح الهُذَلي: أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران، فكتب لهم كتابًا:

---

(١) ط. العاصمة: «باليمين»، خطأ مخالف للأصول والمصادر.

(٢) أي حرب.

(٣) (١/ ٢٩٦- ٢٩٨).

(٤) (د، ي، ع): «عبد الله» تحريف، وهو أبو الخطاب الهذلي، متروك. وسعدان بن يحيىٰ اللخمي نزيل دمشق، صدوق. وأبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن التميمي، صدوق يخطئ. «التقريب» (٣٧٠، ٢٤٢، ٢٥٣). ولم يعرف الثلاثة محقق ط. العاصمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبيُّ ﷺ لأهل نجران، إذ كان له حكمُه عليهم: أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرةٍ ورقيق، وأفضل عليهم، وترك ذلك لهم: ألفي حُلَّة، في كل صَفَرٍ ألفُ حُلَّة، وفي كل رجب ألفُ حُلَّة، كلُّ حُلَّة أوقيَّة، ما زاد الخراج أو نقص فعلىٰ الأواقي فليُحْسَب، وما قضوا من ركابٍ أو خيلٍ أو دروعٍ أُخِذ منهم بالحساب.

وعلىٰ أهل نجران أن يُقْرُوا[1] رُسُلي عشرين ليلةً فما دونها.

وعليهم عارية ثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين درعًا، إذا كان كيدٌ باليمن ذو مغدرة، وما هلك ممَّا أعاروا رسلي فهو ضامنٌ علىٰ رسلي حتىٰ يؤدُّوه[2] إليهم.

ولنجران وحاشيتها ذمَّةُ الله وذمَّةُ رسوله علىٰ دمائهم، وأموالهم، ومِلَّتهم، وبِيَعهم، ورهبانيَّتهم[3]، وأساقفتهم[4]، وشاهدهم، وغائبهم، وكلِّ ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير.

وعلىٰ أن لا يغيِّروا أُسْقُفًا من سِقِّيفاه، ولا واقِهًا من وَقِيهَاه[5]، ولا راهبًا

---

(١) غيِّرت في ط. العاصمة إلىٰ «مقرىٰ» متابعة لمطبوعة «الأموال». وفي «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٤٩٨): «مثوىٰ».

(٢) (ع): «يردوه».

(٣) (ت): «ورهبانهم»، والمثبت من سائر الأصول و«الأموال».

(٤) ط. العاصمة: «وأساقفهم»، خلاف الأصول و«الأموال».

(٥) كذا في الأصول و«الأموال». وسيأتي تفسيرها. وفي ضبطها خلافٌ قديم. انظر: «تاج العروس» (وقه)، و«النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» للويس شيخو (٨٧)، و«المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي (١٢/ ٢١٧، ٢١٨).

مـن رهبانيَّتـه[١]، وعلىٰ أن لا يُحْشَـروا[٢]، ولا يُعْشَـروا[٣]، ولا يطـأ أرضـهم جيشٌ، ومن ملك منهم[٤] حقًّا فالنِّصْفُ بينهم بنجران.

علىٰ أن لا يأكلوا الربا، فمن أكل الربا مِن ذي قِبَل[٥] فذمَّتي منهم بريئة.

وعليهم الجَهْدُ والنُّصحُ فيما استقبلوا، غير مظلومين ولا معسوفٍ[٦] عليهم.

شَهِد عثمانُ بن عفان، ومُعَيْقِيب.

قال أبو عبيد: الوَاقِهُ وليُّ العهد في لغة بلحارث بن كعب. يقول: إذا مات هذا الأُسْقُفُ قام الآخر مكانه.

قال أبو عبيد: قال أبو أيوب: وحدثني عيسىٰ بن يونس، عن عبيد الله[٧] بن أبي حميد، عن أبي المَليح، عن النبي ﷺ مثل ذلك، وزاد في حديثه قال: فلما توفي رسول الله ﷺ أتوا أبا بكر، فوفىٰ لهم بذلك، وكتب لهم كتابًا نحوًا من كتاب رسول الله ﷺ، فلما وَلِيَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه أصابوا الرِّبا في زمانه، فأجلاهم عمر، وكتب لهم: أما بعد، فمن وَقَعوا به من أمراء الشام أو العراق

(١) ط. العاصمة: «رهابنه» تحريف. وعلىٰ الصواب في (ع، د، ي).
(٢) (و، د، ع): «يخسروا»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة. والمعنىٰ: أنهم لا يندبون إلىٰ المغازي، ولا تضرب عليهم البعوث. وقيل: لا يحشرون إلىٰ عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم، بل يأخذها في أماكنهم. «النهاية» (حشر).
(٣) أي: لا يؤخذ العشر من أموالهم. «النهاية» (عشر).
(٤) «الأموال»: «ومن سأل منه». وعند ابن زنجويه (٢/ ٤٥٠): «ومن سأل منهم»، وهو أجود. والنصف: الانتصاف.
(٥) أي: فيما يستقبل. «التاج» (قبل).
(٦) ط. العاصمة: «معنوف» متابعة لمطبوعة «الأموال»، ومضىٰ الكلام عليها.
(٧) (د، ي، ع): «عبد الله» تحريف، وعلىٰ الصواب في (ت، و). وقد سبق.

فليُوسِعْهم مِن خَراب الأرض[1]، وما اعتَمَلوا من شيءٍ فهو لهم لوجه الله وعُقبىٰ من أرضهم.

قال: فأتوا العراق، فاتخَذوا النجرانية.

قال أبو عبيد: وهي قريةٌ بالكوفة.

وكتب عثمانُ إلىٰ الوليد بن عقبة: أما بعد، فإن العاقبَ والأُسْقُف وسَراة أهل نجران أتوني بكتاب رسول الله ﷺ، وأروني شرط عمر رضي الله عنه، وقد سألتُ عثمان بن حُنَيف، فأنبأني أنه قد كان بحث علىٰ ذلك[2]، فوجده ضارًّا[3] للدَّهاقين، فيردعهم[4] عن أرضهم، وإني قد وضعتُ عنهم من جزيتهم مئتي حلَّة، لوجه الله وعُقبىٰ لهم من أرضهم، وإني أوصيك بهم؛ فإنهم قومٌ لهم ذمَّة.

قال أبو عبيد: وحدثنا عثمان بن صالح، عن عبد الله بن لَهِيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ كتب لأهل نجران: من محمد النبي رسول الله ﷺ. ثم ذكر نحو هذه النسخة، وليس في حديثه قصة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[5]، وفي آخره: شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة.

---

(١) الأرض الموات التي لم تُزْرَع. وفي «الأموال»: «خريب الأرض». قال أبو عبيد: «ما أراه إلا خراب الأرض ولكن الكاتب كتبه خريب». وغيرته ط. العاصمة إلىٰ «جريب الأرض» متابعة لمطبوعة طبقات ابن سعد كما صنعت في الموضع المتقدم.

(٢) في «الأموال» وسائر المصادر: «بحث عن ذلك».

(٣) (ت، د، ع): «صار» وهو تحريف، واختارته ط. العاصمة دون تنبيه. والمثبت من (و، ي) و«الأموال» لأبي عبيد و«فتوح البلدان» (٧٣). وفي «الأموال» لابن زنجويه: «فوجده مضارَّة وظلمًا لتردعهم الدهاقين عن أرضيهم». والدهاقين: رؤساء القرىٰ وزعماء الفلاحين. «التاج» (دهقن).

(٤) (ت، د، ع): «فنزعهم». «الأموال»: «ليردعهم». «فتوح البلدان»: «لردعهم».

(٥) «الأموال»: «أبي بكر وعمر وعثمان».

قال أبو عبيد: حدثني سعيد بن عُفَير، عن يحيىٰ بن أيوب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، قال: أول من أعطىٰ الجزية أهل نجران، وكانوا نصارىٰ[1].

فإن قيل: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقد ثبت في الصَّحيحين[2] أن النبي ﷺ قد كتب إلىٰ هِرَقل مع دِحْيَة الكلبي مدَّة هُدنتِه للمشركين، وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يُسْلِم، وقد حضر عند هِرَقل، وسأله هِرَقل عن النبي ﷺ، وأبو سفيان أسلم عام الفتح، فدلَّ ذلك علىٰ أن هذا الكتاب كان قبل الفتح.

ونزولُ آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع[3]، فدلَّ ذلك علىٰ أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة.

وقدومُ وفد نجران قبل آية المباهلة[4]، وآيةُ المباهلة قد عُلِم يقينًا أنها نزلت في قصَّة قدوم وفد نجران، والمفسِّرون وأهل السِّيَر ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران، وقد ذكرناه مِن نقلِ أهل الحديث بالإسناد المتَّصل.

ونقَل أهلُ المغازي والسِّيَر أن وفد نجران صالحهم علىٰ الجزية، وهم أول من أدَّاها، فعُلِم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية، وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة، فعُلِم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السَّيف التي هي آية الجزية.

---

(١) «الأموال» (٦٩، ٨٧).
(٢) صحيح البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) «سنة تسع» ليست في (د، و، ع، ي).
(٤) «وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة» لحقٌ مختوم بالتصحيح في طرة (ت)، وليس في باقي الأصول، وأثبتته ط. النيل.

قال الزهري: أهل نجران أول من أدَّىٰ الجزية[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ بعدها آياتٌ نزلت قبل ذلك، كقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠ - ٧١].

فيكون هذا ممَّا تقدَّم نزولُه، وتلك ممَّا تأخَّر نزوله، وجُمِع بينهما للمناسبة، كما في نظائره؛ فإن الآيات كانت إذا نزلت يؤمر[2] النبيُّ ﷺ أن يضعها في مواضع تناسبها وإن كان ذلك ممَّا تقدَّم.

وممَّا يبيِّن ذلك: أن هذه الآية وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لفظُها يعمُّ اليهود والنصارىٰ، وكذلك ذكر أهلُ العلم أنها دعاءٌ للطائفتين[3]، وأن النبي ﷺ دعا بها اليهود[4]، فدلَّ ذلك علىٰ أن نزولها متقدِّم؛ فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية، ولهذا لم يَضرِب

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» كما تقدم.

(٢) كذا رسمت بالواو في (د، و، ع، ي). وفي (ت): «يأمر»، وهو محتمل، ويدل عليه قول عثمان رضي الله عنه في الأثر المشهور: «إن رسول الله ﷺ كان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذْكَر فيها كذا وكذا» أخرجه أحمد (٣٩٩، ٤٩٩)، وفي الباب عن أبي بن كعب رضي الله عنه. ويرجِّح ما في الأصول سياق الكلام وعدم ذكر المفعول، ويشهد له ما روي بإسناد شديد الضعف أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ في آية: «ضعها علىٰ رأس ثمانين ومئتين من البقرة» أخرجه الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٨٣)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٣/ ٤٧٨) وغيرهما. وقد يقويه قول شيخ الإسلام: «وأما ترتيب آي السور فهو منزَّل منصوص عليه». «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٩٦).

(٣) ط. العاصمة: «لطائفتين»، خطأ مخالف للأصول.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/ ٢٤٥).

الجزية علىٰ أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز، ولكن لمَّا بعث معاذًا إلىٰ اليمن، وكان كثيرٌ[1] من أهلها يهودًا، أمره أن يأخذ من كلِّ حَالِمٍ دينارًا أو عِدْلَه مَعَافِر[2]، وهذا كان متأخرًا بعد غزوة تبوك، وتوفي النبيُّ ﷺ ومعاذٌ باليمن.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره[3]: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمَّار، حدثنا الوليد، حدثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن [أبي] حوشب وغيره، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ أَلْيُون طاغية الروم، قال: فيما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: اليهود والنصارىٰ ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

وروىٰ بإسناده عن ابن جريج في قوله تعالىٰ: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، قال: بلغني أن النبي ﷺ دعا يهود أهل الكتاب[4]، فأبَوا عليه، فجاهدهم.

وكذلك سائر الآيات التي فيها خطابٌ للطائفتين كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا

---

(١) (و): «كثيرًا» وهو خطأ، وعلىٰ الصواب في (ي، د، ع)، ومحيت الألف في (ت).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠١٣)، وابن ماجه (١٨٠٣)، وأبو داود (١٥٧٦)، والترمذي (٦٢٣)، والنسائي (٢٤٩٩) وغيرهم من حديث معاذ رضي الله عنه.
وصححه ابن خزيمة (٢٢٦٨)، وابن حبان (٤٨٨٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢٧٥). وفي وصله وإرساله اختلاف. انظر: «العلل» للدراقطني (٦/ ٦٦)، و«بيان الوهم والإيهام» (٢/ ٥٧٤)، و«التلخيص الحبير» (٦/ ٢٩٦٠).
والحالم: من بلغ الحلم. والمَعَافر: برودٌ منسوبة إلىٰ قبيلة المَعَافر باليمن.

(٣) (٢/ ٦٦٩).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٩): «دعا يهود أهل المدينة إلىٰ ذلك».

تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٧].

وممَّا ينبغي أن يُعْلَم أن أهل نجران المذكورة نجران اليمن لا نجران الشام[١]، وأهلُ نجران[٢] كان منهم نصارىٰ أهل ذمَّة، وكان منهم مسلمون وهم الأكثرون، والنبيُّ ﷺ بعث أبا عبيدة لهؤلاء وهؤلاء، واستعمل عمرو بن حزم علىٰ هؤلاء وهؤلاء، كما أخرجا في الصَّحيحين[٣] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة[٤] أبو عبيدة بن الجرَّاح**».

وعن أنسٍ أيضًا: أن أهل اليمن قَدِموا علىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: ابعَث معنا رجلًا أمينًا يعلِّمنا السُّنَّة والإسلام، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجرَّاح، فقال: «**هذا أمينُ هذه الأمة**»[٥].

وفي الصَّحيحين[٦] عن حذيفة بن اليمان، قال: جاء أهل نجران إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ابعَث إلينا رجلًا أمينًا، فقال: «**لأبعثنَّ**

---

(١) في الشام موضع يسمىٰ «نجران» بحوران من نواحي دمشق فيه ديرٌ مشهور للنصارىٰ. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٥٣٩، ٥/ ٢٧٠)، و«توضيح المشتبه» (١/ ٣٨٩).

(٢) «المذكورة نجران اليمن لا نجران الشام وأهل» ليس في (و، ي)، ووقع لحقًا في (د)، ولعله سقط لانتقال النظر، وأخشىٰ أن يكون تعليقًا لأحد القراء ثم أقحمه النساخ في المتن.

(٣) صحيح البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٥٣/ ٢٤١٩).

(٤) (د، ع، ي): «وإن أمين هذه الأمة». والمثبت من (و) يوافق رواية الصَّحيحين.

(٥) أخرجه مسلم (٥٤/ ٢٤١٩).

(٦) صحيح البخاري (٧٢٥٤)، ومسلم (٢٤٢٠).

إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين حقَّ أمين». قال: فاستَشرف لها الناس، قال: فبعَث أبا عبيدة بن الجرَّاح.

وللبخاري[1] عن حذيفة قال: جاء السَّيِّد والعاقبُ صاحبا نجران إلىٰ رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبيًّا فلاعَنَّا لا نُفْلِحُ نحن ولا عَقِبنا من بعدنا، قالا: إنَّا نعطيك ما سألتنا، وابعَث معنا رجلًا أمينًا، فقال: «**لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين**»، فاستَشرف لها[2] أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**».

وكذلك استعمل النبيُّ ﷺ عليهم عمرو بن حزم، وكتبَ له الكتابَ المشهور الذي فيه الفرائض والسُّنن، وقد رواه النسائيُّ بطوله، وروىٰ الناسُ بعضه مفرَّقًا[3].

ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جَيْشَان[4]، فدلَّ علىٰ أن قدومهم كان متأخرًا.

ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم في أوائل «السيرة» مع قصة اليهود[5]؛ ليجمع بين خبر اليهود والنصارىٰ[6].

---

(١) صحيح البخاري (٤٣٨٠).

(٢) لفظ البخاري: «له» أي: استشرفوا لقوله ﷺ. والمثبت من الأصول يوافق الرواية الأخرىٰ المتقدمة، أي: استشرفوا للإمارة. انظر: «إرشاد الساري» (٦/ ٤٣٧).

(٣) تقدم تخريجه والكلام عليه (١/ ٧٣).

(٤) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٣٠٨). وجيشان: مخلافٌ باليمن.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٧).

(٦) سقط من (و): «مع قصة اليهود والنصارىٰ» لانتقال النظر.

وذكَر في سنة عشرٍ فتحَ نجران، وإرسالَ النبيِّ ﷺ خالدَ بن الوليد[1]، وإرسالُ خالدٍ ذكروا أنه كان متأخرًا قبل وفاته ﷺ بأربعة أشهر، وأنه قَدِم وفدٌ منهم بالإسلام[2]، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارىٰ، فإنه قد ذكر ابنُ سعد أن العاقب والسَّيِّد أسلما بعد ذلك[3].

والعهدُ بالجزية إنما كان مع النصارىٰ، وآية الجزية هي قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وهذه آية السَّيف مع أهل الكتاب، وقد ذكر فيها قتالهم إذا لم يؤمنوا حتىٰ يعطوا الجزية.

والنبيُّ ﷺ لم يأخذ من أحدٍ الجزية إلا بعد هذه الآية. بل وقالوا[4]: إن أهل نجران أولُ من أُخِذَت منهم الجزية، كما ذكر ذلك الزهريُّ وغيره[5]؛ فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرِب النبيُّ ﷺ الجزية[6] علىٰ أحدٍ قبل نزول هذه الآية، لا من الأمِّيِّين ولا من أهل الكتاب، ولهذا لم يضرِبها علىٰ يهود قينقاع والنَّضير وقريظة، ولا ضربها علىٰ أهل خيبر؛ فإنها فُتِحت سنة سبعٍ قبل نزول آية الجزية،

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٩).

(٢) ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ بعث خالدًا إلىٰ بني الحارث في شهر ربيع الآخر أو جمادىٰ الأولىٰ سنة عشر، فأقام فيهم حتىٰ وفدوا معه علىٰ المدينة، ورجع وفدهم إلىٰ قومهم في بقية من شوال أو في صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتىٰ توفي رسول الله ﷺ. سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤١).

(٣) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٣٠٨).

(٤) (ع): «بل قالوا»، وأحسبه من إصلاح الناسخ. والمثبت من (و، د، ي) مألوفٌ من أسلوب شيخ الإسلام، وهو خلاف الأفصح.

(٥) ليست في (ي). وفي (و): «كما ذكر ذلك أهل العلم كالزهري وغيره».

(٦) ساقطة من (و). وقدَّر الناسخ موضعها في الطرة بعد تمام الجملة.

وأقرَّهم فلَّاحين، وهادنهم هدنةً مطلقةً قال فيها: «**نُقِرُّكم ما أقَرَّكم الله**»[1].

فإذا كان أول ما أخذها من وفد نجران عُلِم أن قدومهم عليه ومناظرتَه لهم ومحاجَّته إياهم وطلبَه المباهلة معهم كانت بعد آية السَّيف التي فيها قتالهم.

وعُلِم بذلك أن ما ذكره الله تعالىٰ من مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم مُحْكَمٌ لم ينسَخه شيء، وكذلك ما ذكره تعالىٰ من مجادلة الخلق مطلقًا بقوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإن من الناس من يقول: آياتُ المجادلة والمحاجَّة للكفار منسوخاتٌ بآية السيف[2]؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة. وهذا غلط؛ فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكمُ الناسخُ مناقضًا للحكم المنسوخ، كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصَّلاة للأمر باستقبال بيت المقدس[3]، ومناقضة الأمر بصيام رمضان للمُقِيم للتخيير بين الصِّيام وبين إطعام كل يوم مسكينًا، ومناقضة نهيه عن تعدِّي الحدود التي فَرَضها للورثة للأمر بالوصيَّة للوالدين والأقربين، ومناقضة قوله لهم: «كُفُّوا أيديكم عن القتال» لقوله: «قاتلوهم» كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «النبوات» (٦٢٠- ٦٢١)، وتفسير مقاتل (٣/ ٣٨٥)، وتفسير ابن جرير (١٨/ ٤١٩- ٤٢١)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٦/ ٢٧١)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٤٩٦)، و«جمال القراء» للسخاوي (٤٤٥).

(٣) زادت ط. النيل: «بالشام». ورسمت مهملة في طرة (و).

خَشۡيَةٗ﴾ [النساء: ٧٧]، فأمرُه لهم بالقتال ناسخٌ لأمره لهم بكفِّ أيديهم عنه[1].

فأما قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهذا لا يناقضه الأمرُ بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهيَ عنه والاقتصارَ علىٰ المجادلة.

فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به، فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا، بل أمكن الجمعُ، لم يجز الحكمُ بالنسخ، ومعلومٌ أن كلًّا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأن استعمالهما جميعًا أبلغ في إظهار الهدىٰ ودين الحقِّ.

وممَّا يبيِّن ذلك وجوه:

أحدها: أن من كان من أهل الذمَّة والعهد والمستأمَن منهم لا يُجَاهَد بالقتال فهو داخلٌ فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس هو داخلًا فيمن أمر الله بقتاله.

الثاني: أنه قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالمًا مستحقًّا للقتال غيرَ طالبٍ للعلم والدِّين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يُجَادَلون بالتي هي أحسن، بخلاف من طلبَ العلم والدِّين ولم يظهَر منه ظلمٌ،

---

(١) أي: عن القتال. وفي (و): «عنهم» وهو خطأ، واختارته ط. العاصمة ولم تحسن قراءة الأصول.

سواءٌ كان قصدُه الاسترشاد أو كان يظنُّ أنه علىٰ حقٍّ يقصِدُ نصرَ ما يظنُّه حقًّا. ومن كان قصدُه العنادَ يعلمُ أنه علىٰ باطلٍ ويجادل عليه، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نجادله بطرقٍ أخرىٰ نبيِّن[1] فيها عناده وظلمَه وجهله، جزاءً له بموجَب عمله.

الثالث: أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، فهذا مستجيرٌ مستأمِنٌ وهو من أهل الحرب، أمر الله[2] بإجارته حتىٰ تقوم حجَّة الله عليه، ثم يُبْلِغْه مأمنَه، وهذا في سورة «براءة» التي فيها نقضُ[3] العهود، وفيها آية السَّيف.

وذكَر هذه الآية في ضمن الأمر بنقض العهود؛ ليبيِّن سبحانه أن مثل هذا يجب أمانُه حتىٰ تقوم عليه الحجَّة، لا تجوز محاربتُه كمحاربة من لم يَطْلَب أن يُبَلَّغ حجَّة الله عليه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ إن لم يوافقه ما تَقُصُّ عليه وتُخْبِر به[4] فأبلِغه مأمنَه. قال: وليس هذا بمنسوخ[5].

وقال مجاهد: من جاءك واستمَع ما تقول[6]، واستمَع ما أُنزِل إليك،

---

(١) (د، ع): «يجادله بطرق أخرىٰ يبين».

(٢) (ي، و): «أمره الله».

(٣) كذا في الأصول هنا وفي السطر الذي بعده. ولعلها محرفة عن «نبذ» كما وردت فيما سيأتي (١/ ١٠٨)، وهي استعمال المصنف في «الصفدية» (٢/ ٣١٨)، و«الصارم المسلول» (٦٨٢، ٨٧٧)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ٢١)، وغيرها.

(٤) (ي، ع): «نقص عليه ونخبر به».

(٥) أخرجه ابن جرير (١١/ ٣٤٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٥٦).

(٦) «واستمع ما تقول» ساقط من ط. العاصمة.

فهو آمنٌ حتىٰ يأتيك[1].

وقال عطاء في الرجل من أهل الشِّرك يأتي المسلمين بغير عهدٍ، قال: يُخَيِّره[2]، إما أن يُقِرَّه، وإما أن يُبْلِغه مأمنَه[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قد عُلِم أن المراد أنه يسمعُه سمعًا يتمكَّن معه من فهم معناه؛ إذ المقصود لا يقوم بمجرَّد سَمْعِ لفظٍ لا يتمكَّن معه من فهم المعنىٰ.

فلو كان غير عربيٍّ وجبَ[4] أن يُتَرجَم له ما يقوم به عليه الحجَّة.

ولو كان عربيًّا وفي القرآن ألفاظٌ غريبةٌ ليست مِن[5] لغته وجبَ أن يبيَّن له معناها.

ولو سمع اللفظَ كما يسمعُه كثيرٌ من الناس، ولم يفقه المعنىٰ، وطلب منَّا أن نفسِّره له ونبيِّن له معناه، فعلينا ذلك.

وإن سألَنا عن سؤالٍ يقدحُ في القرآن أجبناه عنه، كما كان النبيُّ ﷺ إذا أورد عليه بعضُ المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالًا يوردونه علىٰ القرآن، فإنه كان يجيبُه عنه، كما أجاب ابنَ الزِّبَعْرَىٰ لمَّا قاس المسيحَ علىٰ آلهة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٥٥). وبنحوه ابن جرير (١١/ ٣٤٧).

(٢) لم تحرر في (و، ي)، وفي مصنف عبد الرزاق و«الاستذكار» (١٤/ ١١٨): «خَيِّره»، وليست عند ابن أبي شيبة، وكما أثبت في تفسير ابن أبي حاتم. وفي (ع، د): «تجيره» وهذا يوافق لفظ الآية. والتقسيم في الكلام يشهد للتخيير. و«يُقِرّه» أي يُقِرَّ بالقرآن. وفي (ع، د، و) وعبد الرزاق: «تقره ... تبلغه».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ٥٦١)، وابن أبي شيبة (١٧/ ٥١٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٥٦).

(٤) (د، ي، ع): «لوجب».

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

المشركين[1]، وظنَّ أن العلة في الأصل مجرَّد[2] كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضي أنَّ[3] كلَّ معبودٍ غير الله فإنه يعذَّب في الآخرة، فجعل المسيحَ مثلًا لآلهة المشركين قاسَهم عليه قياسَ الفرع على الأصل.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٥٨].

فبيَّن سبحانه الفرقَ المانعَ من الإلحاق بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وبيَّن أن هؤلاء القائسين ما قاسُوه إلا جدلًا محضًا لا يوجب علمًا؛ لأن الفرق حاصلٌ بين الفرع والأصل، فإن الأصنام إذا جُعِلوا حصبًا لجهنَّم كان ذلك إهانةً وخزيًا لعابديها، من غير تعذيبِ من لا يستحقُّ التعذيب. بخلاف ما إذا عُذِّب عبادُ الله الصالحون بذنب غيرهم، فإن هذا لا يفعله الله تعالىٰ، لا سيَّما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل سلفِهم وخلفِهم الذين يقولون: إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة، ولا يظلم أحدًا فيُنقِصه شيئًا من حسناته، ولا يحمِل عليه سيئاتِ غيره، بل ولا يعذِّب أحدًا إلا بعد إرسال رسولٍ إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]،

---

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣/ ١٥ - ١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٥٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (٣٠٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من طرقٍ يصحُّ بها. وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١١/ ٣٤٥)، وحسنه ابن حجر في «موافقة الخُبر الخَبر» (٢/ ١٧٣).

(٢) (و): «بمجرد».

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل المِلَل: إنه يجوز منه تعالىٰ فعلُ كل شيء، وأن الظلم هو الممتنعُ الذي لا يدخل تحت القدرة، فهؤلاء يقولون: إنما نعلم[1] ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصَّادق أو بالعادة، وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصَّادق وبغيره علىٰ ما يمتنع من الله.

وقد أخبر الله تعالىٰ أن عباده الصالحين في الجنة، لا يعذِّبهم في النار، بل يتقبَّل عنهم أحسنَ ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، فضلًا أن يعاقبهم بذنب من عَبَدهم[2] مع كراهتهم[3] لفعلهم ونهيهم عن ذلك.

ومن زعم أن لفظ (ما) كانت تتناول المسيحَ وأُخِّر بيانُ العامِّ[4]، أو أجاب بأن لفظ (ما) لا يتناول إلا ما لا يعقِل، فالقولان ضعيفان كما قد بُسِط في موضعه[5].

وإنما المشركون عارضوا النصَّ الصَّحيح بقياسٍ فاسد، فبيَّن الله تعالىٰ فساد القياس، وذكَر الفرق بين الأصل والفرع[6].

---

(١) مهملة في (ي، و). وفي ط. النيل: «يعلم».

(٢) (و، ع): «بذنب غيرهم». (د): «بذنب من غيرهم». والمثبت من (ي) أجود.

(٣) (ي، د، و): «كراهية». (ع): «كراهته». وما أثبت أشبه بالصواب.

(٤) أي بيان المخصِّص للعام.

(٥) انظر: «درء التعارض» (٧/ ٥٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٠/ ٥٤٠). ولشيخ الإسلام رسالة مفردة في تفسير هذه الآية واعتراض ابن الزبعرىٰ وجوابه، ذكرها ابن رشيق في أسماء مؤلفاته (٢٨٩- الجامع لسيرته).

(٦) انظر: «الصفدية» (١/ ١٤١)، و«الإخنائية» (٢٠٧)، و«شرح الأصبهانية» (٧١٣)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ١٥، ١٦/ ٤٠).

وكذلك لما أورد بعض النصارىٰ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ظنًّا منه أن هارون هذا هو هارون أخو موسىٰ بن عمران، وأن عمران هذا هو عمران أبو مريم أمِّ المسيح، فسئل النبيُّ ﷺ عن ذلك، أجاب بأن هارون هذا ليس هو ذاك، ولكنَّهم كانوا يُسَمُّون بأسماء الأنبياء والصَّالحين.

وبعض جهَّال النصارىٰ يقدحُ في القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المُفْرِط في جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسىٰ وعيسىٰ مدَّةً طويلةً جدًّا يمتنع معها أن يكون موسىٰ وهارون خالَي المسيح، وأن هذا ممَّا لا يخفىٰ علىٰ أقل أتباع محمدٍ ﷺ، فضلًا عن أن يخفىٰ علىٰ محمدٍ ﷺ.

وهذا السؤال ممَّا أورده أهلُ نجران، كما ثبت عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ أهل نجران فقالوا: ألستم تقرؤون: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]؟ وقد علمتم ما بين موسىٰ وعيسىٰ، فلم أدرِ ما أجيبُهم، فرجعتُ إلىٰ رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «**ألا أخبرتَهم أنهم كانوا يُسَمُّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم؟**»[1].

وهذا السُّؤال الذي هو سؤال الطاعن في القرآن لمَّا أوردوه[2] أهلُ نجران الكفَّار علىٰ المغيرة[3] رسولِ رسولِ الله ﷺ ولم يُجِبهم عنه، أجاب عنه النبيُّ ﷺ، ولم يقل لهم: ليس لكم عندي إلا السَّيف، ولا قال: قد نقضتم العهد؛ إذ كانوا[4] قد عاهدوه، وقد عُرِف أن أهل نجران لم يُرسِل إليهم رسولًا إلا والجهاد مأمورٌ به.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٥).
(٢) (ع): «أورده»، ولعله من إصلاح الناسخ.
(٣) ليست في (و).
(٤) (ع، د، و) وط. النيل والعاصمة: «إن كانوا»، وهو خطأ.

وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه:

كما أورد عليه عمر عام الحديبية لمَّا صالحَ المشركين ولم يدخل مكة، فقال له: ألم تكن تحدِّثنا أنَّا نأتي البيت ونَطَّوَّف به؟ قال: «**بلىٰ، أقلتُ لك أنك تأتيه في هذا العام؟**» قال: لا، قال: «**فإنك آتيهِ ومُطَّوِّفٌ به**»[1]. وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جوابَ النبي ﷺ له. ومعلومٌ أنه ليس في ظاهر اللفظ توقيتُ ذلك بعامٍ، ولكن السَّائل ظنَّ ما لا يدلُّ اللفظ عليه.

وكذلك لمَّا قال: «**من نُوقِش الحسابَ عُذِّب**»، قالت له عائشة: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]؟ فقال: «**ذلك العَرْض، ومن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب**»[2]. ومعلومٌ أن الحساب اليسير لا يتناول من نُوقِش، وقد زادها بيانًا فأخبر أنه العَرْض لا المقابلة المتضمِّنة للمناقشة.

وكذلك لمَّا قال: إنه «**لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة**»، قالت له حفصة: ألم يقل الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؟ فأجابها بأنه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢][3]. فبيَّن ﷺ أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم، وهذا الدخول هو الذي نفاه عن أهل الحديبية، وأما الورود فهو مرورُ الناس علىٰ الصِّراط، كما فسَّره في الحديث الصَّحيح حديث جابر بن عبد الله[4]، وهذا المرور لا يُطْلَق عليه اسمُ الدخول الذي يُجزىٰ به العصاة ويُنفىٰ عن المتقين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٩١).

ومثل هذا كثير[1].

وأما ما في القرآن من ذكرِ أقوال الكفَّار وحُجَجهم، وجوابها، فهذا كثيرٌ جدًّا، فإنه يجادلهم تارةً في التوحيد، وتارةً في النبوَّات، وتارةً في المعاد، وتارةً في الشَّرائع، بأحسن الحُجَج وأكملها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٣].

وقد أخبر الله تبارك وتعالىٰ عن أولي العزم من الرسل بمجادلة الكفَّار، فقال تعالىٰ عن نوح[2]: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، وقال عن الخليل: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٠- ٨٣].

وأمر الله تعالىٰ محمدًا ﷺ بالمجادلة بالتي هي أحسن.

وذمَّ سبحانه من جادل بغير علمٍ، أو في الحقِّ بعدما تبيَّن، ومن جادل بالباطل، فقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وهذا هو الجدال المذكور في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤].

---

(١) انظر: «الصفدية» (١/ ١٣٩- ١٤١)، و«درء التعارض» (٥/ ٢٢٨- ٢٣١، ٧/ ٤٦- ٥٥)، و«جواب الاعتراضات المصرية» (٨١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٣٩٥).

(٢) ط. النيل: «قوم نوح».

وإذا كان النبيُّ ﷺ يُحَاجُّ الكفَّار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله تعالىٰ أن يُجِير المستجيرَ حتىٰ يسمع كلام الله ثم يُبْلِغه مأمنَه، والمراد بذلك: تبليغه[١] رسالات الله، وإقامة الحجَّة عليه، وذلك قد لا يتمُّ إلا بتفسيره له الذي تقوم به الحجَّة، ويجابُ به عن المعارضة، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب = عُلِم بطلانُ قول من ظنَّ أن الأمر بالجهاد ناسخٌ للأمر[٢] بالمجادلة مطلقًا.

الوجه الرابع: أن القائل إذا قال: إن آية[٣] مجادلة الكفَّار أو غيرها ممَّا يدَّعي نسخه منسوخةٌ بآية السَّيف.

قيل له: ما تعني بآية السَّيف؟ أتعني آيةً بعينها، أم تعني كلَّ آيةٍ فيها الأمرُ بالجهاد؟

فإن أراد الأول، كان جوابه من وجهين:

أحدهما: أن الآيات التي فيها ذكرُ الجهاد متعدِّدة، فلا يجوز تخصيص بعضها.

وإن قال: أريد قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

قيل له: هذه في قتال المشركين، وقد قال بعدها في قتال أهل الكتاب: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، فلو لم تكن آية السَّيف إلا واحدةً لم تكن هذه أولىٰ من هذه.

---

(١) ط. العاصمة: «تبليغ»، خلاف الأصول.
(٢) (و): «الأمر».
(٣) ليست في (و، ي).

وإن قال: كلُّ آيةٍ فيها ذكرُ الجهاد.

قيل له: الجهاد شُرِع علىٰ مراتب:

فأول ما أنزل الله تعالىٰ فيه الإذن بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، فقد ذكر غير واحدٍ من العلماء أن هذه أول آية نزلت في الجهاد(١).

ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتَهم، بل قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٩ - ٩٠].

وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدًا جائزًا غير لازم.

ثم أنزل الله في «براءة» الأمر بنبذ العهود، وأمرهم بقتال المشركين كافَّة،

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٤٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٨٠). وروي عن عروة من قوله، وهو أصح. انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٤/ ٦٦٨).
وأخرجه أحمد (١٨٦٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه ابن حبان (٤٧١٠)، والحاكم (٢/ ٦٦)، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٠/ ٣٥٩)، وإسناده علىٰ شرط الصَّحيحين كما قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٨٦).
ويروىٰ عن غير واحد من السلف. انظر: تفسير ابن جرير (١٦/ ٥٧٦).

وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يُسْلِموا حتىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ولم يُبِح لهم تركَ قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنةً مطلقةً مع إمكان جهادهم.

فإن قال: آية السَّيف التي نسَخت المجادلة هي آية الإذن.

قيل: فآية الإذن نزلت في أوَّل مَقْدَمِه المدينة قبل أن يبعث شيئًا من السَّرايا، وقد جادل بعد هذا الكفار.

وكذلك إن قيل: آياتُ فرض القتال.

قيل: فقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ نزلت في أول الأمر في سورة البقرة[1] قبل بدر، ولا ريب[2] أن الجهاد كان واجبًا يوم أحدٍ والخندق وفتح خيبر ومكة، وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد في هؤلاء المغازي كما ذكر ذلك في سورة آل عمران والأحزاب.

وإن قيل: بل الجدال إنما نُسِخ لمَّا أُمِر بجهاد مَن سالم ومَن لم يسالِم.

قيل: هذا باطل؛ فإن الجدال إن كان منافيًا للجهاد فهو منافٍ لإباحته ولإيجابه ولو للمُسَالِم، وإن لم ينافِ الجهاد لم ينافِ إيجابَ الجهاد للمسالِمين، كما لم ينافِ إيجابَ جهاد غيرهم؛ فإن المسالِم قد لا يجادَل ولا يجالَد، وقد يجادَل ولا يجالَد، كما أن غيره قد يجالَد ويجادَل، وقد يُفْعَل أحدُهما. فإن كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدئ بالقتال لا ينافي مجادلتَه، فلأن يكون جهادُ من لا يبدأ القتال لا ينافي مجادلتَه أولىٰ وأحرىٰ، فإن من كان أبعدَ عن القتال كانت مجادلتُه أقلَّ منافاةً للقتال ممن يكون أعظم قتالًا.

---

(١) «في سورة البقرة» ساقط من ط. العاصمة.

(٢) ط. النيل: «وقيل لا ريب».

يبيِّن هذا:

الوجه الخامس: وهو أن يقال: المنسوخ هو الاقتصار علىٰ الجدال، فكان النبيُّ ﷺ في أول الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفَّار بلسانه لا بيده، فيدعوهم ويَعِظُهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرا، قال تعالىٰ في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١ - ٥٢].

وكان مأمورًا بالكفِّ عن قتالهم؛ لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لمَّا هاجر إلىٰ المدينة وصار له بها أعوانٌ أُذِن له في الجهاد، ثم لما قَوُوا كُتِب عليهم القتال ولم يُكتَب عليهم قتالُ من سالَمهم؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار. فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب[1]، ووفدت إليه وفودُ العرب بالإسلام، أمره الله تعالىٰ بقتال الكفار كلِّهم إلا من كان له عهدٌ مؤقَّت، وأمَره[2] بنبذ العهود المطلقة، فكان الذي رفَعَه ونَسَخه تركَ القتال.

وأما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعًا من أول الأمر إلىٰ آخره، فإنه إذا شُرِع جهادُهم باليد فباللسان أولىٰ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم**»[3].

---

(١) كذا في الأصول.

(٢) (د): «وأمرهم».

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٤٦)، وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه بسند صحيح، وصححه ابن حبان (٤٧٠٨)، والحاكم (٢/ ٨١)، وقال ابن عبد الهادي في «المحرر» (٧٧٦): «إسناده على رسم مسلم».

وكان ينصِب لحسَّان منبرًا في مسجده[1] يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هَجْوٍ، وهذا كان بعد نزول آيات القتال، وأين منفعة الهَجْوِ من منفعة إقامة الدلائل والبراهين علىٰ صحَّة الإسلام، وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب؟!

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن القتال إنما شُرِع للضرورة، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتِيج إلىٰ القتال. فبيانُ آيات الإسلام وبراهينه واجبٌ مطلقًا وجوبًا أصليًّا، وأما الجهاد فمشروعٌ للضرورة، فكيف يكون هذا مانعًا من ذلك؟!

فإن قيل: الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته، فلم تبق حاجةٌ إلىٰ إظهار آياته، وإنما يُحتَاج إلىٰ السَّيف.

قيل: معلومٌ أن الله وعد بإظهاره علىٰ الدِّين كلِّه ظهورَ علمٍ وبيان، وظهورَ سيفٍ وسنان، فقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[2] [التوبة: ٣٣].

وقد فسَّر العلماء ظهوره بهذا وهذا[3]، ولفظ الظهور يتناولهما؛ فإن ظهور الهدىٰ بالعلم والبيان، وظهور الدِّين باليد والعمل[4]، والله تعالىٰ أرسل رسوله[5] بالهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدِّين كله.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٣٧)، وأبو داود (٥٠١٥)، والترمذي (٢٨٤٦) من حديث عائشة ﵂، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وعلقه البخاري، كما في «الجمع بين الصَّحيحين» للحميدي (٤/ ١٣١)، و«تحفة الأشراف» (١٢/ ١٠).

(٢) أكملت ط. العاصمة الآية، خلافًا للأصول.

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ٣٩٠- ٣٩٢).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ١٢، ٢٨/ ٣٨)، وما سيأتي (١/ ١٨٦).

(٥) (د، ع): «والله أرسله».

ومعلومٌ أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال؛ فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُظْهِر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعًا واختيارًا بغير سيف؛ لِمَا بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسَّيف.

فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسَّيف ابتداءً ودفعًا، فلأن يجب علينا بيانُ الإسلام وإعلامه ابتداءً ودفعًا لمن يطعنُ فيه بطريق الأولىٰ والأحرىٰ؛ فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك، ومنفعته قبل منفعته، ومعلومٌ أنه يحتاج كلَّ وقتٍ إلىٰ السَّيف، فكذلك هو محتاجٌ إلىٰ العلم والبيان. وإظهارُه بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسَّيف، وهو ظهورٌ مجملٌ علا به علىٰ كلِّ دين، مع أن كثيرًا من الكفَّار لم يقهره سيفُه[1]، فكذلك كثيرٌ من الناس لم يظهر لهم آياتُه وبراهينُه، بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج علىٰ بطلانه، لا سيَّما والمقهور بالسَّيف فيهم منافقون كثيرون، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السَّيف والسنان.

يؤكِّد هذا:

الوجه السابع: وهو أن القتال لا يكونُ إلا لظالم؛ فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالمًا معتديًا، ومن قامت عليه الحجَّة، فشاقَّ الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدىٰ، واتبع غير سبيل المؤمنين، لم يكن إلا ظالمًا.

وأما المجادلة فقد تكون لظالم، إمَّا طاعنٍ في الدِّين بالظلم، وإمَّا من قامت عليه الحجَّة الظاهرة فامتنع من قبولها.

وقد تكون لمسترشدٍ طالب حقٍّ لم يَبْلُغه، وإمَّا من بَلَغَه بعض أعلام نبوة محمد ﷺ ودلائل نبوته، ولكن عُورِض ذلك عنده بشبهاتٍ تنافي ذلك، فاحتاج

---

(١) (د، ع): «بسيفه».

إلىٰ جواب تلك المعارضات، وإمَّا طالبٍ لمعرفة دلائل النبوَّة علىٰ الوجه الذي يَعْلَم به ذلك.

فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعًا، فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وانتفاع غيره مشروعةٌ بطريق الأولىٰ.

قال مجاهد: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ قال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من قاتلك ولم يُعْطِك الجزية[1].

وفي لفظٍ آخر عنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أهلُ الحرب، من لا عهد له، المجادلة لهم بالسَّيف[2].

وفي روايةٍ عنه قال: لا تقاتل إلا من قاتلك ولم يُعْطِك الجزية[3].

وفي روايةٍ عنه قال: من أدَّىٰ منهم الجزية فلا تقولوا له إلا خيرًا[4].

وعن مجاهد: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فإن قالوا شرًّا فقولوا خيرًا[5].

فهذا مجاهدٌ لا يجعلها منسوخة، وهو[6] قول أكثر المفسرين[7].

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٤١٨)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٩).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٩).
(٤) أخرجه ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (٢/ ٥٣٦). وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٥٥٨) إلىٰ الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٥) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٤١٨)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٩).
(٦) ط. العاصمة: «وهي»، وهو خطأ.
(٧) انظر: تفسير ابن جرير (١٨/ ٤٢٠)، والقرطبي (١٣/ ٣٥٠)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس (٢/ ٥٧٧)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٥٣٦).

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ليست منسوخة[1].

ولكن عن قتادة قال: نسخَتها ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، ولا مجادلة أشدُّ من السَّيف[2].

والأول أصح؛ لأن هؤلاء من الذين ظَلَموا، فلا نسخ.

وممَّا يُعْجَبُ منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناءً علىٰ ظهور دلائل النبوَّة تجده[3] هو ومن يعظِّمه من شيوخه الذين يَعْتَمِد في أصول الدِّين علىٰ نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرَّروا دلائل النبوَّة = قد أوردوا من الشُّبهات والشُّكوك والمطاعن علىٰ دلائل النبوَّة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالًا، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابًا في المسائل الظنِّيَّة، بل هي إلىٰ تقرير شُبَه الطاعنين أقرب منها إلىٰ تقرير أصول الدِّين[4]، وهم كما مثَّلهم الغزاليُّ وغيره بمن يضربُ شجرةً ضربًا يزلزلها به وهو يزعم أنه يريد أن يثبِّتها[5].

وكثيرٌ من أئمَّة هؤلاء مضطربٌ في الإيمان بالنبوَّة اضطرابًا ليس هذا موضع بسطه، وهم مع ذلك يدَّعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظَّار، وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التي هي غاية مطالب مشايخهم، وهم لم يعطوها حقَّها إما عجزًا وإما تفريطًا.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٤١٩)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٨).
(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٢٥٩)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٨).
(٣) مهملة في (ي). (و): «نجده».
(٤) كما فعل الرازي في «نهاية العقول» (٣/ ٣٥٠- ٥١٦).
(٥) انظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٩٤).

الوجه الثامن: أن كثيرًا من أهل الكتاب يزعم أن محمدًا ﷺ وأمَّته إنما أقاموا دينهم بالسَّيف لا بالهدىٰ والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل لهم: ليس لكم جوابٌ إلا السَّيف، كان هذا ممَّا يقرِّر ظنَّهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجُّون به عند أنفسهم علىٰ فساد دين[1] الإسلام، وأنه ليس دين رسولٍ من عند الله، وإنما هو دينُ مَلِكٍ أقامه بالسَّيف.

الوجه التاسع: أنه من المعلوم أن السَّيف -لا سيَّما سيفُ المسلمين وأهل الكتاب- هو تابعٌ للعلم والحجَّة، بل وسيفُ المشركين هو تابعٌ لآرائهم واعتقادهم؛ فالسَّيفُ[2] من جنس العمل، والعملُ أبدًا تابعٌ للعلم والرأي.

وحينئذ، فبيانُ دين الإسلام بالعلم، وبيانُ أن ما خالفه ضلالٌ وجهل، هو تثبيتٌ لأصل دين الإسلام، واجتثاثٌ[3] لأصل غيره من الأديان التي يقاتَل عليها أهلُها، ومتىٰ ظهر صحَّتُه وفساد غيره كان الناسُ أحد رجلين:

إمَّا رجلٍ تبيَّن له الحقُّ، فاتَّبعه، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل.

وإمَّا رجلٍ لم يتَّبعه، فهذا قامت عليه الحجَّة؛ إمَّا لكونه لم ينظر في أعلام الإسلام، أو نظرٍ وعَلِم، فاتَّبع هواه أو قصَّر.

وإذا قامت عليه الحجَّة كان أرضىٰ لله ولرسوله، وأنصرَ لسيف الإسلام وأذلَّ لسيف الكفار. وإذا قُدِّر أن فيهم من يعجز عن فهم الحجَّة، فهذا

---

(١) ليست في (ي، و).

(٢) (و، ي): «والسيف».

(٣) ط. النيل والعاصمة: «واجتناب»، وهو خطأ مخالف للأصول.

إذا لم يكن معذورًا مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولىٰ أن لا يُعْذَر، وإن كان معذورًا مع قيامها فهو مع عدمها أعذر.

فعلىٰ التقديرين قيامُ الحجَّة أنصَرُ وأعذَر، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦]، وقال النبي ﷺ: «**ما أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسلَ مبشِّرين ومنذرين**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فصل

وكان قبل قصَّة نجران قد آمن بالنبي ﷺ[1] كثيرٌ من اليهود والنصارىٰ، رؤساؤهم وغير رؤسائهم[2]، لمَّا تبيَّن لهم أنه رسول الله إليهم.

كما آمن به النجاشيُّ ملكُ الحبشة، وكان نصرانيًّا هو وقومه، وكان إيمانُه به في أول أمر النبيِّ ﷺ لمَّا كان أصحابه مستضعفين بمكة، وكان الكفَّار يظلمونهم ويؤذونهم ويعاقبونهم علىٰ الإيمان بالله ورسوله، فهاجر منهم طائفة، مثل: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم من الرجال والنساء إليه.

وكان ملكًا عادلًا، فأرسل الكفَّار خلفهم رسلًا إلىٰ أرض الحبشة أرض النجاشيِّ[3] بهدايا؛ ليردَّهم إليهم، فامتنع من عدله أن يسلِّمهم إليهم حتىٰ يسمع كلامهم، فلمَّا سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبيِّ ﷺ آمن بالنبيِّ ﷺ وآواهم.

ولمَّا سمع القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاةٍ واحدة، ولمَّا سألهم عن قولهم في المسيح عليه السلام قالوا: نشهد أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول التي لم يمسَّها رجل[4]، فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب: والله ما زاد عيسىٰ بن مريم علىٰ ما قلتَ هذا العود، فنَخَرت أصحابه، فقال: وإن نَخَرتم، وإن نَخَرتم.

---

(١) (و، ي): «آمن به».

(٢) (و، ي): «روسهم وغير روسهم».

(٣) «إلىٰ أرض الحبشة أرض النجاشي» ليست في (و). وفي (ي) موضعها: «إليه».

(٤) (و): «فحل».



وبعث ابنَه وطائفةً من أصحابه إلىٰ النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب، وقَدِم جعفرُ علىٰ النبي ﷺ عام خيبر.

وقد ذكر قصَّتهم جماعةٌ من العلماء والحفَّاظ، كأحمد بن حنبل في «المسند»، وابن سعد في «الطبقات»، وأبي نعيم في «الحلية»، وغيرهم[1]، وذكرها أهلُ التفسير والحديث والفقه، وهي متواترةٌ عند العلماء.

قال أحمد[2]: حدثني يعقوب بن إبراهيم بن سعد[3]، عن أبيه، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ ورَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قالت: لمَّا نزلنا أرض الحبشة جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ، النجاشيَّ، أمِنَّا علىٰ ديننا، وعَبَدنا الله، لا نُؤذىٰ، ولا نسمعُ شيئًا نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلىٰ النجاشيِّ فينا رجلين جَلْدَين، وأن يُهْدُوا للنجاشيِّ هدايا ممَّا يُسْتَطْرَف من متاع مكة، وكان أعجبَ ما يأتيه منها إليه الأَدَم[4]، فجمعوا له أَدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بِطْريقًا إلا أهدوا له هديَّة، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السَّهمي، وأمروهما أمرَهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلىٰ كل بطريقٍ هديَّته قبل أن تكلِّموا النجاشيَّ فيهم، ثم قدِّموا إلىٰ النجاشيِّ هداياه، ثم سَلُوه أن يُسْلِمَهم إليكم قبل أن يكلِّمهم.

---

(١) سيرة ابن إسحاق (٢٨٢)، و«الطبقات» (١/ ١٧٢)، و«الحلية» (١/ ١١٥).

(٢) «المسند» (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨)، وإسناده حسن.

(٣) مشتبهة في (و، ي). وعلىٰ الصواب في (د، ع). وفي ط. النيل: «سعيد»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة وخطّأت الصواب مع رجوع محققها إلىٰ ترجمة يعقوب!

(٤) جمع أديم، وهو الجلد المدبوغ. «المصباح» (أدم).

قالت: فخرجا، فقَدِما علىٰ النجاشيِّ ونحن عنده بخير دارٍ عند خير جارٍ، فلم يبقَ من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديَّته قبل أن يكلِّما النجاشي، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنه قد صَبَا[1] إلىٰ بلد الملك منَّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدينٍ مبتدَعٍ لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثَنا إلىٰ الملك فيهم[2] أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردَّهم[3] إليهم، [فإذا كلَّمْنا الملكَ فيهم] فأشيروا عليه أن يُسْلِمَهم إلينا ولا يكلِّمهم؛ فإن قومهم أعلىٰ بهم عينًا وأعلمُ بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قرَّبا هداياهم إلىٰ النجاشيِّ، فقبلها منهما، ثم كلَّماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد صَبَا إلىٰ بلدك منَّا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدينٍ مبتدَعٍ[4] لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم[5]، فهم أعلا بهم عينًا وأعلمُ بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلىٰ عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمعَ النجاشيُّ كلامنا.

فقالت بطارقته حوله: صَدَقوا أيها الملك، قومُهم أعلا بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسْلِمْهم إليهما فليرُدَّاهم إلىٰ بلادهم وقومهم.

---

(١) (د، ع): «ضوىٰ»، وكلاهما بمعنىٰ مالَ. «النهاية» (صبا، ضوا).
(٢) من هنا إلىٰ «أشراف قومهم» في الموضع الآتي ساقط من (و، ي) لانتقال النظر.
(٣) (د، ع): «بدين ابتدعوه».
(٤) (ع): «ليردوهم».
(٥) (ع): «عليهم».

قالت: فغضب النجاشيُّ، ثم قال: لا ها ايْمُ الله[1] إذًا لا أُسْلِمُهم إليهما، ولا أُكَادُ قومًا جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني علىٰ من سواي، حتىٰ أدعوَهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسْلَمْتُهم إليهما ورددتُهم إلىٰ قومهم، وإن كانوا علىٰ غير ذلك منعتُهم منهما وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما عَلِمنا، وما جاء[2] به نبيُّنا ﷺ، كائنٌ في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوه[3] وقد دعىٰ النجاشيُّ أساقفتَه ومعهم مصاحفهم حوله، فسألهم فقال: ما هذا الدِّين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفرُ بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كنَّا قومًا أهلَ جاهليَّة، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسِيء الجوار، ويأكل القويُّ منَّا الضعيف، فكنَّا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرف نسبَه وصدقَه وأمانتَه وعفافَه، فدعانا إلىٰ الله لنوحِّده ونعبده ونخلعَ ما كنَّا نحن نعبدُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلة الرَّحم، وحُسْن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

---

(١) «المسند»: «لا هَيْمُ الله» صيغة قسم، و«ها» للتنبيه. انظر: «فتح الباري» (٨/ ٣٧). وفي ط. العاصمة: «لا ها الله ايم الله»، خلاف الأصول.

(٢) «المسند»: «أمرنا».

(٣) زادت (د، ع، ي): «زاد أبو نعيم». وليست في (و، ي) و«المسند».

قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام.

قال: فصدَّقناه، وآمنَّا به، واتَّبعناه علىٰ ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلىٰ عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا وظلمونا وشقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلىٰ بلدك، واخترناك علىٰ من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ. فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم[1]: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا

(١) «المسند»: «من كهيعص»، دون سياق الآيات.

فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ١ - ٤٠].

قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: فبكىٰ والله النجاشي حتىٰ أَخْضَل لحيتَه، وبكت أساقفتُه حتىٰ أَخْضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تُلِي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرجُ من مشكاةٍ واحدة، ثم قال لعبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص: انطلقا، فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبدًا، ولا أُكَاد.

قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّه غدًا أعيبُهم عنده[1]، ثم أستأصِل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أبقى[2] الرجلين فينا -: لا تفعل؛ فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن عيسىٰ بن مريم عبدٌ.

قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ بن مريم قولًا عظيمًا، فأرسِل إليهم فاسألهم عمَّا يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلُها، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسىٰ إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبيُّنا كائنًا في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسىٰ بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبيُّنا: هو عبدُ الله ورسوله وروحُه وكلمتُه ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشيُّ يده إلىٰ الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدىٰ عيسىٰ بن مريم ما قلتَ هذا العود. فتناخرت بطارقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نَخَرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيُومٌ بأرضي -والسُّيوم: الآمنون-

---

(١) «المسند»: «لأنبئنه غدًا عيبَهم عنده».

(٢) مهملة في (ي، و). والمثبت من (ع، د)، أي: أكثرهما إبقاءً علىٰ قومه. ويروىٰ بالتاء «أتقىٰ»، وكذلك هو في مطبوع «المسند» وأكثر المصادر. انظر: «النهاية» (بقي).

من سَبَّكم غُرِّم، ثم من سَبَّكم غُرِّم، ثـم مـن سَبَّكم غُـرِّم، فمـا أحـبُّ أن لـي دَبْـرًا ذهبًا وأني آذيتُ رجلًا منكم -والدَّبْر بلسان الحبشة: الجبل-. رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرِّشوة حين ردَّ عليَّ ملكي فآخذ الرِّشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْن، مردودٌ عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار.

قالت: فوالله إنَّا على ذلك إذ نَزَل به. يعني: من ينازعُه في ملكه. قالت: فوالله ما علمنا حزنًا قطُّ كان أشدَّ من حزنٍ حَزِنَّاه عند ذلك، تخوَّفنا[1] أن يظهر ذلك على النجاشي، فيأتي رجلٌ لا يعرفُ من حقِّنا ما كان النجاشيُّ يعرفُ منه.

وروى عبد الله بن عامر بن الزبير، عن أبيه، قال: لما نزل بالنجاشيِّ عدوُّه من أرضه جاء المهاجرون، فقالوا: نحن[2] نخرج إليهم، فنقاتل معك، وترى جزاءنا، ونجزيك بما صنعتَ بنا، فقال: ذو ينصره الله خيرٌ من الذي ينصره الناس[3]، يقول: الذي ينصره الله خيرٌ من الذي ينصره الناس، فأبى ذلك عليهم[4].

رجعنا إلى حديث أم سلمة:

---

(١) «المسند»: «تخوفًا».

(٢) (و): «إنا نحن».

(٣) «ذو» بمعنى «الذي» لغة طيء. وتحرفت في «المستدرك» إلى «دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس». وفي «الرقة»: «من ينصره الله خير من الذي ينصره الناس».

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٤١)، وابن قدامة في «الرقة» (٢٤٧)، وصححه الحاكم، وفي سنده لين.

قالت: وسار النجاشيُّ، وبينهما عَرْض النِّيل. قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَن رجلٌ يخرج حتىٰ يحضر وَقْعَة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا. قالت: وكان من أحدث القوم سنًّا، قالت: فنفخنا له قربةً، فجعلها في صدره، ثم سَبَح عليها حتىٰ خرج إلىٰ ناحية النِّيل التي بها ملتقىٰ القوم، ثم انطلق حتىٰ حضرهم.

قالت: ودعونا الله للنجاشيِّ بالظهور علىٰ عدوِّه والتَّمكين له في بلاده.

قالت: فوالله إنَّا لعلىٰ ذلك متوقِّعين لما هو كائن، إذ طلع الزبيرُ يسعىٰ ويلوِّح بثوبه، ويقول: ألا أبشروا، قد ظهر النجاشيُّ، وقد أهلك الله عدوَّه. فوالله ما علمتُ فَرِحنا فرحةً مثلها قطُّ.

قالت: فرجع النجاشيُّ، وقد أهلك الله عدوَّه، ومكَّن له في بلاده، واستَوْسَقَ عليه أمرُ الحبشة[1]، فكنَّا عنده في خير منزلٍ حتىٰ قدمنا علىٰ رسول الله ﷺ.

وقد روىٰ جُمَل هذه القصة أبو داود في سننه[2] من حديث أبي موسىٰ.

وفي الصَّحيحين[3] من حديث ابن موسىٰ، عن[4] أبي موسىٰ، قال: بلَغَنا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرَين إليه أنا وأخوان لي أنا

---

(١) أي: اجتمعوا علىٰ طاعته. «النهاية» (وسق). وفي (و، ع): «واستوثق».

(٢) (٣٢٠٥)، وابن سعد (٤/ ٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٧٧٩٥)، وعبد بن حميد (٥٥٠)، وغيرهم. وأعله البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٩٩)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٥٨٢). وانظر: «السير» (٢/ ٤٠٠)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٧٤)، و«الإصابة» (٦/ ٣٤٠)، و«فتح الباري» (٧/ ١٨٩).

(٣) صحيح البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) والسياق له.

(٤) «ابن موسىٰ عن» ساقط من (و) ولم تثبته ط. العاصمة، وتحرف في (ي، ع) إلىٰ «أبي موسىٰ عن»، وعلىٰ الصواب في (د). وابن موسىٰ هو أبو بردة.

أصغرهما في اثنين وخمسين رجلًا من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتُنا إلىٰ النجاشيِّ بالحبشة، فوافَقْنا جعفرَ بن أبي طالب وأصحابَه عنده. قال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثَنا وأمَرنا - يعني بالإقامة -، فأقيموا معنا. قال: فأقمنا معه حتىٰ قَدِمنا جميعًا.

قال: فوافَقْنا رسولَ الله ﷺ[1] حين فتَح خيبر، فأسهَمَ لنا منها، وما قَسَم لأحدٍ غائبٍ عن فتح خيبر غيرَنا إلا لمن شهد معنا أصحابَ سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسَم لهم معهم.

قال: وكان ناسٌ[2] من الناس يقولون لنا - يعني أهل السفينة -: سبقناكم[3] بالهجرة.

قال: ودخلت أسماء بنت عُمَيْس - وهي ممَّن قدم معنا - علىٰ حفصة زائرةً، وقد كانت هاجرت إلىٰ النجاشيِّ فيمن هاجر إليه، فدخل عمرُ علىٰ حفصة وأسماءُ عندها، فقال عمر حين رأىٰ أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عُمَيْس، فقال عمر: الحبشيَّة هذه؟ البحريَّة هذه؟ قالت أسماء: نعم، فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، نحن أحقُّ برسول الله ﷺ، فغضبَت وقالت: يا عمر، كلَّا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطْعِم جائعَكم ويَعِظُ جاهلكم، وكنَّا في أرض البُعَداء البُغَضاء بالحبشة، وذلك في الله تبارك وتعالى وفي رسول الله ﷺ، وايمُ الله لا أطعمُ طعامًا ولا أشربُ شرابًا حتىٰ أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنَّا نُؤذىٰ ونُخَاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيدُ علىٰ ذلك.

---

(١) (د، ع): «حتىٰ قدمنا جميعًا علىٰ رسول الله ﷺ».

(٢) الأصول: «فلما راى ناس»، وكذلك وقع في مطبوعة «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٣٠)، وفي (٣٢/ ٣٢) علىٰ الصواب. والمثبت رواية الصَّحيح وعامة المصادر.

(٣) الأصول: «سبقناهم». وهو خطأ.

فلما جاء النبيُّ ﷺ قالت: يا رسول الله، إن عمر قال كذا وكذا، قال رسول الله ﷺ: «**فماذا قلتِ له؟**» قالت: قلتُ كذا وكذا، قال: «**ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان**».

قالت: فلقد رأيتُ أبا موسىٰ وأصحابَ السفينة يأتوني[1] أرسالًا يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيءٌ هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم ممَّا قال رسول الله ﷺ.

قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيتُ أبا موسىٰ وإنه ليستعيدُ هذا الحديثَ منِّي. أخرجاه في الصَّحيحين البخاريُّ ومسلم[2].

وأخرجا في الصَّحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نعىٰ لهم النجاشيَّ صاحبَ الحبشة في اليوم الذي مات فيه، قال: «**استغفروا لأخيكم**»[3].

وعنه رضي الله عنه قال: نعىٰ النبيُّ ﷺ النجاشيَّ يوم توفِّي، وقال: «**استغفروا لأخيكم**»، ثم خرج بالناس إلىٰ المصلَّىٰ، فصفُّوا وراءه، وصلَّىٰ عليه، وكبَّر أربع تكبيرات. أخرجاه[4].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ صلَّىٰ علىٰ أَصْحَمَة النجاشيِّ، فكبَّر عليه أربعًا. أخرجاه في الصَّحيحين[5].

---

(١) ط. العاصمة: «يأتونني»، خلاف الأصول ورواية الصَّحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) والسياق له.
(٣) أخرجه البخاري (١٣٢٧)، ومسلم (٩٥١).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٣٣)، ومسلم (٩٥١).
(٥) أخرجه البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (٩٥٢).

فصل

وكان أول ما أنزل الله تعالىٰ عليه ﷺ الوحي، عَرَضت خديجةُ امرأتُه أمرَه علىٰ عالمٍ كبيرٍ من علماء النصارىٰ يقال له: ورقةُ بن نوفل، وكان من العرب المتنصِّرة، فقال: هذا هو الناموسُ الذي كان يأتي موسىٰ بن عمران، يا ليتني فيها جَذَعًا حين يُخْرِجُك قومُك. يعني: ليتني أكون شابًّا؛ فإنه كان شيخًا كبيرًا قد كُفَّ بصرُه، فقال له النبيُّ ﷺ: «أوَمُخْرِجِيَّ هم؟!» قال: نعم، لم يأتِ أحدٌ بمثل ما أتيتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك أنصُرْك نصرًا مؤزَّرًا. رواه أصحاب الصَّحيح[1].

وقَدِم إليه بمكة طائفةٌ من أهل الكتاب من النصارىٰ، فآمنوا به، فآذاهم المشركون، فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥][2].

وروىٰ البيهقي في كتاب «دلائل النبوّة وأعلام الرسالة»[3] عن أبي عبدالله الحاكم[4]، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبدالجبار،

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) زادت ط. النيل: «وقصتهم مشهورة في كتب التفسير وغيرها».

(٣) (٢/ ٣٠٦).

(٤) (و): «ثنا الحاكم». وفي ط. النيل وما تلاها: «فقال أنبأنا أبو عبد الله الحافظ»، وكذلك مطبوعة «الدلائل» إلا أن فيها: «أخبرنا» موضع «أنبأنا».

حدثنا[1] يونس، عن ابن إسحاق[2]، قال: ثم قَدِم علىٰ رسول الله ﷺ عشرون رجلًا وهو بمكة أو قريبٌ من ذلك من النصارىٰ حين ظهر خبرُه في الحبشة، فوجدوه في المجلس، فكلَّموه وساءلوه[3]، ورجالٌ من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلمَّا فرغوا من مساءلتهم رسولَ الله ﷺ عمَّا أرادوا دعاهم رسولُ الله ﷺ[4] إلىٰ الله[5]، وتلا عليهم القرآن، فلمَّا سمعوا فاضت أعينُهم من الدَّمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصَفُ لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترَضهم أبو جهل في نفرٍ من قريش، فقالوا: خيَّبكم الله مِن رَكْبٍ، بعَثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون[6] لهم، فتأتونهم بخبر الرَّجل، فلم تطمئنَّ مجالسُكم عنده حتىٰ فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال لكم، ما نعلمُ[7] رَكْبًا أحمقَ منكم. أو كما قال لهم. فقالوا: سلامٌ عليكم، لا نُجَاهِلُكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا لأنفسنا إلا خيرًا. ويقال - والله أعلم -: إنَّ[8] فيهم نزلت هؤلاء[9] الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٥].

---

(١) كذا وقعت صيغة السماع في الأصول و«الدلائل» في المواضع الثلاثة. وفي ط. النيل وما بعدها: «أنبأنا».

(٢) في «السيرة» (٢٨٧).

(٣) ط. العاصمة: «وسألوه»، خلاف الأصول و«السيرة» و«الدلائل».

(٤) من قوله: «عما أرادوا» إلىٰ هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٥) «إلىٰ الله» ليست في (د، ي، ع).

(٦) (د، ي، ع): «لترتادوا».

(٧) (د، ع): «لا نعلم».

(٨) «والله أعلم إن» ليست في (د، ي، ع).

(٩) (د، ي، ع) وسيرة ابن إسحاق: «هذه».

[فصل]

ولمَّا كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل ﷺ رسله إلىٰ جميع الطوائف[١]، فأرسل إلىٰ النَّصارىٰ نصارىٰ الشام ومصر، فأرسل إلىٰ هِرَقل ملك الرُّوم.

وقد قيل: إن هِرَقل هذا هو الذي زادت النَّصارىٰ له في صومهم عشرة أيام لمَّا اقتتلت الرُّوم والفُرس، وقتَل اليهود بعد أن كان قد أمَّنَهم، فطلبت منه النَّصارىٰ قتلَهم، وضَمِنوا له أن يكفِّروا خطيئتَه بما زادوه في الصَّوم[٢].

وكانت الفُرس مجوسًا، والرُّوم نصارىٰ، وكانت المجوسُ الفُرس غلبت النَّصارىٰ أولًا، وكان هذا في أوائل مبعث النبي ﷺ وهو بمكَّة وأتباعُه قليل، ففرح المشركون بانتصار الفُرس؛ لأنهم أقربُ إليهم من أهل الكتاب، واستاء[٣] المسلمون لذلك، فدخل أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه علىٰ رسول الله ﷺ، وأخبره بانتصار الفُرس علىٰ الرُّوم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الرُّوم: ١ - ٥][٤].

---

(١) انظر: «الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلىٰ الملوك في عصره» لعز الدين إبراهيم (٦/ ٢٤٩ - ٢٨٤، بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية بالدوحة).

(٢) قيل: إنهم زادوا في صيامهم جمعة. انظر: «تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل» لأبي البقاء الهاشمي (٢/ ٥٩٦)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٠٦٦)، و«الخطط» للمقريزي (٤/ ٤٠٦). وذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٨) أن قسطنطين من ملوك اليونان زاد في صيام النصارىٰ عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه.

(٣) لم تحرر في (و، ي). (د، ع): «واستساء». ط. النيل: «وساء المسلمين ذلك».

(٤) سيأتي سياقه وذكر أسانيده ورواياته.

وكان هذا ممَّا أخبر به النبيُّ ﷺ قبل[1] أن يكون، فكان كما أخبَر، ولمَّا ذكر ذلك[2] أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه كذَّبوه، فراهنَهم أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، كما ذكر هذا المفسِّرون والمحدِّثون.

قال سُنَيْد[3] في تفسيره - وهو شيخ البخاري -: حدثنا حجَّاج، عن ابن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن عروة بن الزُّبير، عن نِيَار بن مُكْرَم الأسلميِّ أنه قال: لمَّا أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خرج أبو بكرٍ وهو يقرؤها بمكَّة رافعًا بها صوته: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾، فقال له رؤوس أهل مكة: ما هذا يا ابن أبي قحافة؟ لعله[4] ممَّا يأتي به صاحبُك، قال: لا والله، ولكنه كلام الله وقوله[5] تبارك وتعالى، قالوا: فذلك بيننا وبينك إن ظهرَت الرُّوم علىٰ فارسَ في بضع سنين، فراهنَهم أبو بكر، ففتَح الله للرُّوم علىٰ فارسَ في بضع سنين[6] دون التِّسع، فأسلم عند ذلك خلقٌ كثيرٌ من المشركين.

قال ابن مُكْرَم: وإنما كانت قريشٌ تستفتحُ يومئذٍ بالفُرس لأنهم وإيَّاهم أهلُ تكذيب بالبعث وأهلُ أصنام، وإنما كان[7] المؤمنون يستفتحون يومئذٍ

---

(١) (د، ع): «من قبل».
(٢) ساقطة من ط. العاصمة.
(٣) (ع): «سفيان». (د): «سفين». وهو خطأ.
(٤) (د، ع): «لعل هذا».
(٥) (د، ع): «وقول الله».
(٦) «في بضع سنين» ليست في (و، ي)، والكلمتان بعدها ليستا في (د، ع).
(٧) (و، ي): «كانوا».

بالرُّوم لأنهم وإيَّاهم أهل نبوَّة وتصديقٍ بالبعث، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾[1].

وهذا الحديث رواه الترمذيُّ في جامعه[2]، فقال: حدثنا محمَّد بن إسماعيل[3]، حدثنا إسماعيل بن أبي أُوَيْس، قال: حدثني ابن أبي الزِّناد، عن أبي الزِّناد، عن عروة بن الزُّبير، عن نِيَار بن مُكْرَم الأسلميِّ قال: لما نزلت: ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، فكانت فارسُ يوم نزلت هذه الآية قاهرين للرُّوم، وكان المسلمون يحبُّون ظهور الرُّوم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهل كتاب، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وكانت قريش تحبُّ ظهور فارسَ؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهل كتابٍ ولا إيمانٍ ببعث، فلمَّا أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يصيحُ في نواحي مكة: ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾، قال

---

(١) إسناده حسن. ورواه من طريق حجاج عن ابن أبي الزناد مختصرًا ابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ١٠٦) بسند تالف.

(٢) (٣١٩٤). وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١١٦، ١٢١٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٤٠٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧/ ٤٤٢)، وغيرهم من طرق عن ابن أبي الزناد به مختصرًا ومطولًا، وصحح إسناده البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥٨٥)، وهو مقتضىٰ تخريج ابن خزيمة له دون تعليل، وقال ابن حجر في «الإصابة» (١١/ ١٤٥): «رجال السند ثقات». وفي ابن أبي الزناد كلام، لكن تصحيح الترمذي وغيره حديثه هذا يدل علىٰ أنه ليس فيه ما ينكر، وقد حدث به في المدينة، وذلك من أصح حديثه. انظر: آثار العلامة المعلمي (١١/ ٥٣- ٥٧).

(٣) الإمام البخاري، وهو في «التاريخ الكبير» (٨/ ١٣٩).

ناسٌ من قريش[1] لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبُكم أن الرُّوم سَتَغْلِبُ فارسَ في بضع سنين، أفلا نراهنك علىٰ ذلك؟ فارتهن أبو بكر والمشركون، فظهرت الرُّوم علىٰ فارس في بضع سنين، وأسلم عند ذلك ناسٌ كثيرٌ من المشركين.

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد». يعني غريبًا من هذا الوجه[2]، وإلا فهو مشهورٌ متواترٌ عند[3] أهل التفسير والمغازي والحديث والفقه[4]، والقصَّة متواترةٌ عند النَّاس[5].

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيره[6]: عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: كان المسلمون يحبُّون أن تغلبَ الرُّومُ علىٰ فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبُّون أن تغلب أهلُ فارس؛ لأنهم أهل أوثان.

قال: فذكروا ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر[7] للنبيِّ ﷺ، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣

---

(١) «من قريش» ليست في (د، ع).

(٢) وكذا قال الدارقطني في «الغرائب والأفراد» (١/ ٤١ - أطرافه): غريب من حديث عروة عن نيار، تفرَّد به أبو الزناد عنه، ولم يروه عنه غير ابنه عبد الرحمن.

(٣) ط. العاصمة: «عن»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) (د، ع): «عند أهل التفسير والفقه والمغازي والحديث».

(٥) قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٢٩٩): «روي نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم».

(٦) (١٨/ ٤٤٧) من طريق محمَّد بن أسعد التغلبي عن أبي إسحاق الفزاري عن سفيان، والتغلبي ضعيف، لكنه توبع علىٰ أصل الحديث، كما سيأتي.

(٧) (د، ع): «فذكر ذلك».

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فذكره أبو بكرٍ للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن غَلَبوا كان لك كذا وكذا، وإن غُلِبوا كان لنا كذا وكذا، فجعلوا بينهم أجلًا خمسَ سنين، فذكر ذلك أبو بكرٍ للنبي ﷺ، فقال له: «**هلَّا احتَطْتَ، أفلا جعلته دون العَشْر؟**»[1].

قال سعيد بن جبير: والبِضْعُ ما دون العشر.

قال: فغُلِبت الرُّوم[2]، ثم غَلَبت، فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ الآية.

وهذا أيضًا أخرجه الترمذي[3] عن الحسين بن حريث، حدثنا معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة.

ورواه أيضًا[4] من حديث الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

---

(١) لفق المصنف بين متن هذه الرواية ورواية الزهري الآتية.

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) (٣١٩٣)، وأحمد (٢٤٩٥)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٢٥) وغيرهم. وإسناده علىٰ شرط الصَّحيح كما قال ابن القيم في «الفروسية» (١٤٥)، وصححه الحاكم (٢/ ٤١٠) علىٰ شرط الشيخين ولم يتعقبه الذهبي، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٠/ ١٤٤).

(٤) (٣١٩١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٧/ ٤٤١) وغيرهما من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي عن الزهري به. قال الدارقطني في «العلل» (١/ ٢١٢): «وغيره يرويه عن الزهري مرسلًا، وعبد الله الجمحي ليس بالقوي، والمرسل أشبه بالصواب». وخفي ذلك علىٰ الحافظ الضياء فخرجه في «المختارة» (١١/ ١٥٨).

ورواه أيضًا[١] من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وذهبت طائفةٌ من العلماء إلىٰ أن الخبر جاء بظهور الرُّوم علىٰ فارس يوم بدر. وذهب آخرون إلىٰ أنه يوم الحديبية، وهذا هو الصَّحيح[٢].

وهِرَقل كان قد مشىٰ شكرًا لله من حمص إلىٰ بيت المقدس، شكرًا لله[٣] لمَّا نصره علىٰ الفُرس، فوافاه كتابُ النبي ﷺ يدعوه إلىٰ الإسلام عَقِبَ[٤] نصرِ الله للرُّوم علىٰ فارس، ففرحَ النبيُّ ﷺ ومن معه من المؤمنين.

قال علماء السِّيَر: فلمَّا انتصرت الرُّوم، وخرج هِرَقل ملكُ الرُّوم من منزله من حمص ماشيًا علىٰ قدميه إلىٰ بيت المقدس، متشكِّرًا[٥] لله ﷻ حين ردَّ عليه ما ردَّ[٦]؛ ليصلِّي فيه، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ بيت المقدس وصلَّىٰ فيه قَدِم عليه حينئذٍ كتابُ رسول الله ﷺ مع دِحْيَة الكلبيِّ يدعوه إلىٰ الإسلام.

قال ابن إسحاق[٧]: حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني أبو سفيان، قال: كنَّا قومًا تجَّارًا،

---

(١) (٢٩٣٥، ٣١٩١)، وابن جرير (١٨/ ٤٥٧)، وعطية العوفي ضعيف.

(٢) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٨)، و«البسيط» (١٨/ ١٤)، و«الفروسية» لابن القيم (١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٠٤).

(٣) كذا تكررت جملة الشكر في الأصول. وحُذِفت من ط. النيل والعاصمة .

(٤) (و): «عقيب».

(٥) (ع، د): «مستشكرا».

(٦) (ي): «ورد عليه ما ورد».

(٧) أخرجه من طريقه ابن جرير في «تاريخ الرسل والملوك» (٢/ ٦٤٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٨١).

وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حَصَرتنا حتىٰ قد[1] هَلَكت أموالنا، فلمَّا كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله ﷺ -يعني التي عُقِدت يوم الحديبية-، فلمَّا عُقِدَت الهدنة أمِنَّا، فخرجتُ في نفرٍ من قريش تاجرًا إلىٰ الشام، وكان وجهَ متَّجرنا، فقدمتُها حين ظهر هِرَقل علىٰ من كان عارَضه من فارس، فأخرجهم منها، وانتزع له صليبُه الأعظم، وقد كانوا سلبوه إيَّاه، فلمَّا بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استُنْقِذَ[2] له، وكانت حمصُ منزله، فخرج منها علىٰ قدميه متشكِّرًا لله ﷻ حين ردَّ عليه ما ردَّ؛ ليصلِّي في بيت المقدس، وبُسِط له الطريق بالبُسُط وتُلْقَىٰ عليها الرَّياحين، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ إيلياء وقضىٰ فيها صلاته ومعه بطارقتُه وأساقفتُه الرُّوم، قال: وقَدِم عليه كتابُ رسول الله ﷺ مع دِحْيَة بن خليفة الكلبيِّ فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمَّد رسول الله إلىٰ هِرَقل عظيم الرُّوم، السَّلام علىٰ من اتَّبع الهدىٰ. أما بعد، فأَسْلِم تَسْلَم، وأَسْلِمْ يؤتك الله أجرَك مرَّتين، وإن تولَّيتَ فإن عليك إثمَ الأَرِيسيِّين**» يعني: الأكَّارين[3].

قال ابن إسحاق[4]: وقال ابن شهاب: حدثني أُسْقُفُ النَّصارىٰ في زمان عبد الملك بن مروان، زعم لي أنه أدرك ذلك من أمرِ رسول الله ﷺ وأمرِ هِرَقل، وعَقَلَه، قال: لمَّا قدم عليه كتابُ رسول الله ﷺ مع دِحية أخذه فجعله علىٰ خاصرته[5]، ثم كتب إلىٰ رجلٍ برُومِيَة كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ، يذكر

---

(١) (و، ع): «حتىٰ هلكت».

(٢) (د، ع): «استعيد».

(٣) وهم الفلَّاحون والزُّرَّاع. «النهاية» (أرس، أكر). ولم يرد التفسير في (ي، د، ع). ورواية ابن إسحاق: «فإن إثم الأكارين عليك». أما ذكر «الأريسيين» ففي رواية الصَّحيح الآتية من غير طريقه. انظر: «فتح الباري» (١/ ٣٩).

(٤) تتمة خبره السابق.

(٥) في مصادر الخبر: «فجعله بين فخذيه وخاصرته».

له أمرَه، ويصف له شأنه، ويخبره ما جاء منه. قال: فكتب إليه صاحبُ رُومِيَة أنه النبيُّ الذي ننتظره لا شكَّ فيه، فاتَّبعه وصدِّقه. فأمر هِرَقلُ ببطارقة الرُّوم، فجُمِعوا له في دَسْكَرة مُلكِه[١]، وأمر بها فأُشْرِجَت[٢] عليهم أبوابُها، ثم اطَّلع عليهم من عُلِّيَّة، وخافهم علىٰ نفسه، وقال: يا معشر الرُّوم إني قد جمعتكم لِخَبَرٍ[٣]، إنه قد أتاني كتابُ هذا الرجل يدعوني إلىٰ دينه، وإنه والله لَلرجلُ الذي كنَّا ننتظرُ ونَجِدُ في كتبنا، فهلمَّ فلنتَّبعه ولنصدِّقه[٤]، فتَسْلَم لنا دنيانا وآخرتنا، فنَخَروا نخرة رجلٍ واحد، ثم ابتدروا أبوابَ الدَّسْكَرة ليخرجوا منها، فوجدوها قد أُغْلِقت دونهم، فقال: كُرُّوهم عليَّ، وخافهم علىٰ نفسه، فكُرُّوا عليه، وقال: يا معشر الرُّوم، إنما قلتُ لكم هذه المقالة التي قلتُ لكم لأنظر كيف صلابتُكم علىٰ دينكم لهذا الأمر الذي حَدَث، فقد رأيتُ منكم الذي أُسَرُّ به، فوقعوا سجودًا، وأمر بأبواب الدَّسْكَرة ففُتِحت لهم، فانطلقوا.

وهذا حديثٌ مشهورٌ من حديث محمَّد بن إسحاق، وهو ذو علمٍ وبصيرةٍ بهذا الشأن، حَفِظ ما لا يحفظه غيره.

قال ابن إسحاق: وأخذ هِرَقل كتابَ رسول الله ﷺ، فجعله في قَصَبةٍ من ذهب، وأمسكَها عنده، تعظيمًا له[٥].

---

(١) الدسكرة: بناء علىٰ هيئة القصر. «النهاية» (دسكر).

(٢) أي: أغلقت. لعلها من «أشرجتَ العَيبة إذا شددتها بالشَّرَج، وهي العُرىٰ». «النهاية» (شرج). وهي مهملة في (ي)، وفي (د، ع): «فاسترخت»، وفي مطبوع معجم الطبراني: «فأسرجت». والمثبت من (و) يوافق ما في تاريخ ابن جرير والدلائل.

(٣) ط. النيل والعاصمة: «لخير»، خلاف الأصول ومصادر الخبر.

(٤) (د، ع): «ونصدقه». وفي ط. العاصمة: «لنصدقه»، وهو خطأ.

(٥) لم أقف عليه من قول ابن إسحاق. وقال السهيلي في «الروض» (٧/ ٣٦٥): «روي أن هرقل وضع كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب إليه في قصبة ...» فذكره.

وهذه القصَّة مشهورةٌ ذكرها أصحاب الصِّحاح.

ففي البخاريِّ ومسلم[1] -والسياق للبخاريِّ- عن الزهري، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره، أن هِرَقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تجَّارًا بالشام في المدَّة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ[2] فيها أبا سفيان بن حرب وكفَّار قريش، فأتوه وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الرُّوم، ثم دعاهم بالتَّرْجُمَان، فقال: أيكم أقربُ نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنُوه، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لتَرجُمانه: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَبني فكذِّبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يَأثِروا عليَّ الكذب لكذبتُ عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسَب. قال: فهل قال هذا القول أحدٌ منكم قطُّ قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِن مَلِك؟ قلت: لا. قال: فأشرافُ النَّاس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. فقال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ منهم أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال فهل يغدِر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدَّةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها. قال: ولم يمكنِّي كلمةٌ أُدْخِل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت. نعم. قال: فكيف كان قتالكم إيَّاه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجالٌ، ينال منَّا وننال منه. قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصَّلاة والصِّدق

---

(١) صحيح البخاري (٧، ٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) أي: أطال. «النهاية» (مدد). وفي (ي): «هادن»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة دون تنبيه. وضرب عليها ناسخ (و) وكتب الصواب.

والعفاف والصِّلة. فقال للتَّرْجُمَان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرُّسل تُبْعَثُ في أنساب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ: رجلٌ يتأسَّىٰ بقولٍ قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه مِن مَلِك؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كان في آبائه مِن مَلِكٍ قلتُ: رجلٌ يطلبُ مُلْكَ أبيه. وسألتك: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقد أعرفُ أنه لم يكن ليذر الكذبَ علىٰ النَّاس ويكذبَ علىٰ الله. وسألتك: أشرافُ النَّاس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أتباع الرُّسل. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتىٰ يتمَّ. وسألتك: أيرتدُّ أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الإيمانُ حين تخالطُ بشاشتُه القلوبَ لا يَسْخَطه أحد. وسألتك: هل يغدِر؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الرُّسل لا تغدِر. وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصِّلاة والصِّدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملكُ موضع قدميَّ هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارجٌ، ولم أكن أظنُّ[1] أنه منكم، فلو أني أعلمُ أني أخلُص إليه لتجشَّمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دِحْيَة الكلبيِّ إلىٰ عظيم بُصْرىٰ، فدفعه عظيمُ بُصْرىٰ إلىٰ هِرَقل، فقرأه، فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمَّد عبد الله ورسوله إلىٰ هِرَقل عظيم الرُّوم، سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَم، أَسْلِمْ يؤتك الله أجرَك مرَّتين، فإن تولَّيتَ فإن عليك إثمَ اليَرِيسيِّين**[2]، و﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا**

---

(١) (د، ع): «أظنه»، وهي رواية مسلم. والمثبت من (ي، و) رواية البخاري.
(٢) كذا في الأصول، وهي من روايات البخاري. وفي مسلم: «الأريسيين».

﴿نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

قال أبو سفيان: فلمَّا قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كَثُرَ عنده الصَّخبُ وارتفعت الأصوات، وأُخْرِجنا، فقلتُ لأصحابي حين أُخْرِجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة؛ إنه ليخافه ملكُ بني الأصفر. فما زلتُ موقنًا أنه سيظهر حتىٰ أدخل الله عليَّ الإسلام.

وكان ابن النَّاطُور[١] صاحبُ إيلياء أُسْقُفًا علىٰ نصارىٰ أهل الشام يحدِّث أن هِرَقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيثَ النفس، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن النَّاطور: وكان هِرَقلُ حَزَّاءً[٢] ينظر في النُّجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيتُ الليلة حين نظرتُ في النجوم أن مَلِك الخِتَان قد ظهر، فمن يختَتِنُ من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختَتِن إلا اليهود، فلا يهمَّنَّك شأنُهم، واكتب[٣] إلىٰ مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينا هم علىٰ أمرهم أُتِيَ هِرَقل برجلٍ أرسَل به ملكُ غسَّان يخبر عن رسول الله ﷺ، فلمَّا استخبره هِرَقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتنٌ هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدَّثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب قال: هم يختتنون، فقال هِرَقل: هذا مَلِكُ هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هِرَقل إلىٰ صاحب له برُومِيَة وكان هِرَقلُ نظيره في العلم، وسار هِرَقل إلىٰ حمص، فلم يَرِم حمصَ[٤] حتىٰ أتاه كتابٌ من صاحبه يوافق

---

(١) هو أسقف النصارىٰ الذي حدَّث الزهري، وكان في زمن عبد الملك بن مروان، كما مرَّ في رواية ابن إسحاق.

(٢) أي: كاهنًا. والحزَّاء: الذي يحزو الأشياء ويقدِّرها بظنه. وقيل للذي ينظر في النجوم: حزَّاءً؛ لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه. «النهاية» (حزا).

(٣) (د، ع): «وابعث». والمثبت من (ي، و) رواية البخاري.

(٤) أي: لم يفارقها. وسقطت «فلم يرم حمص» من ط. العاصمة.

رأي هِرَقل علىٰ خروج النبي ﷺ وأنه نبيٌّ، فأذن هِرَقل لعظماء الرُّوم في دَسْكَرةٍ له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثم اطَّلع عليهم، فقال: يا معشر الرُّوم، هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يثبت ملكُكم فتتابعوا هذا النبيَّ؟ فحَاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلىٰ الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقَت، فلمَّا رأىٰ هِرَقل نفرتهم ويئس من الإيمان منهم قال: ردُّوهم عليَّ، وقال: إني قلتُ مقالتي آنفًا أختبر بها شدَّتكم علىٰ دينكم، فقد رأيتُ، فسجدوا له ورضوا عليه، فكان هذا آخر شأن هِرَقل.

قلت: وكان هِرَقلُ من أجلِّ ملوك النَّصارىٰ في ذلك الوقت، وقد أخبر غير واحدٍ أن هذا الكتاب إلىٰ الآن باقٍ عند ذرِّية هِرَقل في أرفع صُوَانٍ وأعزِّ مكان، يتوارثونه كابرًا عن كابر، وأخبر غير واحدٍ أن هذا الكتاب باقٍ إلىٰ الآن[1] عند ألفُنْش[2] صاحب قَشْتَالة وبلاد الأندلس، يفتخرون به، وهذا أمرٌ مشهورٌ معروف[3].

قال شارح «السِّيرة» -وهو أبو القاسم السُّهيلي-: وضعَ هِرَقلُ كتابَ رسول الله ﷺ في قصبةٍ من ذهب تعظيمًا له. وأنهم يتوارثونه كابرًا عن كابرٍ في أرفع صُوَانٍ وأعزِّ مكان، حتىٰ كان عند أَذْفُونْش الذي تغلَّب علىٰ طُلَيْطِلَة،

---

(١) (ي): «إلىٰ الآن باق». (د، ع): «باق الآن».

(٢) الأذفونش أو ألفونسو السادس، من ذرية هرقل، صليبيٌّ محارب للإسلام، كان له دور كبير في إذكاء الفتنة بين ملوك الطوائف بالأندلس، واستولىٰ علىٰ طليطلة عاصمة قشتالة Castilla شمال غرب أسبانيا سنة ٤٧٨، ثم هزمه المسلمون في معركة الزلاقة المشهورة سنة ٤٧٩. انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٢/ ١٧٠، ٣٢٠).

(٣) ذكره اليسع بن عيسىٰ بن حزم، والسهيلي، وابن فضل الله العمري، وغيرهم. انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٠/ ٤٧٦)، و«التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله (٩١)، و«المصباح المضي» لابن حديدة (٢/ ٩٦)، و«صبح الأعشىٰ» (٨/ ٣٥)، و«فتح الباري» (١/ ٤٤).

ثم كان عند ابن بنته المعروف بالسُّلَيْطِين[١].

قال السُّهيلي: وحدَّثني بعض أصحابنا من أجناد المسلمين كان يُعْرَف بابن سعيدٍ أنه رآه عندهم. قال: فأردتُ تقبيله وأخذه بيدي، فمنعوني من ذلك صيانةً له وضنًّا عليَّ به[٢].

وقال الشيخ أبو عبد الله[٣] محمَّد بن أحمد بن إسماعيل الأنصاري الجزري[٤] المغربي: وصل هذا الكتاب إلىٰ إشبيلية عام ثمانية وستِّمئة واردًا علىٰ إمام [المسلمين] الناصر[٥] أمير المؤمنين من البَبُوج[٦] ملك لِيُون[٧]، مفتخرًا به ومتشرِّفًا بوراثته، وهو اليوم بيد ولده فرناندو[٨] وارثه ووارث أمِّه بنت أَذْفُونْش[٩] صاحب قَشْتَالة، وبلاد الأندلس اليوم بيده، كقرطبة، وإشبيلية، وجَيَّان، وما أَخَذ أخذَها.

قلت: وقد حدَّثني أيضًا من رأىٰ هذا الكتاب عندهم إلىٰ الآن[١٠].

---

(١) أي الملك الصغير؛ لأنه تولىٰ ملك ليون وقشتالة ولمَّا يجاوز الحادية والعشرين. انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٣/ ١٢٨).

(٢) «الروض الأنف» (٧/ ٣٦٥).

(٣) كتب النَّاسخ: «محمَّد» ثم ضرب عليه، ولم أعرف ترجمته.

(٤) كذا في الأصل، ولعله «الخزرجي».

(٥) محمَّد بن الإمام المنصور (ت: ٦١٠). «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ٢٤٩).

(٦) لقب فرناندو الثاني، بالقشتالية El-Baboso، ومعناه: كثير اللُّعاب، الأبله. انظر: «المعجب» للمراكشي (٢٣٥)، و«دولة الإسلام في الأندلس» (٣/ ٣٩٤).

(٧) من مدن قشتالة Castilla شمال غرب أسبانيا. انظر: «الروض المعطار» (٥١٤).

(٨) (ت): «فرافده». تحريف. وهو فرناندو الثالث ملك قشتالة.

(٩) (ت): «بنت أذفونش في ملك أذفونش». ولعله من سهو النَّاسخ.

(١٠) من أول النقل عن السهيلي إلىٰ هنا وقع لحقًا في طرة الأصل (ت) مختومًا بعلامة التصحيح، وليس في الأصول الأخرىٰ. ولم تثبته ط. النيل والعاصمة. ولعله مما ألحقه شيخ الإسلام بأخرة. وقد صرح بالنقل عن شرح «السيرة» للسهيلي في موضع آخر. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٢٤).

وقـد روىٰ سُـنَيد[1] -وهـو شـيخُ البخـاري- في تفسـيره، قـال: حـدثنا هُشَيْم[2]، قال: أخبرنا حُصَين، عن عبد الله بـن عبد الله بـن شـدَّاد بـن الهـاد، قـال: لمَّـا كتـب رسول الله ﷺ إلىٰ هِرَقل، فقرأ كتابه، وجمع الرُّوم، فأبوا عليه، قـال: فلمَّـا كـان يوم الأحد لم يحضر أُسْقُفُهم الكبير[3]، وتَمَارَض، فأرسل إليه، فـأبىٰ، ثـم أرسـل إليه، فأبىٰ، ثلاث مرَّات، فركب إليه، فقال له: أليس قد عرفـتَ أنـه رسـول الله ﷺ؟ قال: بلىٰ، قال: أليس قد رأيـتَ مـا ركبـوا منِّـي؟ فأنـت أطـوعُ فـيهم منِّـي، فتعـال فادعُهم، قال: وتأذن لـي في ذلـك؟ قـال: نعـم، قـال: اذهـب هـو ذا أجـيءُ، قـال: فجاء بسواده إلىٰ كنيستهم العظمىٰ، فلمَّـا رأوه خرُّوا لـه سـجَّدًا الملـكُ وغيـرُه، فقام في المذبح فقال: يا أبناء الموتىٰ، هذا النبيُّ الذي بشَّر به عيسىٰ، وأنـا أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّدا رسول الله، فنَخَروا، ووثبوا إليـه، فعضُّـوه بـأفواههم حتىٰ قتلوه، قال: وجعلوا يُخرِجون أضلاعَه بالكَلْبَتين[4] حتىٰ مات[5].

---

(١) مهملة في (ي، د). وتحرف في (ع) إلىٰ «مسدد».

(٢) الأصـول: «هشـام»، وهـو خطـأ. هشيم بـن بشير الواسـطي، وحصـين بـن عبـد الـرحمن السلمي.

(٣) اسمه: ضَغَاطر. وهـو الرجـل الـذي كـان برومية وكتـب إليـه هرقـل. انظـر: «فتـح البـاري» (١/ ٤٣)، و«الإصابة» (٥/ ٣٦٩).

(٤) أداة يأخذ بها الحدَّاد الحديد المحمَّىٰ، وأداة تقلع بها الأسنان. وهي عربية قديمة، وليست مولـدة كمـا تـوهم الزُّبيـدي في «لحـن العـوام» (١٨٨). انظـر: «تهـذيب اللغـة» (٩/ ٤٠٧)، و«المدخل إلىٰ تقويم اللسان» لابن هشام (٤٧).

(٥) وأخرجه من طريق حصين عن عبـد الله بـن شـداد بـن الهـاد سعيد بـن منصـور في «السـنن» (٢/ ٢٢٣)، وهو مرسلٌ جيد. ورواه عن عبـد الله بـن شـداد عـن دحيـة الكلبـي رضي الله عنه البـزار (٢٣٧٤- كشف الأستار)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٢٥)، وأبو نعيم في «دلائل النبـوة» (٢٤٠) بسند ضعيف كما قال ابـن حجـر في «الفـتح» (١/ ٣٧)، وانظـر: «مجمـع الزوائـد» (٥/ ٣٠٩، ٨/ ٢٣٧).

وللخبر شاهد من حديث ابن إسحاق مرسلًا عند الطبري في «التـاريخ» (٢/ ٦٥٠)، وأبـي نعيم في «دلائل النبوة» (٥٣).

فصل

وأرسل النبيُّ ﷺ رسولًا أيضًا إلىٰ ملك مصر المُقَوْقِس ملك النَّصارىٰ في ذلك الوقت بالإسكندرية، وكان رسوله إليه حاطبَ بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

قال حاطب: قدمتُ علىٰ المُقَوْقِس - واسمه جُرَيْج[1] بن مِيْنَا - بكتاب رسول الله ﷺ، فقلت له: إنه كان قبلك رجلٌ يزعمُ أنه الربُّ الأعلىٰ، فأخذه الله نكالَ الآخرة والأولىٰ، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتَبِر بغيرك ولا يُعْتَبر بك. قال: هات. قلت: إن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خيرٌ منه، وهو الإسلام الكافي بعد ما سواه، إن هذا النبيَّ دعا النَّاس إلىٰ الله، فكان أشدُّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النَّصارىٰ، ولعمري ما بشارة موسىٰ بعيسىٰ إلا كبشارة عيسىٰ بمحمَّد، وما دعاؤنا إياك إلىٰ القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلىٰ الإنجيل، وكلُّ من أدرك نبيًّا فهو من أمَّته، فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممَّن أدركَ[2] هذا النبيَّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنَّا نأمرك به.

ثم ناوله كتابَ رسول الله ﷺ، فلمَّا قرأه قال: خيرًا، قد نظرتُ في هذا فوجدته لا يأمر بمزهودٍ فيه ولا ينهىٰ عن مرغوبٍ فيه، ولم أجده بالسَّاحر الضالِّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوَّة. ثم جعل الكتابَ في حُقِّ عاجٍ، وختَم عليه، ودفعه إلىٰ خازنه، وكتب جوابه إلىٰ رسول الله ﷺ: قد علمتُ أن نبيًّا[3] قد بقي، وقد أكرمتُ رسولك.

وأهدىٰ للنبيِّ ﷺ جاريتين، وبغلةً تسمىٰ: الدُّلْدُل، فقبل النبيُّ ﷺ هديَّته، واصطفىٰ الجارية الواحدة -واسمها: مَارِيَة القِبْطِيَّة- لنفسه، فولدت منه

---

(١) (ت، د، ي، و): «جريح». وأثبتته ط. العاصمة، وهو خطأ.

(٢) (ي، و): «أدركت».

(٣) (د، ع): «نبينا»، وهو خطأ.

إبراهيم، وأعطىٰ الأخرىٰ لحسَّان بن ثابت، فولدت منه عبد الرحمن، وعاشت البغلةُ إلىٰ زمن معاوية.

فقال النبي ﷺ: «ضَنَّ الخبيثُ بمُلْكِه، ولا بقاء لمُلْكِه»(١).

قال محمَّد بن سعد(٢): حدثنا محمَّد بن عمر(٣)، قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: لمَّا رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيبيَة في ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة، بعث حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ المُقَوْقِس القِبطيِّ صاحب الإسكندرية، وكتب إليه معه كتابًا يدعوه فيه إلىٰ الإسلام، فلمَّا قرأ الكتاب قال له خيرًا، وأخذ الكتابَ، وكان مختومًا، فجعله في حُقٍّ من عاجٍ، وختَم عليه، ودفعه إلىٰ خازنه(٤)، وكتب إلىٰ النبي ﷺ جواب كتابه، ولم يُسْلِم، وأهدىٰ إلىٰ النبيِّ ﷺ ما تقدَّم ذكره(٥).

---

(١) انظر: «الروض الأنف» (٧/ ٥١٧)، و«عيون الأثر» (٢/ ٣٣٢).
وأخرجه ابن سعد (١/ ٢٢٢، ٢٢٤) بنحو سياقه مختصرًا عن الواقدي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.
وأصل الخبر مرويٌّ من وجوه مرسلة وموصولة يثبت بها. انظر: المنتخب من كتاب «أزواج النبي ﷺ» للزبير بن بكار (٥٥)، و«فتوح مصر» لابن عبد الحكم (٦٥)، و«شرح مشكل الآثار» (٦/ ٤٠٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٩٥). وقال ابن حجر في «الإصابة» (١٠/ ٥٦٧): «إهداء المقوقس إلىٰ رسول الله ﷺ وقبوله هديته مشهورٌ عند أهل السِّيَر والفتوح».

(٢) في «الطبقات» (١/ ١١١)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (٣/ ٢٧٥).

(٣) الواقدي.

(٤) (ي): «جاريته»، وتحرف كذلك في بعض المصادر.

(٥) مرسل، جعفر بن عبد الله بن الحكم الأنصاري (والد عبد الحميد) تابعي ثقة، وله شواهد كثيرة سلفت الإشارة إليها.

فكلٌّ من المَلِكين[1] عظَّم أمرَ رسول الله ﷺ، وتواضع له ولكتابه، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذي بشَّرت به الأنبياء عليهم السَّلام.

وقد كان المُقَوْقِس يعرف أنه حقٌّ بما يسمعُ من صفاته من أهل الكتاب، ولكنْ ضَنَّ بمُلْكِهِ ولم يؤمن، وكان قد خرج إليه المغيرة قبل إسلام المغيرة فحدَّثه بذلك.

قال محمَّد بن عمر الواقدي[2]: حدثني محمَّد بن سعد الثقفي، وعبد الرحمن بن عبد العزيز، وعبد الملك بن عيسىٰ، وعبد الله بن عبد الرحمن ومحمَّد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه، وغيرهم، كلٌّ قد حدَّثني من هذا الحديث بطائفة[3]، قال: قال المغيرة بن شعبة في خروجه إلىٰ المُقَوْقِس مع بني مالك، وأنهم لمَّا دخلوا علىٰ المُقَوْقِس، قال: كيف خلصتم إليَّ من طائفتكم ومحمَّدٌ وأصحابه بيني وبينكم؟ قالوا: لَصِقنا بالبحر، وقد خفناه علىٰ ذلك. قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منَّا رجلٌ واحد. قال: ولم ذاك؟ قالوا: جاءنا بدينٍ مجدَّدٍ[4] لا تدينُ به الآباء ولا يدين به المَلِك، ونحن علىٰ ما كان عليه آباؤنا. قال: فكيف صنع قومه؟ قالوا: تبعه أحداثهم، وقد لاقاه من خالفه[5] من قومه وغيرهم من العرب في مواطن مرَّةً تكون عليهم الدائرة ومرَّةً تكون له. قال: ألا تخبروني إلىٰ ماذا يدعو إليه؟ قالوا: يدعونا إلىٰ أن نعبد الله

---

(١) هرقل، والمقوقس.

(٢) ومن طريقه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٥)، وهو مرسل، لم يدرك شيوخ الواقدي وهم من أتباع التابعين المغيرة رضي الله عنه.

(٣) (ت، و): «بطائفة منه».

(٤) جديد. وفي مطبوعة «دلائل النبوة»: «محدث». والمثبت من الأصول، وكذلك هو في «إمتاع الأسماع» (٣/ ٣٦٢)، و«المصباح المضي» (٢/ ١٢٠).

(٥) ط. العاصمة: «خلفه»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

وحده لا شريك له، ونخلعَ ما كان يعبد آباؤنا[١]، ويدعو إلىٰ الصلاة والزكاة. قال: وما الصلاة والزكاة؟ ألها وقتٌ يُعْرَفُ وعددٌ تنتهي إليه؟ قالوا: يصلُّون في اليوم والليلة خمسَ صلواتٍ كلُّها لمواقيتَ وعددٍ قد سمَّوه له، ويؤدُّون من كلِّ ما بلغ[٢] عشرين مثقالًا نصفَ مثقالٍ، وأخبروه بصدقة الأموال كلِّها. قال: أفرأيتم إذا أخذها أين يضعُها؟ قالوا: يردُّها علىٰ فقرائهم، ويأمر بصِلَة الرَّحم ووفاء العهد، وتحريم الزِّنا والخمر، ولا يأكل ممَّا ذُبِح لغير الله، فقال المُقَوْقِس: هذا نبيٌّ مرسلٌ إلىٰ النَّاس، ولو أصاب القِبْطَ والرُّوم اتَّبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسىٰ بن مريم، وهذا الذي تَصِفون منه بُعِثَ به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتىٰ لا ينازعه أحد، ويظهر دينُه إلىٰ منتهىٰ الخُفِّ والحافر ومنقطِع البحور، ويوشك قومُه أن يدافعوه بالرَّاح[٣].

قالوا: فلو دخل النَّاس كلهم معه ما دخلنا.

قال المغيرة: فأنغَض المُقَوْقِس رأسَه، وقال: أنتم في اللَّعب، ثم قال: كيف نسبُه في قومه؟ قلنا: هو أوسطهم نسبًا. قال: كذلك -والمسيح- الأنبياءُ تُبْعَثُ في نسب قومها. ثم قال: فكيف صدقُ[٤] حديثِه؟ قال: قلنا: ما يسمَّىٰ إلا الأمين مِن صدقِه. قال: انظروا في أمركم، أترونه يَصْدُق فيما بينكم وبينه ويكذبُ علىٰ الله؟! قال: فمن تبعه؟ قلنا: الأحداث. قال: هم -والمسيح- أتباعُ الأنبياء قبله. قال: فما فعلت يهودُ يثرب، فهم أهل التَّوراة؟ قلنا: خالفوه، فأوقَع بهم فقتلهم

---

(١) (و، ي): «الآباء».

(٢) (و): «مال بلغ»، وكذلك في مطبوعة «دلائل النبوة». والمثبت من سائر الأصول والمصادر أجود.

(٣) جمع راحة، وهي الكف. وفي مطبوعة الدلائل: «بالرماح»، وهو تحريف.

(٤) ليست في (و، ع، ي، د). وهي في (ت) والمصادر.

وسباهم وتفرَّقوا في كلِّ وجه[1]. قال: هم قومٌ حَسَدَةٌ[2] حسدوه، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف.

قال المغيرة: فقمنا من عنده، وقد سمعنا كلامًا ذلَّلنا لمحمَّدٍ ﷺ وخَضَّعنا له، وقلنا: ملوكُ العجم يصدِّقونه ويخافونه في بُعْدِ أرحامهم منه، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه وقد جاءنا داعيًا إلىٰ منازلنا!

قال المغيرة: فرجعتُ إلىٰ منزلنا، فأقمتُ بالإسكندرية لا أدع كنيسةً إلا دخلتها، وسألتُ أساقفتها مِن قِبْطِها ورُومِها عمَّا يجدون[3] من صفة محمَّدٍ ﷺ، وكان أُسْقُفٌ من القِبْط هو رأسُ كنيسة يُوحَنَّس[4] كانوا يأتونه بمَرضاهم فيدعو لهم لم أر قطُّ أشدَّ اجتهادًا منه، فأتيته فقلت: هل بقي أحدٌ من الأنبياء؟ قال: نعم، هو آخر الأنبياء، ليس بينه وبين عيسىٰ بن مريم أحد، وهو نبيٌّ مرسل، وقد أمَرنا عيسىٰ باتِّباعه، وهو النبيُّ الأمِّيُّ العربيُّ اسمه أحمد، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينيه حُمْرة، وليس بالأبيض ولا بالآدَم، يُعْفِي شعرَه، ويلبس ما غَلُظ من الثياب، ويجتزئ بما لقي من الطعام، سيفُه علىٰ عاتقه، ولا يبالي بمن لاقىٰ[5]، يباشر القتالَ بنفسه، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم

---

(١) (ت): «ناحية». (ع، د): «وجهة». والمثبت من (ي، و) والمصادر.

(٢) (ع، ي، د): «حُسُد»، وهو صحيح، وبالوجهين في المصادر.

(٣) (ع): «يجدونه».

(٤) غيِّرت في ط. العاصمة إلىٰ «يوحنا» خلاف الأصول، ولم يصب المعلق عليها في تحديدها. وفي طرة (ت) إشارة إلىٰ أن في نسخة: «أبو حنس». ورسمت في بعض المصادر التي نقلت الخبر: «أبي يحسر» «أبي غنىٰ» «أبي غثيم»، واستشكلها بعضهم فأسقطها. ويُوحَنَّس هو يُحَنَّس أشبعت ضمة الياء. وكنيسة «أبي يُحَنَّس» كنيسة قديمة ذات شأن في الإسكندرية أوصىٰ المقوقس أن يدفن فيها. انظر: «فتوح مصر» لابن عبد الحكم (٩٥)، و«حياة الحيوان» (٣/ ٧٣٠)، و«تاريخ الكنائس والأديرة» لأبي المكارم (١/ ١٣٨).

(٥) (ي، و): «من لاقىٰ».

له أشدُّ حبًّا من أولادهم وآبائهم، يخرج من أرضِ حَرَم، ويأتي إلىٰ حَرَم، يهاجر إلىٰ أرضٍ سِبَاخٍ ونخل، يدين بدين إبراهيم عليه السلام.

قال المغيرة: فقلتُ له: زدني في صفته[1]، قال: يأتزر علىٰ وسطه، ويَغْسِل أطرافه، ويُخَصُّ بما لا تُخَصُّ به الأنبياء قبله؛ كان[2] النبيُّ يُبْعَثُ إلىٰ قومه ويُبْعَثُ هو إلىٰ النَّاس كافَّة، وجُعِلَت له الأرض مسجدًا وطهورًا، أينما أدركته الصَّلاة تيمَّم وصلَّىٰ، ومن كان قبله[3] مشدَّدًا عليهم لا يصلُّون إلا في الكنائس والبِيَع.

قال المغيرة بن شعبة: فوعيتُ ذلك كلَّه من قوله وقول غيره وما سمعتُ من ذلك.

فذكر الواقديُّ حديثًا طويلًا في رجوعه وإسلامه، وما أخبَر به من صفات النبيِّ ﷺ، وكان ذلك ممَّا[4] يُعْجِبُ النبيَّ ﷺ ويحبُّ أن يسمعه أصحابُه. قال المغيرة: فكنت أحدِّثهم بذلك.

وهذا أمرٌ معروفٌ عند علماء أهل الكتاب وعظمائهم.

وقد أخرج أبو حاتمٍ في صحيحه[5] عن عمرو بن العاص أنه قال: خرج

---

(١) (د، ع): «من صفته».

(٢) (ع، ت، د): «وكان».

(٣) (ع، د): «قبله كان».

(٤) ليست في (ي، و).

(٥) «التقاسيم والأنواع» (٧٢٣٣)، و«الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» (٦٥٤٦) من طريق أبي يعلىٰ (٧٣٥٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٦/ ١٥٩)، ولا بأس بإسناده. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢١٨): «فيه محمَّد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات». وقال في موضع آخر (٨/ ٢٣٨): «رجاله رجال الصَّحيح غير عمرو بن علقمة، وهو ثقة».

جيشٌ من المسلمين أنا أميرُهم حتىٰ نزلنا الإسكندرية، فقال عظيمٌ من عظمائهم: أخرجوا إليَّ رجلًا يكلِّمني وأكلِّمه، فقلت: لا يخرج إليه غيري، قال: فخرجتُ إليه ومعي ترجماني ومعه ترجمانه، فقال: ما أنتم؟ فقلت: نحن العرب، ونحن أهل الشَّوك[1]، ونحن أهل بيت الله الحرام، كنَّا أضيقَ النَّاس أرضًا، وأجهَدهم عيشًا، نأكل الميتة والدَّم، ويُغِير بعضنا علىٰ بعض، حتىٰ خرج فينا رجلٌ ليس بأعظمنا يومئذٍ، ولا بأكثرنا مالًا، فقال: أنا رسول الله إليكم، فأمَرنا بما لا نَعْرِف، ونهانا عما كنَّا عليه وكان عليه آباؤنا، فكذَّبناه ورددنا عليه مقالته، حتىٰ خرج إليه قومٌ غيرنا [فقالوا: نحن نصدِّقك، ونؤمن بك، ونتَّبعك، ونقاتل من قاتلك، فخرج إليهم، وخرجنا إليه، فقاتلناه][2]، فقَتَلنا[3] وظَهَر علينا وغَلَبنا، وتناولَ من يليه من العرب فقاتلهم حتىٰ ظهَر عليهم، ولو يعلمُ من ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحدٌ إلا جاءكم حتىٰ يَشْرَككم فيما أنتم فيه من العيش. فضحك، ثم قال: إن رسولكم قد صدَق، قد جاءتنا رسلُنا بمثل الذي جاء به رسولكم، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيِّكم لم يقاتلْكم أحدٌ إلا غلبتموه، ولم يُشَارِرْكم[4] أحدٌ إلا ظهرتم عليه، وإن فعلتم مثل الذي فعلنا وتركتم أمر نبيِّكم لم تكونوا أكثر عددًا منَّا ولا أشدَّ منَّا قوَّة.

---

(١) في مصادر الرواية: «أهل الشوك والقرظ»، يشير إلىٰ قسوة أرضهم.

(٢) ما بين المعقوفين ليس في الأصول، واستدركته من المصادر ليستقيم السياق.

(٣) غيِّرت في ط. العاصمة إلىٰ «فقاتلنا» خلاف الأصول والمصادر.

(٤) يخاصمكم وينازعكم، من «الشرِّ». وتحرفت في ط. العاصمة إلىٰ «يشارككم» خلاف الأصول، وتحرفت كذلك في مطبوعة «التقاسيم والأنواع» و«الإحسان»، وعلىٰ نحو آخر في «تاريخ دمشق»: «يسارقكم»، وعلىٰ الصواب في «موارد الظمآن» (٥/ ٣٦١)، ومسند أبي يعلىٰ (٧٣٥٣)، و«المقصد العلي» (٣/ ١٤٣).

فصل

ثم بعد الإرسال إلىٰ الملوك أخذ ﷺ في غزو النَّصارىٰ، فأرسل أولًا زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في جيشٍ، فقاتلوا النَّصارىٰ بمُؤتة من أرض الكَرَك[1]، وقال لأصحابه: «**أميركم زيد، فإن قُتِل فجعفر، فإن قُتِل فعبد الله بن رواحة**»[2]، فقُتِل الثلاثة، وأخبر النبيُّ ﷺ بقتل الثلاثة في اليوم الذي قُتِلوا فيه، وأخبر أنه أخذ الراية خالدُ بن الوليد، ففتَح الله علىٰ يديه[3].

ثم إنه بعد هذا غزا النَّصارىٰ بنفسه، وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه في الغَزاة، ولم يأذن في التخلُّف عنه لأحد، وغزا في عشراتِ ألوفٍ غزوة تبوك، فقدم تبوك وأقام بها عشرين ليلة[4]؛ ليغزو النَّصارىٰ عربَهم ورُومَهم وغيرهم، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم، فسمعوا به، وأحجموا عن قتاله، ولم يَقْدِموا عليه.

وأنزل الله تعالىٰ في ذلك أكثر سورة «براءة»، وذمَّ تعالىٰ الذين تخلَّفوا عن جهاد النَّصارىٰ ذمًّا عظيمًا، والذين لم يروا جهادهم طاعةً جعلهم منافقين كافرين، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

فإذا كان هذا حكمُ الله ورسوله فيمن تخلَّف عن جهادهم إذ لم يره طاعةً ولا رآه واجبًا، فكيف حكمُه فيهم أنفسِهم؟! حتىٰ قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ

---

(١) مدينة بشرقي الأردن، تشرف جبالها علىٰ البحر الميت، وتقع مؤتة وهي بلدة صغيرة علىٰ بعد ١١ كيلًا جنوبها. انظر: «المعالم الأثيرة» لمحمد حسن شراب (٢٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بمعناه.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (١٤١٣٩)، وصححه ابن حبان (٢٧٤٩).

ﮋ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﮊ [التوبة: ٢٤].

ثم عند موته ﷺ أمَرَ(١) بإخراج اليهود والنَّصارىٰ من جزيرة العرب.

ففي «صحيح مسلم»(٢) أن عمر بن الخطاب قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**لأُخرِجنَّ اليهود والنَّصارىٰ من جزيرة العرب حتىٰ لا أدع إلا مسلمًا**».

ورویٰ الإمام أحمد وأبو عبيد عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، قال: آخر ما تكلَّم به رسول الله ﷺ قال: «**أخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارىٰ أهل نجران من جزيرة العرب**»(٣).

وقام خلفاؤه رضي الله عنهم بعده بدينه ﷺ، فأرسل أبو بكر الصِّدِّيق الجيوش لغزو النَّصارىٰ بالشام، وجرت بين المسلمين وبينهم عدَّة غزوات، ومات أبو بكر وهم محاصِرو دمشق.

ثم وَلِيَ عمرُ بن الخطاب، ففتَح عامَّة الشَّام ومصر والعراق وبعض خراسان في خلافته، وقَدِم إلىٰ الشَّام في خلافته، وسلَّم إليه النَّصارىٰ بيت

---

(١) (ت، و): «أمرنا».

(٢) (١٧٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩١)، والطيالسي (٢٢٦)، والحميدي (٨٥)، وأبو عبيد معلقًا في «الأموال» (٢٩٩)، وغيرهم بسند جيد، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٣/ ٣١٩). وانظر: «علل الدارقطني» (٤/ ٤٣٩)، و«شرح مشكل الآثار» (٧/ ١٨٦)، و«تعجيل المنفعة» (١/ ٢٩١).
ولفظه في عامة المصادر: «يهود أهل الحجاز وأهل نجران»، ولعل زيادة «نصارىٰ» لدفع الوهم. ومن قوله: «ورویٰ الإمام أحمد» إلىٰ هنا وقع لحقًا في طرة (ت)، وليس في سائر الأصول.

المقدس لِمَا رأوه من صفته عندهم.

قال أبو عبد الله محمَّد بن عائذ[1] في كتاب «الفتوح»، قال: قال عطاء الخراساني: لما نزل المسلمون بيتَ المقدس، قال لهم رؤساؤهم: إنَّا قد أجمَعنا لمصالحتكم، وقد عرفتم منزلة[2] بيت المقدس، وإنه المسجدُ الذي أُسْرِيَ بنبيِّكم إليه، ونحن نحبُّ أن يفتحها ملكُكم -وكان الخليفة عمر بن الخطاب-، فبعث المسلمون وفدًا، وبعث الرُّوم أيضًا وفدًا مع المسلمين، حتىٰ أتوا المدينة، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين، فقال الرُّوم لترجمانهم: عمَّن يسألون؟ قالوا: عن أمير المؤمنين، فاشتدَّ عجبُهم، وقالوا: هذا الذي غلَب فارسَ والرُّوم، وأخذ كنوز كسرىٰ وقيصر، وليس له مكانٌ يُعْرَفُ به! بهذا غلَب الأمم، فوجدوه قد ألقىٰ نفسه حين أصابه الحرُّ نائمًا، فازدادوا تعجُّبًا، فلمَّا قرأ كتاب أبي عبيدة أقبل حتىٰ نزل بيت المقدس وفيها اثنا عشر ألفًا من الرُّوم وخمسون ألفًا من أهل الأرض، فصالَحَهم، وكان من جملة المصالحة أن لا يَدْخُل عليهم من اليهود أحد، ثم دخل المسجد فوجد زِبالةً عظيمةً علىٰ الصخرة، فأمر بكَنْسِ الزِّبالة وتنظيف المسجد، وأمر ببنائه، وجعل مصلَّاه في مقدَّمه، ثم رجع إلىٰ المدينة.

وقصَّته مشهورةٌ في كتاب الفتوحات[3].

---

(١) أبو عبد الله القرشي الدمشقي الكاتب، المؤرخ الصادق صاحب المغازي، توفي سنة ٢٣٤. «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٠٤). وكتبه في المغازي والفتوح والصَّوائف لم يعثر عليها بعد، والنقل عنها مستفيض.

(٢) ط. العاصمة: «منزل»، خلاف الأصول.

(٣) لا أدري أراد كتاب الفتوح لابن عائذ أم كتب الفتوحات؟ وانظر: «فتوح الشام» المنسوب للواقدي (١/ ٢٢٥)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (١٨٩)، وتاريخ الطبري (٣/ ٦٠٨)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٦٥٥).

ثم قدم مرَّةً ثانيةً إلىٰ أرض الشام لمَّا تمَّ فتحُه، فشارَط بوضع الخرَاج وفرض الأموال، وشارَط أهل الذِّمَّة علىٰ شروطٍ[1]، فائتمَّ بها المسلمون بعده، وقد ذكرها أهل السِّيَر وغيرهم.

فروىٰ سفيان الثوري، عن مسروق، عن عبد الرحمن بن غَنْم، قال: كتبتُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالحَ نصارىٰ الشام، وشَرَط عليهم فيه: أن لا يُحْدِثوا في مدينتهم ولا ما حولها دَيْرًا ولا كنيسةً ولا قَلَّايَةً[2] ولا صومعة راهب، ولا يجدِّدوا ما خَرِب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحدٌ من المسلمين ثلاث ليالٍ يطعمونهم، ولا يؤووا جاسوسًا، ولا يكتموا غشًّا للمسلمين، ولا يعلِّموا أولادهم القرآن، ولا يُظْهِروا شركًا، ولا يمنعوا ذوي قرابتهم من الإسلام إن أرادوه، وأن يوقِّروا المسلمين، وأن يقوموا لهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبَّهوا بالمسلمين بشيءٍ من لباسهم في قلنسوةٍ ولا عمامةٍ ولا نعلين ولا فَرْقِ شَعر، ولا يتسمَّوا بأسماء المسلمين، ولا يَكْتَنوا بكُناهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلَّدوا سيفًا، ولا يتَّخذوا شيئًا من سلاح، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربيَّة، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزُّوا مقادِم رؤوسهم، وأن يلزموا زيَّهم حيث ما كانوا، وأن يشدُّوا الزَّنانير، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالنَّاقوس إلا ضربًا خفيًّا[3]، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيءٍ من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شَعَانين[4]، ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم، ولا يظهِروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرَّقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، فإن خالفوا في شيءٍ ممَّا شرطوه فلا ذمَّة لهم، وقد حلَّ للمسلمين

---

(١) ط. العاصمة: «شروط المسلمين»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٢) وهي الصومعة، من بيوت عبادتهم. «النهاية» (قلا).

(٣) ط. العاصمة: «خفيفًا» خلاف الأصول.

(٤) من أعياد النصارىٰ. «المعجم الوسيط» (شعن).

منهم ما يحلُّ من أهل المعاندة والشِّقاق. أخرجه أبو داود في سننه[1].

وقال أبو عبيد في كتاب «الأموال»[2]: حدثنا النضر بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، قال: قال عمر بن الخطاب ﵁: يا يَرْفَأ، اكتب[3] إلىٰ أهل الأمصار في أهل الكتاب: أن يجزُّوا نواصيهم، وأن يربطوا الكُسْتِيجات[4] في أوساطهم؛ ليُعْرَف زيُّهم من زيِّ أهل الكتاب.

وحدثنا أبو المنذر ومصعبُ بن المِقْدام كلاهما عن سفيان، عن عبيدالله بن عمر، عن نافع، عن أسلم، قال: كتب عمر إلىٰ أمراء الأجناد أن يختِموا

---

(١) لم أجده في سنن أبي داود ولا رأيت من عزاه إليه. وأخرجه من طريق مسروق عن عبد الرحمن بن غنم ابن زبر في جزئه الذي أفرده للشروط العمرية (١٠)، وابن الأعرابي في «المعجم» (٣٦٥)، والبيهقي في «السنن الكبير» (١٨٧٥١) وغيرهم، وفي سنده ضعف. انظر: «مهذب سنن البيهقي» للذهبي (٧/ ٣٧٦٧)، وفتاوىٰ السبكي (٢/ ٣٩٨)، و«البدر المنير» (٩/ ٢١٤)، و«التلخيص الحبير» (٦/ ٢٩٧٧). لكنه روي من وجوه أخرىٰ وطرق يشدُّ بعضها بعضًا كما قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٣٣٨). والأمر كما قال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١١٦٤): «وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها؛ فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية علىٰ ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣٦٥): «وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم، وهي مجمعٌ عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين وأصحابهم وسائر الأئمة». وانظر: «الصارم المسلول» (٢/ ٣٩٣، ٤٩٨)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٦٥٢)، و«إرشاد الفقيه» لابن كثير (٢/ ٣٤١)، و«السيف المسلول» للسبكي (٢٨٢).

(٢) (١٤٥). وإسناده ضعيف، النضر بن إسماعيل وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيفان، ويشهد له ما بعده.

(٣) (د، ع): «كان عمر بن الخطاب ﵁ يأمر فاكتب». وهو تحريف، وأثبته ط. النيل والعاصمة. والمثبت من (ت، و، ي) هو الصواب الموافق لرواية أبي عبيد. ويرفأ هو مولىٰ عمر وحاجبه.

(٤) جمع كستيج، وهو خيط غليظ يشدُّه الذميُّ فوق ثيابه دون الزنَّار. «التاج».

رقابَ أهل الذّمة[1].

قال أبو عبيد[2]: حدثنا عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن أسلم: أن عمر أمر في أهل الذِّمَّة أن تُجَزَّ[3] نواصيهم، وأن يَركبوا على الأُكُفِ[4]، وأن يَركبوا عرضًا لا يركبوا كما يركبُ المسلمون، وأن يوثِّقوا المَناطِق. قال أبو عبيد: يعني الزَّنانير.

وكما كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أهل الذِّمَّة هذه الشُّروط والتزموها، أوصى بهم نوَّابه ومن يأتي بعده من الخلفاء وغيرهم، وهذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله.

ففي «صحيح البخاري»[5] عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته عند وفاته: «وأوصي الخليفة من بعدي بذمَّة الله وذمَّة رسوله ﷺ، أن يُوفِي لهم بعهدهم، وأن يقاتل مَن وراءهم، ولا يكلَّفوا إلا طاقتهم».

وهذا امتثالٌ لقول النبيِّ ﷺ: «**ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصَه من حقِّه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طِيب نفسٍ، فأنا حجيجُه**[6]

---

(١) «الأموال» (١٤٣). وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٣٠٤)، وصححه ابن كثير في «إرشاد الفقيه» (٢/ ٣٣٩).

(٢) «الأموال» (١٤٤).

(٣) (ت، و): «يجزوا».

(٤) جمع وِكَاف، وهي برذعة الحمار. وذلك أنهم ممنوعون من ركوب السُّرج؛ لأنها من آلات الخيل، وهي عزٌّ لأهلها، وقد مُنِعوا من التشبه بالمسلمين فيما يكون فيه معنى العز. انظر: «شرح السير» للسرخسي (١٣٧)، و«أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٣٠١).

(٥) (٣٠٥٢).

(٦) في طرة (د) هنا تعليقٌ منقولٌ عن نسخة السفاريني، قال: «لطيفة: جرى بيني وبين بعض أحبار أهل الذمة مناظرة، فقال لي الحَبْر: نحن عند نبيكم بمنزلة عظيمة أرقى منكم؛ لأنكم أنتم تحاجُّون عن أنفسكم، ونبيُّكم يحاجج عنَّا! فأجبته فورًا: أما محاججتنا عن =

يوم القيامة» رواه أبو داود[1].

فكان هذا في النَّصارىٰ الذين أدَّوا إليه الجزية.

وعمر بن الخطاب لمَّا فتح الشام وأدَّوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون أسلمَ منهم خلقٌ كثيرٌ لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ؛ فإن العامَّة والفلَّاحين[2] وغيرهم كان عامَّتهم نصارىٰ، ولم يكن في المسلمين من يعمل فِلَاحةً، ولم يكن للمسلمين في دمشق مسجدٌ يصلُّون فيه إلا مسجدٌ واحدٌ؛ لقلَّتهم، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعًا لا كرهًا؛ فإن إكراه أهل الذِّمَّة علىٰ الإسلام غير جائز، كما قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٦ - ٢٥٧].

= أنفسنا لأننا حضورٌ في عرصات القيامة، وأما محاجة نبينا ﷺ عنكم فلأنكم في طماطيم جهنم، فلا يُفْرَج عنكم لتحضروا وتحتجُّوا لأنفسكم، وإنما حاجج نبينا ﷺ علىٰ ذمته التي شرعها الله تعالىٰ في كتابه وطفحت بها سنته ﷺ. محمد السفاريني الحنبلي».

(١) من حديث صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ. قال الحافظ العراقي: «وهذا إسناد جيد وإن كان فيه من لم يُسَمَّ؛ فإنهم عدة من أبناء الصحابة يبلغون حد التواتر الذي لا يشترط فيه العدالة». ووافقه ابن حجر، وحسَّنه في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٨٤)، وتبعه السخاوي في «الأجوبة المرضية» (١/ ١٦، ٢/ ٤٣٦). وهذا أجود من إعلال المنذري له في «مختصر سنن أبي داود» (٢/ ٣٤٦) بأن فيه مجهولين.

(٢) (د): «العامة الفلاحين». (ع): «العلامة الفلاحين».

قال أبو عبيد في كتاب «الأموال»[1]: عن ابن الزبير، قال: كتب النبيُّ ﷺ إلىٰ أهل اليمن: **«أنه من أسلم من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان علىٰ يهوديَّةٍ أو نصرانيَّةٍ فإنه لا يُفْتَنُ عنها، وعليه الجزية»**.

(١) (١٥٤)، وهو مرسلٌ حسن، وابن الزبير هو عروة. ويشهد له مرسل الحسن عند ابن زنجويه في «الأموال» (١/ ١٢٥) بسند جيد. قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٦/ ٢٩٦٣): «وهذان مرسلان يقوِّي أحدهما الآخر».
ورواه محمد بن إسحاق موصولًا بسند فيه مجاهيل لا يدرىٰ من هم، أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٠٩٠)، وانظر: «لسان الميزان» (١/ ٣٠٩).
وأقوىٰ من ذلك وروده في كتاب عمرو بن حزم المشهور، أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤١٤).

فصل

وقاتل عمرُ بن الخطاب الفُرسَ المجوس، وفتحَ أرضهم، وظهَر تصديقُ خبر رسول الله ﷺ حيث قال: «**إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصرَ بعده، والذي نفسي بيده لتُنْفَقُنَّ كنوزهما في سبيل الله ﷻ**» أخرجاه في الصَّحيحين[1].

وهذا بعد أن بعث رسول الله ﷺ رسوله إلىٰ المجوس، وكتب كتابًا إلىٰ كسرىٰ ملك الفُرس، كما كتب إلىٰ ملوك النَّصارىٰ، كما تقدَّم عن قيصر والمُقَوْقِس، ولكن ملوك النَّصارىٰ تأدَّبوا معه وخضعوا له[2]، فبقيَ ملكُهم. وأما ملكُ الفُرس فمزَّق كتابه، فدعا عليهم، فقال: «**اللهم مزِّق ملكهم كلَّ ممزَّق**»[3]، فلم يبق لهم مُلْك.

قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بكتابه إلىٰ كسرىٰ، فدفعه إلىٰ عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلىٰ كسرىٰ، فلمَّا قرأه -يعني كسرىٰ- خرَّقه[4]، فدعا عليهم رسول الله ﷺ **أن يمزَّقوا كلَّ ممزَّق**[5].

وقال ابن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ إلىٰ كسرىٰ وقيصر، فأما كسرىٰ

---

(١) صحيح البخاري (٣١٢٠، ٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٨، ٢٩١٩) من حديث أبي هريرة وجابر بن سمرة رضي الله عنهما.

(٢) ليست في (د، ي، ع).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٣) من طريق الواقدي في سياقٍ طويل.

(٤) كذا في الأصول وصحيح البخاري. وغيِّر في ط. العاصمة إلىٰ «مزقه» متابعة لمطبوعة المدني ولأنه وقع كذلك في بعض روايات الحديث!

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٣٩)، وقوله: «فدعا عليهم ...» وقع في جميع طرق الحديث من مرسل سعيد ابن المسيب، ويحتمل أن يكون سمعه من عبد الله بن حذافة صاحب القصة، كما ذكر ابن حجر في «الفتح» (٨/ ١٢٧).

فلمَّا قرأ الكتاب مزَّقه، وأما قيصر فلمَّا قرأ الكتاب طواه ووضعه عنده، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«أمَّا هؤلاء -يعني كسرىٰ- فيمزَّقون، وأما هؤلاء فستكون لهم بقيَّة»**(١).

قال ابن إسحاق(٢): بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حُذَافة بن قيسٍ السَّهمي إلىٰ كسرىٰ بن هُرْمُز ملك الفُرس(٣)، وكتب: **«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمَّد رسول الله إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، آمِنْ بالله ورسوله، واشهدْ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمَّدًا عبده ورسوله، فإني أدعوك بدِعاية الله، فإني رسول الله إلىٰ النَّاس كافَّة، لأنذر من كان حيًّا ويحقَّ القولُ علىٰ الكافرين، فأسْلِم تَسْلَم، وإن أبيتَ فإن إثم المجوس(٤) عليك»**، فلمَّا قرأ كتاب رسول الله ﷺ شقَّقه، وقال: يكتبُ إليَّ بهذا الكتاب وهو عبدي؟!

قلت: وسبب قول كسرىٰ هذا واستعلائه أن الحبشة كانوا قد مَلَكوا اليمن، ومَلِكُهم سار إلىٰ مكَّة بالفيل؛ ليخرِّب البيت، وكانوا نصارىٰ، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيرًا أبابيل -وهي جماعاتٌ في تَفْرِقة- تحملُ حجارةً من طين، فألقتها علىٰ الحبشة النَّصارىٰ فأهلكتهم(٥)، وكان هذا آيةً عظيمةً خضعت بها الأممُ للبيت وجيران البيت.

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (٥٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٩٤)، وهو مرسلٌ حسن، وابن إسحاق هو عمير بن إسحاق القرشي من أوساط التابعين.

(٢) محمد بن إسحاق في « السيرة». أخرجه من طريقه ابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٦٥٤)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٣/ ٢٨٣) وغيرهما.

(٣) (ع، د): «فارس».

(٤) (ت): «المجوسية».

(٥) (ي، د، ع): «فأهلكهم الله».

وعَلِمَ العقلاء أن هذا لم يكن نصرًا من الله لمشركي العرب؛ فإن دين النَّصارىٰ خيرٌ من دينهم، وإنما كان نصرًا للبيت وللأمَّة المسلمة التي تعظِّمه، وللنبيِّ المبعوث من البيت، وكان ذلك عام مولد النبيِّ ﷺ، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

ثم إن سيفَ بن ذي يَزَن ذهب إلىٰ كسرىٰ، وطلب منه جيشًا يغزو به الحبشة، فأرسل معه عسكرًا من الفُرس والمجوس، فأخرجوا الحبشة من اليمن، وصارت اليمنُ بيد العرب، وبها نائبُ كسرىٰ، وسيفُ بن ذي يَزَن هذا ممَّن بشَّر بالنبيِّ ﷺ قبل ظهوره، وأخبر بذلك جدَّه عبد المطلب[1] لمَّا وفدَ عليه[2].

فلمَّا كانت اليمنُ مطيعةً لكسرىٰ، لهذا أرسل إلىٰ نائبه علىٰ اليمن[3] أن يأتيه بالنبيِّ ﷺ؛ لأن عسكر اليمن في العادة يقهرُ أهلَ مكة والمدينة.

قال ابن إسحاق[4]: فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**مزَّق الله ملكَه**» حين بلغه أنه شقَّق كتابه.

ثم كتب كسرىٰ إلىٰ باذان -وهو علىٰ اليمن- أن ابعث إلىٰ هذا الرجل الذي بالحجاز من عندك رجلين جَلْدَين، فليأتياني به، قال: فبعث باذانُ

(١) (و): «عمه أبا طالب». وضُرِب عليها في (ت) وكتب الصواب.
(٢) انظر: «دلائل النبوة» لأبي نعيم (٩٥)، والبيهقي (٢/ ٩).
(٣) (ت): «إلىٰ اليمن». (ع، د): «باليمن».
(٤) تتمة خبره المتقدم تخريجه.

قَهْرَمانَه[1] وهو بانُويه[2] -وقال غيره: فيروز الدَّيلمي- وكان حاسبًا كاتبًا، وبعث معه برجلٍ من الفُرس، وكتب معهما إلىٰ رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلىٰ كسرىٰ، وقال لبانُويه: ويلك، انظُر ما الرَّجلُ، وكلِّمه، وائتني بخبره.

قال: فخرجا حتىٰ قدما إلىٰ الطائف، فسألا عن النبيِّ ﷺ، فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا -يعني الكفار- وقالوا: قد نَصَبَ له كسرىٰ، كُفِيتم الرجل، فخرجا حتىٰ قدما المدينة علىٰ رسول الله ﷺ، فكلَّمه بانُويه، فقال: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرىٰ كتب إلىٰ الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك، فانطلِق معي، فإن فعلتَ كتب معك إلىٰ ملك الملوك بكتابٍ ينفعك ويكفَّ عنك به، وإن أبيتَ فهو من قد علمتَ وهو مُهْلِكُك ومُهْلِكٌ قومك ومُخَرِّب بلادك.

وكانا قد دخلا علىٰ رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما، وأبقيا شواربهما، فكره النظر إليهما رسولُ الله ﷺ، وقال لهما: **«ويلكما، من أمركما بهذا؟!»**، قالا: أمرنا بهذا ربُّنا -يعنيان كسرىٰ-، فقال لهما رسول الله ﷺ: **«لكنَّ ربي ﷻ أمرني بإعفاء لحيتي وبقصِّ شاربي[3]»**، ثم قال لهما: **«ارجعا حتىٰ تأتياني الغد»**.

قال: وجاء الخبر من السماء أن الله ﷻ سلَّط علىٰ كسرىٰ ابنَه[4] شيرويه فقتله، في شهر كذا، في ليلة كذا، في ساعة كذا، فلمَّا أتيا رسول الله ﷺ قال لهما:

---

(١) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه. «المعجم الوسيط».

(٢) كذا رسم في الأصول في المواضع الثلاثة. وفي ط. العاصمة: «بابويه». وكلاهما من أسماء الفرس، انظر: «الإكمال» لابن نقطة (١/ ٢١١). وبكليهما وقع في المصادر، انظر: «تفسير ابن المنذر» (١/ ٢٣٩)، و«الإصابة» (١/ ٦٢١).

(٣) (د، ع): «شواربي».

(٤) (ت): «ولده».

«إن ربي قتل ربَّكما ليلة كذا، في شهر كذا، بعدما مضىٰ من الليل كذا، سلَّط عليه ابنه شيرويه فقتله»، فقالا له: هل تدري ما تقول؟! إنا قد نَقِمنا منك ما هو أيسرُ من هذا، فنكتبُ بهذا عنك ونخبر الملكَ به؟ قال: «**نعم، أخبراه ذلك عنِّي، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغُ ما بلغ ملكُ كسرىٰ، وينتهي إلىٰ منتهىٰ الخفِّ والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمتَ أعطيتك ما تحت يديك**[1]**، وملَّكتُك علىٰ قومك**[2] **من الأبناء**»، وأعطىٰ رفيقه مِنْطَقَةً من ذهبٍ وفضَّةٍ كان أهداها له بعض الملوك.

فخرجا من عنده حتىٰ قدما علىٰ باذان، وأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام مَلِك، وإني لأرىٰ الرجل نبيًّا كما يقول، ولننتظرنَّ[3] ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقًّا ما بقي فيه كلامٌ إنه لنبيٌّ مرسل، وإن لم يكن فسنرىٰ فيه رأينا، فلم يلبث باذان أن قَدِم عليه كتابُ شيرويه: أما بعد، فإني قد قتلتُ كسرىٰ، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس؛ لِمَا كان قد استحلَّ من قتل أشرافهم وتَجْمِيرِهم[4] في بعوثهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممَّن قِبَلك، وانظر الرجلَ الذي كان كسرىٰ كتب إليك فيه فلا تَهِجْهُ حتىٰ يأتيك أمري فيه. فلمَّا انتهىٰ الكتابُ[5] -كتابُ شيرويه- إلىٰ باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، وأسلَمَ لله، وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن.

---

(١) (و، ي): «قدمك».

(٢) (و، ي): «قريتك».

(٣) لم تحرر في (ت، ي). وفي بعض المصادر: «ولننظرن». والمثبت من (د، و، ع).

(٤) الأصول: «وتجهيزهم» وهو تحريف. وعلىٰ الصواب في مصادر الخبر. وتجميرُ الجيش: جمعُهم في الثغور وحبسُهم عن العود إلىٰ أهلهم. «النهاية» (جمر).

(٥) ليس في (ي، د، ع، و).

فكانت حِمْيَر تقول لخرخسره[1]: ذو المِعْجَزة، للمِنْطقة التي أعطاه إيَّاها رسول الله ﷺ، والمِنْطقة بلسان حمير: المِعْجَزة[2]، فبنُوه اليوم يُنْسَبون إليها: خرخسره ذو المِعْجَزة.

وقد قال بانُويه لباذان: ما كلَّمتُ رجلًا قطُّ أهيبَ عندي منه، فقال له باذان: هل معه شُرَط؟ قال: لا[3].

وقال أبو معشر: حدَّثني المَقْبُري قال: جاء فيروز الدَّيلمي إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إن كسرىٰ كتب إلىٰ باذان: بلغني أن في أرضك رجلًا تنبَّأ[4]، فاربطْه وابعث به إليَّ، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن ربي غضب علىٰ ربك فقتله، فدمُه بنحره سُخْنٌ[5] السَّاعة**»، فخرج من عنده، فسمع الخبر، فأسلم وحَسُنَ إسلامُه[6].

وكان رجلًا صالحًا له في الإسلام آثارٌ جميلة، منها: قتلُ الأسود العَنْسيِّ الكذَّاب الذي ادَّعىٰ النبوَّة علىٰ عهد النبيِّ ﷺ.

وكان الأسود جبَّارًا استدعىٰ بأبي مسلم الخولاني، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ فقال أبو مسلم: ما أسمع. فقال له: أتشهد أن محمَّدًا رسول الله؟ قال: نعم. فردَّد ذلك عليه مرارًا، فأمر بنارٍ عظيمة، فأُضْرِمَت، ثم أمر بإلقاء أبي مسلم فيها، فلم تضرَّه، فأخمدها الله تعالىٰ حين أُلْقِيَ فيها، فقيل له: أخرِج هذا عنك من أرضك[7]؛ لئلا يُفْسِد عليك أتباعَك، فأخرجَه.

---

(١) رفيق بانويه المبعوث معه. ولم أقف علىٰ ضبطه.

(٢) لأنها تلي عَجُز المتنطِّق بها. والمِنْطَقة: ما يُشَدُّ به الوسط. «تاج العروس» (عجز، نطق).

(٣) آخر رواية ابن إسحاق. ومن قوله: «فكانت حمير» إلىٰ هنا وقع لحقًا في طرة (ت) مختومًا بالتصحيح، وليس في سائر الأصول، وهو ثابتٌ في مصادر الخبر.

(٤) (ع، د): «نبيا». (ت): «تنبأ تنبئا».

(٥) «المنتظم»: «ودمه يثخن». (ع، د): «فدمه سخن»، وكررت مرتين في (ي) مهملة، (و): «سخن سخن»، والمثبت من (ت) وط. النيل.

(٦) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٣/ ٢٨٤).

(٧) (د، ع): «أخرج هذا من عندك».

فقَدِم أبو مسلم المدينة، وقد توفي رسول الله ﷺ، واستخلفَ أبو بكر، فأناخ راحلته بباب المسجد، ثم دخل المسجد، فقام يصلي[1] إلىٰ سارية، فبَصُرَ به عمر، فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟ قال: من أهل اليمن. قال: ما فعل الذي حرَّقه الكذَّاب؟ قال: ذلك عبد الله بن ثُوَب. قال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه، ثم بكىٰ، ثم ذهب به حتىٰ أجلسه بينه وبين أبي بكر، فقال: الحمد لله الذي لم يُمِتني حتىٰ أراني في أمَّة محمَّدٍ ﷺ من فُعِل به كما فُعِل بإبراهيم خليل الرَّحمن[2].

ثم خرج فيروزُ الدَّيلميُّ علىٰ الأسود العَنْسِيِّ فقتله، وجاء الخبر إلىٰ رسول الله ﷺ بقتله وهو في مرض موته، فخرج فأخبر أصحابه بذلك[3]، وقال: «**قُتِل الأسودُ العَنْسِيُّ الليلة، قتله[4] رجلٌ صالحٌ من قومٍ صالحين**»[5].

وقصَّته مشهورة، وكذلك قصَّة مسيلمة الكذَّاب ونحوهما من المتنبِّئين الكذَّابين.

---

(١) (ع، ي، د): «يصلي في المسجد».

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٧٥٨)، وأبو القاسم الأصبهاني في «سير السلف الصالحين» (٢/ ٨٧٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٢٠٠) وغيرهم عن شرحبيل بن مسلم الخولاني، وهو تابعيٌّ شاميٌّ صدوق، لكنه لم يدرك زمن القصة، وأوردها الذهبيُّ في ترجمته من «الميزان» (٢/ ٢٦٧) كالمستنكر لها، وأشار في «السير» (٤/ ٩) إلىٰ إرسالها، وقال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٣/ ١٣٦): «هذا وإن كان فيه انقطاع إلا أنه مشهور».

(٣) ليست في (و، د، ي، ع).

(٤) ساقطة من ط. العاصمة.

(٥) أخرجه ابن جرير في التاريخ (٣/ ٢٣٦)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١٢٦٦) وغيرهما من طريق سيف بن عمر، وهو ضعيف. وأصل خبر قتل فيروز للأسود مشهورٌ محفوظٌ من وجوه أخرىٰ. انظر: «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ٨٧٢)، و«فتح الباري» (٨/ ٩٢، ٩٣).

فصل

ولمَّا فتح خلفاء النبيِّ ﷺ عمرُ وعثمانُ العراقَ وخراسانَ ضربوا الجزية علىٰ المجوس، كما ضربوها علىٰ النَّصارىٰ بعد أن دعوهم إلىٰ الإسلام، كما دعاهم رسول الله ﷺ، وكما ضرب النبيُّ ﷺ الجزية علىٰ اليهود والنَّصارىٰ والمجوس بعد أن دعاهم إلىٰ الله ﷻ.

فإنه ﷺ بعث العلاء بن الحضرميِّ إلىٰ المنذر بن ساوىٰ العَبْدِي صاحب هَجَر -وهي قريةٌ بالبحرين[1]- بكتابه ﷺ يدعوه إلىٰ الإسلام، قال العلاء: فلمَّا دخلتُ عليه قلتُ: يا منذر، إنك عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصْغُرَنَّ عن الآخرة، إن هذه المجوسيَّة شرُّ دين، ليس فيها تكرُّم العرب، ولا علمُ أهل الكتاب، ينكِحون ما يُسْتَحيا من نكاحه، ويأكلون ما يُتكرَّم عن أكله، ويعبدون في الدنيا نارًا تأكلهم يوم القيامة، ولستَ بعديم عقلٍ ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يَكْذِب أن تصدِّقه، ولمن لا يخون أن تأمنَه، ولمن لا يُخْلِف أن تثق به، فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبيُّ ﷺ الأمِّيُّ الذي والله لا يستطيع ذو عقلٍ أن يقول: ليت ما أمر به نهىٰ عنه، أو ما نهىٰ عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه، إن كلَّ ذلك منه علىٰ أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر. فقال المنذر: قد نظرتُ في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرتُ في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دينٍ فيه أمنية الحياة وراحة الممات، ولقد عجبتُ أمس ممَّن يقبله، وعجبتُ اليوم ممَّن يردُّه، وإن من إعظام من جاء به أن يعظَّم رسوله، وسأنظر[2].

ثم أسلم المنذر، وكتب إلىٰ النبيِّ ﷺ بالإسلام والتصديق.

---

(١) هي محافظة الأحساء في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية.

(٢) ذكره السهيلي في «الروض الأنف» (٧/ ٥١٩)، ثم الكلاعي في «الاكتفاء» (٢/ ١٦)، ولم أقف عليه مسندًا، وفيه صنعةٌ لا تشبه كلام الصدر الأول.

وقال عمرو بن عوف: بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة إلىٰ البحرين، فأتىٰ بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالحَ أهلَ البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فوافَوا صلاة الصُّبح مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا صلَّىٰ بهم الفجر انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «**أظنُّكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟**» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله لا الفقر أخشىٰ عليكم، ولكن أخشىٰ عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**» أخرجاه في الصَّحيحين(١).

وأخرج البخاريُّ(٢) عن بَجَالة بن عَبَدة أنه قال: أتانا كتابُ عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: «فرِّقوا بين كلِّ ذي محرمٍ من المجوس»، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتىٰ شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَر.

وقال ابن شهاب: أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس هَجَر، وأخذ عمر بن الخطاب الجزية من مجوس فارس، وأخذها عثمان بن عفان من البربر(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) (٣١٥٦، ٣١٥٧).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٦٧)، وأبو عبيد في «الأموال» (٧٩). وروي عن الزهري عن السائب بن يزيد موصولًا، أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٤٩). قال البخاري: «والصحيح عن مالك عن الزهري عن النبي ﷺ مرسل»، وقال الدارقطني: «رواه النَّاس عن مالك عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلًا ليس فيه السائب، وهو المحفوظ». انظر: «العلل الكبير» للترمذي (٢٦٢)، و«نصب الراية» (٣/ ٤٤٨).

قال ابن شهاب: أول من أعطىٰ الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما بلغنا وكانوا نصارىٰ، وقَبِل رسول الله ﷺ الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسًا، ثم أدىٰ أهلُ أيلة وأهل أذرُح إلىٰ رسول الله ﷺ الجزية في غزوة تبوك، وبعث خالد بن الوليد إلىٰ أهل دُومَة الجندل[1] فأسَروا رئيسهم أُكَيْدِر، فبايعوه علىٰ الجزية[2].

قال أبو عبيد: الجزية مأخوذةٌ من أهل الكتاب بالتنزيل، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسُّنَّة[3].

وروي عن الزهري عن سعيد بن المسيب، أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥/ ٢٦٦)، قال البيهقي في «السنن الكبير» (١٩/ ٢٧): «وابن شهاب إنما أخذ حديثه هذا عن ابن المسيب، وابن المسيب حسنُ المرسل».

(١) أيلة: مدينة العقبة جنوب الأردن. وأذرح: قرية بشرقي الأردن تبعد عن مدينة معان ٢٥ كيلًا. ودومة الجندل: مدينة بمنطقة الجوف شمال المملكة العربية السعودية. انظر: «المعالم الأثيرة» (٤٠، ٢٤، ١١٧).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (٨٧).

(٣) «الأموال» (١/ ٨٤).

فصل

وأخرج مسلمٌ عن أنس أن النبي ﷺ كتب إلىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشيِّ وإلىٰ كل جبَّارٍ يدعوهم إلىٰ الله ﷻ[1]، وليس بالنجاشيِّ الذي نعاه لأصحابه في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلىٰ المصلَّىٰ، فصفَّ وصلَّىٰ عليه، بل نجاشيٌّ آخرُ تملَّك بعده.

وأخرج مسلمٌ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلتُ علىٰ الأنبياء بستٍّ: أُعطِيتُ جوامعَ الكلم، ونُصِرتُ بالرُّعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا، وأُرسِلتُ إلىٰ النَّاس كافَّة، وخُتِم بي النبيُّون**»[2].

وقال ﷺ: «**كان النبيُّ يُبْعَثُ إلىٰ قومه خاصَّة، وبُعِثتُ إلىٰ النَّاس عامَّة**»[3].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ، ومن دعوة المشركين وعبَّاد الأوثان، وجميع الإنس والجنِّ، ما لا يُحصىٰ إلا بكُلْفَة، وهذا كلُّه معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنه لم يَذْكُر أنه بُعِثَ إلا إلىٰ العرب خاصَّة، وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنَّصارىٰ والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرتُه ﷺ فيهم؟!

(١) صحيح مسلم (١٧٧٤).
(٢) صحيح مسلم (٥٢٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وأيضًا، فالكتابُ المتواتر عنه -وهو القرآن- يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلىٰ الإيمان به في مواضع كثيرةٍ جدًّا، بل يذكر الله ﷻ فيه كُفْرَ من كفر من اليهود والنَّصارىٰ، ويأمر فيه بقتالهم، كقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله في هذه السورة أيضًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

وقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٢].

فصل

فهذه الدَّلائل وأضعافها ممَّا تبيِّن أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسولُ الله إلىٰ النَّصارىٰ وغيرهم من أهل الكتاب، وأنه دعاهم وجاهدَهم وأمر بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا ممَّا فعلته أمَّتُه بعده بدعةً ابتدعوها، كما فعلت النَّصارىٰ بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن المسلمين لا يجوِّزون لأحدٍ بعد محمَّدٍ ﷺ أن يغيِّر[1] شيئًا من شريعته، فلا يُحَلِّل ما حَرَّم، ولا يُحَرِّم ما حَلَّل، ولا يُوجِبُ ما أسقَط، ولا يُسْقِطُ ما أوجَب، بل الحلال عندهم ما حلَّله الله ورسوله، والحرام ما حرَّمه الله ورسوله، والدينُ ما شرعه الله ورسوله، بخلاف النَّصارىٰ الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعًا لم يَشْرَعْها المسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا نطق بها شيءٌ من الأناجيل ولا كتب الأنبياء المتقدِّمة، وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدِّين فإن المسيحَ يُمْضِيه لهم.

وهذا موضعٌ تنازع فيه المللُ الثلاث: المسلمون، واليهود، والنَّصارىٰ، كما تنازعوا في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وغير ذلك.

فاليهود لا يجوِّزون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينسخ شيئًا شَرَعه.

والنَّصارىٰ يجوِّزون لأكابرهم أن ينسَخوا شرع الله بآرائهم.

وأما المسلمون فعندهم أن الله له الخلقُ والأمر، لا شَرْعَ إلا ما شَرَعه الله علىٰ ألسنة رسله، وله أن ينسَخ ما شاء، كما نسَخ بالمسيح ما كان شَرَعه للأنبياء قبله.

فالنَّصارىٰ تضعُ لهم عقائدَهم وشرائعَهم أكابرُهم بعد المسيح، كما وَضَع لهم الثلاثمئة وثمانية عشر الذين كانوا في زمن قُسْطَنطين المَلِك «الأمانة» التي

---

(١) (ي): «يغيروا».

اتَّفقوا عليها، ولعنوا من خالفها من الأريوسيَّة[1] وغيرهم، وفيها أمورٌ لم ينزل الله بها كتابًا، بل تخالفُ ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح.

فقالوا فيها: «نؤمن بإلهٍ واحد، أب[2]، ضابط الكلِّ، خالق السماوات والأرض، كلِّ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ، وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله، الوحيد المولود من الأب قبل كلِّ الدُّهور، نور من نور، إله حقٍّ من إله حقٍّ، مولود غير مخلوق، مساوي الأب في الجوهر الذي به كان كلُّ شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القُدُس ومن مريم العذراء وتأنَّس، وصُلِب علىٰ عهد بِيلاطُس البُنْطِي وتألَّم وقُبِر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصَعِد إلىٰ السماء وجلس عن يمين الأب. وأيضًا، فسيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لمُلْكِه. و[نؤمن] بروح القُدُس الربِّ المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له، ونمجِّد الناطق في الأنبياء، وبكنيسةٍ واحدةٍ جامعةٍ مقدَّسةٍ رسوليَّة، ونعترف بمعموديَّةٍ واحدةٍ لمغفرة الخطايا، ونترجَّىٰ قيامة الموتىٰ، وحياة الدَّهر العتيد كونه[3]، آمين»[4].

---

(١) أصحاب أريوس، فرقة من فرق النصارىٰ يعتقدون أن المسيح عبدٌ مرسل مخلوق، ليس بإله ولا رب. وقد اتفق النصارىٰ بنيقية علىٰ لعن أريوس والتبري منه. انظر: «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢/ ٦٠٤)، وفهرسي الأعلام والطوائف.

(٢) كذا في الأصول وبعض المصادر. وفي عامتها: «الأب». وقال أنستاس الكرملي في مجلة «لغة العرب» (٨/ ١٥٠) منتقدًا من أورد لفظة «أب» دون لام التعريف: «الأب هنا علم للأقنوم الأول، وأداة التعريف هنا للتغليب عليه، ولا يجوز حذفها هنا؛ لئلا يظن أنه اسم جنس يشمل عدة آباء».

(٣) ط. العاصمة: «وحياة الدهر الآتي» خلاف الأصول.

(٤) ويسمونها «دستور الإيمان» و«القانون النيقاوي» نسبة إلىٰ نيقية. وانظر: «الفصل» (١/ ٥٢)، و«الملل والنحل» (٢/ ٢٨)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢/ ٥٠٠)، وما سيأتي (٢/ ٢٥، ٢٨، ٧٦، ٣/ ١٣٩، ١٤٤). وفي كثير من ألفاظها اختلافٌ في المصادر العربية الإسلامية والنصرانية؛ لتفاوت ترجماتها، وأشار ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٥٣٣) إلىٰ ركاكتها.

ووضعوا لهم من القوانين والنَّاموس ما لم يوجد في كتب الأنبياء ولا تدلُّ عليه، بل يوجد بعضه في كتب الأنبياء وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد في كتب الأنبياء، وغيَّروا كثيرًا ممَّا شرعه الأنبياء.

فما عند النَّصارىٰ من القوانين والنَّواميس التي هي شرائع دينهم، فبعضه منقولٌ عن الأنبياء[1]، وبعضه عن الحواريِّين، وكثيرٌ منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء، فدينهم من جنس دين اليهود، قد لَبَسوا الحقَّ بالباطل.

وكان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِث بدين الله الذي بُعِث به الأنبياء قبله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والنهيُ عن عبادة كلِّ ما سواه، وأحلَّ لهم بعض ما حرَّمه الله في التوراة، فنسَخ بعض شرع التوراة.

وكان الرُّوم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكِل العُلْوِيَّة والأصنام الأرضيَّة، فبعَث المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ رسله يدعونهم إلىٰ دين الله تعالىٰ، فذهب بعضهم في حياته في الأرض، وبعضهم بعد رفعه إلىٰ السَّماء، فدعوهم إلىٰ دين الله تعالىٰ، فدخل من دخل في دين الله، وأقاموا علىٰ ذلك مدَّة، ثم زيَّن الشيطان[2] لمن زيَّن له أن يغيِّر دين المسيح، فابتدعوا دينًا مركَّبًا من دين الله ورسله دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن دين المشركين.

وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسَّدة التي لها ظِلٌّ، وهذا كان دين الرُّوم واليونان، وهو دين الفلاسفة أهل مَقْدُونية وأثينية، كأرِسطو وأمثاله من الفلاسفة المشَّائين وغيرهم.

---

(١) «فبعضه منقول عن الأنبياء» ساقط من ط. العاصمة.

(٢) (ي): «الشياطين».

وكان أرِسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمئة سنة، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليوناني المَقْدُوني الذي[1] يؤرَّخ له التاريخُ الرُّوميُّ من اليهود والنَّصارىٰ، وهذا كان مشركًا يعبد هو وقومه الأصنام، ولم يكن يسمَّىٰ «ذا القرنين»، ولا هو ذا القرنين المذكور في القرآن، ولا وصل هذا المقدونيُّ إلىٰ أرض التُّرك ولا بنىٰ السَّدَّ، وإنما وصل إلىٰ بلاد الفُرس، ومن ظنَّ أن أرِسطو كان وزير ذي القرنين المذكور في القرآن فقد غلط غلطًا يبيِّن أنه ليس بعارفٍ بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم[2].

فلمَّا ظهر دينُ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أرِسطو بنحو ثلاثمئة سنة في بلاد الرُّوم واليونان كانوا علىٰ التوحيد، إلىٰ أن ظهرت فيهم البدع، فصوَّروا الصُّور المرقومة في الحيطان، جعلوا هذه الصُّور عوضًا عن تلك الصور. وكان أولئك يسجدون للشمس والقمر والكواكب، فصار هؤلاء يسجدون إليها إلىٰ جهة الشرق التي تظهر منها الشَّمس والقمر والكواكب، وجعلوا السُّجود إليها بدلًا عن السُّجود لها.

ولهذا جاء خاتم الرُّسل صلوات الله عليه وسلامه الذي ختم الله به الرسالة، وأظهر به من كمال التَّوحيد ما لم يكن يظهَر بمن قبله[3]، فأمر ﷺ أن لا يتحرَّىٰ أحدٌ بصلاته طلوعَ الشَّمس ولا غروبها[4]؛ لأن المشركين يسجدون

---

(١) (ع، ي، د): «التي».

(٢) انظر: «منهاج السنة» (١/ ٣١٧، ٤١٠)، و«النبوات» (١٩٧)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (٢٨، ١٨٢، ١٨٦، ٢٨٣، ٣٩٢)، و«درء التعارض» (٥/ ٦٨)، و«الانتصار لأهل الأثر» (٢٢٧)، و«الرد علىٰ البكري» (١٥٦، ٥٧٨)، و«الرد علىٰ الشاذلي» (١٣٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ١٧١، ٥٧١، ١٧/ ٣٣٢)، و«جامع المسائل» (٥/ ٢٨٦).

(٣) (ي): «ما لم يظهر من قبله».

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٣) ومسلم (٨٢٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لها تلك السَّاعة، فإذا صلىٰ الموحِّدون لله ﷻ في تلك السَّاعة صار في ذلك نوعُ مشابهةٍ لهم، فيُتَّخَذُ ذريعةً إلىٰ السُّجود لها، وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصُّور وتعظيم القبور.

ففي صحيح مسلم وغيره[1] عن أبي الهيَّاج الأسديِّ، قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ فأمرني أن لا أدع قبرًا مُشْرِفًا إلا سوَّيتُه، ولا تمثالًا إلا طمستُه.

وفي الصَّحيحين[2] أنه ﷺ قال في مرض موته: «**لعن الله اليهود والنَّصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذِّر ما فعلوا.

وفي الصَّحيحين[3] أنه قال قبل موته بخمس ليالٍ: «**إن من كان قبلكم كانوا يتَّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجد، وإني أنهاكم عن ذلك**».

ولمَّا ذكروا له كنيسة[4] بأرض الحبشة وذكروا من حُسْنِها وتصاويرَ فيها، فقال: «**إن أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجلُ الصَّالحُ بنوا علىٰ قبره مسجدًا وصوَّروا تلك التصاوير، أولئك شِرارُ الخلق عند الله يوم القيامة**»[5].

ونهىٰ أن يستقبل الرجلُ القبرَ في الصَّلاة؛ حتىٰ لا يتشبَّه بالمشركين الذين

---

(١) صحيح مسلم (٩٦٩)، ومسند أحمد (٧٤١)، وسنن أبي داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٣٥) ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) صحيح مسلم (٥٣٢)، وهو من أفراده، كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (١/ ٣٩١).

(٤) (ت): «ذكروا الكنيسة».

(٥) أخرجه البخاري (٤٢٧) ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يسجدون للقبور، ففي الصَّحيح[1] أنه قال: «**لا تجلسوا علىٰ القبور، ولا تصلُّوا إليها**».

إلىٰ أمثال ذلك ممَّا فيه تجريدُ التوحيد لله رب العالمين الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله.

فأين هذا ممَّن يصوِّر صور المخلوقين في الكنائس ويعظِّمها ويستشفعُ بمن صُوِّرت علىٰ صورته؟! وهل كان أصلُ عبادة الأصنام في بني آدم من عهد نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا هذا؟!

والصَّلاة[2] إلىٰ الشَّمس والقمر والكواكب والسجودُ إليها ذريعةٌ إلىٰ السُّجود لها، ولم يأمر أحدٌ من الأنبياء باتخاذ الصُّور والاستشفاع بأصحابها، ولا بالسُّجود إلىٰ الشَّمس والقمر والكواكب، وإن كان يُذْكَرُ عن بعض الأنبياء تصويرُ صورةٍ لمصلحة، فإن هذا من الأمور التي قد تتنوَّع فيها الشرائع، بخلاف السُّجود لها والاستشفاع بأصحابها، فإن هذا لم يشرعه نبيٌّ من الأنبياء، ولا أمر قطُّ أحدٌ من الأنبياء أن يُدْعَىٰ غيرُ الله عَزَّوَجَلَّ لا عند قبره ولا في مَغِيبه، ولا يُسْتَشْفَع[3] به في مَغِيبه بعد موته، بخلاف الاستشفاع بالنبيِّ ﷺ في حياته ويوم القيامة، وبالتوسُّل بدعائه[4] والإيمان به، فهذا من شرعِ الأنبياء عليهم السَّلام.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

---

(١) صحيح مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) (د، ي، ع): «ويصلىٰ».
(٣) (ت): «يتشفع». وفي ط. العاصمة: «يشفع»، وهو خطأ.
(٤) (ت): «وبالتوسل به بدعائه».

رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٓ(١) إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ١ - ٤].

وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحدٌ منهم يقول: إن للمخلوقات خالقَيْن منفصلَيْن متماثلَيْن في الصِّفات، فإن هذا لم يقله طائفةٌ معروفةٌ من بني آدم(٢)، ولكنَّ الثَّنويَّة من المجوس ونحوهم يقولون: إن العالم صادرٌ عن أصلين: النُّور والظُّلمة، والنُّور عندهم هو إله الخير المحمود، والظُّلمة هي الإله الشرير المذموم.

وبعضهم يقول: إن الظُّلمة هي الشيطان، وهذا ليجعلوا ما في العالم من الشَّرِّ صادرًا عن الظُّلمة.

---

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعهده.

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٤٣٥)، و«شرح الأصبهانية» (١١٦، ١٣٤)، و«درء التعارض» (٥/ ٣٨)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٩٦، ١١/ ٥١).



ومنهم من قال: إن الظُّلمة قديمةٌ أزليَّة، مع أنها مذمومةٌ عندهم، ليست مماثلةً للنور.

ومنهم من قال: بل هي حادثة، وأن النُّور فكَّر فكرةً رديئة، فحَدَثت الظُّلمة عن تلك الفكرة الرَّديئة.

فقال لهم أهل التوحيد: أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلىٰ الربِّ ﷻ خلقَ ما في العالم من الشَّرِّ، وجعلتموه خالقًا لأصل الشَّرِّ!

وهؤلاء مع إثباتهم اثنين، وتسمية النَّاس لهم بالثَّنَويَّة، فهم لا يقولون: إن الشَّرَّ[1] مماثل للخير.

وكذلك الدَّهريَّة دهريَّة الفلاسفة وغيرهم:

منهم من ينكر الصَّانع للعالم، كالقول الذي أظهره فرعون لعنه الله.

ومنهم من يُقِرُّ بعلَّةٍ يتحرَّك الفلكُ للتشبُّه بها، كأرِسطو وأتباعه.

ومنهم من يقول بالموجب بالذَّات المستلزم للفلك، كابن سينا، والسُّهْرَوردي المقتول بحلب، وأمثالهما من متفلسفة المِلَل.

وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرِّين بالصَّانع، وبأنه خلق السماوات والأرض، فكانت عقيدة مشركي العرب خيرًا من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدَّهرية؛ إذ كانوا مُقِرِّين بأن هذه السماوات مخلوقةٌ لله حادثةٌ بعد أن لم تكن، وهذا مذهبُ جماهير أهل الأرض من[2] أهل الملل الثلاثة: المسلمون واليهود والنَّصارىٰ، ومن المجوس والمشركين. وهؤلاء الدَّهرية

---

(١) (ع، ي، د): «الشرير».

(٢) ط. العاصمة: «ومن» خلاف الأصول.

من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السَّماوات أزليَّةٌ قديمةٌ لم تزل.

وكانوا[1] مشركو العرب يُقِرُّون بأن الله قادرٌ يفعل بمشيئته، ويجيبُ دعاء الدَّاعي إذا دعاه، وهؤلاء المتفلسفة الدَّهريَّة عندهم أن الله لا يفعل شيئًا بمشيئته، ولا يجيب دعاء الدَّاعي، بل ولا يعلم الجزئيَّات، فلا يعرف[2] هذا الدَّاعي مِن هذا الدَّاعي، ولا يعرف إبراهيم من موسىٰ من محمَّد وغيرهم بأعيانهم من رسله، بل منهم من ينكر علمه مطلقًا، كأرِسطو وأتباعه، ومنهم من يقول: إنما يعلم الكليَّات، كابن سينا وأمثاله.

ومعلومٌ أن كلَّ موجودٍ في الخارج فهو جزءٌ معيَّن، فإن لم يَعْلَم إلا الكليَّات لم يَعْلَم شيئًا من الموجودات المعيَّنة، لا الأفلاك ولا الأملاك ولا غير ذلك من الموجودات بأعيانها.

والدعاء عندهم هو تصرُّف النفس القويَّة في هَيُولىٰ العالم[3]، كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله، وزعموا أن اللوح المحفوظ هو النفسُ الفلكيَّة، وأن حوادث الأرض كلَّها إنما تحدث عن حركة الفلك، كما قد بُسِط الردُّ عليهم في غير هذا الموضع[4].

والمقصود هنا أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهًا آخر مساويًا له في الصِّفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشَّمس والقمر خَلَقت العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئًا من العالم.

---

(١) كذا في الأصول، علىٰ لغة «يتعاقبون فيكم ملائكة»، ولها نظائر في كتب المصنف.

(٢) (ت): «ولا يعرف».

(٣) الهيولىٰ لفظ يوناني بمعنىٰ الأصل والمادة. «المعجم الفلسفي» (٧٤١).

(٤) انظر: «بغية المرتاد» (٣٢٦)، و«درء التعارض» (١٠/ ١٨٩)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (٤٧٤)، و«الرد علىٰ الشاذلي» (٣٨).

ومن ظنَّ أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النَّجم أو الشَّمس أو القمر ربُّ العالمين، أو أن الخليل عليه السلام لمَّا قال: «هذا ربِّي» أراد به ربَّ العالمين، فقد غلط غلطًا بيِّنًا، بل قوم إبراهيم كانوا مُقِرِّين بالصَّانع، وكانوا يشركون بعبادته، كأمثالهم من المشركين.

قال تعالىٰ عن الخليل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ١٠١].

فأخبر تعالىٰ عن الخليل أنه عدوٌّ لكلِّ ما يعبدونه إلا لربِّ العالمين، وأخبر أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ يعني: آلهتهم[1] ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]، كما قال تعالىٰ في الموضع

---

(١) «يعني آلهتهم» من ط. النيل.



الآخر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

ولهذا[1] قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ولم يقل: من المعطِّلين؛ فإن قومه كانوا يشركون، ولم يكونوا معطِّلين كفرعون اللعين، فلم يكونوا جاحدين للصَّانع، بل عَدَلوا به، وجعلوا له أندادًا في العبادة والمحبَّة والدعاء.

وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ[2] مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقال تعالىٰ فيما حكاه عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

قال ابن عبَّاس وغيره من العلماء: هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح، فلمَّا ماتوا عَكَفوا علىٰ قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم عبدوها[3].

---

(١) من ط. النيل.
(٢) في الأصول: «لا تدع»، وهو سبق قلم.
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروي معناه عن غير واحد من السلف. انظر: «الدر المنثور» (١٤/ ٧١٢). وليس فيه أنهم عكفوا علىٰ قبورهم.

وهكذا عند النَّصارىٰ عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب «سِرِّ بِطْرُس» الذي يسمَّىٰ بشَمْعُون وسمعان[1] والصَّفا وبِطْرُس[2]، والأربعة لمسمًّىٰ واحد، عندهم عنه كتابٌ عن المسيح، فيه أسرارُ العلوم، وهذا فيه[3] عن المسيح.

فالذي تفعله النَّصارىٰ أصل عبادة الأوثان، وهكذا قال عالمهم الكبير الذي يسمُّونه «فم الذَّهب»[4] -وهو من أكبر علمائهم- لمَّا ذكر تولُّد الذُّنوب الكبار عن الصِّغار، قال: وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لمَّا أكرم النَّاس أشخاصًا يعظِّم بعضهم بعضًا فوق المقدار الذي ينبغي، الأحياء منهم والأموات.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

قال طائفةٌ من العلماء: كان أقوامٌ يَدْعُون الملائكة والأنبياء، كالعُزَيْر والمسيح وغيرهما[5]، فبيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن هؤلاء عبادُه كما أنتم عبادُه، يرجون

(١) (د، ع، ي): «وشمعان».

(٢) وهو أفضل الحواريين علمًا وزهدًا وأدبًا، كما يقول الشهرستاني في «الملل والنحل» (٢/ ٢٦)، وخليفة يسوع والمرأس علىٰ سائر التلاميذ الاثني عشر والسبعين، كما يقول المسعودي في «التنبيه والإشراف» (١٠٩).

(٣) ط. النيل: «وهذا فيه عندهم».

(٤) ولد في أنطاكية، واختير أسقفًا للقسطنطينية، اسمه يوحنا، ولقب بفم الذهب لفصاحته وبلاغة عبارته، له مقالات ورسائل وتفسير للإنجيل. توفي سنة ٤٠٧م. انظر: «تاريخ مختصر الدول» لابن العبري (٨٤)، و«كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمىٰ» لأسد رستم (١/ ٢٥٩- ٢٨٦)، و«تاريخ الأمة القبطية» (٢/ ٨٦).

(٥) انظر: «الدر المنثور» (٩/ ٣٨٤).

رحمتَه كما ترجون رحمتَه، ويخافون عذابَه كما تخافون عذابَه، ويتقرَّبون إليه كما تتقرَّبون إليه.

وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

فبيَّن تعالىٰ أن من اتَّخذ الملائكة والنبيِّين أربابًا فهو كافرٌ مع اعتقاده أنهم مخلوقون، فإنه لم يقل أحدٌ قطُّ: إن جميع الملائكة والأنبياء مشاركون لله سبحانه في خلق العالم.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال ابن عبَّاس ومجاهد وغيرهما: تسألهم: من خلق السَّماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم يعبدون غيره(١).

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] في غير موضع، فأخبر تعالىٰ عن المشركين أنهم كانوا يُقِرُّون بأن خالق العالم واحد، مع اتخاذهم آلهةً يعبدونهم من دونه سبحانه، يتَّخذونهم شفعاء إليه، أو يتقرَّبون بهم إليه.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).



فصل

وكـذلك تعظـيمُهم للصَّـليب، واسـتحلالهم لحـمَ الخنزيـر، وتعبُّـدهم بالرَّهبانيـة، وامتنـاعهم مـن الختـان، وتـركهم طهـارة الحَـدَث والخَبَـث، فلا يوجبون غُسْلَ جنابةٍ ولا وضوءًا، ولا يوجبون اجتناب شيءٍ من الخبائث في صلاتهم، لا عَذِرَةً ولا بولًا ولا غير ذلك من الخبائث، إلىٰ غير ذلـك = كلُّها شرائعُ أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودان بها أئمَّتهم وجمهورهم، ولعنوا من خالفهم فيها، حتىٰ صار المتمسِّك فيهم بدين المسيح المحض مغلوبًا مقموعًا قبل أن يبعث الله محمَّدًا ﷺ، وأكثر ما هم عليه من الشَّرائع والدِّين لا يوجد منصوصًا عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما المسلمون، فكلُّ ما أجمعوا عليه إجماعًا ظاهرًا تعرفه العامَّة والخاصَّة فهو منقولٌ عن نبيِّهم ﷺ، لم يُحْدِث ذلك أحدٌ بعده[1] لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمَّدٍ ﷺ فإنه يوجد مأخوذًا عن نبيِّهم.

وأما ما يُظَنُّ فيه إجماعُهم ولا يُقْطَعُ به، فمنه ما يكون ذلك[2] الظنُّ خطأً، ويكون بينهم فيه نزاع، ثم قد يكون[3] نصُّ الرسول ﷺ مع هذا القول، وقد يكون مع هذا القول. ومنه ما يكون ظنُّ الإجماع عليه صوابًا، ويكون فيه عن النبيِّ ﷺ أثرٌ خفيت معرفته أو دلالته علىٰ بعض النَّاس.

وذلك أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أكمل الدِّينَ بمحمَّدٍ ﷺ خاتم النبيِّين، وبيَّنه وبلَّغه البلاغ المبين، فلا تحتاج أمَّتُه إلىٰ أحدٍ بعده يغيِّر شيئًا من دينه، وإنما تحتاج إلىٰ معرفة دينه الذي بُعِثَ به فقط، وأمَّتُه لا تجتمع علىٰ ضلالة، بل لا يزال في أمَّتِه

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) من ط. النيل.

(٣) في طرة (ع، د) إشارة إلىٰ أن في نسخة: «بل قد يكون».

طائفةٌ قائمةٌ بالحقِّ حتىٰ تقوم السَّاعة، فإن الله أرسله بالهدىٰ ودين الحقِّ ليظهره علىٰ الدِّين كلِّه، فأظهره بالحجَّة والبيان، وأظهره باليد والسِّنان، ولا يزال في أمَّتِه أمَّةٌ ظاهرةٌ بهذا وهذا حتىٰ تقوم السَّاعة.

والمقصود هنا أن ما أجمعت عليه الأمَّة إجماعًا ظاهرًا تعرفه العامَّة والخاصَّة فهو منقولٌ عن نبيِّهم ﷺ.

ونحن لا نشهد بالعصمة إلا لمجموع الأمَّة، وأما كثيرٌ من طوائف الأمَّة ففيهم بدعٌ مخالفةٌ للرسول، وبعضها من جنس بدع اليهود والنَّصارىٰ، وفيهم فجورٌ ومعاصي، لكن رسول الله ﷺ بريءٌ من ذلك، كما قال تعالىٰ له: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال ﷺ: «**من رغب عن سنَّتي فليس منِّي**»[(١)].

وذلك مثل إجماعهم علىٰ أن محمَّدًا ﷺ أُرسِل إلىٰ جميع الأمم أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، فإن هذا تلقَّوه عن نبيهم ﷺ، وهو منقولٌ عندهم نقلًا متواترًا يعلمونه بالضرورة.

وكذلك إجماعهم علىٰ استقبال الكعبة البيت الحرام في صلاتهم، فإن هذا الإجماع منهم علىٰ ذلك مستندٌ إلىٰ النقل المتواتر عن نبيِّهم، وهو مذكورٌ في كتابهم.

وكذلك الإجماع علىٰ وجوب الصَّلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحجِّ البيت العتيق الذي بناه إبراهيم خليل الرَّحمن، ودعا النَّاس إلىٰ حجِّه، وحجَّته الأنبياء، حتىٰ حجَّه موسىٰ بن عمران ويونس بن متَّىٰ وغيرهما، وإجماعهم علىٰ وجوب الاغتسال من الجنابة، وتحريم الخبائث، وإيجاب

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الطهارة للصَّلاة = فإن هذا كلَّه ممَّا تلقَّوه[1] عن نبيِّهم، وهو منقولٌ عنه ﷺ نقلًا متواترًا، وهو مذكورٌ في القرآن.

وأما النَّصارىٰ، فليست الصَّلوات التي يصلُّونها منقولةً عن المسيح عليه السلام، ولا الصَّوم الذي يصومونه منقولًا عن المسيح، بل جعَل أوَّلهم الصَّوم أربعين يومًا، ثم زادوا فيه عشرة أيام ونقلوه إلىٰ الرَّبيع، وليس هذا منقولًا عندهم عن المسيح عليه السلام.

وكذلك حجُّهم لقُمَامة[2]، وبيت لحم، وكنيسة صَيْدَنايا[3]، ليس شيءٌ من ذلك منقولًا عن المسيح عليه السلام.

بل وكذلك عامَّة أعيادهم، مثل: عيد القَلِنْدس[4]، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس[5] -وهو القداس-، وعيد الخميس[6]، وعيد الصَّليب الذي

---

(١) (ت): «نقلوه»، وأصلحت في طرة الأصل.

(٢) (د، ي، ع): «للقمامة». وهي أعظم كنيسة للنصارىٰ ببيت المقدس، في وسط البلد، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أن اسمها قمامة؛ لأنها كانت مزبلة أهل البلد. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٣٩٦). وسيذكر المصنف (٢/ ١٥٦) أنه ليس لها ذكرٌ في كتب الأنبياء، وإنما ظهرت في زمن قسطنطين الملك.

(٣) وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم حيث وُلِد المسيح عليه السلام، وتقع شمال غرب دمشق، وسيأتي خبر حيلتهم فيها (١/ ٤٩٢).

(٤) وهو رأس السنة وتمام الأسبوع من ولادة مريم، واللفظة لاتينية Kalendae. انظر: «مروج الذهب» (٣/ ٤٠٦)، و«النصرانية وآدابها» للويس شيخو (٩٦).

(٥) زعموا أن يحيىٰ عمَّد عيسىٰ عليهما السلام فيه في نهر الأردن، فالنصارىٰ يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم. انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١١)، و«صبح الأعشىٰ» (٢/ ٤٥٥). ولم يصب المعلق علىٰ ط. العاصمة في التعريف به.

(٦) ويسمىٰ عيد العنصرة، ويحتفلون به بعد خمسين يومًا من عيد الفصح، ويقولون: إن روح القدس حلَّت بالتلاميذ وتفرقت عليهم ألسنة النَّاس فتكلموا بجميعها. انظر: «نهاية الأرب» (١/ ١٩١)، و«صبح الأعشىٰ» (٢/ ٤٥٥).

جعلوه في وقت ظهور الصَّليب لمَّا أظهرته هَيْلانة الحرَّانيَّة الفُنْدُقانية أمُّ قُسْطَنطين بعد مئين من السِّنين[1]، وعيد الخميس والجمعة والسَّبت التي في آخر صومهم، وغير ذلك من أعيادهم التي رتَّبوها علىٰ أحوال المسيح، والأعياد التي ابتدعوها لكبرائهم = فإن ذلك كلَّه من بدعهم التي ابتدعوها بلا كتابٍ نزل من الله تعالىٰ.

بل هم يبنون الكنائسَ علىٰ اسم بعض من يعظِّمونه، كما في الصحيحين عن النبيِّ ﷺ: أنهم «**إذا مات فيهم الرجل الصَّالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[2].

وهذا بخلاف المساجد التي تبنىٰ لله عز وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، وقال: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، والنَّصارىٰ كأشباههم من المشركين يخشون غير الله، ويدعون غير الله.

(١) ط. النيل: «بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين». وما في الأصول أولىٰ؛ وسيأتي أن هيلانة أظهرت الصليب المزعوم وصنعت لوقت ظهوره عيدًا، وذلك زمن الملك قسطنطين بعد المسيح والحواريين بأكثر من ثلاثمئة سنة. وانظر: «تثبيت دلائل النبوة» للقاضي عبد الجبار (١/ ٩٣)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٦٦١).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ١٧٦).



فصل

والمقصود هنا أن الذي يَدِينُ به المسلمون من أن محمَّدًا ﷺ بُعِث رسولًا إلىٰ الثقلين الإنس والجن، أهل الكتاب وغيرهم، وأن من لم يؤمن به فهو كافرٌ مستحقٌّ لعذاب الله مستحقٌّ للجهاد، وهو ممَّا أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي جاء بذلك، وذكره الله في كتابه، وبيَّنه الرسول أيضًا في الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب؛ فإنه تعالىٰ أنزل عليه الكتاب والحكمة، ولم يبتدع المسلمون شيئًا من ذلك من تلقاء أنفسهم، كما ابتدعت النَّصارىٰ كثيرًا من دينهم، بل أكثر دينهم، وبدَّلوا دين المسيح وغيَّروه.

ولهذا كان كفرُ النَّصارىٰ لمَّا بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ مثل كفر اليهود لمَّا بُعِثَ المسيحُ عليه السلام؛ فإن اليهود كانوا قد بدَّلوا شرع التوراة قبل مجيء المسيح، فكفروا بذلك، ولمَّا بُعِثَ المسيحُ إليهم كذَّبوه، فصاروا كفَّارًا بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه، وبتكذيب الكتاب الثاني.

وكذلك النَّصارىٰ كانوا بدَّلوا دين المسيح قبل أن يُبْعَث محمَّدٌ ﷺ، فابتدعوا من التثليث والاتحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يُبْعَث بها المسيحُ عليه السلام، بل تخالف ما بُعِث به، وافترقوا في ذلك فرقًا متعدِّدة، وكفَّر فيها بعضهم بعضًا، فلمَّا بُعِث محمَّدٌ ﷺ كذَّبوه، فصاروا كفارًا بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه، وبتكذيب الكتاب الثاني، كما يقول علماء المسلمين: إن دينهم مبدَّلٌ منسوخ.

وإن كان قليلٌ من النَّصارىٰ كانوا عند مبعث محمَّد ﷺ متمسِّكين بدين المسيح كما كان الذين لم يبدِّلوا دين المسيح كله علىٰ الحق، فهذا كما أن من كان متبعًا شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسِّكًا بالحقِّ كسائر من اتبع

موسىٰ، فلمَّا بُعِث المسيحُ صار كلُّ من لم يؤمن به كافرًا، وكذلك لمَّا بُعِث محمَّدٌ ﷺ صار كلُّ من لم يؤمن به كافرًا.

والمقصود في هذا المقام بيان ما بُعِث به محمَّدٌ ﷺ من عموم رسالته، وأنه هو نفسه الذي أخبَر أن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم، وأنه نفسه ﷺ دعا أهل الكتاب، وجاهدهم، وأمر بجهادهم.

فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب اليهود والنَّصارىٰ: إنه لم يُبْعَث إلينا، بمعنىٰ أنه لم يقل: إنه مبعوثٌ إلينا، كان مكابرًا جاحدًا للضرورة، مفتريًا علىٰ الرسول فريةً ظاهرةً تعرفها الخاصَّة والعامَّة، وكان جحدُه لهذا[1] كما لو جحَد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصَّلوات الخمس، وصوم رمضان، وحجَّ البيت الحرام.

وجحدُ محمَّدٍ ﷺ وما تواتر عنه أعظمُ من جحد اتِّباع الحواريِّين للمسيح عليه السلام، وإرساله لهم إلىٰ الأمم، ومجيئه بالإنجيل، ومجيء موسىٰ عليه السلام بالتوراة، وجحد أنه كان يَسْبِت؛ فإن النقل عن محمَّدٍ ﷺ مدَّته[2] قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف أضعاف من نقل دينَ المسيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتَّصل به نقلُ دين موسىٰ عليه السلام؛ فإن أمَّة محمَّدٍ ﷺ ما زالوا كثيرين منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، وما زال فيهم من هو ظاهرٌ بالدِّين منصورٌ علىٰ الأعداء، بخلاف بني إسرائيل فإنهم زال ملكُهم في أثناء الأمر[3] لمَّا خرب بيتُ المقدس الخرابَ الأول بعد داود عليه السلام،

(١) ط. النيل: «جحده لها».
(٢) (د، ي، ع): «مدة».
(٣) ط. النيل: «المدة».

ونقص عددُ من نقل دينَهم، حتىٰ قد قيل: إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحد[1].

والمسيح عليه السلام لم ينقل دينه عنه إلا عددٌ قليل، لكن النَّصارىٰ يزعمون أنهم رسل الله معصومون، مثل: إبراهيم وموسىٰ، وسيأتي الكلام علىٰ هذا إن شاء الله تعالىٰ إذا وصلنا إليه[2]، إذ المقصود هنا بيانُ [أنَّ] من زعم أن محمَّدًا ﷺ كان يقول: «إنه لم يُبْعَث إلا إلىٰ مشركي العرب» فإنه في غاية الجهل والضلال، أو غاية المكابرة والمعاندة؛ فإن هذا أعظم جهلًا وعنادًا ممَّن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة والغُسل من الجنابة، ويحرِّم الخمر والخنزير، وأعظم جهلًا وعنادًا ممَّن ينكر ما تواتر من أمر المسيح وموسىٰ عليهما السَّلام، وقد ظهر بهذا بطلانُ قولهم: «عَلِمنا أنه لم يأتِ إلينا، بل إلىٰ جاهليَّة العرب»[3].

---

(١) وهو عزير. انظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٧٨)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٨).

(٢) (١/ ٣٠٢، ٣١١، ٤٢٥- ٤٣٣).

(٣) رسالة بولس الأنطاكي المتقدمة (١/ ٤٠).

فصل

فإذا عُرِف هذا، فاحتجاج هؤلاء بالآيات التي ظنُّوا دلالتها علىٰ أن نبوَّته خاصَّةٌ بالعرب تدلُّ علىٰ أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحدٍ علىٰ مقصوده ومراده، وأنهم ممَّن قيل فيه: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فليسوا أهلًا أن يحتجُّوا بالتوراة والإنجيل والزَّبور علىٰ مراد الأنبياء، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء علىٰ مراد الأنبياء عليهم السَّلام، بل ولا يحتجُّون بكلام الأطبَّاء والفلاسفة والنُّحاة وعلم أهل الحساب والهيئة علىٰ مقاصدهم.

فإن النَّاس كلهم متَّفقون علىٰ أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميِّين وأصحِّها[1]، ومتَّفقون علىٰ أن القرآن في أعلىٰ درجات البيان والبلاغة والفصاحة، وفي القرآن من الدلالات الكثيرة علىٰ مقصود الرسول ﷺ التي يَذْكُر فيها أن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم ما لا يُحصىٰ إلا بكُلْفَة، ثم مع ذلك من النُّقول المتواترة عن سيرته ﷺ في دعائه لأهل الكتاب، وأمره لهم بالإيمان به، وجهاده لهم إذا كفروا به، ما لا يخفىٰ علىٰ من له أدنىٰ خبرةٍ بسيرته ﷺ، وهذا أمرٌ قد امتلأ العالمُ به، وسمعه القاصي والدَّاني.

فإذا كان النَّاس المؤمنُ به وغير المؤمن به يعلمون أنه كان يقول: «إنه رسول الله إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم»، وأن ظهور مقصوده بذلك ممَّا تعلمه بالاضطرار الخاصَّة والعامَّة، ثم شرعوا يظنُّون أنه كان يقول: «إني لم أُبْعَث إلا إلىٰ العرب»، واستمرَّ علىٰ ذلك حتىٰ مات، دلَّ علىٰ فساد نظرهم وعقلهم،

---

(١) (ي، د، ع): «وأفصحها»، والمثبت من ط. النيل.



أو علىٰ عنادهم ومكابرتهم.

وكان الواجبُ إذ لم يكن لهم[1] معرفةٌ بمعاني[2] هذه الآيات التي استدلُّوا بها علىٰ خصوص رسالته أن يعتقدوا أحد أمرين: إما أن لها معاني توافق ما كان يقوله، أو أنها من المنسوخ.

فقد عَلِمت العامَّة والخاصَّة أن محمَّدًا ﷺ كان يصلي بعد هجرته إلىٰ بيت المقدس نحو سنةٍ ونصف، ثم أُمِر بالصَّلاة إلىٰ الكعبة البيت الحرام، والنَّصارىٰ يوافقونا[3] علىٰ أن شرائع الأنبياء فيها ناسخٌ ومنسوخ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخًا.

ولكن المقصود أن المعلوم من حال الرسول ﷺ علمًا ضروريًّا يقينيًّا متواترًا لا يجوز دفعُه؛ فإن العلم بأنه كان يقول: «إنه رسول الله ﷺ إلىٰ جميع الخلق» معلومٌ لكلِّ من عرف أخباره ﷺ سواءٌ صدَّقه أو كذَّبه، والعلمَ بأنه كان يقول: «إنه رسول الله إلىٰ جميع النَّاس» ممكنٌ قبل أن يُعْلَم أنه نبيٌّ أو ليس بنبيٍّ، كما أن العلم بنبوَّته وصدقه ممكنٌ قبل أن يُعْلَم عمومُ رسالته، فليس العلم بأحدهما موقوفًا علىٰ الآخر، ولهذا كان كثيرٌ ممن يكذِّبه يعلم أنه كان يقول: «إنه رسول الله إلىٰ جميع الخلق»، وطائفةٌ ممَّن تُقِرُّ بنبوَّته وصدقه لا تُقِرُّ بأنه رسولٌ إلىٰ جميع الخلق.

والمقصود هنا الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعموم دعوته لجميع الخلق -أهل الكتاب وغيرهم- هو متواترٌ معلومٌ بالاضطرار، كالعلم بنفس مَبْعَثِه ودعائه الخلقَ إلىٰ الإيمان به وطاعته، وكالعلم بهجرته من مكَّة إلىٰ المدينة،

---

(١) ط. العاصمة: «له»، وهو خطأ مخالف الأصول. ط. النيل: «إذا لم يكن لهم».

(٢) (د، ع، ي): «معاني»، والمثبت من ط. النيل.

(٣) ط. النيل والعاصمة: «يوافقون».

ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحجِّ البيت العتيق، وإيجاب الصِّدق[1] والعدل، وتحريم الظُّلم والفواحش، وغير ذلك ممَّا جاء به محمَّدٌ ﷺ.

فإن قيل: بل في القرآن ما يقتضي أن رسالته خاصَّة، وفيه ما يقتضي أن رسالته عامَّة، وهذا تناقض.

قيل: هذا باطل، ويُعْلَم بطلانُه[2] قبل العلم بنبوَّته؛ فإنه من المعلوم لكلِّ أحدٍ آمن به أو كذَّبه أنه كان من أعظم النَّاس عقلًا وسياسةً وخبرة، وكان مقصودُه دعوةَ الخلق إلىٰ طاعته واتباعه، وكان يقرأ هذا[3] القرآن علىٰ جميع النَّاس، ويأمر بتبليغه إلىٰ جميع الأمم، وكلُّ[4] من طلب منه أن يؤمِّنه حتىٰ يقرأ عليه القرآن من الكفَّار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركًا، فكيف إذا كان كتابيًّا؟! كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ[5]﴾ [التوبة: ٦]. وكان قد أظهَر أنه مبعوثٌ إلىٰ أهل الكتاب وسائر الخلق، وأنه رسولٌ إلىٰ الثقلين الجنِّ والإنس. فيمتنعُ مع هذا أن يُظْهِر ما يدلُّ علىٰ أنه لم يُبْعَث إليهم، فإن هذا لا يفعله من له أدنىٰ عقل؛ لمناقضته لمراده، فكيف يفعله مثل هذا الذي اتَّفقت[6] عقلاء الأمم علىٰ أنه أعقلُ الخلق، وأحسنهم سياسةً وشريعة؟!

---

(١) (ع): «الصدقة».

(٢) (ت): «هذا يعلم بطلانه».

(٣) ليست في (ت).

(٤) ط. العاصمة: «وكان» خلاف الأصول.

(٥) في الأصول: «يعقلون»، وهو سهو.

(٦) (ع، ي، د): «مثل من اتفقت»، والمثبت من (ت).

وأيضًا، فكان أصحابه والمقاتلون معه لعدوِّه[1] يَنْفِرون عنه، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا، وهذا لم يستشكله أحد.

ثم بعد هذا[2]، فلو قُدِّر أن في القرآن ما يدلُّ علىٰ أنه لم يُبْعَث إلا إلىٰ العرب، وفيه ما يدلُّ علىٰ أنه بُعِثَ إلىٰ سائر الخلق، كان هذا دليلًا علىٰ أنه أُرْسِل إلىٰ غيرهم بعد أن لم يُرسَل إلا إليهم، وأن الله عَمَّ بدعوته بعد أن كانت خاصَّة.

فلا مناقضة بين هذا وهذا، فكيف وليس في القرآن آيةٌ واحدةٌ تدلُّ علىٰ اختصاص رسالته بالعرب، وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أن فيه إثبات رسالته إلىٰ قريش، وليس هذا مناقضًا لهذا.

وفيه إثبات رسالته إلىٰ أهل الكتاب، كقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا[3]﴾ [النساء: ٤٧]، كما فيه إثبات رسالته إلىٰ بني إسرائيل كقوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وليس هذا التخصيصُ لليهود[4] منافيًا لذلك التعميم.

وفي رسالته خطابٌ لليهود تارةً وللنصارىٰ تارة، وليس خطابه لإحدىٰ الطائفتين ودعوته لها مناقضًا لخطابه للأخرىٰ ودعوته لها.

وفي كتابه خطابٌ للذين آمنوا من أمَّته في دعوته لهم إلىٰ شرائع دينه، وليس في ذلك مناقضةٌ بأن يخاطِب أهلَ الكتاب ويدعوهم.

---

(١) ط. العاصمة: «معه بعد ذلك»، وهو خطأ مخالف الأصول.
(٢) «ثم بعد هذا» ليست في (ي).
(٣) الأصول: «يا أهل الكتاب آمنوا بما أنزلنا»، وهو سهو.
(٤) ليست في (ي، ع)، وضرب عليها في (د)، وأثبتها من (ت).

وفي كتابه أمرٌ بقتال أهل الكتاب النَّصارىٰ حتىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، قال تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، ثم لم يكن هذا مانعًا أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، بل هذا الحكم ثابتٌ في المجوس بسنَّته واتفاق أمَّته، وإن قيل: إنهم ليسوا من أهل الكتاب.

فهذا كلُّه ممَّا يُعْلَم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوَّته، فكيف ونحن نتكلَّم علىٰ تقدير نبوَّته، والنبيُّ لا يتناقض قوله؟!

وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلومًا بالاضطرار قبل العلم بنبوَّته وبعد العلم بنبوَّته، فالعلم الضروريُّ اليقينيُّ لا يعارضه شيء، ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم زيغٌ من أهل البدع النَّصارىٰ وغيرهم، يتَّبعون المتشابه ويدَعون المُحْكَم.

وبسبب مناظرة النَّصارىٰ للنبيِّ ﷺ بالمتشابه، وعدولهم عن المُحْكَم، أنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

والتأويل: يراد به تفسيرُ القرآن، ومعرفة معانيه، وهذا يعلمه الرَّاسخون،

ويراد به ما استأثر الربُّ بعلمه من معرفة كُنْهِه، وكُنْهِ[1] ما وَعَد به، ووقت السَّاعة، ونحو ذلك ممَّا لا يعلمه إلا الله[2].

والضُّلَّال يذكرون آياتٍ تشتبه عليهم معرفةُ[3] معانيها، فيتَّبعون تأويلها[4] ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وليسوا من الرَّاسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها، مع أن هؤلاء الآيات التي ذكروها[5] من أوضح الآيات.

وهذا الذي سلكوه في القرآن هو نظيرُ ما سلكوه في الكتب المتقدِّمة وكلام الأنبياء من التَّوراة والإنجيل والزَّبور وغيرها؛ فإن فيها من النصوص الكثيرة الصَّريحة بتوحيد الله وعبوديَّة المسيح ما لا يحصىٰ إلا بكُلْفَة، وفيها كلماتٌ قليلةٌ فيها اشتباه، فتمسَّكوا بالقليل المتشابه الخفيِّ المُشْكِل من الكتب المتقدِّمة، وتركوا الكثير المُحْكَم المُبيَّن[6] الواضح.

فهم سلكوا في القرآن ما سلكوه في الكتب المتقدِّمة، لكنَّ تلك الكتب يُقِرُّون بنبوَّة أصحابها ومحمَّدٌ ﷺ هم فيه مضطربون متناقضون، فأيُّ قولٍ قالوه فيه ظهر فسادُه وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أُنزِل إليه.

وإن قالوا: كلامه متناقض، ونحن نحتجُّ بما يوافق قولنا، إذ مقصودنا بيان تناقضه.

---

(١) (ت، ع): «وكنه معرفة»، وفي طرة (د) إشارة إلىٰ أنها كذلك في نسخة، وضرب علىٰ «معرفة» في (ي).

(٢) انظر: «الانتصار لأهل الأثر» (٩٩) والمصادر المذكورة بحاشيته.

(٣) ليست في (د، ع).

(٤) كذا في الأصول. والوجه أن تكون: «فيتبعونها».

(٥) «التي ذكروها» ليست في (و).

(٦) (د، ي، ع): «البيِّن».

قيل لهم[1]: عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه في الكتب المتقدِّمة ممَّا يُظَنُّ أنه متعارضٌ أضعافُ ما في القرآن وأقربُ إلىٰ التناقض، فإذا كانت تلك الكتب متَّفقةً لا تناقض فيها، وإنما يَظُنُّ تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرُّسل، فيكون كما قيل:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفتُه من الفهم السَّقيم[2]

فكيف القرآن الذي هو أفضل الكتب؟!

الثاني: أنهم متمسِّكون بالمتشابه في تلك الكتب، ومخالفون المُحْكَم منها، كما فعلوه بالقرآن وأبلغ.

الثالث: أنه إذا[3] كان ما جاء به متناقضًا لم يكن رسول الله؛ فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفًا متناقضًا، وإنما يتناقض ما جاء[4] من عند غير الله، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فكلُّ كتابٍ ليس من عند الله لا بدَّ أن يكون فيه تناقض، وما كان من عند الله لا يتناقض. وحينئذٍ، فإن كان متناقضًا لم يَجُز لهم الاحتجاجُ بشيءٍ منه؛ فإنه ليس من عند الله. وإن لم يكن متناقضًا ثبت أن ما فيه من عموم رسالته وأنه رسولٌ إليهم ليس[5] فيه شيءٌ يناقضه؛ فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض.

---

(١) (ي، ع): «كان» موضع «قيل لهم»، وفي طرة (د) إشارة إلىٰ أنها في نسخة.
(٢) البيت للمتنبي في ديوانه (٢١٦).
(٣) (د، ي، ع): «من»، وضرب عليها في (ي).
(٤) (ع): «جاء به»، وألحقت «به» في (ت).
(٥) ط. العاصمة: «فليس»، وهو خطأ مخالف للأصول.

الرابع: أنَّا نبيِّن أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافي ما فيه من أنه أُرسِل إلىٰ العرب، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين وأمر قريش لا ينافي ما فيه من دعوة سائر العرب؛ فإن تخصيص بعض العامِّ بالذِّكر إذا كان له سببٌ يقتضي التَّخصيص لم يدلَّ علىٰ أن ما سوىٰ المذكور يخالفه[1]، وهذا الذي يسمىٰ «مفهوم المخالفة» و«دليل الخطاب».

والنَّاس كلُّهم متَّفقون علىٰ أن التخصيص بالذِّكر متىٰ كان له سببٌ يوجب الذِّكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن للاسم[2] اللقب مفهوم، بل ولا للصِّفة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فإنه نهاهم عن ذلك لأنه هو الذي كانوا يفعلونه، وقد حرَّم في موضعٍ آخر قتل النفس بغير حقٍّ، سواء كان ولدًا أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضًا لتخصيص الولد بالذِّكر[3].

الخامس: أنه في ذلك أسوةُ المسيح[4] عليه السلام؛ فإن المسيح خصَّ أوَّلًا بالدَّعوة، ثم عَمَّ.

كما قال[5] في الإنجيل: «ما بُعِثت وأُرسِلت إلا لبني إسرائيل»، وقال أيضًا في الإنجيل: «ما بُعِثت إلا لهذا الشَّعب الخبيث»[6].

ثم عَمَّ، فقال لتلامذته حين أرسلهم كما في الإنجيل: «كما بعثني

---

(١) (ت، ي، و): «مخالفه».

(٢) (ت): «لاسم». وكلاهما صحيح.

(٣) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٤٦٤)، و«منهاج السنة» (٧/ ٣٣١)، و«الاستقامة» (١/ ٢٩٤)، و«الرد علىٰ البكري» (٢/ ٤٦١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ١٣٨).

(٤) أي: مثله. وفي ط. العاصمة: «أسوة بالمسيح» خلاف الأصول.

(٥) ط. العاصمة: «قيل» خلاف الأصول.

(٦) في إنجيل متىٰ (١٥: ٢٤): «لم أرسل إلا إلىٰ خراف بيت إسرائيل الضالة»، ونحوه في (١٠: ٦).

أبي أبعثُ بكم، فمن قَبِلكم فقد قَبِلني»[(١)].

وقال[(٢)]: «أرسلني أبي، وأنا أرسلكم»[(٣)].

وقال[(٤)]: «كما أفعل أنا بكم، كذلك افعلوا أنتم بعباد الله، فسِيروا في البلاد، وعمِّدوا النَّاس باسم الأب والابن والروح القُدُس، ولا يكون لأحدكم ثوبان، ولا يحمل معه فضَّةً ولا ذهبًا ولا عصًا ولا حذاءً[(٥)]».

ونحو ذلك ممَّا هو في الأناجيل التي بين أيديهم من تخصيص الدَّعوة ثمَّ تعميمها، وهو صادقٌ في ذلك كلِّه، فكيف يسوغ لهم إنكار ما في الإنجيل عن المسيح نظيرُه؟!

ثم يقال في بيان الحال: إن الله تعالىٰ بعث محمَّدًا ﷺ كما بعث المسيح وغيره، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل[(٦)] -كما يُذْكَر[(٧)] في موضعه-، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلىٰ طائفةٍ بعد طائفة، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكانًا ونسبًا، ثم بتبليغ طائفةٍ بعد طائفة، حتىٰ تبلغ النِّذارة إلىٰ جميع أهل الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: من بلغه القرآن، فكلُّ من بلغه القرآن فقد أنذره محمَّدٌ ﷺ.

---

(١) إنجيل متىٰ (١٠: ٤٠)، إنجيل يوحنا (١٣: ٢٠).

(٢) في طرة (د) إشارة إلىٰ أن في نسخة: «وقد» موضع «وقال».

(٣) إنجيل يوحنا (٢٠: ٢١).

(٤) إنجيل متىٰ (٢٨: ١٦- ٢٠)، إنجيل لوقا (٩: ٣).

(٥) مهملة في (ي، و)، (ت، ع، د): «حذا»، وفي طرة (ت) بقلم حديث: «حرابة»، وأثبت به في ط. النيل والعاصمة، وهو خطأ. وفي إنجيل لوقا: «خبزًا». والمثبت من الأصول يوافق ما في إنجيل برنابا (٢٥: ١٦- ١٨): «فليكفكم إذن ثوبٌ واحد، ارموا كيسكم، لا تحملوا مزودًا ولا حذاءً في أرجلكم».

(٦) (ع، د): «وأشهر»، تحريف.

(٧) (ي): «نذكر».

وتبيَّن[1] هنا أن النِّذارة ليست مختصَّةً بمن شافههم بالخطاب، بل ينذرهم به وينذر من بَلَغهم القرآن، فأمره الله ﷻ أوَّلًا بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولمَّا أنزل الله عليه هذه الآية انطلق ﷺ إلىٰ مكانٍ عالٍ فَعَلا عليه، ثم جعل ينادي: **«يا بني عبد مناف، إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ رأىٰ العدوَّ، فانطلق يَرْبَأ[2] أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه، يا صباحاه»**[3].

وهذه القصَّة رواها ابن عبَّاس، وأبو هريرة، وعائشة، وغيرهم في الصَّحيحين وغيرهما من كتب السُّنن والمسانيد والتفسير.

قال ابن عباس: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ **(ورهطك منهم المخلصين)**[4]، خرج رسول الله ﷺ حتىٰ صَعِد الصَّفا، فجعل ينادي: **«يا بني فِهْر، يا بني عَدِيّ»** -لِبُطون قريش- حتىٰ اجتمعوا، فجعل الرَّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو؟ فاجتمعوا إليه، فقال: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تريد أن تُغِير عليكم، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟»** قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا، ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: **«فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد»**[5].

---

(١) مهملة في (ي)، (و): «ويبين».

(٢) (ت، ع): «يريد». وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة. ويربأ أهله: أي يحفظهم من عدوهم، والربيئة: الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو. «النهاية» (ربأ).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٧) من حديث قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) قال القرطبي (١٦/ ٨٣): «ظاهر هذا أنه كان قرآنًا يتلىٰ، وأنه نُسِخ، إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتَر». وانظر: «إكمال المعلم» (١/ ٥٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

وقال أبو هريرة: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعَمَّ وخَصَّ، فقال: «**يا بني كعب بن لؤيٍّ أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد منافٍ أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمَّد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحمًا سَأَبُلُّها بِبَلالها**»[1].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ علىٰ الصَّفا، فقال: «**يا فاطمة بنت محمَّد، يا صفيَّة عمَّة رسول الله، يا عباس عمَّ رسول الله لا أملك لكم من الله شيئًا**»[2].

وقال ابن إسحاق[3]: لمَّا نزلت هذه الآية جعل النبي ﷺ ينادي: «**يا بني عبد المطَّلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة**»، حتىٰ عدَّد الأفخاذ من قريش، ثم قال: «**إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملكُ لكم من الله شيئًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله**»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟! تبًّا لك سائر اليوم، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ - ٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥).

(٣) لم أقف عليه من طريقه. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٦٩) من حديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ودعا قريشًا إلىٰ الله، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ١ - ٣].

وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمرَ جميع الخلق بعبادته، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقريشٌ هم قومه الذين كذَّبه جمهورهم أولًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، كما أن جمهور بني إسرائيل وهم قوم المسيح كذَّبوه أولًا.

ثم أمره الله تعالىٰ أن يدعو سائر العرب، فكان يخرُج بنفسه ومعه[١] أبو بكرٍ صِدِّيقُه إلىٰ قبائل العرب قبيلةً قبيلة، وكانت العرب لم تزل تحجُّ البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، فكان ﷺ يأتيهم في منازلهم بمنًىٰ، وعُكاظ، ومَجَنَّة، وذي المَجَاز، فلا يجد أحدًا إلا دعاه إلىٰ الله، ويقول: «**يا أيها النَّاس، إني رسول الله إليكم[٢]، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما يُعْبَد من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدِّقوني وتمنعوني حتىٰ أبيِّن عن الله ما بعثني به، يا أيها النَّاس إن قريشًا منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي، فمن يمنعني لأبلِّغ[٣] كلام ربِّي؟ ألا رجلٌ يحملني إلىٰ قومه؟ فإن قريشًا منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي، يا أيها النَّاس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملِكوا بها العرب، وتَذِلُّ لكم**

(١) ليست في (د، ع).
(٢) ليست في (ع، و، د). وفي (ي): «إليكم جميعًا».
(٣) (ت، و): «أن أبلغ».

بها العجم» فيقولون: يا محمَّد، أتريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن أمرك هذا لعجب[١].

وما زال رسول الله ﷺ يُعْلِن دعوته، ويُظْهِر رسالته، ويدعو الخلق إليها، وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلِّمونه، ويردُّون عليه بأقبح الرَّدِّ، وهو صابرٌ علىٰ أذاهم، ويقول: «**اللهمَّ لك الحمد، لو شئتَ لم يكونوا هكذا**»[٢].

فلمَّا اشتدَّ عليه أمرُ قريش خرج إلىٰ الطَّائف -وهي مدينةٌ معروفةٌ شرقيَّ مكة بينهما نحو ليلتين- ومعه زيد بن حارثة، ومكث بها عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه في منزله وكلَّمه ودعاه إلىٰ التوحيد، فلم يُجِبْه أحدٌ منهم، وخافوه علىٰ أحداثهم، وأغرَوا به سفهاءهم[٣]، فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشىٰ، حتىٰ إن رجليه لتَدْمَيان، وزيدٌ مولاه يَقِيه بنفسه، حتىٰ ألجؤوه[٤] إلىٰ ظلِّ كَرْمةٍ في حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فرجع عنه من كان[٥] تبعه من سفهائهم، فدعا، فقال: «**اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي وقلَّة حيلتي وهواني علىٰ النَّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلىٰ عدوٍّ ملَّكتَه أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ**

---

(١) لم أجده مجموعًا بهذا السياق. وأخرج صدره وبعض آخره ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٨٤) من طريق الواقدي. وأخرج قوله: «هل من رجل يحملني إلىٰ قومه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» أحمد (١٥١٩٢)، وابن ماجه (٢٠١)، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥) من حديث جابر رضي الله عنه بسند صحيح. وأخرج آخره ابن إسحاق (١/ ٤١٧- سيرة ابن هشام) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جزء من الحديث السابق عند ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٨٤).

(٣) (ت): «فأغروا سفهاءهم».

(٤) ط. العاصمة: «ألجأوا» خلاف الأصول.

(٥) (ي، ت، و): «ما كان».

عليَّ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلمَّا رأىٰ ابنا ربيعة ما صُنِع به رَثَيا له، وقالا لغلامٍ لهما يقال له: عَدَّاس - وكان نصرانيًّا-: خذ قِطفًا من عنب، ثم اجعله في طبق، ثم اذهب إلىٰ ذلك الرَّجل يأكله، ففعل عَدَّاس، وأقبل به حتىٰ وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلمَّا وضع رسول الله ﷺ يده، قال: «**بسم الله**»، ثم أكل، فنظر عَدَّاس إلىٰ وجهه، ثم قال له: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «**من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟**»، فقال عَدَّاس: أنا نصرانيٌّ، وأنا رجلٌ من أهل نِينَوىٰ، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمن قرية الرجل الصَّالح يونس بن متَّىٰ؟**»، فقال له عَدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متَّىٰ؟ والله لقد خرجت من نِينَوىٰ وما فيها عشرةٌ يعرفون متَّىٰ، من أين عرفت أنت متَّىٰ وأنت أميٌّ وفي أمَّةٍ أمِّيَّة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هو أخي، كان نبيًّا، وأنا نبيٌّ**»، فأكبَّ عَدَّاس علىٰ رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ويديه ورجليه، فلمَّا رجع عَدَّاس فقالا: ويلك يا عَدَّاس، مالك تقبِّل رأس هذا الرَّجل ويديه ورجليه[1]، فقال: يا سيِّدي، ما في الأرض خيرٌ من هذا الرَّجل[2]، لقد أخبرني بأمرٍ لا يعلمه إلا نبيٌّ[3].

---

(١) «ويديه ورجليه» ليست في (د، ع).

(٢) ليست في (ي، د، ع).

(٣) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٦٠- ٦٣) من حديث ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمَّد بن كعب القرظي مرسلًا، ومن طريقه ابن جرير في التاريخ (٢/ ٣٤٤)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٥٠١).

وله شواهد تقويه من مرسل الزهري عند البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٣)، ومرسل عروة بن الزبير عند أبي نعيم في «دلائل النبوة» (٢٩٥)، ومرسل سليمان التيمي عند ابن منده في «المستخرج من كتب النَّاس للتذكرة» (١/ ٧٣). =

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلىٰ مكة وهو محزونٌ، إذ[1] لم يستجب له رجلٌ واحدٌ ولا امرأة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل[2] عليهم يا رسول الله وقد فعلوا وفعلوا؟! فقال: «**يا زيد، إن الله ﷻ جاعلٌ لما ترىٰ فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصرٌ دينَه ومُظْهِرٌ نبيَّه**»[3].

ثم ذكر ابن إسحاق[4] دخوله إلىٰ مكة، وكان رسول الله ﷺ لمَّا لقي من أهل مكة والطائف ما لقي، ودعا بالدُّعاء المتقدِّم، نزل عليه جبريل ومعه مَلَكُ الجبال، كما في «صحيح البخاري»[5] أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت للنبيِّ ﷺ: هل أتىٰ عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ، فإذا فيها جبريل، فناداني: إن الله قد سمع قول قومك وما رَدُّوا عليك، وقد بعَث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم**». قال: «**فناداني مَلَكُ الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمَّد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال قد بعثني**

= وأخرج الدعاء والخبر مختصرًا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٧٣)، و«الدعاء» (١٠٣٦) بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، وخرجه الضياء في «المختارة» (٩/ ١٨١). وانظر تتمة تخريجه في التعليق علىٰ «الوابل الصيب» (١١٥-١١٦).

(١) ليست في (و)، وألحقت في (ت، ي).

(٢) (ع): «ندخل».

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٨٠) من طريق الواقدي عن محمد بن جبير بن مطعم مرسلًا.

(٤) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٦٣).

(٥) (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

ربُّك[1] إليك لتأمرني بأمرك، إن شئتَ أن أُطْبِق عليهم الأَخْشَبَيْن»، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا شريك له[2]».

وأخرج مسلمٌ في صحيحه[3] عن أبي هريرة: أنه قيل للنبيِّ ﷺ: ادعُ الله علىٰ المشركين، فقال: «**إني لم أُبْعَث لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رحمة**».

وفي الصَّحيحين[4] عن خبَّاب بن الأَرَتِّ، أنه قال: لمَّا اشتدَّ البلاء علينا من المشركين أتينا النبيَّ ﷺ، فقلنا: ألا تدعُ الله لنا؟ ألا تَستنصِرُ الله لنا؟ فقال: «**لقد كان من قبلكم يؤخذُ الرجلُ فيُحْفَرُ له في الأرض، ثم يُجَاء بالمنشار فيُجْعَل فوق رأسه حتىٰ يُجْعَل فِرْقتين، ما يَصْرِفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديد ما دون لحمه من عظمٍ وعَصَب، ما يَصْرِفه ذلك عن دينه، وليُتِمَنَّ الله هذا الأمر حتىٰ يسير الرَّاكبُ من صنعاء إلىٰ حضرموتَ لا يخشىٰ إلا الله، ولكنَّكم تستعجلون**».

وذَكَر[5] ما لقي النبيُّ ﷺ من قومه من الأذىٰ والاستهزاء والإغراء، وهو صابرٌ محتسِب، مُظْهِرٌ لأمر الله، مبلِّغٌ[6] رسالتَه، لا تأخذه في الله لومةُ لائم، مواجهٌ لقومه بما يكرهون مِن عَيْبِ دينهم وآلهتهم، وتضليل آبائهم، وتسفيه أحلامهم، وإظهار عداوتهم[7]، وقتاله إيَّاهم = ما بلغ مبلغَ القطع.

---

(١) (د، ع): «ربي».

(٢) كذا في الأصول، وهي رواية في مستخرج أبي عوانة (١٤/ ٥٤٢). ورواية الصحيحين: «لا يشرك به»، وسترد كذلك في آخر الكتاب (٤/ ٥٣٦).

(٣) (٢٥٩٩).

(٤) صحيح البخاري (٣٦١٢) وهو من أفراده كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣/ ٣٦٣).

(٥) ابن إسحاق.

(٦) (ي، و): «بتبليغ».

(٧) (و): «عداوته».

قال عكرمة، عن ابن عباس: ولمَّا رجع النبيُّ ﷺ إلىٰ مكة، فلمَّا[1] حضر الموسمُ حجَّ نفرٌ من الأنصار، فانتهىٰ النبيُّ ﷺ إلىٰ فريقٍ منهم، فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلىٰ الله، وأخبرهم بالذي آتاه الله، فأيقنوا واطمأنَّت قلوبهم إلىٰ دعوته، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب مِن ذكرِهم إيَّاه بصفته وما يدعوهم إليه، فصدَّقوه وآمنوا به، وكان من أسباب الخير الذي ساق اللهُ للأنصار[2] ما كانوا[3] يسمعون من الأخبار في صفته، فلمَّا رجعوا إلىٰ قومهم جعلوا يدعونهم سرًّا، ويخبرونهم بأقوال[4] رسول الله ﷺ والذي بعثه الله به من النُّور والهدىٰ والقرآن، فأسلموا، حتىٰ قَلَّ[5] دارٌ من دُورِهم إلا أسلم فيها ناسٌ لا محالة[6].

وقد[7] ذكر الله ذلك في القرآن، وأخبر أن أهل الكتاب كانوا يخبرون به العربَ ويَسْتَفْتِحون به عليهم، فكان أهل الكتاب مُقِرِّين بنبوَّته، مخبرين بها

---

(١) ليست في (ي، د، ع).

(٢) (و): «ساق الله به الأنصار».

(٣) أي: أن ما سمعه الأنصار من أهل الكتاب من صفة النبي ﷺ كان من أسباب إيمانهم وما ساق الله لهم من الخير. وفي (ت): «إلىٰ ما كانوا». والعبارة مختلفة في المصادر التالية، ورواية البيهقي: «فلما سمعوا قوله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلىٰ ما سمعوا منه، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فصدقوه واتبعوه، وكانوا من أسباب الخير الذي سُبِّبَ له ﷺ».

(٤) (د، ع): «بأحوال»، وكُتِبت في طرة (ت) بغير خط النَّاسخ.

(٥) زيد في (و) فوق السطر: «أن يوجد»، وليست في سائر الأصول والمصادر.

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٣٦٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٠٦) من حديث ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير مرسلًا، وفي سنده ضعف. انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٠). ومن مرسل الزهري، أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٣٠).

(٧) (ع، د): «قال وقد».

مبشِّرين بها قبل أن يُبْعَث، فقال تعالىٰ فيما يخاطبُ[1] به أهل الكتاب: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨٧ - ٩١].

فقد أخبَر تعالىٰ أن أهل الكتاب كانوا يَسْتَفْتِحون علىٰ العرب بمحمَّد ﷺ قبل أن يُبْعَث، أي يستنصِرون به، وكانوا هم والعرب يقتتلون، فتغلبُهم العرب، فيقولون: سوف يُبْعَثُ النبيُّ الأميُّ من ولد إسماعيل فنتَّبعه ونقتلكم معه شرَّ قِتْلة، وكانوا ينعتونه بنعوته، وأخبارهم بذلك كثيرةٌ متواترة، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وأخبَر بما كانت عليه اليهود من أنه كلَّما جاءهم رسولٌ[2] بما لا تهوىٰ أنفسهم كذَّبوا بعضهم وقتلوا بعضهم.

---

(١) (د، ع): «خاطب».

(٢) ط. العاصمة: «رسول الله» خلاف الأصول.

وأخبَر أنهم باءوا بغضبٍ علىٰ غضب؛ فإنهم ما زالوا يفعلون ما يُغْضِب الله عليهم:

فإما أن يراد بالتَّثنية [تكرُّرُ] غضب الله عليهم[1].

وإما أن يراد به مرَّتان، والغضبُ الأول تكذيبهم للمسيح والإنجيل، والغضبُ الثاني لمحمَّد والقرآن[2].

---

(١) فهو غضبٌ بعد غضب بحسب تكرُّر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وليس المراد التثنية التي تشفع الواحد. انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٣٦).
وزادت ط. النيل وتبعتها المطبوعات: «تأكيد» قبل «غضب الله» وليست في الأصول، وزيادة «تكرُّر» أشبه بالصواب.

(٢) هذا آخر الجزء الأول من الأصل (ت)، وهو آخر ما وصلنا منه.



فصل

وكان يأتيهم بالآيات الدَّالة علىٰ نبوَّته ﷺ، ومعجزاتُه تزيد علىٰ ألف معجزة[1]، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المُعْجِز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهَّان والهَواتِف به، ومثل قصَّة الفيل التي جعلها الله آيةً عام مولده، وما جرىٰ عام مولده من العجائب الدَّالة علىٰ نبوَّته، ومثل امتلاء السَّماء ورميها بالشُّهُب التي تُرْجَمُ بها الشَّياطين بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه، ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحدٌ إلا بتعليم الله ﷻ من غير أن يعلِّمه إيَّاها بشر، فأخبرهم بالماضي مثل قصَّة آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم، وبالمستقبَلات.

وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلَّم من أهل الكتاب ولا غيرهم، ولم يكن بمكَّة أحدٌ من علماء أهل الكتاب ممَّن يتعلَّم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحدٍ منهم يعرفُ اللِّسان العربيَّ، ولا كان هو يُحْسِنُ لسانًا غير العربيِّ، ولا كان يكتب كتابًا، ولا يقرأ كتابًا مكتوبًا.

ولا سافر قبل نبوَّته إلا سَفرتين:

سفرةٍ وهو صغيرٌ مع عمِّه أبي طالب، لم يفارقه، ولا اجتمع بأحدٍ من أهل الكتاب ولا غيرهم.

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٢١٢).

وذكر النووي في مقدمة «شرح مسلم» (١/ ٢) أن معجزات النبي ﷺ تزيد علىٰ الألف والمئين، وفي «تهذيب الأسماء» (١/ ٣٣): «تبلغ ألوفًا». وقال البيهقي: بلغت ألفًا، وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر علىٰ يديه ألف معجزة، وقيل: ثلاثة آلاف. انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٨٢)، و«الشفا» للقاضي عياض (٣١٣، ٤٦٤).

وسفرةٍ أخرىٰ وهو كبيرٌ مع رَكْبٍ من قريش، لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحدٍ من أهل الكتاب.

وأخبَر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوَّته، مثل إخبار بَحِيرَا الرَّاهب بنبوَّته وما ظهر لهم منه ممَّا دلَّهم(١) علىٰ نبوَّته، ولهذا تزوَّجت به خديجة(٢) قبل نبوَّته لِمَا أُخْبِرَت به من أحواله.

وهذه الأمور مبسوطةٌ في موضعٍ آخر(٣).

ولكن المقصود هنا التنبيه بأن محمَّدًا ﷺ له معجزاتٌ كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرَّة(٤)، ومثل تكثيرِ الطعام القليل حتىٰ أكل منه الخلقُ العظيم(٥)، وتكثيرِ الماء القليل حتىٰ شرب منه الخلقُ الكثير، وهذا قد جرىٰ غير مرَّةٍ له(٦).

ولأمَّته من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيي الله له الموتىٰ من النَّاس والدَّوابِّ(٧)، وبعض أتباعه يمشي بالعسكر الكثير علىٰ البحر حتىٰ

---

(١) (و): «ما دلهم».
(٢) (د، ع): «خديجة بنت خويلد».
(٣) سيأتي الكلام عليها في آخر الكتاب.
(٤) أخرجه البخاري (١٦٩، ٣٥٧٩، ٤١٥٢) من حديث أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله ﵃.
(٥) أخرجه البخاري (٢٦١٨، ٣٥٧٨، ٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩، ٢٠٤٠، ٢٠٥٦) من حديث أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر ﵃.
(٦) أخرجه البخاري (٣٤٤، ٣٥٧٧)، ومسلم (٦٨١، ٦٨٢، ١٧٢٩) من حديث البراء بن عازب وسلمة بن الأكوع وعمران بن حصين ﵃.
(٧) كما وقع لصلة بن أشيم وغيره. انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٢٢٥)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٤٩، ٥٠).

يعبُروا إلىٰ الناحية الأخرىٰ[1]، ومنهم من ألقي في النار فصارت عليه بردًا وسلامًا[2]، وأمثال ذلك كثير[3].

ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما في القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرًا مفصَّلًا لا يعلمه أحدٌ إلا أن يكون نبيًّا أو مَن أخبره نبيٌّ، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحدٌ من البشر، وهذا ممَّا قامت به الحجَّة عليهم، وهم مع قوَّة عداوتهم له وحرصهم علىٰ ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنًا يُقْبَل منهم، وكان علمُ سائر الأمم بأن قومه المُعَادِين له المجتهدين في الطعن عليه وهم[4] لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علَّمه إيَّاها[5] بشرٌ يوجبُ[6] علىٰ جميع الخلق[7] أن يتحقَّقوا[8] أن هذا لم يعلِّمه إيَّاها بشر.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه، وقومه تُقِرُّ بذلك، ولم يتعلَّم من أحدٍ غير قومه.

ولهذا لمَّا[9] زعم بعضهم أنه تعلَّم من بشرٍ ظهر كذبُه لكلِّ أحد، كما قال

---

(١) كما جرىٰ للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه وغيره. انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ٥٤، ٣١٠-٣١٧).

(٢) كما تقدم في قصة أبي مسلم الخولاني (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٢١٣- ٢٢٩).

(٤) ليست في (و).

(٥) (و): «علمها إياه».

(٦) الجملة الفعلية خبر كان. وفي (و): «فوجب».

(٧) (د، ع): «علىٰ علم جميع الخلق».

(٨) «أن يتحققوا» كتبت في (و) فوق السطر، وليست في باقي الأصول.

(٩) ساقطة من ط. العاصمة.

تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٣].

وكان بمكة رجلٌ أعجميٌّ مملوكٌ لبعض قريش، فادَّعىٰ بعض النَّاس أن محمَّدًا كان يتعلَّم من ذلك الأعجميِّ[1]، فبيَّن الله أن هذا كذبٌ ظاهر، فإن ذلك رجلٌ أعجميٌّ لا يمكنه أن يتكلَّم بكلمةٍ من هذا القرآن العربيِّ، ومحمَّدٌ ﷺ عربيٌّ لا يعرف شيئًا من ألسنة العجم، فمن كلَّمه بغير العربية لا يفقه كلامَه، فلا ذاك الرجلُ يُحْسِنُ التكلُّم بالعربية، ولا محمَّد ﷺ يفهم كلامًا بغير العربية، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي[2]: يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علَّم محمَّدًا ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وكذلك قال بعض النَّاس عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤ - ٦].

(١) ط. النيل: «الرجل الأعجمي»، وفي طرة (د) أنها كذلك في نسخة.
(٢) ليست في (ي).

فبيَّن سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلًا عن أوليائه، فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحدٌ يُعِينه علىٰ ذلك، وليس في قومه ولا في بلده من يُحْسِنُ ذلك ليُعِينَه عليه؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ فإن جميع أهل بلده وقومه المُعَادِين له يعلمون أن هذا ظلمٌ له وزورٌ، ولهذا لم يقل هذا أحدٌ من عقلائهم المعروفين.

وكذلك قولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فإن قومه المكذِّبين له[1] يعلمون أنه ليس عنده من يُمْلِي عليه كتابًا.

وقد بيَّن ما يُظْهِر كذبَهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فإن في القرآن من الأسرار ما لا يَعْلَمه بشرٌ إلا بإعلام الله إيَّاه، فإن الله يعلم السِّرَّ في السماوات والأرض.

ثم لمَّا تبيَّن[2] بطلان قولهم هذا ذكر ما قَدَحوا به في نبوَّته، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨] فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيَه في الأسواق التي يُبَاع فيها ما يؤكَل وما يُلْبَس، وقالوا: هلَّا أُنْزِل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيرًا، أو يستغنيَ عن ذلك بكنزٍ ينفقُ منه أو جنَّةٍ يأكل منها، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

---

(١) ط. النيل: «المعادين له».

(٢) في طرة (د) إشارة إلىٰ أن في نسخة: «بيَّن».

قال تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، يقول: مثَّلوك بالكاذب وبالمسحور[(١)] والناقل عن غيره، وكلُّ من قال[(٢)] هذه الأقوال يَظْهَر كذبُه[(٣)] لكلِّ من عرفك.

ولهذا قال تعالىٰ ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، والضَّالُّ: الجاهل العادل عن الطريق، فلا يستطيع الطريقَ الموصلة إلىٰ المقصود، بل ظهر عجزُهم وانقطاعُهم في المناظرة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، فإنه أتاهم بجَلِيَّة[(٤)] ما في الصُّحف الأولىٰ[(٥)]، كالتَّوراة والإنجيل، مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئًا، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبيٌّ أو من أخبره نبيٌّ، وهم يعلمون أنه لم يَعْلَم ذلك بخبر أحدٍ من الأنبياء، تبيَّن لهم أنه نبيٌّ، وتبيَّن ذلك لسائر الأمم؛ فإنه إذا كان قومه المُعَادِين[(٦)] له وغير المُعَادِين له مُقِرِّين بأنه لم يجتمع بأحدٍ يعلِّمه ذلك صار هذا منقولًا بالتواتر، وكان ممَّا أقرَّ به مخالفوه مع حرصهم علىٰ الطَّعن لو أمكن.

فهذه الأخبار بالغيوب المتقدِّمة قامت بها الحجَّة علىٰ قومه وعلىٰ جميع من بَلَغه خبرُ ذلك.

---

(١) ط. العاصمة: «والمسحور» خلاف الأصول.
(٢) من ط. النيل، وليست في سائر الأصول.
(٣) (ي): «كذبها».
(٤) (ع): «جملية»، (د): «جلية»، وهي مهملة في (ي)، والمثبت من ط. النيل.
(٥) من قوله: «فإنه أتاهم» إلىٰ هنا ساقط من (و) لانتقال نظر الناسخ.
(٦) كذا في الأصول، وفي ط. النيل: «المعادون»، وهي الجادة.

وقد أخبَر بالغيوب المستقبَلة، وهذه تقوم بها الحجَّة علىٰ من عرفَ تصديقَ ذلك الخبر، كما قال تعالىٰ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، ثم قال: ﴿وَهُم[1] مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الرُّوم: ١ - ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤]، فأخبر أنهم لن يفعلوا[2] ذلك في المستقبل، وكان كما أخبَر.

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فأخبَر أنه لا يقْدِر الإنسُ والجنُّ إلىٰ يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا الخبر قد مضىٰ له أكثر من سبعمئة سنة، ولم يقدر أحدٌ من الإنس والجنِّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وقال عن الكفار وهو بمكة: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وظهر تصديقُ ذلك يوم بدرٍ وغيره بعد[3] ذلك بسنين كثيرة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ

---

(١) ط. العاصمة: «الم غلبت الروم في أدنىٰ الأرض وهم»، خلاف الأصول.
(٢) (و): «لم يفعلوا»، وهو خطأ.
(٣) (و): «وبعد»، وهو خطأ كسابقه، وأثبتته ط. العاصمة.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥]، وكان الأمر كما وَعَده، وظهر تصديقُ ذلك بعد سنين كثيرة.

وكذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨]، فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان، واليد والسِّنان.

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، فكان كما أخبرهم، غُلِبوا في الدنيا، كما شاهده النَّاس، وهذا يصدِّق الخبر الآخَر(١) وهو أنهم يُحْشَرون إلىٰ جهنَّم وبئس المهاد.

وقد أيَّده تأييدًا لا يؤيَّد به(٢) إلا الأنبياء، بل لم يؤيَّد أحدٌ من الأنبياء كما أُيِّد به(٣)، كما أنه بُعِث بأفضل الكتب إلىٰ أفضل الأمم بأفضل الشَّرائع، وجعله سيِّد ولد آدم ﷺ.

فلا يُعْرَف قطُّ أحدٌ ادَّعىٰ النبوَّة وهو كاذبٌ إلا قطع الله دابرَه، وأذلَّه، وأظهر كذبه وفجورَه.

وكلُّ من أيَّده الله من المدَّعين للنبوَّة لم يكن إلا صادقًا، كما أيَّد نوحًا وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وداود وسليمان، بل وأيَّد شعيبًا وهودًا وصالحًا؛ فإن سنة الله أنه(٤) ينصرُ رسلَه والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وهذا هو الواقع.

---

(١) (و): «الأخير».

(٢) ط. النيل: «لا يؤيِّده».

(٣) ليست في (د، ع، ي). وفي ط. النيل: «كما أيده».

(٤) (و، ع): «أن»، وأصلحت في (د).

فمن كان لا يَعْلَم ما يفعله الله إلا بالعادة، فهذه عادة الله وسنَّته يُعْرَفُ[1] بها ما يَصْنَع، ومن كان يعلم ذلك بمقتضىٰ حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيِّد من ادَّعىٰ النبوَّة وكذب عليه تأييدًا لا يمكن أحدًا معارضته.

وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذَّاب لا يُتِمُّ الله أمرَه، ولا ينصره، ولا يؤيِّده[2].

فصار هذا معلومًا من هذه الجهات.

ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية مِن جعلِ العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممَّن كذبهم وعصاهم.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا بِالْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ

(١) مهملة في (ي). ط. النيل: «تعرف».

(٢) (ي، د): «ويؤيده».

أَهۡلَكۡتُهَا(1) وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الرُّوم: ٩- ١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤ - ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١ - ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ

---

(١) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعصره.

بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٢-١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا[1] يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء: ٥-٦]، فأخبر أن المكذِّبين له سيأتيهم في المستقبل أخبارُ القرآن الذي استهزؤوا به، وبيَّن أن ما أخبرهم به حقٌّ بوقوع المُخْبَرِ[2] مطابقًا للخبر، وكان الأمر كذلك.

ومثله قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، أخبر أنه سيريهم في أنفسهم وفي الآفاق ما يبيِّن أن القرآن حقٌّ، بأن يروا ما أخبَر به كما أخبَر به، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإنه قد شَهِد[3] للقرآن بأنه حقٌّ بالآيات البينات والبراهين الدَّالة علىٰ صدقه التي تتبيَّن بشهادة الربِّ بأنه حقٌّ، فلا يحتاج مع الشَّهادة الحاضرة إلىٰ انتظار الآيات المستقبَلة.

---

(١) في الأصول: «ما»، وهو سهو، أو أراد الاستشهاد لا التلاوة. وفي الآية الأخرىٰ في سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

(٢) ط. العاصمة: «الخبر»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) ط. النيل والعاصمة: «يشهد»، والمثبت من الأصول.

وقال تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ١ - ٥]، أخبَر باقتراب السَّاعة، وانشقاقِ القمر، وانشقاقُ القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار(١)، وكان النبيُّ ﷺ يقرأ هذه السُّورة في المَجامع الكبار مثل الجُمَع والأعياد(٢)؛ ليسمع النَّاس ما فيها من آيات النبوَّة ودلائلها والاعتبار، وكلُّ النَّاس يُقِرُّ ذلك ولا ينكره، فعُلِم أن انشقاق القمر كان معلومًا عند النَّاس عامَّة.

ثم ذكر حال الأنبياء ومكذِّبيهم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩ - ١٥]، فأخبر أنه أبقىٰ السُّفن آيةً علىٰ قدرة الربِّ وعلىٰ ما جرىٰ لنوح مع قومه.

ثم قال: فكيف كان عذابي لمن كذَّب ونُذُرِي؟!

وكذلك ذكر قصَّة عادٍ وثمود ولوط وغيرهم، يقول في عقب كلِّ قصَّة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ونُذُره: إنذارُه(٣)، وهو ما بلَّغته عنه الرُّسل من الإنذار، وكيف كانت عقوبته للمُنْذَرين، والإنذار هو الإعلام بالمَخُوفِ؛ فتبيَّن بذلك صدقُ ما أخبرت به الرُّسل من الإنذار وشدَّة عذابه لمن كذَّب رسله.

---

(١) انظر: «نظم المتناثر» للكتاني (٢١١-٢١٢).

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) (و): «وإنذاره»، وهو خطأ، واختارته ط. العاصمة.

وذكر قصَّة فرعون فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤١ - ٤٥].

وذكر في قصَّة محمَّد ﷺ مع النَّاس أنواعًا من ذلك، فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ - ٤].

ومثل هذا كثيرٌ في القرآن مِن ذكرِ دلائل النبوَّة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه، وإنما المقصود هنا التنبيه علىٰ جنس[1] ذلك.

وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نَصَر فرعونَ ونُمْرُودَ وسِنْحَارِيبَ وجَنْكِسخَان وغيرهم من الملوك الكافرين = جوابُه ظاهر؛ فإن هؤلاء لم يدَّعِ أحدٌ منهم النبوَّة، وأن الله أمره أن يدعو إلىٰ عبادة الله[2] وطاعته،

(١) (و): «جزء».
(٢) ط. النيل: «عبادته».



ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، بخلاف من ادَّعىٰ أن الله أرسله بذلك، فإنه لا يكون إلا رسولًا صادقًا ينصره الله ويؤيِّده، وينصر أتباعَه ويجعل العاقبة لهم، أو يكون كذابًا فينتقم الله منه ويقطع دابره، ويتبيَّن أن ما جاء به[1] ليست من الآيات والبراهين التي لا تقبل المعارضة، بل هي من جنس مَخَارِق السَّحرة والكهَّان والكذَّابين التي تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصِّها أنه لا يقدر أحدٌ أن يعارضها ويأتي بمثلها، بخلاف غيرها، فإن معارضتَها ممكنةٌ، فتبطل[2] دلالتها.

والمسيح الدَّجَّال يدَّعي الإلهية، ويأتي بخوارق، ولكن نفس دعواه الإلهية دعوىٰ ممتنعةٌ في نفسها، ويرسل الله عليه المسيحَ ابن مريم فيقتله ويُظْهِر كذبَه، ومعه ما يدلُّ علىٰ كذبه من وجوه:

منها: أنه مكتوبٌ بين عينيه «كافر».

ومنها: أنه أعور، والله ليس بأعور.

ومنها: أن أحدًا لن يرىٰ ربه حتىٰ يموت.

ويريد أن يقتل الذي قتله أولًا، فيعجز عن قتله.

فمعه من الدَّلائل الدَّالة علىٰ كذبه ما يبيِّن أن ما معه ليس آيةً علىٰ صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء، فإنه لا يمكن أحدًا من الإنس والجنِّ أن يأتي بنظيرها ولا يبطلها، مثل قلب العصا حيَّةً لموسىٰ، وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتىٰ للمسيح، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمَّدٍ ﷺ.

فإن المشركين لمَّا سألوا النبيَّ ﷺ آيةً واقترحوا عليه انشقاق القمر،

---

(١) ط. العاصمة: «جاءه به»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٢) مهملة في (ي)، (د، و): «فيبطل».

فأراهم ذلك، وقد أخبر الله تعالىٰ بذلك في القرآن، فقال تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ١ - ٧].

ثم ذكر تعالىٰ ما جرىٰ قبله للمكذِّبين مع رسلهم(١)، فذكر قصَّة قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، ثم فرعون.

وهذه السُّورة كان النبيُّ ﷺ يقرأ بها في أعظم اجتماعات النَّاس عنده وهي الأعياد، والنَّاس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر، وقول المكذِّبين: إنه سحرٌ، والنَّاس كلهم المؤمن به والمنافق والكافر يُقِرُّون علىٰ هذا لم يقل أحدٌ منهم: إن القمر لم ينشقَّ، ولا أنكره أحد.

وفي صحيح مسلم(٢) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقدٍ الليثي: ما [كان] يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحىٰ والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ومعلومٌ بالضرورة في مطَّرد العادة أنه لو لم يكن انشقَّ لأسرع النَّاسُ المؤمنون به إلىٰ تكذيب ذلك، فضلًا عن أعدائه من الكفَّار والمنافقين، لا سيَّما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مَجامِعهم.

---

(١) «مع رسلهم» ساقطة من ط. العاصمة.
(٢) (٨٩١).



وأيضًا، فمعلومٌ أن محمَّدًا ﷺ كان من أحرص الخلق علىٰ تصديق النَّاس له واتباعهم إيَّاه، مع أنه كان أخبَر النَّاس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشقَّ لما كان يُخْبِر بهذا ويقرؤه علىٰ جميع الخلق ويستدلُّ به ويجعله آيةً له؛ فإن من يكون من أقلِّ النَّاس خبرةً بالسِّياسة لا يتعمَّد[1] إلىٰ ما يعلم جميعُ النَّاس أنه كاذبٌ به فيجعله من أعظم آياته الدَّالة علىٰ صدقه، ويقرأه علىٰ النَّاس في أعظم المَجَامع[2].

وقال[3]: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل: «قامت السَّاعة» ولا «ستقوم»، بل قال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أي: دَنَت وقَرُبَت، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ الذي هو دليلٌ علىٰ نبوَّة محمَّدٍ وعلىٰ إمكان انخراق[4] الفَلَك الذي هو قيام القيامة[5].

وهو سبحانه قرَن بين خبره باقتراب السَّاعة وخبره بانشقاق القمر؛ فإن مبعث محمَّدٍ ﷺ هو من أشراط السَّاعة، وهو دليلٌ علىٰ قربها، كما قال ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**بُعِثْتُ أنا والسَّاعة كهاتين**»، وجمَع بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطىٰ[6].

---

(١) كذا في الأصول. والجادة: يعمد.

(٢) ط. العاصمة: «المجاميع»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (ي، ع): «وهي».

(٤) ط. العاصمة: «انحراق» بالمهملة، وهو خطأ.

(٥) من قوله: «وقال اقتربت» إلىٰ هنا لحقٌ في طرة (د) بخط شيخ الإسلام، وكتب تحته أحدهم: «هذه التخريجة بخط المصنف ؓ».

(٦) أخرجه البخاري (٤٩٦٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥) ومسلم (٨٦٧، ٢٩٥١) من حديث سهل بن سعد وأنس بن مالك وأبي هريرة وجابر بن عبد الله ؇.

وقد قال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمَّد: ١٨].

وعلمُ السَّاعة أخفاها الله عن جميع خلقه، كما يُذْكَر ذلك عن المسيح في الإنجيل أنه لمَّا سئل عنها، فقال: إنها لا يعلمها أحدٌ من النَّاس ولا الملائكة ولا الابن، وإنما يعلمها الأبُ وحده[1]، وهذا ممَّا يدل علىٰ أنه ليس هو ربَّ العالم.

وكذلك محمَّدٌ ﷺ أخبر بذلك لمَّا سئل عنها، قال تعالىٰ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَفِيَت علىٰ أهل السماوات والأرض، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي الصَّحيح[2] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**تسألوني عن السَّاعة، وإنَّما علمُها عند الله**».

فانشقاقُ القمر كان آيةً علىٰ شيئين:

علىٰ صدق الرسول.

وعلىٰ مجيء السَّاعة وإمكان انشقاق الفلك.

فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرىٰ -قيام النَّاس من قبورهم لربِّ العالمين، وانشقاق السَّماوات وانفطارها- سواءٌ أقرُّوا بالقيامة الصُّغرىٰ، وأن الأرواح بعد

---

(١) إنجيل متىٰ (٢٤: ٣٦)، إنجيل مرقس (١٣: ٣٢).
(٢) صحيح البخاري (٢٥٣٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الموت تتنعَّم[1] أو تُعَذَّب، كما هو قول الفلاسفة الإلهيِّين[2]، أو أنكروا المعاد مطلقًا، كما أنكر ذلك من أنكره من مشركي العرب والفلاسفة الطبيعيِّين وغيرهم = ينكرون انشقاق السَّماوات.

ويزعم هؤلاء الدَّهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق، كما ذكر ذلك أرِسطو وأتباعه[3]، وزعموا أن الانشقاق يقتضي حركةً مستقيمة، وهي ممتنعةٌ بزعمهم في الفلك المحدَّد؛ إذ لا خلاء وراءه عندهم، وهذا لو دلَّ فإنما يدلُّ علىٰ ذلك في الفلك الأطلس لا فيما دونه، فكيف وهو باطل؟ فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداءً في هذه الأحياز التي هي فيها سواءٌ سمِّي خلاءً أو لم يسمَّ، كما هو مذكورٌ في غير هذا الموضع[4].

والمقصود هنا أنه تعالىٰ أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب السَّاعة؛ لأنه دليلٌ علىٰ إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذي هو قيام السَّاعة الكبرىٰ، وهو آية علىٰ نبوَّة محمَّد ﷺ الذي هو من أشراط السَّاعة، والله تعالىٰ في كتابه يجمعُ بين ذكر القيامة الكبرىٰ والصغرىٰ، كما في سورة الواقعة، ذكر في أولها القيامة الكبرىٰ، وفي آخرها القيامة الصغرىٰ، وذلك كثيرٌ في سور القرآن، مثل سورة ق، وسورة القيامة، وسورة التكاثر، وسورة الفجر، وغير ذلك[5].

---

(١) مهملة في (ي)، (و): «تنعم».

(٢) رسمها مشتبه في (د، و): «الاالاهيين»، وجعلتها ط. العاصمة: «اللا إلهيين»، وهو تحريف، والتعليق عليه خطأ محض، وعلىٰ الصواب في (ي، ع). والفلاسفة الإلهيون يثبتون معاد الأرواح ونعيمها أو عذابها. انظر: «شرح الأصبهانية» (٧٢٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٨٣).

(٣) انظر: «الأربعين» للرازي (٢/ ٤٤، ٤٧).

(٤) انظر ما سيأتي (٤/ ٣٤٧-٣٤٩).

(٥) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٤٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٦٢)، و«جامع المسائل» (٨/ ١١٥)، وما سيأتي (٤/ ٢٢٩).

وقد استفاضت الأحاديثُ بانشقاق القمر، ففي الصَّحيحين[1] عن ابن مسعودٍ أنه قال: انشقَّ القمر علىٰ عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقةٍ فوق الجبل، وفرقةٍ دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وفي لفظ[2]: ونحن معه بمنًىٰ، فقال كفار قريش: سَحَركم ابنُ أبي كبشة، فقال رجل منهم: إن محمَّدًا إن كان سَحَر[3] القمرَ فإنه لا يبلغ مِن سِحْرِه أن يسحرَ الأرض كلَّها، فاسألوا من يأتيكم من بلدٍ آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا، فسألوهم، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وعن أنس بن مالكٍ أنه قال: سأل أهلُ مكة النبيَّ ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتىٰ رأوا حراء بينهما، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢][4].

وهذا حديثٌ صحيحٌ مستفيض، رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس[5]، وهو أيضًا معروفٌ عن حذيفة[6].

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والرِّوايات في الصَّحيح بانشقاق القمر عن ابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس رضي الله عنهم[7].

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) نقله المصنف عن «الشفا» للقاضي عياض (٣٤٤- ٣٤٥)، وقوله: «ونحن معه بمنىٰ» في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠)، وما يليه بمعناه في مسند الطيالسي (٢٩٣).

(٣) (د، ي، ع): «ساحر».

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٦٨) ومسلم (٢٨٠٢)، ونزول الآية عند الترمذي (٣٢٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٦٦) ومسلم (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٩٤٤) وعبد الرزاق (٥٣٤٣).

(٧) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (١/ ٢٨٧).

ولمَّا زعموا أن هذا القرآن هو ألَّفه، قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم تحدَّاهم بعشر سور، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

ثم تحدَّاهم بسورةٍ واحدة، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨].

فعجز جميعُ الخلق أن يعارضوا ما جاء به، ثم أسجَل علىٰ جميع الخلق بالعجز(١) إلىٰ يوم القيامة بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فأخبَر من ذلك الزَّمان أن الإنس والجنَّ إذا اجتمعوا لا يقدرون علىٰ معارضة القرآن بمثله، فعجز لفظه(٢)، ومعناه ومعارفُه وعلومُه أكملُ معجزةً وأعظمُ شأنًا(٣).

---

(١) أي أطلق عليهم الخبر بالعجز وأرسله. انظر: «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦٦، ٤٦٨)، و«التاج» (سجل). ط. العاصمة: «**سجل** علىٰ جميع الخلق **العجز**» خلاف الأصول في الكلمتين، وإن كان المعنىٰ قريبًا، يقال: سجَّل عليه بكذا شَهره ووَسَمه.

(٢) كذا في الأصول. والمراد أنه معجزٌ بلفظه.

(٣) انظر: «التسعينية» (٨١٩)، و«المسودة» (٢٠١)، وما سيأتي (٤/ ١٨٧، ١٩٣).

والأمر كذلك، فإنه لم يقدر أحدٌ من العرب وغيرهم مع قوَّة عداوتهم له[1]، وحرصهم علىٰ إبطال أمره بكلِّ طريق، وقدرتهم علىٰ أنواع الكلام، أن يأتوا بمثله.

وأنزل الله إذ ذاك آياتٍ بيَّن فيها أنه رسولٌ[2] إليهم، ولم يذكر فيها أنه لم يُرْسَل إلىٰ غيرهم.

فقال تعالىٰ في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٣ - ٤٧].

وقال في سورة السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

وقال في سورة يس: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ١ - ٦].

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) ط. النيل: «رسول الله».



ذكر تعالىٰ في هذه الآيات الثلاثة[1] نعمتَه علىٰ هؤلاء، وحجَّته عليهم بإرساله، وذكر بعض حكمته في إرساله، وذلك لا يقتضي أنه لم يُرْسَلَ إلا لهذا، بل مثل هذا كثيرٌ معروفٌ في لسان العرب وغيرهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ومعلومٌ أن في هذه الدَّوابِّ منافعُ غير الرُّكوب.

وقال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ [غافر: ١٥]، فقد أخبر أنه يُنْزِل الملائكة بالوحي علىٰ الأنبياء؛ ليُنذِروا يوم القيامة، وذلك لا يمنعُ أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين، والأمر والنَّهي بالشَّرائع.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فأخبر تعالىٰ أنه خلق العالم العلويَّ والسُّفليَّ؛ ليعلم العبادُ قدرتَه وعلمَه، ومع هذا ففي خلق ذلك له من الحكمة أمورٌ أخرىٰ غير علم العباد.

ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، ومعلومٌ أن في جعل الكعبة قيامًا للنَّاس والهدي والقلائد حِكَمًا ومنافع أخرىٰ.

---

(١) كذا في الأصول، من باب الحمل علىٰ المعنىٰ.



وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومعلومٌ أن في مُلكِ الله[1] حِكَمًا أخرىٰ غير جزاء المحسن والمسيء. وكذلك قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣]. إلىٰ قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ومعلومٌ أن في إرسال الرُّسل من[2] سعادة من آمن بهم وغيرها حكمةً أخرىٰ غير دفع حجَّة الخلق علىٰ الله.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، ومعلومٌ أن في تسخيرها حِكَمًا ومنافع غير التكبير.

وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، ومعلومٌ أن لله حِكَمًا في خلق الشَّمس والقمر والليل والنهار غير انتفاع بني آدم.

(١) (ع): «ملكه».
(٢) ليست في (ع، و).



وكذلك قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، وفيها حِكَمٌ أخرىٰ.

وقال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي إنزال الكتاب مِن هدىٰ من اهتدىٰ به واتِّعاظه وغير ذلك مقاصدُ غير الحُكم بين النَّاس فيما اختلفوا فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨ - ٣٩]، ومعلومٌ أن في بعث(١) الخلق يوم القيامة مقاصدَ غير بيان المختلَف في علم هؤلاء.

وممَّا يبيِّن ذلك أنه قال في الآية التي احتجُّوا بها: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾ [يس: ٦]، ومعلومٌ أنه لم يُبْعَث لمجرَّد الإنذار، بل وليبشِّر من آمن به، ولأمرِهم بالمعروف، ونهيِهم عن المنكر، وتحليل الطيِّبات، وتحريم الخبائث، وغير ذلك من مقاصد الرُّسل، كما قال تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨] لا ينافي كونه لم يصفهم في موضعٍ آخر إلا بالإنذار.

وقد قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا

---

(١) (و، ي): «مبعث».



حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١ - ٥].

وكان المسلمون مرَّةً صلَّوا صلاة العيد بحضرة حِصَار النَّصارىٰ، فقام خطيبُهم فخطب بهذه الآية، ولمَّا قرأ قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أشار إلىٰ جند الإيمان، ولمَّا قرأ قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أشار إلىٰ جند الصُّلبان.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي إنزال الكتاب والميزان حِكَمٌ أخرىٰ من البشارة والإنذار وغير ذلك.

وكذلك قوله عن أهل الكهف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، وفي بعثهم حِكَمٌ أخرىٰ، بدليل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٧ - ٢٨]، ومعلومٌ أن في ذلك مقاصد أخرىٰ من هداية الخلق، وقيام الحجَّة علىٰ من بلغهم، وغير ذلك.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وفيه حِكَمٌ أخرىٰ من قيام الحجَّة علىٰ الخلق، وضلال من ضلَّ به.

ومثله قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ



﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ومعلومٌ أن في ذلك مقاصد أخرىٰ من البشارة، والأمر والنَّهي، وغير ذلك.

وكذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٨ - ٢٩]، ومعلومٌ أن في جزاء المؤمنين مقاصد أخرىٰ غير علم أهل الكتاب وما معه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ومعلومٌ أن فيه حكمةً أخرىٰ، مثل تبشير من آمن به، والأمر والنهي، وإنذار غير هؤلاء من العرب.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]، ومعلومٌ أن فيه حكمةً أخرىٰ غير الإنذار.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢]، ومعلومٌ أن فيه حكمةً أخرىٰ من إنذار الخلق كلِّهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتبشير المؤمنين.

وقال[1] تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٧ - ٨]، ومعلومٌ أن في أخذ الميثاق حكمًا أخرىٰ.

---

(١) في الأصول: «فقال»، ولعله سهو.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٢].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، وكذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وفي ذلك كلِّه حِكَمٌ أخرىٰ.

وكذلك قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وإن كانت هذه لام العاقبة، فليست العاقبة منحصرةً في ذلك، بل في ذلك من الإحسان إلىٰ موسىٰ وتربيته وغير ذلك حِكَمٌ أخرىٰ.

ومثل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وفي إرساله حِكَمٌ أخرىٰ.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وفي إنزاله تبشيرٌ وإنذار، وأمرٌ ونهي، ووعدٌ ووعيد.



وكذلك قوله في عيسىٰ بن مريم: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، وفيه حِكَمٌ أخرىٰ، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال تعالىٰ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢- ١١٣].

وكذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفي كونهم وسطًا حِكَمٌ أخرىٰ.

وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وفيهما حِكَمٌ أخرىٰ.

وكذلك قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وفي ذلك حِكَمٌ أخرىٰ من البشارة والأمر والنهي.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠- ١٤١]، وفي ذلك حِكَمٌ أخرىٰ.

ومثل ذلك كثيرٌ في كلام الله ﷻ وغير كلام الله، إذا ذكر حكمةً للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمةٌ أخرىٰ، لكن لا بدَّ لتخصيص تلك الحكمة بالذِّكر في ذلك الموضع من مناسبة(١).

وهذا كالمناسبة في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]؛ فإن هؤلاء كانوا أول المُنْذَرِين، وأحقَّهم بالإنذار، فكان في تخصيصهم بالذِّكر فائدة، لا أنه خصَّهم لانتفاء إنذار من سواهم(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، ومعلومٌ أنه نزل به ليكون بشيرًا، وليأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، ويُحِلَّ الطيِّبات، ويحرِّم الخبائث، ويضع الآصار والأغلال ﷺ.

---

(١) الأصول: «مناسبته». والمثبت من ط. النيل أقرب.
(٢) وانظر ما سيأتي (٢/ ١٦٤).



فصل

وأما احتجاجهم بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذا في عمومه نزاع[1]:

فإنه إما أن يكون خطابًا لجميع النَّاس، ويكون المراد: إنا بعثنا إليكم رسولًا من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملكٍ من الملائكة، فمنَّ الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولًا بشريًّا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ - ٩].

وإما أن يكون الخطاب للعرب.

وعلىٰ التقديرين، فإن ما تضمَّن ذَكَر إنعامه علىٰ المخاطبين بإرساله رسولًا من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلًا إلىٰ غيرهم، فإنه إن كان خطابًا للإنس كلِّهم فهو أيضًا مرسلٌ إلىٰ الجنِّ وليس من جنسهم، فكيف

(١) قال شيخ الإسلام: «والتحقيق أنه خوطب به أولًا العرب، بل خوطب به أولًا قريش، ثم العرب، ثم سائر الناس من أهل الكتاب والأميين غير العرب». انظر: «تفسير آيات أشكلت» (١/ ٢٣٦ - ٢٣٨)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (٥٤٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٨٩ - ١٩٢).

يمتنع إذا كان خطابًا[1] للعرب بما امتنَّ به عليهم أن يكون قد امتنَّ علىٰ غيرهم بذلك؟!

فالعجمُ أقربُ إلىٰ العرب من الجنِّ إلىٰ الإنس، وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجنَّ لمَّا سمعوا القرآن آمنوا به، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[2] قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾

(١) ط. النيل: «إذاكان الخطاب خطابًا».
(٢) لم ترد البسملة في (ي، ع)، وضرب عليها في (د).

وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ نَسۡلُكۡهُ[1] عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾ قَالَ[2] إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ١ - ٢٨].

ونظير هذا قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ[3]﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقومُه قريش، ولا يمنع أن يكون ذكرًا[4] لسائر العرب، بل لسائر النَّاس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ - ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٦ - ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾

---

(١) مهملة في (ي)، (د، ع): «يسلكه»، والمثبت من (و) قراءة أبي عمرو.
(٢) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو.
(٣) أكملت الآية في ط. النيل والعاصمة، خلاف الأصول.
(٤) (و): «ولا يمنع أنه ذكر».

وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِظَنِينٍ[1] ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩].

وهذا علىٰ أصحِّ القولين، وأن المراد بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أنه ذكرٌ لهم يَذْكُرونه فيهتدون به.

وقيل: إن المراد أنه شرفٌ لهم[2]. وليس بشيء؛ فإن القرآن هو شرفٌ لمن آمن به من قومه وغيرهم، وليس شرفًا لجميع قومه، بل من كذَّب به منهم كان أحقَّ بالذم، كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٦].

بخلاف كونه تذكرة وذكرىٰ؛ فإنه تذكرةٌ لهم ولغيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فعَمَّ العالمين جميعَهم، فقال: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ[3] عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٤].

---

(١) (و، ع): «بضنين»، والمثبت من (د، ي) قراءة أبي عمرو. وانظر: «درء التعارض» (١٠/ ٢١٨)، و«النبوات» (١٠٤٧)، «الرد علىٰ المنطقيين» (٢٧٨).

(٢) روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير (٢٠/ ٦٠٢)، ولم يحك سواه. وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٩)، و«المحرر الوجيز» (١٣/ ٢٣٠).

(٣) الأصول وط. النيل: «أسألهم»، وهو سهو.

فصل

هذا الكلام علىٰ **الوجه الأول**، وهو قول من يقول: «إنه لم يَقُل: إنه أُرْسِل إلا إلىٰ العرب»(١).

وأما **الوجه الثاني**: وهو أن نقول: هو ذَكَر أنه رسولٌ إلىٰ النَّاس كافَّة، كما نطق به القرآن في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(٢) [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد صرَّح فيه بدعوة أهل الكتاب وبدعوة الجنِّ في غير موضع.

فإذا سلَّموا أنه ذَكَر ذلك، ولكن كذَّبوه في ذلك، فإما أن يقرُّوا برسالته إلىٰ العرب، أو لا يقرُّوا.

فإن أقرُّوا بأنه رسولٌ أرسله الله، لم يمكن مع ذلك تكذيبُه، كما تقدَّم(٣)، بل يجبُ الإقرار برسالته إلىٰ جميع الخلق كما أخبَر بذلك، كما تقدَّم أن من ذَكَر أنه رسول الله لا يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم، أو من شرِّ الخلق وأكذبهم؛ فإنه إن كان صادقًا فهو من أفضلهم، وإن كان كاذبًا فهو من شرِّهم، وإذا كان الله قد أرسله -ولو إلىٰ قرية، كما أرسل يونس بن متَّىٰ إلىٰ أهل نِيْنَوىٰ- كان من أفضل الخلق، وكان صادقًا لا يَكْذِب علىٰ الله، ولا يقول عليه إلا الحقَّ، ولو كَذَب علىٰ الله ولو في كلمةٍ واحدةٍ لكان من الكاذبين، لم يكن

---

(١) رسالة بولس الأنطاكي المتقدمة (١/ ٤٠).

(٢) زادت ط. العاصمة: «بشيرًا»، وليست في الأصول.

(٣) (١/ ٥٢).

من رسل الله الصادقين، فإن الكاذب لا يكذبُ في كلِّ شيء، بل في البعض، فمن كَذَب علىٰ الله في كلمةٍ واحدة فقد افترىٰ علىٰ الله الكذب، وكان من القسم الكاذبين في دعوىٰ الرسالة لا من الصَّادقين.

وأيضًا، فإن مقصود الرسالة تبليغُ رسالات الله علىٰ وجهها، فإذا خُلِط الكذبُ بالصِّدق لم يحصل مقصود الرسالة.

وأيضًا، فإذا عُلِم أنه كَذَب في بعضها لم يتميَّز ما صَدَق فيه ممَّا كَذَب فيه إلا بدليلٍ آخر غير رسالته، فلا يحصل المقصود برسالته.

ولهذا أجمع أهلُ المِلَل قاطبةً علىٰ أن الرُّسل معصومون فيما يبلِّغونه عن الله ﷻ، لم يقل أحدٌ قطُّ: إن من أرسله الله يَكْذِب عليه.

وقد قال تعالىٰ ما يبيِّن أنه لا يُقِرُّ كاذبًا عليه، قال[1] تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورىٰ: ٢٤]، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، فقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ كلامٌ مستأنف، ليس داخلًا في جواب[2] الشَّرط؛ فإنه لو كان معطوفًا علىٰ جواب الشَّرط لقال: (ويُحِقِّ الحقَّ) بالكسر لالتقاء الساكنين، كما في قوله ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، فلمَّا قال: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ بالضمِّ دلَّ علىٰ أنه

---

(١) ط. النيل: «بقوله».

(٢) (و): «جزاء».

جملةٌ مستأنفةٌ أخبَر فيها أنه تعالىٰ يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه، ويحقُّ الحقَّ كحقِّ الصَّادقين عليه، فمحوُ الباطل نظيرُ إحقاقِ الحق، ليس ممَّا عُلِّق بالمشيئة، بل لا بدَّ منه، بخلاف الختم علىٰ قلبه، فإنه معلقٌّ بالمشيئة، ولا يجوز أن يُعَلَّق بالمشيئة محوُ الباطل كتعليق الختم، بل يقذفُ بالحقِّ علىٰ الباطل فيدمغُه(١).

وقال تعالىٰ في صيانته وإحكامه لما تبلِّغه رسلُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

وأيضًا، فإذا لم يكن أُرسِل إلا إلىٰ العرب، وقد دعا اليهود والنَّصارىٰ إلىٰ الإيمان به، وكفَّرهم إذا لم يؤمنوا به، وجاهدهم، وقتل مُقَاتِلهم، وسبىٰ ذريَّاتهم(٢)، كان ذلك ظلمًا لا يفعله إلا من هو من أظلم النَّاس، ومن كان نبيًّا قد أرسله الله فهو منزَّهٌ عن هذا وهذا.

فالإقرار برسالته إلىٰ العرب دون غيرهم، مع ما ظهر من عموم دعوته للخلق كلِّهم، قولٌ متناقضٌ ظاهر الفساد، وكلُّ ما دلَّ عليه أنه رسولٌ فإنه يستلزم رسالتَه إلىٰ جميع الخلق، وكلُّ من اعترف بأنه رسولٌ لزمه الاعترافُ

---

(١) انظر: «النبوات» (٨٩٩)، وتفسير ابن جرير (٢٠/ ٥٠٤).

(٢) (ع): «ذراريهم»، وفي طرة (د) إشارة إلىٰ أنها في نسخة.

بأنه رسولٌ إلىٰ جميع الخلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولًا يفتري عليه الكذب، ويقول للناس: إن الله أمركم باتِّباعي، وأمرني بجهادكم إذا لم تفعلوا، وهو كاذبٌ في ذلك، ومعلومٌ أن كلَّ ما دلَّ علىٰ أن الله أرسله فإنه يدلُّ علىٰ أنه صادقٌ في الرِّسالة، وإلا فلا، فالرسولُ الكاذبُ لا يحصل به مقصود الرسالة، بل يكون من جملة المفترين علىٰ الله الكذب، وأولئك ليسوا من رسل الله، ولا يجوز تصديقهم في قولهم: إن الله أرسلهم.

فصل

وأما إن لم[1] يُقِرُّوا برسالته إلىٰ العرب ولا غيرهم، بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعرٌ أو ساحرٌ أو مفترٍ كاذب ونحو ذلك، فيقال لهم علىٰ هذا التقدير: فدليلكم أيضًا باطل، ولا يجوز أن تحتجُّوا بتقدير تكذيبكم لمحمَّدٍ ﷺ بشيءٍ من كلام الأنبياء قبله، سواءٌ صدَّقتم محمَّدًا ﷺ في جميع ما يقوله أو في بعضه أو كذَّبتموه، فدليلكم باطل، فيلزم بطلان دينكم علىٰ كلِّ تقدير، وما ثبت بطلانه علىٰ كلِّ تقديرٍ فهو باطلٌ في نفس الأمر، فيثبت أنه باطلٌ في نفس الأمر.

وذلك أنكم إذا كذبتم محمَّدًا لم يبق لكم طريقٌ تعلمون به صدقَ غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبه القولُ بصدق غيره، بل من اعتقد كذبه وصدَّق غيره لم يكن عالمًا بصدق غيره، بل يكون مصدِّقًا لهم بغير علم، وإذا لم يكن عالمًا بصدقهم لم يجز احتجاجه قطُّ بأقوالهم، بل ذلك قولٌ منه بلا علم، ومحاجَّةٌ فيما[2] لا علم له بها.

فإن الدلائل الدَّالة علىٰ صدق محمَّدٍ ﷺ أعظمُ وأكثر من الدلائل الدَّالة علىٰ صدق موسىٰ وعيسىٰ، ومعجزاته أعظمُ من معجزات غيره، والكتابَ الذي أُرسِل به أشرفُ من الكتاب الذي بُعِث به غيره، والشَّريعة التي جاء بها أكمَلُ من شريعة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السَّلام، وأمَّته أكمَلُ في جميع الفضائل[3] من أمَّة هذا وهذا، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علمٌ نافعٌ وعملٌ صالحٌ إلا وهو في القرآن أو مثله أو أكمل[4] منه، وفي القرآن من العلم النافع

---

(١) (و): «وإما أن لا».

(٢) ليست في (و).

(٣) (ع): «التفاصيل».

(٤) ساقطة من ط. العاصمة.

والعمل الصَّالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، فما من مطعنٍ من مطاعن أعداء الأنبياء يُطْعَنُ به علىٰ محمَّدٍ ﷺ إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه علىٰ موسىٰ وعيسىٰ.

وهذه جملةٌ مبسوطةٌ في موضعٍ آخر[1]، لم نبسطها هنا؛ لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلىٰ ذلك، فيمتنع الإقرار بنبوَّة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السَّلام مع التكذيب بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ، ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل النَّاس وأضلِّهم، أو من أعظمهم عنادًا واتباعًا لهواه.

وذلك أن هؤلاء القوم[2] احتجُّوا بما نقلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلة الدَّالة علىٰ صدقهم، بل أخذوا ذلك مسلَّمًا، وطلبوا أن يحتجُّوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله، وبما نقلوه عنه علىٰ صحة دينهم.

وهذه حجَّةٌ داحضة، سواءٌ صدَّقوه أو كذَّبوه، فإن صدَّقوه بطل دينُهم وإن كذَّبوه بطل دينُهم؛ فإنهم إن صدَّقوه فقد عُلِمَ أنه دعاهم وجميعَ أهل الأرض إلىٰ الإيمان به وطاعته، كما دعا المسيحُ وموسىٰ وغيرهما من الرُّسل، وأنه أبطل ما هم عليه من الاتِّحاد وغيره، وكفَّرهم في غير موضع.

ولهذا كان مجرَّد التصديق بأن محمَّدًا رسول الله -ولو إلىٰ العرب- يوجبُ بطلان دين النَّصارىٰ واليهود وكلِّ دينٍ يخالف دينه؛ فإن من كان رسولًا لله فإنه لا يَكْذِب علىٰ الله، ومحمَّدٌ ﷺ قد عُلِمَ منه أنه دعا النَّصارىٰ واليهود إلىٰ الإيمان به وطاعته كما دعا غيرَهم، وأنه كفَّر من لم يؤمن به ووَعَدَه النار، وهذا متواترٌ عنه تواترًا تعلمه العامَّة والخاصَّة.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٠١- ٢٠٨)، وما سيأتي (١/ ٢٦٠، ٢٧٥).

(٢) (و): «وهؤلاء القوم».

وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره، كما قال تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (1) لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ١-٨].

وقال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٨-٢٠].

وقد ذكر كفر اليهود والنَّصارىٰ في غير موضع، كقوله تعالىٰ عن النَّصارىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

---

(١) سقطت البسملة من ط. العاصمة، وهي ثابتة في جميع الأصول.

مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٥]

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠- ٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

فقد قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢] في موضعين[١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

والنَّصارىٰ قالت الأقوال الثلاثة، فذكر الله عنهم هذه الأقوال[٢]، لكن من النَّاس من يظنُّ أن هذا قول طائفةٍ منهم، وهذا قول طائفةٍ منهم، وهذا قول طائفةٍ منهم[٣]، كما ذكره طائفةٌ من المفسِّرين كابن جرير الطبري والثعلبيِّ

(١) ط. العاصمة: «الموضعين» خلاف الأصول.
(٢) هذه الجملة متقدمة علىٰ التي قبلها في (د، ي، ع).
(٣) «وهذا قول طائفةٍ منهم» الثالثة ساقطة من ط. العاصمة. وفي (ع، د) هاهنا زيادة يشبه أنها كانت في مسودة المصنف ثم ضرب عليها، وسيأتي مضمونها بعد، وهي: «وقولهم ثالث =

وغيرهما[1]، وظنَّ ابن جرير الطبري أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبيَّة، والنُّسْطوريَّة، والمَلَكيَّة[2].

ثم تارةً يحكون عن اليعقوبيَّة أن عيسىٰ هو الله، وعن النُّسْطوريَّة أنه ابن الله، وعن المَرْقُوسِيَّة[3] أنه ثالث ثلاثة، وتارةً يحكون عن النُّسْطوريَّة أنه ثالث ثلاثة، وعن المَلَكيَّة أنه الله، ويفسِّرون قولهم: «ثالث ثلاثة» بالأب والابن وروح القُدُس[4].

والصواب[5] أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النَّصارىٰ المشهورة: المَلَكِيَّة، واليعقوبيَّة، والنُّسْطوريَّة؛ فإن هذه الطوائف كلُّها تقول بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القُدُس[6]، فتقول: إن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح: إنه الله، وتقول: إنه ابن الله، وهم متَّفقون علىٰ اتِّحاد اللاهُوت والنَّاسُوت، وأن المتَّحد هو الكلمة، ومتَّفقون علىٰ عقيدة إيمانهم التي تتضمَّن ذلك، وهو قولهم: «نؤمن بإلهٍ واحد، أب، ضابطِ الكُلِّ، خالق السماوات

= ثلاثة قول النسطورية، وقولهم إنه ابن الله قول الملكانية، ومنهم من يقول قوله إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية، وقولهم والابن وروح القدس».

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٨/ ٥٧٩، ٥٨٠)، والبغوي (٢/ ٣١٣)، و«الكشف والبيان» للثعلبي (١١/ ٩٢، ٢٤١، ٤٤٩، ١٣/ ٢٩٧، ١٧/ ٣٨٣).

(٢) من قوله: «وظن ابن جرير» إلىٰ هنا ليس في (و)، ولم تثبته ط. العاصمة، ووقع في (ع، د) قبل قوله: «كما ذكره طائفة»، وهو سهو، وتأخر موضعه في (ي).

(٣) نسبة إلىٰ مرقوس. وفي الأصول وط. النيل والعاصمة: «المريوسية»، وهو تحريف.

(٤) اليعقوبية: أتباع يعقوب البراذعي، والنسطورية: أصحاب نسطور الحكيم، وكان بطريرك القسطنطينية. والملكية: فرقة كانت علىٰ دين ملك الرومان. وظهرت هذه الفرق في عهد التثليث بعد مجمع نيقية. انظر: «التاريخ المجموع» لابن البطريق، و«الملل والنحل» (٢/ ٢٧- ٣٢)، و«محاضرات في النصرانية» لأبي زهرة (١٥٧- ١٦٠).

(٥) ضبب عليها في (و) وكتب بحذائها في الطرة: «والحق».

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٣، ٨/ ١٠٠).

والأرض، كلِّ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ، وبربٍّ واحدٍ يَسُوع المسيح ابن الله، الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدَّهور، نورٌ من نور، إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حق، مولودٌ غير مخلوق»[١].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، فقد فسَّروه بالتثليث المشهور عنهم، المذكور في أمانتهم.

ومن النَّاس من يقول: «إن الله هو المسيح ابن مريم» قول اليعقوبيَّة، وقولهم[٢]: «ثالث ثلاثة» هو قول النَّصارىٰ الذين يقولون بالأب والابن وروح القُدُس[٣]، وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة، وسمَّوا كلَّ واحدٍ من الثلاثة بالإله والربِّ.

وقد فسَّره طائفةٌ بجعلهم عيسىٰ وأمَّه إلهين يُعْبَدان من دون الله.

قال السُّدِّي في قوله تعالىٰ:﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، قال: قالت النَّصارىٰ: إن الله هو المسيحُ وأمُّه، فذلك قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقد قيل قولٌ ثالثٌ أغربُ من ذلك عن أبي صخر[٥]، قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ قال: هو قول اليهود: عزيرٌ ابن الله، وقول

---

(١) تقدم الكلام علىٰ أمانتهم هذه (١/ ١٧٣).
(٢) ليست في (و).
(٣) «وروح القدس» ليست في (د، و، ع). وبعدها في (ي): «وظن ابن جرير الطبري ...» العبارة التي سبق ذكرها.
(٤) أخرجه ابن جرير (٨/ ٥٨١)، وقال ابن كثير (٣/ ١٥٨): «وهذا القول هو الأظهر».
(٥) حميد بن زياد، ابن أبي المخارق المدني، من صغار أتباع التابعين (ت: ١٨٩). انظر: «تهذيب الكمال» (٧/ ٣٦٦).

النَّصارىٰ: المسيح ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة[1]، وهذا ضعيف[2].

وقد ذكر سعيد بن البطريق[3] في أخبار النَّصارىٰ أن منهم طائفةً يقال لهم «المَرْيَمِيَّة»[4] يقولون: إن مريم إله، وإن عيسىٰ إله[5].

فقد يقال: إن هذا قول هؤلاء، كما أن القول بأن عزير ابن الله قول اليهود[6].

وأما الأول[7] فمتوجِّه؛ فإن النَّصارىٰ المتفقين علىٰ «الأمانة» كلُّهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، والله تعالىٰ قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، فذكر سبحانه في هذه الآية التثليث والاتِّحاد، ونهاهم عنهما، وبيَّن أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروحٌ منه، وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾، لم يذكر هنا أمَّه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٧٩).

(٢) قال ابن كثير (٣/ ١٥٨): «وهذا قولٌ غريب».

(٣) طبيبٌ نصراني، له دراية بعلوم النصارىٰ ومذاهبهم، عيِّن بطريركًا علىٰ الإسكندرية، توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م. انظر: «تاريخ الأنطاكي» (٢٣)، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٥٤٥)، و«الوافي» (١٥/ ٢٠٣)، و«الأعلام» (٣/ ٩٢).

(٤) الأصول: «المريسية»، وهو تحريف. وفي تاريخ ابن البطريق: «المريميين». وستأتي (٣/ ١٤٢، ١٧٥) بلفظ: «المريمانية». ويقال لهم: البربرانية. انظر: «النصرانية وآدابها» للويس شيخو (٤٩)، و«محاضرات في النصرانية» لمحمد أبو زهرة (١٢٤).

(٥) تاريخ ابن البطريق المسمىٰ «نظم الجوهر» (١/ ١٢٦).

(٦) من قوله: «فقد يقال» إلىٰ هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٧) وهو تفسيره بالتثليث المشهور عنهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

قال معمر، عن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: هو قوله: «كُنْ»، فكان[1].

وكذلك قال قتادة: ليس الكلمة صارت[2] عيسىٰ، ولكن بالكلمة صار عيسىٰ[3].

وكذلك قال الإمام أحمد[4] في مصنَّفه الذي صنَّفه في كتبه[5] في الرَّدِّ علىٰ الجهميَّة، وذكره عنه الخلَّال والقاضي أبو يعلىٰ[6].

قال أحمد: ثم إن الجَهْمَ ادَّعىٰ أمرًا آخر[7]، فقال: إنَّا وجدنا في كتاب الله آيةً تدلُّ علىٰ أن القرآن مخلوق.

قلنا: أيَّ آية؟ قال: قول الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾، وعيسىٰ مخلوق[8].

فقلنا: إن الله منعكم الفهم في القرآن، عيسىٰ عليه السلام تجري عليه ألفاظ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٧٠٣).

(٢) الأصول: «صار»، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم أقوم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٢٣).

(٤) (د، ع): «أحمد بن حنبل».

(٥) كذا في الأصول. وفي ط. العاصمة: «كتابه». ولعل الصواب: «فيما كتبه». انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٧٨)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٤٠٩، ١٧/ ٣٩١، ٤١٢).

(٦) انظر: الانتصار لأهل الأثر (١٠١) والتعليق عليه.

(٧) ساقطة من ط. العاصمة.

(٨) «وعيسىٰ مخلوق» ساقطة من ط. العاصمة.

لا تجري علىٰ القرآن؛ لأن عيسىٰ تجري عليه تسميةُ: مولود[1]، وطفل، وصبيّ، وغلام، يأكل ويشرب، وهو يُخَاطَبُ بالأمر والنَّهي، يجري عليه الوعدُ والوعيد، هو من ذرِّية نوحٍ ومن ذريَّة إبراهيم، ولا يحلُّ لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسىٰ، هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في[2] عيسىٰ؟!

ولكن المعنىٰ في قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فالكلمة التي ألقاها إلىٰ مريم حين قال له: «كُنْ»، فكان عيسىٰ بـ «كُنْ»، وليس عيسىٰ هو الـ«كُنْ»، ولكن بالـ«كُنْ» كان، فالـ«كُنْ» من الله قولُه، وليس الـ«كُنْ» مخلوقًا.

وكَذَبَت النَّصارىٰ والجهميَّة علىٰ الله في أمر عيسىٰ.

وذلك أن الجهميَّة قالوا: عيسىٰ روحُ الله وكلمته؛ لأن الكلمة مخلوقة.

وقالت النَّصارىٰ: روحُ الله مِن ذات الله، وكلمةُ الله مِن ذات الله، كما يقال: هذه الخِرْقة من هذا الثَّوب.

وقلنا نحن: إن عيسىٰ بالكلمة كان، وليس عيسىٰ هو الكلمة.

قال أحمد: وأما قوله جل ثناؤه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول: مِن أمرِه كان الرُّوحُ فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يقول: مِن أمرِه.

---

(١) (ع، د): «نسمة ومولود»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة. وفي (و): «لأن عيسىٰ مولود». وكما أثبتُّ في (ي) وبعض نسخ «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»، وفي بعضها: «لأنه يسميه مولودًا ...». وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢١٩، ٨/ ٤١٤).

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

وتفسير «روح الله» إنما معناها أنها روحٌ بكلمة الله خَلَقَها[1]، كما يقال: عبدُ الله وسماءُ الله، -وفي نسخة: روحٌ يملكها الله، خلقها الله-[2].

وقال الشَّعبي في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: الكلمة حين قال له: «كُنْ»، فكان عيسىٰ بـ «كُنْ »، وليس عيسىٰ هو الـ«كُنْ»، ولكن بالـ«كُنْ» كان[3].

وقال ليثٌ عن مجاهد: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ قال: رسولٌ منه[4].

يريدُ مجاهدٌ قولَه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٧- ١٩].

والمعنىٰ: أن عيسىٰ خُلِق من هذه[5] الرُّوح، وهو جبريل روحُ القُدُس، سُمِّي روحًا كما سمِّي كلمةً؛ لأنه خُلِق بالكلمة.

والنَّصارىٰ يقولون في أمانتهم: «تجسَّد من مريم ومن روح القُدُس»؛ لأنه جاء[6] كذلك في الكتب المتقدمة، لكن ظنُّوا أن روح القُدُس هو صفةٌ لله، وجعلوها حياته وقدرته، وهو ربٌّ، وهذا غلطٌ منهم، فإنه لم يُسَمِّ أحدٌ من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئًا من صفاته: روح القُدُس، بل روحُ القُدُس في غير موضعٍ من كلام الأنبياء عليهم السَّلام يراد بها ما ينزله الله علىٰ قلوب الأنبياء، كالوحي والهدىٰ والتأييد، ويراد بها المَلَك.

---

(١) ط. النيل و«الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»: «خلقها الله».

(٢) «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية» (٢٤٩- ٢٥٢).

(٣) لم أقف عليه. وهو لفظ الإمام أحمد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٢٣).

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

(٦) ليست في (و، ي).

وهكذا في تفسير ابن السَّائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن عيسىٰ بن مريم استقبل رهطًا من اليهود، فلمَّا رأوه قالوا: قد جاء السَّاحر ابن السَّاحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه وأمَّه، فلمَّا سمع عيسىٰ ذلك قال: اللهم أنت ربي، وأنا من روحك خرجتُ، وبكلمتك خلقتني[1]، ولم آتِهم من تلقاء نفسي، وذكَر تمام الحديث[2].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فهذا يوافق قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٧- ١٩].

وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر[3].

والمقصود هنا أنهم سواءٌ صدَّقوا محمَّدًا أو كذَّبوه، فإنه يلزم بطلان دينهم علىٰ التقديرَين؛ فإنه إن كان نبيًّا صادقًا فقد بلَّغ عن الله في هذا الكتاب كُفْرَ النَّصارىٰ في غير موضع، ودعاهم إلىٰ الإيمان به، وأمر بجهادهم، فمن عَلِم أنه نبيٌّ ولو إلىٰ طائفةٍ معيَّنة يجبُ[4] تصديقُه في كلِّ ما أخبر به، وقد أخبَر بكفر النَّصارىٰ وضلالهم.

---

(١) (و): «خُلِقت».

(٢) ساقه بتمامه الثعلبيُّ في «الكشف والبيان» (١١/ ٦٦)، والبغويُّ في «معالم التنزيل» (٢/ ٤٤)، وابن السائب الكلبي متهمٌ بالكذب.

(٣) قوله: «وهذا مبسوط في موضع آخر» ساقط من ط. العاصمة. وانظر: مسألة في «أن عيسىٰ كلمة الله» لشيخ الإسلام (٥٦- ٥٨)، وما سيأتي (٢/ ٤٩٤، ٣/ ١٩٧).

(٤) (د، ع): «فيجب».

وإذا ثبت هذا لم يُغْنِ عنهم الاحتجاجُ بشيءٍ من الكتب والمعقول، بل يُعْلَمُ من حيث الجملة أن كلَّ ما يحتجُّون به علىٰ صحَّة دينهم فهو باطل، وإن لم يبيَّن فساد حججهم علىٰ التفصيل؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقًّا، كما أن المسيح عليه السلام لمَّا حكم بكفر من كذَّبه من اليهود كان كلُّ ما يحتجُّ به اليهود علىٰ خلاف ذلك باطلًا، فكلُّ ما عارض قول النبيِّ المعصوم فهو باطل.

وإن كذَّبوا محمَّدًا تكذيبًا عامًّا مطلقًا، وقالوا: ليس هو نبيٌّ أصلًا، ولا أُرسِل إلىٰ أحدٍ، لا إلىٰ العرب ولا إلىٰ غيرهم، بل كان كذَّابًا[1] من الكذَّابين، امتنع مع هذا أن يصدِّقوا بنبوَّة غيره؛ فإن الطريق الذي يُعْلَمُ به نبوَّة موسىٰ وعيسىٰ يُعْلَمُ به نبوَّة محمَّدٍ ﷺ بطريق الأولىٰ.

فإذا قالوا: عُلِمَت نبوَّة موسىٰ والمسيح بالمعجزات، وعُرِفَت المعجزاتُ بالنقل المتواتر إلينا.

قيل لهم: معجزاتُ محمَّدٍ أعظم، وتواتُرُها أبلغ، والكتابُ الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ أكمل، وأمَّتُه أفضل، وشرائعُ دينه أحسن، وموسىٰ جاء بالعدل، وعيسىٰ جاء بتكميلها بالفضل، وهو ﷺ قد جمع في شريعته بين[2] العدل والفضل.

فإن ساغ لقائلٍ أن يقول: هو مع هذا كاذبٌ مفترٍ، كان علىٰ هذا التقدير الباطل غيره أولىٰ أنْ يقال فيه ذلك، فيبطل بتكذيبهم محمَّدًا ﷺ جميعُ ما معهم من النبوَّات؛ إذ حكمُ أحد الشيئين حكمُ مثله، فكيف بما هو أولىٰ منه؟!

---

(١) ليست في (ع، د).

(٢) ليست في (و)، (ي): «به».

فلو قال قائل: إن هارون ويُوشَع وداود وسليمان كانوا أنبياء، وموسىٰ لم يكن نبيًّا، أو إن داود وسليمان ويُوشَع ويحيىٰ[1] كانوا أنبياء، والمسيحَ لم يكن نبيًّا.

أو قال ما تقوله السَّامرة[2]: إن يُوشَع كان نبيًّا، ومَنْ بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء.

أو قال ما يقوله اليهود: إن داود وسليمان وأشعيا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال[3] كانوا أنبياء، والمسيح بن مريم لم يكن نبيًّا.

كان هذا قولًا متناقضًا معلوم البطلان؛ فإن الذين نفىٰ هؤلاء عنهم النبوَّة أحقُّ بالنبوَّة وأكملُ نبوَّةً ممَّن أثبتوها له، ودلائل نبوَّة الأكمل أفضل[4]، فكيف يجوز إثبات النبوَّة للنبيِّ المفضول دون الفاضل؟!

وصار هذا كما لو قال قائل: إن زُفَر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء، وأبا حنيفة ومالكًا والشافعيَّ وأحمد لم يكونوا فقهاء.

أو قال: إن الأخفش وابن الأنباري والمُبَرِّد كانوا نحاة، والخليل وسيبويه والفرَّاء لم يكونوا نحاة.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) من فرق اليهود، يخالفون سائر اليهود في توراتهم وشريعتهم، ولا يعترفون بالمِشْنا ولا بنبوة من بعد موسىٰ ويوشع، وهم في اليهود «كالرافضة في المسلمين»، كما يقول شيخ الإسلام. انظر: «الملل والنحل» (١/ ١٩٩)، و«منهاج السنة» (١/ ٣٧، ٥/ ١٧٤)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (٢٩٠)، و«جامع الرسائل» (١/ ٢٧٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٧٩)، وما سيأتي (٢/ ٥٦).

(٣) من أنبياء بني إسرائيل المذكورين في العهد القديم، ومنهم من لم يثبت عند المسلمين أنه نبي، كمليخا وعاموص، كما سيأتي (٣/ ٤٨٤).

(٤) (ي، و): «الأفضل أكمل».



أو قال: إن صاحبَ «المَلَكِي» و«المَسِيحي»[1] ونحوهما من كتب الطبِّ كانوا أطبَّاء، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطبَّاء.

أو قال: إن كُوشِيَار والخَرَقِيَّ[2] ونحوهما كانوا يعرفون علمَ الهيئة، وبَطْلَمْيُوس[3] ونحوه لم يكن لهم علمٌ بالهيئة.

ومن قال: إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمَّد بن عبد الله لم يكن نبيًّا، فتناقضه أظهر، وفساد قوله أبينُ من هذا جميعه.

بل وكذلك من قال: إن موسىٰ وعيسىٰ رسولان، والتوراة والإنجيل كتابان منزَّلان من عند الله، ومحمَّدًا ليس برسول، والقرآن لم ينزل من الله، فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبَّر ما جاء به محمَّدٌ ﷺ وما جاء به

---

(١) الملكي: هو كتاب «كامل الصناعة الطبية الضرورية» لعلي بن العباس المجوسي، قال القفطي: مال الناسُ إليه في وقته ولزموا درسَه إلىٰ أن ظهر كتاب «القانون» لابن سينا فمالوا إليه وتركوا «الملكيَّ» بعض التَّرك، و«الملكيُّ» في العمل أبلغ، و«القانون» في العلم أثبت. واشتهر بالملكي؛ لأنه صنفه للملك عضد الدولة فنَّاخُسرو البويهي. انظر: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (١/ ٢٨٠)، و«عيون الأنباء» (٣٢٠)، و«الأعلام» (٤/ ٢٩٧).
والمسيحي: هو كتاب «كنَّاش مَسِيح»، ويقال له: «المسيحي» نسبة إلىٰ مؤلفه عيسىٰ بن حكم الدمشقي الطبيب المشهور بمَسِيح. انظر: «عيون الأنباء» (١٧٧)، وتعليق شيخنا الإصلاحي علىٰ «زاد المعاد» (٤/ ١١٤، ٢٦٨، ٥٣٤).

(٢) كوشيار: أبو الحسن كوشيار بن لبان الجِيلي، توفي سنة ٣٥٠، وقيل بعدها، فلكيٌّ مهندس، له كتاب «الزيج الجامع»، و«مجمل الأصول في أحكام النجوم»، وغيرهما. انظر: «تتمة صوان الحكمة» (٩١)، و«الأعلام» (٥/ ٢٣٦).
والخَرَقي: أبو بكر محمد بن أحمد المروزي، له «التبصرة في علم الهيئة»، توفي سنة ٥٣٣. انظر: «الفوائد البهية» للكنوي (٩٢)، و«الأعلام» (٥/ ٣١٧).

(٣) كذا في الأصول، ويقال: بطليموس (بتقديم الياء)، وكلاهما صحيح. انظر: «تاج العروس» (١٥/ ٤٥٩)، و«معجم أعلام المورد» (١٠٧).

من قبله، وتدبَّر كتابه والكتبَ التي قبله، وآيات نبوَّته[1] وآيات نبوَّة هؤلاء، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء.

وهذه الجملة مفصَّلةٌ مشروحةٌ في غير هذا الموضع[2]، لكنَّ المقصود هنا التنبيه علىٰ مجامع جوابهم.

وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحدٍ يدلُّ علىٰ صدق من احتجُّوا به من الأنبياء، فلو ناظَرَهم من يكذِّب بهؤلاء الأنبياء كلِّهم[3] من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجَّةٌ لهم، ولا حجَّة لهم أيضًا علىٰ المسلمين الذين يُقِرُّون بنبوَّة هؤلاء؛ فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمَّدٍ أنهم أنبياء، فيمتنعُ أن يصدِّقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به عَلِمُوا صدقَهم.

وأيضًا، فالطريق الذي به عُلِمَت نبوَّة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم، فكذلك تُعْلَمُ نبوَّة محمَّدٍ بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولىٰ، فيمتنعُ أن يصدِّق أحدٌ من المسلمين بنبوَّة واحدٍ من هؤلاء مع تكذيبه لمحمَّدٍ في كلمةٍ ممَّا جاء به.

(١) (ع): «نبوة محمد».
(٢) سيأتي تفصيل ذلك (١/ ٢٧٥).
(٣) ليست في (ع).



فصل[1]

وممَّا ينبغي أن يُعْلَم[2] أن كثيرًا من النَّصارىٰ إنما يعتمدون في النبوَّات علىٰ بشارة[3] الأنبياء بمن يأتي بعدهم، فيقولون: المسيح عليه السلام بشَّرت به الأنبياء قبله، بخلاف محمَّدٍ ﷺ، فإنه لم يبشِّر به نبيٌّ.

وجوابُ هؤلاء من وجهين:

أحدهما: أن يقال: بل البشارة بمحمَّدٍ ﷺ في الكتب المتقدِّمة أعظمُ من البشارة بالمسيح عليه السلام ، وكما أن اليهود يتأوَّلون البشارة بالمسيح علىٰ أنه ليس هو عيسىٰ بن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيحَ الدَّجَّال؛ فإنه الذي يتبعه اليهود، ويخرج معه سبعون ألف مُطَيْلَسٍ من يهود أصبهان[4]، ويقتلهم المسلمون معه، حتىٰ يقول الشَّجر والحجر: يا مسلمُ، هذا يهوديٌّ ورائي، تعالَ فاقتله[5]، كما ثبت ذلك في الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ.

وثبت أيضًا في الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ينزل عيسىٰ بنُ مريم من السَّماء علىٰ المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق**»[6]، «**فيكسِر الصَّليب، ويقتُل الخنزير، ويضع الجزية**»[7]، ويقتل مسيحُ الهدىٰ عيسىٰ بنُ مريم مسيحَ الضلالة

---

(١) ليست في (و).

(٢) (ي): «ومما يعلم».

(٣) (ع): «بشارات».

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولفظه: «سبعون ألفًا عليهم الطيالسة»، جمع طيلسان، وهو ثوبٌ يلبس علىٰ الكتف يحيط بالبدن.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٢٥، ٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢١) من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم.

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأعورَ الدَّجَّال علىٰ بضع عشرة خطوةٍ من باب لُدٍّ[1]؛ ليتبيَّن للنَّاس أن البشر لا يكون إلهًا، فيَقْتُل من ادُّعِيَ فيه أنه الله وهو بريءٌ ممَّا ادُّعِيَ فيه من[2] ادَّعىٰ في نفسه أنه الله وهو دجَّالٌ كذَّاب.

فهكذا البشاراتُ بمحمَّد ﷺ في الكتب المتقدِّمة، وقد يتأوَّلها بعض أهل الكتاب علىٰ غير تأويلها، كما قد بُسِط في موضع آخر؛ فإن بسط الكلام في ذكر محمَّدٍ ﷺ في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب له موضعٌ آخر[3].

الجواب الثاني: أن يقال: ليس من شرطِ النبيِّ أن يبشِّر به من تقدَّمه، كما أن موسىٰ كان رسولًا إلىٰ فرعون، ولم يتقدَّم لفرعون به بشارة، وكذلك الخليل عليه السلام أُرْسِل إلىٰ نمرود ولم يتقدَّم به بشارة نبيٍّ إليه، وكذلك نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ولوطٌ لم يتقدَّم بواحدٍ من[4] هؤلاء بشارةٌ إلىٰ قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين؛ فإن دلائل نبوَّة النبيِّ لا تنحصر في إخبار من تقدَّمه، بل دلائل النبوَّة منها المعجزاتُ ومنها غير المعجزات، كما قد بُسِط في موضع آخر[5].

وهؤلاء النَّصارىٰ إنما مستنَد دينهم في التثليث والاتِّحاد وغير ذلك هو السَّمع، وهو دعواهم أن الكتب الإلهيَّة جاءت بذلك، ليس مستندهم فيه العقل، فإذا تبيَّن أنهم مع تكذيبهم بمحمَّدٍ ﷺ يمتنع أن تثبت نبوَّةُ غيره امتنع استدلالهم بالسَّمعيات.

---

(١) أخرجه مسلم في حديث النواس المتقدم، دون ذكر عدد الخطوات فلم أره مرفوعًا.

(٢) الأصول: «لمن»، والمثبت أشبه.

(٣) سيأتي ذلك مفصَّلًا (٤/ ٧٠-١٠٢).

(٤) «بواحد من» ليست في (و، ي).

(٥) كما سيأتي (٤/ ١٧٦-١٨٣).

وأما العقليات، فإن تشبَّثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجَّتهم فيها ضعيفة، وأنها على نقيض مذهبهم أدلُّ منها على مذهبهم، وسنبيِّن إن شاء الله أن لا حجَّة لهم في سمعٍ ولا عقل، بل ذلك كلُّه حجةٌ عليهم.

وأما تمثيلُهم الكتابَ[1] بالوثيقة التي كُتِب الوفاء في ظهرها[2]، فتمثيلٌ باطلٌ غير مطابق؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرارٌ بسقوط الدَّين، ولا مناقضة بين ثبوت الدَّين أولًا وسقوطه آخرًا بالوفاء، بل أمكَنَ مع هذا دعواه.

وأمَّا من يَذْكُر أنه رسول الله، فلا يمكن أن يُقَرَّ بأنه رسول الله في بعض ما

---

(١) يعني القرآن.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٩). قال: «فإن المسلمين إذا احتججنا عليهم بما في كتابهم يقولون: إذا كنتم تحتجُّون ببعضه فيلزمكم قبوله كله. قالوا: ليس الأمر على هذه الصورة، لأنه إذا كان لإنسانٍ على إنسانٍ كتابٌ بدَيْن مئة دينار، وقد ذُكِر في الكتاب أنه قد وفى، فأظهر صاحبُ الدَّين الكتابَ وطالب المديون بالمئة دينار، أيجوز إذا احتجَّ المديون بما في الكتاب من أنه قد وفى أن يقول له صاحبُ الدَّين: كما تقبل هذا اقبل المئة دينار وأدِّنيها؟! كلا، بل يدفع عنه المئة دينار التي في الكتاب بما في الكتاب أيضًا من أنه قد وفى. وكذلك أي شيء قيل عنَّا واحتُجَّ به علينا من هذا الكتاب دفعناه من هذا الكتاب بما نجده فيه من الحجج لنا».

وإنما نقلتُ النصَّ بتمامه ليُفْهَم سياق الكلام؛ إذ لم يسبق ذكرُ تمثيلهم بوثيقة الدَّين، وقد أشكل ذلك على السَّفاريني، فكتب عند هذا الموضع حاشية على نسخته نقلها ناسخا (د، ع) في الطرة، قال: «قوله: وأما تمثيلهم الكتاب إلى آخر الفصل = فليس ممَّا يلي ما قبله، بل بين الكلامين تنافر، فيحتاج إلى تصحيح ذلك إن وُجِدت نسخةٌ صحيحة. اهـ سفاريني». وتعقبه نعمان الآلوسي، فكتب بخطِّه تحته في نسخة (ع): «أقول: قد راجعتُ نسخةً مصحَّحةً في إسلامبول، فوجدتها محرَّرة مثل هذا الكتاب، فلعلَّ السفاريني قال: إنها متنافرة بحسب الظاهر، وأن قول الشيخ: وأما تمثيلهم إلخ راجعٌ إلى ما حرَّره النَّصارى في كتابهم المرسول إليه، فليراجَع. الفقير نعمان». وقد راجعتُ رسالتهم، ونقلت كلامهم في صدر هذه التعليقة، وبه يستبين استقامة النصِّ وسلامته من التنافر؛ فإن شيخ الإسلام ذكر أن مستند دينهم هو السمع، وأن ما أوردوه من العقليات ضعيف، ثم ذكر تمثيلهم القرآن بوثيقة الدَّين نموذجًا لعقلياتهم الواهية، وأجاب عنه جوابًا مفصَّلًا.



أنبأ به عن الله دون بعض، ولا يمكن اتِّباع بعض كتابه الذي ذكر أنه منزَّلٌ من عند الله دون بعض.

فإنه إن كان صادقًا في قوله: «إنه رسول الله» كان معصومًا في كلِّ[1] ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يَكْذِب في شيءٍ منه لا عمدًا ولا خطأً، ووجب اتِّباع الكتاب الذي جاء به من عند الله، ولم يمكن ردُّ شيءٍ ممَّا ذَكَر أنه جاء به من الله.

وإن كان كاذبًا في كلمةٍ واحدةٍ ممَّا أخبَر به عن الله فهو من الكاذبين المفترين، فلا يجوز أن يُحْتَجّ لشيءٍ[2] من دينهم ولا دين غيرهم بمجرَّد إخباره عن الله، بل ولا بمجرَّد خبره وقوله وإن لم يَذْكُر أنه خبرٌ عن الله، كما لا يجوز مثل ذلك في سائر من عُرِف أنه كاذبٌ في قوله: «إني رسول الله»، كمُسَيْلِمَة الحنفي، والأسود العَنْسِي، وطُلَيْحَة الأسدي[3]، والحارث الدِّمشقي[4]، وبابا الرُّومي[5]، وأمثالهم من الكذَّابين.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (د، و، ع): «بشيء»، والمثبت من (ي) أقوم.

(٣) مسيلمة والأسود وطليحة تراجمهم وأخبارهم مشهورة.

(٤) الحارث بن سعيد، نشأ بالشام متعبدًا زاهدًا، ثم ادعىٰ النبوة، بعث عبد الملك بن مروان في طلبه حتىٰ عثر عليه ببيت المقدس، وصلبه وقتله سنة ٧٩. انظر: «تاريخ دمشق» (١١/ ٤٢٧)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٨٠٣).

(٥) متنبئ تركماني، ظهر بالروم، وادعىٰ النبوة، وكان يقول: لا إله إلا الله، البابا وليُّ الله، واجتمع عليه خلقٌ عظيم، فجهز صاحب الروم جيشًا لقتاله، وقتل في الموقعة سنة ٦٣٨. انظر: «مرآة الزمان» (٢٢/ ٣٧٠)، و«تاريخ مختصر الدول» (٢٥١)، و«تاريخ الإسلام» (١٤/ ٢٩)، و«الوافي» (١٠/ ٦١).

وقد ذكره شيخ الإسلام في مواضع من كتبه، ولم يعرفه محققوها: «شرح الأصبهانية» (٣٣١)، و«النبوات» (١٦٨، ٢٣٣، ٤٩٧)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١١٤)، وكتابنا «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٣، ٣٤٣، ٣/ ٥٠٠، ٦/ ٤٢٣- ط. العاصمة).



والواحدُ من المسلمين وإن كان الله لا يؤاخذه بالنسيان والخطأ، بل والرسول أيضًا وإن لم يكن مؤاخذًا[1] بالنسيان والخطأ في غير ما يبلِّغه عن الله عند السَّلف والأئمَّة وجمهور المسلمين، لكنَّ ما يبلِّغه عن الله لا يجوز أن يستقرَّ فيه خطأ؛ فإنه لو جاز أن يبلِّغ عن الله ما لم يقله الله، ويستقرَّ ذلك، ويأخذه النَّاس عنه معتقدين أن الله قاله، ولم يقله الله = كان هذا مناقضًا لمقصود الرسالة، ولم يكن رسولًا لله في ذلك، بل كان كاذبًا في ذلك وإن لم يتعمدَّه، وإذا بلَّغ عن الله ما لم يقله وصُدِّق في ذلك كان قد صُدِّق من قال على الله غير الحقِّ، ومن تقوَّل عليه ما لم يقله وإن لم يكن متعمِّدًا.

ويمتنع في مثل هذا أن يصدِّقه الله في كلِّ ما يخبر به عنه، أو أن يُقِيم له من الآيات والبراهين ما يدلُّ على صدقه في كلِّ ما يخبر به عنه، مع أن الأمر ليس كذلك. ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلِّغه عن الله كان صادقًا في كلِّ ما يخبر به عن الله، لا يجوز أن يكون في خبره عن الله شيءٌ من الكذب لا عمدًا ولا خطأً.

وهذا ممَّا اتَّفق عليه جميعُ النَّاس[2] من المسلمين واليهود والنَّصارى وغيرهم، لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقرَّ في خبره عن الله خطأ.

وإنما تنازعوا: هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبيِّنه، فلا ينافي مقصود الرِّسالة، كما نَقَل من ذَكَر «**تلك الغرانيقُ العُلَى، وإن شفاعتها لتُرْتَجى**»[3].

---

(١) (و): «يؤاخذ».

(٢) «جميع الناس» ليست في (ي).

(٣) رويت من وجوه كثيرة مرسلة وموصولة لا تخلو من علة، قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤١): «ولم أرها مسندة من وجه صحيح»، لكن كثرة طرقها تدل على أن للقصة =

هذا فيه قولان للناس:

منهم من منع[1] ذلك أيضًا، وطَعَن في وقوع ذلك. ومن هؤلاء من قال: إنهم سمعوا ما لم يَقُله، فكان الخطأ في سمعِهم، والشيطان ألقىٰ في سمعهم.

ومن جوَّز ذلك[2] قال: إذا حصل البيان، ونُسِخ ما ألقىٰ الشيطان، لم يكن في ذلك محذورٌ، وكان ذلك دليلًا علىٰ صدقه وأمانته وديانته، وأنه غير متَّبعٍ هواه ولا مصرٍّ علىٰ غير الحق، كفعل طالب الرِّياسة المصرِّ علىٰ خطئه. وإذا كان نسخُ ما جُزِم[3] بأن الله أنزله لا محذور فيه، فنسخُ مثل هذا أولىٰ أن لا يكون فيه محذور. واستدلَّ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢- ٥٤].

وعلىٰ كلِّ قول، فالنَّاس متَّفقون علىٰ أن من أرسله الله وأقام الآيات علىٰ صدقه فيما يبلِّغه عن الله لم يكن ما يبلِّغه عنه إلا حقًّا، وإلا كانت الآيات الدَّالة علىٰ صدقه دلَّت علىٰ صدقِ من ليس بصادق، وبطلانُ مدلول الأدلة اليقينيَّة ممتنع.

= أصلًا، كما قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤٣٩). وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (٦٤٥)، و«تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٩١- ٣٩٥).

(١) (و): «يمنع».

(٢) وشيخ الإسلام يميل إلىٰ تجويزه، ويحكيه عن السلف، وينسب المنع للمتأخرين. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٢٩١)، و«منهاج السنة» (١/ ٤٧١، ٢/ ٤٠٩).

(٣) صححت في طرة (ي) إلىٰ «جزم الله».

والصِّدق الذي هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبـرُه عـن الله مطابقًا لمُخْبَره[1]، لا يخالفه عمدًا ولا خطأً.

ولو قال قائل: أنا لا أسمِّي[2] الخطأ كذبًا، أو قال: إن المخطئ لا إثم عليه في خطئه[3].

قيل له: هذا لا ينفع هنا؛ فإن الآيات دلَّت علىٰ أن الله أرسله ليبلِّغ عنه رسالاته، والله لا يرسل من يَعْلَمُ أنه يخبِر عنه بخلاف ما قال له، كما لا يجوز إرسال من يتعمَّد عليه الكذب، بل الواحد من النَّاس لا يرسل من يَعْلَمُ أنه يبلِّغ خلاف ما أرسله به، ولو عَلِم أنه يقول عليه ما لم يقل وأرسله مع ذلك لكان جاهلًا سفيهًا ليس بعليمٍ حكيم، فكيف يجوز ذلك علىٰ أعلم العالمين وأحكم الحاكمين؟!

وأيضًا، فإن الآيات والبراهين دلَّت علىٰ صدقه في كلِّ ما يبلغه عن الله، وأن الله مصدِّقه في كلِّ ما يبلِّغه عنه، فيمتنعُ أن لا يكون صادقًا في شيءٍ من ذلك، ويمتنع أن يصدِّق اللهُ في كلِّ ذلك من لا يَصْدُق في كلِّ ذلك؛ فإن تصديق من لا يَصْدُق كذب، والكذب ممتنعٌ علىٰ الله.

وإذا تبيَّن أن من ذَكَر أنه رسول الله إما أن يكون رسولًا صادقًا في جميع ما يبلِّغه، فيمتنع مع هذا تناقضُ أخباره؛ لأنها كلها صادقة، وإما أن يكون غير صادقٍ ولو في كلمة، فلا يكون رسولًا لله، فلا يُحْتَجُّ بشيءٍ ممَّا يخبر به عن الله = كان تمثيلُ من ذَكَر أنه رسول الله بالمُقِرِّ باستيفاء وثيقته تمثيلًا باطلًا؛ فإن صاحبَ الوثيقة الذي أقرَّ بوفائها بعدُ كانت له حجَّةٌ ثم استوفاها، ومن

(١) (ي): «الخبره».
(٢) (و، ي): «ألا أسمي»، وهو خطأ كسابقيه.
(٣) (ع): «خطائه»، وهو صحيح. وتحرفت في (د) إلىٰ «خطابه».

ذَكَر أنه رسول الله إما صادقٌ وإما كاذب، وعلىٰ التقديرين لا يجوز أن يُحْتَجَّ ببعض كلامه دون بعض.

وإذا قال القائل: مقصودي أبيِّن أنه متناقض، وأن نفس كلامه يبيِّن أنه لم يُرسَل إلينا، وأن ديننا حقٌّ، كما أن نفس كلام الذي كان له الحقُّ هو المُقِرُّ بالوفاء.

قيل: إن كان كلامه متناقضًا فليس برسول، وحينئذٍ فلا يجوز لك أن تحتجَّ بشيءٍ ممَّا بلَّغه عن الله، بخلاف المُقِرِّ بالوفاء، فإن إقراره مقبولٌ علىٰ نفسه؛ فإنه شاهدٌ علىٰ نفسه بالوفاء، وإقرارُ المُقِرِّ علىٰ نفسه[1] وشهادتُه علىٰ نفسه مقبولةٌ ولو كان كافرًا وفاسقًا، بخلاف شهادته علىٰ الله أن الله أرسله، إذا كَذَب في كلمةٍ واحدةٍ لم يكن الله أرسله؛ فلا يُقْبَلُ شيءٌ من شهادته[2] وخبره عن الله.

فمن شبَّه إقرار المُقِرِّ علىٰ نفسه بقول الذي يقول: إنه رسول الله، دلَّ ذلك علىٰ غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل؛ فإن إقرار المُقِرِّ علىٰ نفسه حجَّةٌ عليه ولو كان فاسقًا معروفًا بالكذب، ليس هو مثل شهادة الإنسان علىٰ غيره؛ فإن شهادته علىٰ غيره لا تُقْبَل إذا كان معروفًا بالكذب، فكيف بمن شهد علىٰ الله بأن الله أرسله؟!

فالمُقِرُّ علىٰ نفسه يمكن قبولُ إقراره علىٰ نفسه، ولا يُقْبَل دعواه علىٰ غيره، وكذلك الشاهد قد تُقْبَل شهادته فيما ليس هو خصمًا فيه ولا تُقْبَل شهادته بما ادعاه.

---

(١) «بالوفاء وإقرار المقر علىٰ نفسه» سقط من (د، ع) لانتقال النظر.

(٢) من قوله: «علىٰ الله أن الله أرسله» إلىٰ هنا سقط كذلك من (و، ي) لانتقال النظر، ولم تثبته ط. العاصمة.

وأما من يقول: إنه رسول الله، فلا يمكن أن يصدَّق في بعض ما يخبِر به عن الله ويكذَّب في بعض، بل إن كان كاذبًا في كلمةٍ واحدةٍ فليس هو رسولًا لله، فلا يُحْتَجُّ بكلامه، وإن قُدِّر أن الكلام في نفسه صدقٌ، لكنَّ نسبته إلىٰ الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقًا فيه إذا كَذَب في كلمةٍ واحدة؛ لأن الله لا يرسل كاذبًا. وإن لم يكن كاذبًا في كلمةٍ واحدةٍ وجب تصديقُه في كلِّ ما يخبِر به، فلا يمكن تصديقُه في بعض ما يخبِر به عن الله دون بعض، بخلاف المُقِرِّ والشاهد.

وإن كان المقصود بيان تناقضه، كان هذا احتجاجًا علىٰ أنه ليس برسول، فلا ينفعهم ذلك، مع أنه تبيَّن أنه ليس بمتناقض.

وإن كان المقصود إلزام المسلمين به، فقد بيَّنَّا أنه لا يلزمهم[1] من وجوهٍ متعدِّدة.

فهذا بيانُ أنهم لا يجوز لهم الاحتجاج بشيءٍ من كلام محمَّد ﷺ سواءٌ صدَّقوه أو كذَّبوه.

ثم يقال لهم **ثانيًا** في الجواب[2] عن التمثيل بالوثيقة: إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحقِّ، وأما القرآن الذي جاء به محمَّدٌ[3] ﷺ فليس في إخباره بأنه أُرسِل إلىٰ قريش ثم إلىٰ العرب ما يناقض إخباره بأنه أُرسِل إلىٰ جميع النَّاس أهل الكتاب وغيرهم، كما أنه ليس في إخباره أنه أُرسِل إلىٰ بني إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠] ما يمنعُ[4] أن يكون مرسلًا إلىٰ اليهود من غير بني إسرائيل وإلىٰ النَّصارىٰ والمشركين.

---

(١) (د، ع): «يلزمه».

(٢) (د، ع): «فالجواب».

(٣) (ي): «وأما محمد».

(٤) (و): «يمنعه».

وهو لم يقل[1] قطُّ: إني لم أُرسَل إلا إلىٰ العرب، ولا قال ما يدلُّ علىٰ هذا، بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال: إنه مرسلٌ إلىٰ جميع الجنِّ والإنس، إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم.

ولو قُدِّر أنه قال: إنه لم يُرْسَل إلا إلىٰ العرب، ثم قال: إني أُرسِلتُ إلىٰ أهل الكتاب، لكان قد أُرسِل إلىٰ أهل الكتاب بعد إرساله إلىٰ العرب، كما قال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ [النحل: ١١٥]، ثم إنه بعد هذا حرَّم الله أشياء، فلم يكن بين نفي تحريمها في الزَّمن الأول وإثبات تحريمها في الزَّمن الثاني منافاة.

ولكنَّ نظيرَ[2] الدَّين إذا أوجَب شيئًا ثم نسَخ إيجابَه، كما نسَخ إيجابَ الصَّدقة بين يدي النجوىٰ، ففي مثل هذا يُتمسَّك بالنصِّ النَّاسخ دون المنسوخ، كما يُتَمسَّك بالإقرار بالوفاء النَّاسخ للإقرار بالدَّين.

---

(١) (ي): «ولم يقل»، (د، ع): «وهو أنه لم يقل».

(٢) مهملة في (ي). (و): «يظهر»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة.

فصل

وقد ذكرنا أنه لا يجوز أن يحتجُّوا بشيءٍ من القرآن وما نُقِل عن محمَّدٍ ﷺ إلا مع التصديق برسالته، وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرارُ بنبوَّة غيرِه، ولا الاحتجاجُ بشيءٍ من كلام الأنبياء، فتكذيبهم به[1] يستلزم تكذيبهم بغيره، فإذا ثبتت نبوَّة غيره ثبتت نبوَّته، وذلك يستلزم بطلان دينهم، فكان صحَّةُ دليلهم يستلزم بطلانَ المدلول، وفسادُ المدلول يستلزم فسادَ الدليل؛ فإن الدليل ملزومٌ للمدلول عليه، وإذا تحقَّق الملزوم تحقَّق اللازم، وإذا انتفىٰ اللازم انتفىٰ الملزوم، فإذا ثبت[2] الدليل ثبت المدلول عليه، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل؛ فإن الباطل لا يقوم عليه دليلٌ صحيح.

فإن كان محمَّدٌ رسولَ الله ﷺ لزم بطلانُ دينهم، وإذا بطل دينُهم لم يجز أن يقوم دليلٌ صحيحٌ علىٰ صحَّته، وإذا[3] لم يكن رسول الله لم يَجُز الاستدلال بقوله؛ فثبت أن استدلالهم بقوله باطلٌ علىٰ التقديرين.

ونحن نذكر هنا أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحدٍ من الأنبياء أو الرُّسل علىٰ صحَّة دينهم.

وأيضًا، فإن الذين احتجُّوا بقولهم مثل موسىٰ وداود والمسيح وغيرهم، إما أن يكونوا عَرَفوا أنهم أنبياء بدليل علىٰ نبوَّتهم، كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التي تسمَّىٰ بالمعجزات، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علمٍ ولا دليل، وإما أن يكونوا احتجُّوا بذلك علىٰ المسلمين لأنهم يسلِّمون نبوَّة هؤلاء.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (ي): «صح».

(٣) (ي، و): «وإن».

وعلىٰ كلِّ تقديرٍ لا يصحُّ استدلالهم بقولهم:

أما علىٰ الأول، فلأنه أيُّ طريقٍ ثبتت[1] بها نبوَّة واحدٍ من هؤلاء الأنبياء عليهم السَّلام فإنه تَثْبُتُ نبوَّة محمَّد ﷺ بمثلها وأعظمَ منها.

وحينئذٍ، فإن لم يقرُّوا بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ مع أن كل دليلٍ يدلُّ علىٰ نبوَّة موسىٰ وداود وعيسىٰ وغيرهم يدلُّ علىٰ نبوَّة محمَّد ﷺ لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم، فجعلوه قائمًا مع انتفاء مدلوله، وإذا انتقض الدليلُ بطلت دلالتُه؛ فإنه إنما يدلُّ إذا كان مستلزمًا للمدلول، فإذا كان تارةً يوجد مع المدلول وتارةً لا يوجد لم يكن مستلزمًا له، فلا يكون دليلًا.

فإن من جعل المعجزات دليلًا علىٰ نبوَّة نبيٍّ، وقال: المعجزة هي الفعلُ الخارق للعادة، المقرونُ بالتحدِّي، السَّالم من المعارضة، ونحو ذلك ممَّا يُذْكَر في هذا المقام، وجعلوا ذلك دليلًا علىٰ نبوَّة موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما من الأنبياء.

قيل له: إن كان هذا دليلًا فهو دليلٌ علىٰ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، وإن لم يكن دليلًا لم يكن دليلًا علىٰ نبوَّة موسىٰ وعيسىٰ؛ فإنه قد ثبت عن محمَّدٍ من المعجزات ما لم يثبت مثلُه عن غيره، ونقلُ معجزاته متواترٌ أعظمُ مِن نقلِ معجزات عيسىٰ وغيره، فيمتنع التصديقُ بآياته مع التكذيب بآيات محمَّدٍ ﷺ.

وإن قالوا: معجزاتُ محمَّدٍ ﷺ لم تتواتر عندنا.

قيل: ليس من شرط التواتر أن يتواتر عند طائفةٍ معينة، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم: لم تتواتر عندنا معجزاتُ موسىٰ[2] والمسيح

---

(١) (د، ع): «ثبت».

(٢) (و): «لم يتواتر عندنا موسىٰ».



عليهما السَّلام. وإنما تتواتر أخبار كلِّ إنسانٍ عند من[1] رأىٰ المشاهِدين له أو رأىٰ من رآهم وهلمَّ جرًّا[2].

ومعلومٌ أن أصحاب محمَّدٍ ﷺ الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعافُ أصحاب المسيح عليه السلام، والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصَّحابة كذلك، فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح عليه السلام التصديقُ بمعجزات محمَّدٍ ﷺ، ومن التكذيب بمعجزات محمَّد التكذيبُ بمعجزات المسيح.

وإن قالوا: عُرِفت نبوَّة المسيح ببشارات الأنبياء قبله.

قيل: وفي الكتب المتقدِّمة من البشارات بمحمَّدٍ ﷺ مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر، كما سيأتي بعضها إن شاء الله[3].

وإن تأوَّلوا تلك البشارات بمحمَّدٍ ﷺ بما يَمْنَعُ دلالتَها.

قيل لهم: واليهود يتأوَّلون بشارات المسيح بما يَمْنَعُ دلالتَها علىٰ المسيح.

فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلةٌ من وجوهٍ معروفة، بُيِّن لهم أن هذه باطلةٌ أيضًا بمثل تلك الوجوه وأقوىٰ. فما من جنسٍ من الأدلة يدلُّ علىٰ نبوَّة موسىٰ والمسيح إلا ودلالتُه علىٰ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ أقوىٰ وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوَّة موسىٰ والمسيح ثبوت نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، ومِن الطَّعن في نبوَّة محمَّدٍ ﷺ الطَّعنُ في نبوَّة موسىٰ والمسيح.

---

(١) (د، ع): «كل من».
(٢) انظر: «درء التعارض» (١/ ١٩٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٨/ ٥١، ٦٩)، وما سيأتي (٤/ ٤٥١-٤٦٩).
(٣) (٤/ ٧٠-١٠٢).

وإن قالوا: إن المسيح إلهٌ.

قيل لهم: ثبوت كونه إلهًا لو كان ممكنًا أبعدُ من ثبوت كونه رسولًا، فكيف إذا كان ممتنعًا؟!

وذلك أنه ليس معهم ما يدل علىٰ إلهيَّته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء، أو الخوارق.

والخوارقُ لا تدلُّ علىٰ الإلهيَّة؛ فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدلَّ علىٰ إلهيَّة أحدٍ منهم.

وأما أقوال الأنبياء عليهم السَّلام، فلا ريب أن دلالتها علىٰ رسالته ورسالة محمَّدٍ ﷺ أظهرُ من دلالتها علىٰ إلهيَّة المسيح؛ فيمتنعُ الاحتجاجُ بها علىٰ إلهيَّة المسيح دون رسالة محمَّدٍ ﷺ ورسالة المسيح.

ومتىٰ ثبت أن محمَّدًا رسول الله ﷺ بطلت إلهيَّة المسيح؛ فإنه كفَّر من قال: إنه الله أو ابنُ الله. بل وكذلك متىٰ ثبت أن المسيح رسولُ الله بطل كونه إلهًا؛ فإن كونه هو الله مع كونه رسولَ الله متناقضٌ.

وقولهم: إنه إلهٌ بلاهُوتِه، ورسولٌ بناسُوتِه، كلامٌ باطلٌ من وجوه:

منها: أن الذي كان يكلِّم النَّاس إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله، فإن كان هو الله بَطَل[1] كونُه رسول الله، وإن كان رسول الله بَطَل كونُه هو الله. ولهذا لمَّا كان الذي كلَّم موسىٰ عليه السلام من الشَّجرة هو الله لم تنطق الكتبُ بأنه[2] رسول الله.

(١) لم تحرر في (ي،ع) في الموضعين، وعلىٰ الصواب في (و) وطرة (د).
(٢) أي المتكلِّم.



وهذا واردٌ بأيِّ وجهٍ فسَّروا الاتِّحاد؛ فإنه من المعلوم أن النَّاس كانوا يسمعون من المسيح كلامًا بصوته المعروف، وصوتُه لم يختلف[1] ولا حاله عند الكلام تغيَّرت كما يختلفُ [صوتُ][2] الإنسان وحالُه عند الكلام إذا حلَّ[3] فيه الجنِّيُّ وإذا فارقه الجنِّيُّ؛ فإن الجنِّيَّ إذا تكلَّم علىٰ لسان المصروع ظهر الفرقُ بين ذلك المصروع وبين غيره من النَّاس، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه، وسُمِع منه من الكلام ما يُعْلَم يقينًا أنه لا يعرفه، وغاب عقله بحيث يظهَر ذلك للحاضرين، واختلف صوتُه ونغمتُه، فكيف بمن يكون ربُّ العالمين هو الحالُّ فيه المتَّحدُ به المتكلِّم بكلامه؟! فإنه لا بدَّ أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظمُ من الفرق الذي بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما.

يبيِّن هذا أن موسىٰ لمَّا سمع كلامَه سمع صوتًا خارقًا للعادة، مخالفًا لما يَعْهَد من الأصوات، ورأىٰ من الآيات الخارقة والعجائب ما يبيِّن أن ذلك الذي سمعه لا يَقْدِر علىٰ التكلُّم به إلا الله.

وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته طولَ[4] عمره وكلام سائر النَّاس فرقٌ يدلُّ علىٰ أنه نبيٌّ فضلًا عن أن يدلَّ علىٰ أنه إله، وإنما عُلِم أنه نبيٌّ بأدلةٍ منفصلة. ولم يكن حاله يختلف، مع أنهم يقولون: إن الاتِّحاد ملازمٌ له من حين خُلِق ناسوتُه في بطن أمِّه مريم وإلىٰ الأبد، لا يفارق اللاهوتُ لذلك النَّاسوت أبدًا. وحينئذٍ، فمن المعلوم أن خطابه للناس إن كان خطابَ ربِّ العالمين لم

(١) ط. النيل: «يختلف عليهم».
(٢) ليست في الأصول والطبعات، والسياق يقتضيها.
(٣) ط. النيل: «دخل»، وفي طرة (د) إشارة إلىٰ أنها في نسخة.
(٤) (و): «مع طول»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

يكن هو رسوله، وإن كان خطابَ رسوله لم يكن ذلك صوتُ ربِّ العالمين.

الوجه الثاني: أن خطابه خطابُ رسولٍ ونبيٍّ، كما ثبت ذلك عنه في عامَّة المواضع.

الثالث: أن مصير الشَّيئين شيئًا واحدًا مع بقائهما علىٰ حالهما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنعٌ في صريح العقل، وإنما المعقول مع الاتِّحاد أن يستحيلا ويختلطا، كالماء مع الخمر واللَّبن، فإنهما إذا صارا شيئًا واحدًا استحالا واختلطا.

الرابع: أنه مع الاتِّحاد يصير الشَّيئان شيئًا واحدًا، فيكون الإله هو الرَّسول، والرَّسول هو الإله؛ إذ هذا هو هذا، وإن كان الإله غير الرَّسول فهما شيئان.

ومهما مثَّلوا به قولَهم، كتشبيههم ذلك بالنَّار في الحديد، والرُّوح في البدن[1]، فإنه يدلُّ علىٰ فساد قولهم؛ فإن الحديد متىٰ طُرِق أو وُضِع في الماء كان ذلك مصيبًا للنَّار، وكذلك البدن إذا جاع أو صُلِبَ وتألَّم كان ذلك الألم مصيبًا للرُّوح، فيلزم أن يكون ربُّ العالمين قد أصابه ألمُ الجوع والعطش، وكذلك الضَّربُ والصَّلبُ علىٰ قولهم، وهذا شرٌّ من قول اليهود: إنه فقيرٌ، وإنه بخيلٌ، وإنه مسَّه اللُّغوب.

---

(١) انظر: رسالة بولس الأنطاكي (٤٢٠، ٤٢١).

فصل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين، قيل لهم:

أولًا: هذه حجَّةٌ جدليَّة، فما مستندكم فيما بينكم وبين الله في تصديق شخصٍ وتكذيب آخر، مع أن دلالة الصِّدق فيهما واحدة، بل هي في الذي كذَّبتموه أظهر؟! فإن كانت حقًّا لزم تصديقُ من كذَّبتموه وفسَد دينُكم، وإن كانت باطلةً بطل استدلالكم بها على دينكم. فثبت أنهم مع تكذيب محمَّدٍ ﷺ لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحدٍ من الأنبياء عليهم السَّلام.

وقيل لهم **ثانيًا**: المسلمون إنما عَرفوا صدقَ هؤلاء الأنبياء بما دلَّهم على صدق محمَّدٍ ﷺ، فإن لم يكن محمَّدٌ صادقًا لم يعرفوا صدقَ هؤلاء، فيبطل دليلكم، وإن كان صادقًا بطل دين النَّصارى، فيبطل دليل صحَّته؛ فثبت بطلان دليلهم على كلِّ تقدير.

وقيل لهم **ثالثًا**: المسلمون لم يصدِّقوا نبوَّة أحدٍ من هؤلاء إلا مع نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، وإن قيل: إنهم عرفوا ذلك بطريقٍ آخر، فإن الدليل الذي يدلُّ على صدق واحدٍ منهم يدلُّ على صدق محمَّدٍ ﷺ بطريق الأولى، فلا يمكنهم تصديق نبيٍّ[1] مع تكذيب محمَّدٍ ﷺ.

وقيل لهم **رابعًا**: هم إنما يصدِّقون موسى[2] وعيسى اللذَين بشَّرا بمحمَّدٍ ﷺ، فإن كانا قد بشَّرا به فثبتت نبوَّته، وإن لم يكونا بشَّرا به فهم لا يؤمنون إلا بالمبشِّرين به وبالتَّوراة والإنجيل التي[3] هو مكتوبٌ فيهما، فإن قُدِّر عدم ذلك فهم لا يسلِّمون وجود موسى وعيسى وتوراةٍ وإنجيلٍ منزَّلَيْن من الله ليس فيهما ذكرُه ﷺ.

---

(١) مهملة في (ي)، (و): «موسى»، ط. النيل: «شيء»، والصواب المثبت من (د، ع).

(٢) (ع): «بموسى».

(٣) كذا في الأصول، وفي طرة (ع) إشارة إلى أن في نسخة: «اللذين».

وإن قالوا: نحن صدَّقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريقٍ يدلُّ علىٰ صدقهم؛ لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظِّمون هؤلاء ويقولون: هم أنبياء، فاتَّبعنا آباءنا في ذلك من غير علم. وهذا هو الواقع من أكثرهم.

قيل: فإذا كان هذا قولكم في الأنبياء وفيما شهدوا به -إن كانوا شهدوا- فيلزم أن لا يكونوا عالِمين به، بل متَّبعين فيه لآبائهم بغير علمٍ بطريق الأولىٰ، وبهذا يحصل المقصود، وهو أن ما أنتم عليه من اعتقاد دين النصرانيَّة لا علم لكم به[1] ولا دليل لكم علىٰ صحَّته، بل أنتم فيه متَّبعون لآبائكم، كاتِّباع اليهود والمشركين لآبائهم.

ولا ريب أن هذا حال النَّصارىٰ، ولهذا سمَّاهم الله ضُلَّالًا في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الكهف: ٤، ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ١٤]. ولهذا كان النَّصارىٰ معروفين بالجهل والضلال، كما أن اليهود معروفون[2] بالظُّلم والقسوة والعناد.

فتبيَّن بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمَّدٍ ﷺ في كلمةٍ واحدةٍ الاحتجاجُ بقول أحدٍ[3] من الأنبياء علىٰ شيءٍ من دينهم ولا دين غيرهم.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) الأصول: «معروفين»، سبق قلم.

(٣) (و): «واحد».



فصل

وأما كونُ القرآن أُنزِل باللسان العربي وحده، فعنه أجوبة:

أحدها: أن يقال: والتَّوراة إنما أُنزِلت باللسان العِبْري وحده، وموسىٰ عليه السلام لم يكن يتكلَّم إلا بالعِبْرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلَّم بالتَّوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعِبْرية، ثمَّ[1] وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسانٍ واحد، بلسان الذي أُنزِلت عليه ولسانِ قومه الذين يخاطبهم أولًا.

وسائر الأنبياء إنما يخاطِبون النَّاس بلسان قومهم الذي يعرفونه أوَّلًا[2]، ثم بعد ذلك تُبلَّغ الكتبُ وكلامُ الأنبياء لسائر الأمم، إما بأن يُتَرْجَم لمن لا يَعْرِفُ لسان ذلك الكتاب، وإما بأن يتعلَّم النَّاس بلسان[3] ذلك الكتاب، فيعرفون معانيه، وإما بأن يبيَّن للمُرْسَل[4] إليه معاني ما أُرسِل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أُرسِل به.

وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرُّسلُ لقومهم وما قالوا لهم، وأكثرهم لم يكونوا عربًا، وأنزل[5] الله باللسان العربيِّ.

وحينئذٍ، فإن شرط التكليف تمكُّن العباد من فهم ما أُرسِل به الرسولُ إليهم، وذلك يَحْصُل بأن يُرْسَل بلسانٍ[6] يُعْرَفُ به مرادُه، ثم جميعُ النَّاس متمكِّنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان، أو يعرفوا معنىٰ الكتاب بترجمة من يُتَرْجِمُ معناه، وهذا مقدورٌ للعباد.

---

(١) ليست في (ي).

(٢) من قوله: «وسائر الأنبياء» إلىٰ هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٣) كذا في الأصول. وفي ط. النيل وما تلاها: «لسان».

(٤) (د، ي، ع): «المرسل».

(٥) كذا في الأصول. وفي ط. النيل وما تلاها: «وأنزله».

(٦) (ي، د، و): «بلسانه»، وفي طرة (و): «لعله بلسان»، وأشار في طرة (د) إلىٰ أنها في نسخة، والمثبت من (ع).

ومن لم يمكنه فهمُ كلام الرسول إلا بتعلُّم اللغة التي أُرسِل بها وجبَ عليه ذلك؛ فإن ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب، بخلاف ما لا يتمُّ الوجوبُ إلا به فإنـه لـيس بواجـب[١]، ولا يكلِّـف الله نفسًـا إلا وسـعها، لا في الأصـل ولا في التَّمام، فلا نحتاج أن نقول: ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به وكان مقدورًا للمكلَّف فهو واجب؛ فإن ما ليس مقدورًا عليه لا يكلَّف به العباد، بل وقد يكون مقدورًا عليه ولا يكلَّفون به، فلمَّا كانت الاستطاعة شرطًا في وجوب الحجِّ لم يجب تحصيلُ الاستطاعة، بخلاف قطع المسافة[٢]، فإنه ليس شرطًا في الوجوب، فلهذا يجب علىٰ الإنسان الحجُّ من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعًا.

وجمهورُ النَّاس لا يعرفون معاني الكتب الإلهيَّة التَّوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن يبيِّنها ويفسِّرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللغة، فهؤلاء يجبُ عليهم طلبُ علمِ ما يَعْرِفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، وهذا هو طلبُ العلم المفروض علىٰ الخلق.

وكذلك ما بيَّنه الرسول ﷺ من معاني الكتاب الذي أنزله الله عليه يجبُ علىٰ الخلق طلبُ علم ذلك ممَّن يعرفه، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرَّد اللسان، كما يروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «تفسير القرآن[٣] علىٰ أربعة أوجه: تفسيرٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسيرٌ لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يَعْلَمُه العلماء، وتفسيرٌ لا يَعْلَمُه إلا الله تبارك وتعالى، فمن ادَّعىٰ علمَه فهو كاذب»[٤].

---

(١) انظر: «درء التعارض» (١/ ٢١٢- ٢١٣).

(٢) (و): «المسافات».

(٣) (ع): «التفسير».

(٤) أخرجه ابن جرير (١/ ٧٠) بسند حسن، إلا أن فيه إرسالًا. وروي من وجه آخر يقويه عند الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٨٥). ورفعه محمد بن السائب الكلبي إلىٰ النبي ﷺ، =

والله تعالىٰ قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، لم يقل: «وما أرسلنا من رسولٍ إلا إلىٰ قومه»، لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبَهم أولًا؛ ليبيِّن لقومه، فإذا بيَّن لقومه ما أراده[١] حصَل بذلك المقصود لهم ولغيرهم؛ فإن قومه الذين بلَّغ إليهم أولًا يمكنهم أن يبلِّغوا عنه اللفظ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنىٰ لمن لا يعرف اللغة، ويمكنُ غيرَهم أن يتعلَّم منهم لسانه، فيعرف مرادَه.

فالحجة تقوم علىٰ الخلق ويحصل لهم الهدىٰ بمن ينقل عن الرسول، تارةً المعنىٰ وتارةً اللفظ؛ ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنىٰ.

والقرآن يجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربيَّة باتفاق العلماء[٢]. وجوَّز بعضهم أن يقرأ بغير العربيَّة عند العجز عن قراءته بالعربيَّة، وبعضهم جوَّزه مطلقًا، وجمهور العلماء منعوا أن يُقْرَأ[٣] بغير العربيَّة[٤]، وإن جاز أن يُتْرَجَم للتفهيم[٥] بغير العربيَّة، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه، وإن كان التفسير ليس قرآنًا متلوًّا، وكذلك التَّرجمة.

= أخرجه ابن جرير (١/ ٧٠)، وقال: «في إسناده نظر»، والكلبي متروك الحديث متهم بالكذب، قال ابن كثير (١/ ١٥): «قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس». وقد روي من طريق الكلبي موقوفًا عند ابن المنذر في تفسيره (١/ ١٣١)، وفي سنده إعضال.

(١) (و): «فإذا تبين ما أراده».

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٣٩٠، ٨/ ٢٣٠، ٤٧٤)، و«التسعينية» (٨١٩)، و«درء التعارض» (١/ ٤٣)، و«منهاج السنة» (٢/ ٦١٢)، و«الانتصار لأهل الأثر» (١٧٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٥٤٢)، وما سيأتي (١/ ٢٩١، ٢/ ٦٩).

(٣) (ع): «وجمهور العلماء أن لا يقرأ».

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥١٩)، وما سيأتي (٢/ ٦٩).

(٥) (و): «للتفهم».

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**نضَّر الله امرءًا سمع منَّا حديثًا، فبلَّغه إلىٰ من لم يسمعه، فرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيه، ورُبَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقه منه**»[1].

وقال أيضًا في الحديث الصَّحيح: «**مثلُ ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير، وكانت منها طائفةٌ أمسكت الماء فنفع الله به النَّاس فزرعوا وسَقوا، وكانت منها طائفةٌ إنما هي قِيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبتُ كلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُهَ[2] في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبَل هدىٰ الله الذي أُرسِلتُ به**»[3].

فدعا النبيُّ ﷺ لمن يبلِّغ حديثَه وإن لم يتفقَّه[4]، وقال: «**ربَّ حامل فقهٍ غير فقيه، وربَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقهُ منه**».

وقد كانت[5] العارفون باللغة العربيَّة حين بعث الله محمَّدًا ﷺ إنما يوجدون في جزيرة العرب وما والاها، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشَّام والعراق، ثم انتشر[6] فصار أكثرُ السَّاكنين في وسط المعمورة يعرفون[7]

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٥٧)، والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٦، ٦٨، ٦٩).
وروي من وجوه أخرىٰ كثيرة تبلغ حد التواتر، وحديث ابن مسعود أصحُّ ما في الباب.
انظر: «شرف أصحاب الحديث» (١٨)، و«موافقة الخبر الخبر» (١/ ٣٦٤)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٦).

(٢) (و، د): «تفقه»، وهو خطأ. وأشار في طرة (د) إلىٰ أن «فقه» في نسخة. والمثبت من (ع، ي) رواية الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٤) ألحق في (و) فوق السطر بعدها: «فيه»، وليست في سائر الأصول.

(٥) كذا في الأصول. وغيِّرت في ط. العاصمة إلىٰ «كان».

(٦) الأمر، أو العلم بالعربية.

(٧) ساقطة من ط. العاصمة.

العربيَّة، حتىٰ اليهود والنَّصارىٰ الموجودون في وسط الأرض يتكلَّمون بالعربيَّة كما يتكلَّم بها أكثرُ المسلمين[1]، بل كثيرٌ من اليهود والنَّصارىٰ يتكلَّمون بالعربيَّة أجود ممَّا يتكلَّم بها كثيرٌ من المسلمين.

وقد انتشرت هذه اللغة أكثر ممَّا انتشرت سائر اللغات، حتىٰ إن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب، ومن كتب الفُرس والهند واليونان والقِبْط وغيرهم، عُرِّبت بهذه اللغة.

ومعرفةُ الكتب المصنَّفة بالعربيَّة والكلام العربيِّ أيسرُ علىٰ جمهور النَّاس من معرفة الكتب المصنَّفة بغير العربيَّة؛ فإن اللسان العِبْري[2] والسُّريانيَّ والرُّوميَّ والقِبطيَّ وغيرها وإن عرفه طائفةٌ من النَّاس فالذين يعرفون اللسان العربيَّ أكثر ممَّن يعرف لسانًا من هذه الألسنة.

وأيضًا، فمعرفةُ ما أمر الله به[3] عباده أمرًا عامًّا هو ممَّا نقلته[4] الأمَّة عن نبيِّها محمَّدٍ ﷺ نقلًا متواترًا، وأجمعت عليه، مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمَّدًا رسول الله، وأنه أُرسِل إلىٰ جميع النَّاس أمِّيِّهم وغير أمِّيِّهم، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، والحجِّ[5]، وإيجاب الصِّدق، وتحريم الفواحش والظُّلم، والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت = هو ما يعرفه المسلمون معرفةً عامَّة، ولا يحتاج

---

(١) (و): «يتكلم بها المسلمون»، وضرب علىٰ «أكثر». وفي (د، ي): «أكثر المسلمون». والمثبت من (ع).

(٢) (و، ي، د): «العربي»، وعلىٰ الصواب في (ع)، وأشير في طرة (د) إلىٰ أنه في نسخة.

(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

(٤) ط. العاصمة: «نقله»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٥) ليست في (ي، د، و). وفي (د): «وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلًا» مضروبًا عليها، وأثبتت في ط. النيل وما بعدها. والمثبت من (ع).

الإنسانُ في معرفة ذلك إلىٰ أن يحفظ القرآن، بل يمكنُ الإنسان معرفة ما أمر الله به علىٰ لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربيَّة، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسُوَرًا معها يصلِّي بهنَّ.

وكثيرٌ من الفرس والرُّوم والتُّرك والهند والحبشة والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربيَّة الكلام المعتاد، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتَّقين، ومنهم من يحفظ القرآن كلَّه وإذا كلَّم النَّاس لا يستطيعُ أن يكلِّمهم إلا بلسانه، لا بالعربيَّة، وإذا خوطب بالعربيَّة لم يفقه ما قيل له!

الوجه الثاني: أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لسانه عِبْريًّا، وكذلك ألسنة الحواريِّين الذين اتَّبعوه أولًا، ثم إنه أرسلهم إلىٰ الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فإن قالوا: إن رُسُل المسيح حُوِّلت ألسنتُهم إلىٰ ألسنة من أُرسِل إليهم.

قيل: هذا منقولٌ في رُسُل المسيح، وفي رُسُل محمَّدٍ صلىٰ الله عليهما[1] وسلَّم الذين أرسلهم إلىٰ الأمم، ولا ريب أن رُسُلَ رُسُلِ الله كرُسُل محمَّدٍ والمسيح عليهما الصلاة والسَّلام[2] إلىٰ الأمم لا بدَّ أنَ يعرفوا لسان من أرسَلهم الرسولُ إليهم، أو أن يكون عند أولئك من يفهَم لسانَهم ولسانَ الرَّسول ليُتَرْجِمَ لهم، فإذا لم يكن عند من أُرسِل المسيحُ إليهم من يعرفُ بالعربية[3] فلا بدَّ أن يكون رسوله ينطقُ بلسانهم.

وكذلك رُسُل النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين أرسلهم إلىٰ الأمم[4]، فإن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا

---

(١) (و): «عليه»، (ي): «عليهم».

(٢) (و): «محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ».

(٣) كذا في الأصول. وسيأتي نظيره (١/ ٢٩١، ٣١٧): «يعرف بلسان العرب»، «عرف بالعربية».

(٤) «إلىٰ الأمم» ليست في (ي، د، ع).

رجع من الحديبية أرسل رُسُله إلىٰ أهل الأرض، فبعث إلىٰ ملوك العرب باليمن والحجاز والشَّام والعراق، وأرسل إلىٰ ملوك النَّصارىٰ بالشَّام ومصر قِبطهم ورُومهم وعربهم وغيرهم[1]، وأرسل إلىٰ الفُرس المجوس ملوك العراق وخراسان.

قال محمَّد بن سعد في «الطبقات»[2]: ذِكرُ بعثة رسول الله ﷺ الرُّسُل بكتبه إلىٰ الملوك وغيرهم يدعوهم، وذِكرُ ما كتَب به رسول الله ﷺ لناسٍ من العرب وغيرهم.

ثم قال: أخبرنا محمَّد بن عمر الأسلمي، قال: حدثني معمر بن راشد ومحمَّد بن عبد الله، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباسٍ قال.

وعن الواقدي، حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة، عن المِسْوَر بن رفاعة.

وحدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه.

[وحدثنا عمر بن سليمان بن أبي حَثْمة، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حَثْمة][3]، عن جدَّته الشِّفاء.

وحدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة، عن محمَّد بن يوسف، عن السَّائب بن يزيد، عن العلاء بن الحضرمي.

وحدثنا [معاذ] بن محمَّد الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن جعفر بن عمرو بن أميَّة الضمري، عن أهله، عن عمرو بن أمية الضَّمْري.

---

(١) (د، ع): «وعبرهم». وفي ط. النيل: «وعربهم وعبرهم وغيرهم».

(٢) (١/ ٢٢٢).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصول، وكذا المواضع الآتية، واستدركتها من طبقات ابن سعد.

دخل حديثُ بعضهم في حديث بعض.

قالوا: إن رسول الله ﷺ لمَّا رجع من الحديبية في ذي الحجَّة سنة ستٍّ أرسل إلىٰ الملوك يدعوهم إلىٰ الإسلام، وكتب إليهم كتبًا، فقيل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرؤون كتابًا إلا مختومًا، فاتَّخذ رسول الله ﷺ يومئذٍ خاتمًا من فضَّةٍ فَصُّه منه، نقشُه ثلاثة أسطر: «محمَّد، رسول، الله»، وختَم به الكتب.

فخرج ستَّة نفرٍ منهم في يومٍ واحد، وذلك في المحرَّم سنة سبع، وأصبح كلُّ واحدٍ منهم يتكلَّم بلسان القوم الذين بعثه إليهم.

أرسل النبيُّ ﷺ إلىٰ هِرَقل دِحْيَة بن خليفة الكلبي، وإلىٰ المُقَوْقِس صاحب مصر والإسكندرية حاطبَ بن أبي بلتعة، وإلىٰ كسرىٰ عبد الله بن حذافة السَّهمي، وأرسل إلىٰ الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني -وكان نصرانيًّا بظاهر دمشق- فبعث إليه شجاع بن وهب الأسدي، وأرسل إلىٰ غير هؤلاء.

وقال أيضًا(١): أخبرنا الهيثم بن عدي، قال: أخبرنا دَلْهَمُ بن صالح وأبو بكر الهذلي، عن عبد الله بن بُرَيدة، [عن أبيه بُرَيدة] بن الحُصَيب الأسلمي.

قال: وحدثنا محمَّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان والزُّهري.

وحدثنا الحسن بن عمارة، عن فراس، عن الشَّعبي.

دخل حديثُ بعضهم في حديث بعض.

أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ائتوني(٢) بأجمعكم بالغداة»، وكان رسول الله ﷺ إذا صلىٰ الفجر يجلس في مصلَّاه قليلًا يسبِّح ويدعو، ثم التفت

---

(١) (١/ ٢٢٧).

(٢) «الطبقات»: «وافوني».

إليهم فبعث عدَّةً إلىٰ عدَّةٍ، وقال ﷺ لهم[1]: «**انصَحوا الله في أمر عباده، فإن من استُرْعِيَ شيئًا[2] من أمور المسلمين ثم لم ينصَح حرَّم الله عليه الجنَّة، انطلقوا، ولا تصنعوا كما صنعت رُسُل عيسىٰ بن مريم، فإنهم أتوا القريبَ وتركوا البعيد**»، فأصبحوا -يعني الرُّسُل- وكلٌّ منهم يعرف[3] بلسان القوم الذين أُرسِل إليهم، وذُكِر ذلك للنبيِّ[4] ﷺ، فقال: «**هذا أعظمُ ما كان من حقِّ الله ﷻ عليهم في أمر عباده**».

الوجه الثالث: أن النَّصارىٰ فيهم عربٌ كثيرٌ من زمن النبيِّ ﷺ، وكلُّ من يفهمُ اللسان العربيَّ فإنه يمكن فهمُه للقرآن وإن كان أصل لسانه فارسيًّا أو روميًّا أو تركيًّا أو هنديًّا أو قِبطيًّا.

وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النَّصارىٰ[5] قد قرؤوا المصحف، وفَهِموا منه ما فَهِموا، وهم يفهمونه بالعربيَّة، واحتجُّوا بآياتٍ من القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا: كيف تقوم الحجَّة علينا بكتابٍ لم نفهمه؟!

الوجه الرابع: أن حُكْمَ أهل الكتاب في ذلك حُكْمُ المشركين، ومعلومٌ أن المشركين فيهم عربٌ وفيهم عجمٌ تركٌ وهندٌ وغيرهما.

---

(١) ليست في (و، د).

(٢) تحرفت في الأصول إلىٰ «أخبر عن شيء». وتبعتها ط. النيل والعاصمة. والتصحيح من «الطبقات».

(٣) «الطبقات»: «يتكلم».

(٤) ط. العاصمة: «النبي»، وهو خطأ مخالف للأصول و«الطبقات».

(٥) يريد المذكورين في رسالة بولس الأنطاكي.

فكما أن جميع المشركين كمشركي العرب، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب، وفي اليهود والنَّصارىٰ ممَّن يعرفُ بلسان[1] العرب من لا يحصيه إلا الله ﷻ.

الوجه الخامس: أنه ليس فهم كلِّ آيةٍ من القرآن فرضًا علىٰ كلِّ مسلم، وإنما يجبُ علىٰ المسلم أن يَعْلَم ما أمره الله به[2] وما نهاه عنه بأيِّ عبارةٍ كانت، وهذا ممكنٌ لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميعُ أصناف العجم من الفُرس والتُّرك والهند والصَّقالبة والبربر، ومِن هؤلاء من يَعْلَمُ اللسانَ العربيَّ، ومنهم من يَعْلَمُ ما فرض الله عليه بالتَّرجمة[3].

وقد قدَّمنا[4] أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصَّلاة للتَّفهيم[5]، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين، وإنما تنازعوا: هل يقرأ بغير العربيَّة تلاوةً كما يقرأ في الصَّلاة؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك[6]، وحينئذٍ فإذا قرأ الأعجميُّ فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربيَّة أجزأه، وكذلك التشهُّد وغيره من الذِّكر المأمور به، وهذا أمرٌ يسيرٌ أيسر من أكثر الواجبات، فكيف يمتنع أن يأمر الله ﷻ عباده بذلك؟!

---

(١) كذا في الأصول، وسبق نظيره. وفي ط. النيل: «يعرف لسان».

(٢) «به» ليست في (ي). و«به الله» ليست في (و).

(٣) ط. العاصمة: «الترجمة»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) (١/ ٢٨٤).

(٥) (د، ع): «والتعبير»، وهي مهملة في (ي، و)، وصححت في طرة (و) إلىٰ «والتفسير»، والأشبه ما أثبت، وقد سبقت العبارة بهذا اللفظ في الموضع المتقدم.

(٦) انظر: «المحلىٰ» (٢/ ٢٨٥، ٣/ ٧٢)، و«المغني» (٢/ ١٥٨).

وأما جُمَلُ ما أمر به الرسول ﷺ من الصَّلاة، والزكاة، والصَّوم[1]، والحجِّ، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وما حرَّمه الله من الشرك، والفواحش، والظلم، وغير ذلك = فهذا ممَّا يمكن أن يعرفه كلُّ أحدٍ[2] بتعريفِ مَن يَعْرِفه، إمَّا باللسان العربيِّ، وإما بلسانٍ آخر، لا يتوقَّفُ تعريفُ ذلك علىٰ لسان العرب.

(١) من ط. النيل، وليست في الأصول.
(٢) (و): «واحد».

فصل

وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فهذا يتضمَّنُ إنعامَ الله به[1] علىٰ عباده؛ لأن اللسان العربيَّ أكملُ الألسنة وأحسنُها بيانًا للمعاني، فنزول الكتاب به أعظمُ نعمةً علىٰ الخلق من نزوله بغيره.

وهو إنما خوطبَ به أولًا العربُ ليفهموه، ثمَّ من يَعْلَمُ لغتَهم يَفْهَمُه كما فَهِمُوه، ثمَّ من لم يَعْلَم لغتَهم ترجَمَه له مَن عَرَف لغتَهم. وكان إقامة الحجَّة به علىٰ العرب أولًا، والإنعام به عليهم أولًا؛ لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، [وقال]: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، واللُّدُّ جمع الألَدِّ، وهو الأعوج في المناظرة، الذي يروغ عن الحقِّ[2]، كما قال النبي ﷺ: «**إن أبغض الرِّجال إلىٰ الله الألدُّ الخَصِم**»[3].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فهو كما قال تعالىٰ، وقومُ محمَّدٍ ﷺ هم قريش، وبلسانهم أُرْسِل، وهو سبحانه لم يقل: «وما أرسلنا من رسول إلا إلىٰ قومه»، بل الرسول يبعثه الله إلىٰ قومه وغير قومه، كما تقول النَّصارىٰ: إنه بَعَث المسيحَ عليه السلام

---

(١) ليست في (و)، ولم تثبتها ط. العاصمة.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٤/ ٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والحواريِّين[1] إلىٰ غير بني إسرائيل وليسوا من قومه، فكذلك بُعِث محمَّدٌ ﷺ إلىٰ قومه وغير قومه، ولكن إنما يُبْعَثُ بلسان قومه ليبيِّن لهم، ثم يَحْصُل البيان لغيرهم بتوسُّط البيان لهم، إمَّا بلغتهم ولسانهم، وإمَّا بالتَّرجمة لهم.

ولو لم يتبيَّن لقومه أولًا لم يحصل مقصود الرِّسالة لا لهم ولا لغيرهم، وإذا تبيَّن لقومه أولًا حصل البيانُ لهم ولغيرهم بتوسُّطهم، وقومُه إليهم بُعِث أولًا، ولهم دعا أولًا، وأنذر أولًا[2]، وليس في هذا أنه لم يُرْسَل إلىٰ غيرهم، لكن إذا تبيَّن لقومه لكونه بلسانهم أمكنَ بعد هذا أن يعرفه غيرُ قومه، إمَّا بتعلُّمه بلسانهم وإما بتعريفٍ بلسانٍ يُفْهَمُ به.

والرَّجلُ يكتب كتابَ علمٍ في طبٍّ أو نحوٍ أو حسابٍ بلسان قومه، ثم يُتَرْجَمُ ذلك الكتاب ويُنْقَل إلىٰ لغاتٍ أُخَر، وينتفع به أقوامٌ آخرون، كما تُرْجِمَت كتبُ الطبِّ والحساب التي صُنِّفَت[3] بغير العربي، وانتفع بها العربُ وعرفوا مراد أصحابها، وإن كان المصنِّف لها أولًا إنما صنَّفها بلسان قومه.

وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا يتعلَّق بها سعادة الآخرة والنَّجاة من عذاب الله، فكيف يمتنعُ في العلوم التي يتعلَّق بها سعادة الآخرة والنَّجاة من العذاب أن يُنْقَل من لسانٍ إلىٰ لسانٍ حتىٰ يفهم أهلُ اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلِّم بها أولًا باللسان الأول؟!

وأبناء فارس المسلمون لمَّا كان لهم عنايةٌ[4] بهذا ترجموا مصاحفَ كثيرة، فيكتبونها بالعربيِّ، ويكتبون التَّرجمة بالفارسيَّة، وكانوا قبل الإسلام أبعد

---

(١) ليست في (د)، وفي (ي): «أو الحواريين».

(٢) من قوله: «وقومه إليهم بعث» إلىٰ هنا ليس في (و).

(٣) مهملة في (ي)، (د، ع): «صنعت».

(٤) ط. العاصمة: «من عناية»، وهو خطأ مخالف للأصول.

عن المسلمين من الرُّوم النَّصارىٰ[1]، فإذا كان الفرسُ المجوسُ قد وصل إليهم معاني القرآن بالعربيِّ وترجمَتْه، فكيف لا يصل إلىٰ أهل الكتاب وهم أقربُ إلىٰ المسلمين منهم؟! وعامَّة الأصول التي يذكرها القرآن عندهم شواهدُها ونظائرُها في التَّوراة والإنجيل والزَّبور وغير ذلك من النبوَّات.

بل كلُّ من تدبَّر نبوَّات الأنبياء وتدبَّر القرآن جزم جزمًا[2] يقينًا بأن محمَّدًا رسول الله حقًّا، وأن موسىٰ رسول الله صدقًا؛ لما يرىٰ من تصادق الكتابين التَّوراة والقرآن، مع العلم بأن موسىٰ عليه السلام لم يأخذ عن محمَّدٍ ﷺ، وأن محمَّدًا ﷺ لم يأخذ عن موسىٰ؛ فإن محمَّدًا ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحاله[3] كان أمِّيًّا من قوم أمِّيِّين، مقيمًا بمكة، ولم يكن عندهم من يحفظ التَّوراة ولا الإنجيل ولا الزَّبور، ومحمَّدٌ لم يخرج من بين ظهرانيهم، ولم يسافر قطُّ إلا سفرتين إلىٰ الشَّام: خرج مرةً مع عمِّه أبي طالب قبل الاحتلام، ولم يكن يفارقه، ومرةً أخرىٰ مع ميسرة في تجارته، وكان ابن بضع وعشرين سنة، مع رفقةٍ كانوا يعرفون جميع أحواله، ولم يجتمع قطُّ بعالمٍ أخذ عنه شيئًا لا من علماء اليهود ولا النَّصارىٰ ولا من غيرهم، لا بَحِيرَا ولا غيره، ولكن كان بَحِيرَا الرَّاهب لمَّا رآه عرفه؛ لِمَا كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك، وأمرهم بحفظه من اليهود، ولم يتعلَّم لا من بَحِيرَا ولا من غيره كلمةً واحدة، وسنبيِّن -إن شاء الله- الدلائل الكثيرة علىٰ أنه لم يأخذ عن أحدٍ من أهل الكتاب كلمةً واحدة[4]، وقصَّة بَحِيرَا مذكورة، ذكرها أربابُ السِّيَر وأصحاب المسانيد والسُّنن.

---

(١) ط. العاصمة: «الروم والنَّصارىٰ»، وهو كذلك خطأ مخالف للأصول.

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) ليست في (و).

(٤) كما سيأتي (١/ ٢٩٩، ٤/ ١١٠-١٢١).

قال الحافظ أبو عيسىٰ محمَّد بن عيسىٰ بن سورة التِّرمذيُّ في جامعه[1]: حدثنا الفضل أبو العباس البغدادي، قال: حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسىٰ الأشعري، عن أبيه، قال: خرج أبو طالب إلىٰ الشَّام، وخرج معه النبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قريش، فلما أشرفوا علىٰ الرَّاهب هبطوا، فحَلُّوا رحالهم، فخرج إليهم الرَّاهب، وكانوا قبل ذلك يمرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال: فهم يَحُلُّون رحالهم فجعل يتخلَّلهم الرَّاهب حتىٰ جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما عِلْمُك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرٌ ولا حجرٌ إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان[2] إلا لنبيٍّ، وإني أعرفه بخاتم النبوَّة أسفل من غُرْضُوفِ[3] كتفِه مثل التُّفَّاحة، ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به -

---

(1) (٣٩٤٨). وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٦٩٦)، والبزار (٣٠٩٦)، والحاكم (٢/ ٦٧٢) وغيرهم بهذا الإسناد. وقد تفرَّد به عبد الرحمن بن غزوان، ولقبه قُرَاد، وهو ثقة له أفرادٌ وغرائب، وأنكر حديثه هذا الذهبيُّ في مواضع من كتبه، وقال: «هو حديثٌ منكرٌ جدًّا»، وقال: «يشهد القلب بوضعه»، وقال متعقبًا الحاكم في تصحيحه: «أظنه موضوعًا، وبعضه باطل»، انظر: «تاريخ الإسلام» (١/ ٥٠٢- ٥٠٤)، و«المغني» (٢/ ٣٨٤)، و«تلخيص المستدرك» (٢/ ١٠٧٤- مختصره لابن الملقن)، و«السير» (٩/ ٥١٩)، و«الميزان» (٢/ ٥٨١)، وابن القيم في بعض فوائده (٢١- ٥٣)، وقال: «لم يروه البخاري ولا مسلم ولا أحدٌ من أصحاب الصحيح»، ثم قال: «وهو حديثٌ منكرٌ جدًّا من وجوه»، وأفاض في بيان ما تضمَّنه من ألفاظٍ منكرة. والأشبه أن أصل الحديث محفوظ، وفيه زياداتٌ وألفاظٌ وَهِمَ فيها قُرَاد أو شيخه يونس، كما أشار إلىٰ ذلك ابن كثير في «الفصول» (٩٤)، وابن حجر في «هدىٰ الساري» (٤١٨)، و«الفتح» (٨/ ٧١٦)، و«الإصابة» (١/ ٦٤٣)، وقد ميَّزت تلك الألفاظ بحرفٍ غليظ، وأحسن شيخ الإسلام إذ أسقط من الرواية أن أبا بكرٍ بعث مع النبي ﷺ بلالًا حين ردَّه أبو طالب، فإنها غلطٌ بلا ريب.

(2) (د، و، ي): «يسجدن». والمثبت من (ع) يوافق رواية الترمذي.

(3) الغرضوف والغضروف: كل عظم ليِّن. «التاج» (غرضف).

وكان هو في رِعْيَة الإبل-، فقال: أرسِلوا إليه، فأقبل **وعليه غمامةٌ تُظِلُّه**، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلىٰ فيء الشجرة، **فلما جلس مال فيءُ الشجرة عليه،** فقال: انظروا إلىٰ فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائمٌ عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلىٰ الرُّوم، فإن الرُّوم إن رأوه عرفوه بالصِّفة فيقتلونه، فالتفتَ فإذا بسبعةٍ قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم الرَّاهب، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أنَّ هذا النبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر، فلم يبق طريقٌ إلا بُعِثَ إليه بأناس، وإنا قد أُخْبِرْنا خبَرَه لطريقك[1] هذه. فقال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: **فتابَعُوه**[2] وأقاموا معه. قال: أنشدكم الله يا معشر العرب أيكم وليُّه؟ فقال أبو طالب: أنا، فلم يزل يناشده حتىٰ **ردَّه أبو طالب**، وزوَّده الرَّاهبُ من الكعك والزَّيت.

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ورواه البيهقي في كتاب «دلائل النبوَّة»[3] من حديث العباس بن محمَّد، عن قُرَادٍ أبي نوح[4]، وقال العباس[5]: لم يحدِّث به -يعني بهذا الإسناد- غير قُرَاد، وسمعه يحيىٰ وأحمد من قُرَاد.

قال البيهقي: «أراد أنه لم يحدِّث به[6] بهذا الإسناد سوىٰ هؤلاء[7]، فأما القصَّة فهي عند أهل المغازي مشهورة».

---

(١) (د، ع): «بطريقك».

(٢) كذا في الأصول، وهي رواية البزار وابن أبي شيبة وغيرهما. وعند الترمذي وغيره: «فبايعوه». وانظر: «الزهر الباسم» لمغلطاي (١/ ٤٤٢).

(٣) (٢/ ٢٤-٢٦).

(٤) ط. العاصمة: «بن نوح»، وهو خطأ مخالف للأصول والمصادر.

(٥) العباس بن محمد الدوري الحافظ.

(٦) ساقطة من ط. العاصمة.

(٧) في مطبوع «الدلائل»: «وإنما أراد به بإسناده هذا موصولًا».

وقال ابن سعد في «الطبقات»[1]: حدثنا محمَّد بن عمر، قال: حدثني محمَّد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، قال: لمَّا بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به أبو طالب إلىٰ الشَّام في العِير التي خرج فيها للتِّجارة، فنزلوا بالرَّاهب بَحِيرَا، فقال بَحِيرَا لأبي طالب في النبيِّ ﷺ ما قال، وأمره أن يحتفظ به، فردَّه أبو طالب معه إلىٰ مكة، وشبَّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب، يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها؛ لِمَا يريده به من كرامته، حتىٰ بلغ أن كان رجلًا، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأعظمهم حلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم من الفحش والأذىٰ، فما رئي مُلَاحِيًا ولا مُمَارِيًا أحدًا، حتىٰ سمَّاه قومه: الأمين؛ لِمَا جُمِعَ فيه من الأمور الصَّالحة.

وقال ابن الجوزي[2]: خرج أبو طالب إلىٰ الشَّام، ومعه رسول الله ﷺ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، فنزل الرَّكبُ ببُصْرَىٰ وبها راهبٌ يقال له: بَحِيرَا في صومعةٍ له، وكان ذا علمٍ بالنصرانية، ولم يزل في تلك الصَّومعة راهبٌ تنتهي إليه علمُ النصرانية صاغرًا عن كابر، وفيها كتبٌ يَدْرُسونها، وكان كثيرًا ما يمرُّ به[3] الرَّكبُ فلا يكلِّمهم، حتىٰ إذا كان في ذلك العام نزلوا منزلًا قريبًا من الصَّومعة، فصنع لهم الرَّاهب طعامًا، ودعاهم، وإنما حمله علىٰ ذلك لشيءٍ رآه، فلمَّا رأىٰ بَحِيرَا ذلك نزل من صومعته، وأمر بذلك الطعام، فحضر، وأرسل إلىٰ القوم، فقال: يا معشر قريش، أحبُّ أن تحضروا طعامي ولا يتخلَّف منكم أحد، فقال: وهذا شيءٌ تكرموني [به]، فلمَّا حضروا عنده جعل يلاحظ النبيَّ ﷺ لحظًا شديدًا، وينظر إلىٰ جسده، وجعل أبو طالب

---

(١) (١/ ٩٩). وهو معضل، داود بن الحصين من أتباع التابعين.
(٢) انظر: «المنتظم» (٢/ ٢٩٢)، و«الوفا» (٨٢)، و«صفة الصفوة» (١/ ٢٨).
(٣) ساقطة من ط. العاصمة.

يخاف عليه من الرَّاهب، ثم قال الرَّاهب لأبي طالب: ارجع بابن أخيك؛ فإنه كائنٌ له شأنٌ عظيم، فإنَّا نجد صفته في كتبنا، ونرويه[1] عن آبائنا، فلمَّا فرغوا من التِّجارة رجع به أبو طالب سريعًا إلىٰ مكة، فما خرج بعدها به أبو طالب خوفًا عليه.

هذا مع أن في القرآن من الردِّ علىٰ أهل الكتاب في بعض ما حرَّفوه، مثل دعواهم أن المسيح عليه السلام صُلِبَ، وقول بعضهم: إنه إله، وقول بعضهم: إنه ساحر، وطعنهم علىٰ سليمان عليه السلام وقولهم: إنه كان ساحرًا، وأمثال ذلك = ما يبيِّن أنه لم يأخذ عنهم.

وفي القرآن من قصص الأنبياء عليهم السَّلام ما لا يوجد في التَّوراة ولا الإنجيل[2]، مثل قصَّة هود وصالح وشعيب وغير ذلك.

وفي القرآن مِن ذكرِ المعاد وتفصيله، وصفة الجنَّة والنَّار، والنَّعيم والعذاب، ما لا يوجد مثله في التَّوراة والإنجيل، بل التَّوراة ليس فيها تصريحٌ بذكر المعاد، وعامَّة ما فيها من الوعد والوعيد فهو في الدُّنيا، كالوعد بالرِّزق والنصر والعاقبة، والوعيد بالقحط والأمراض والأعداء[3]. وإن كان ذكرُ المعاد موجودًا في غير التَّوراة من النبوَّات، ولهذا كان أهل الكتاب يُقِرُّون بالمعاد وقيام القيامة الكبرىٰ، وقد قيل: إن ذلك مذكورٌ في التَّوراة أيضًا، لكن لم يُبْسَط كما بُسِط في غير التَّوراة.

---

(١) مهملة في (د، ي). (ع): «فيرونه»، (و): «ويروونه»، وكلاهما خطأ، وأثبتت الثاني منهما ط. العاصمة. وفي «المنتظم» و«صفة الصفوة»: «وما روينا».

(٢) (و): «والإنجيل».

(٣) انظر: «درء التعارض» (٥/ ٣١٠)، و«المنهاج» للحليمي (١/ ٣٦٨، ٣٦٩)، و«تنقيح الأبحاث» لابن كمونة (٤٠)، و«قصة الحضارة» (٢/ ٣٤٥)، و«اليهودية» لأحمد شلبي (١٩٥)، و«موسوعة اليهود واليهودية» للمسيري (٥/ ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٩).

فصل

فإن قالوا: إن الكتب التي عندنا من التَّوراة والإنجيل وغيرهما ترجَمها لنا الحواريُّون، وهم عندنا رسلٌ معصومون، وترجموها لجميع الأمم، بخلاف القرآن؛ فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم.

فعن هذا أجوبة:

أحدها: أن هذا كذبٌ بيِّن؛ فإن من العرب من النَّصارىٰ من لا يحصي عدده إلا الله تعالىٰ، وكان فيهم نصارىٰ كثيرون تنصَّروا قبل مبعث محمَّدٍ ﷺ، وكان فيهم قومٌ علىٰ دين المسيح الذي لم يبدَّل، وهم مؤمنون من أهل الجنَّة، كسائر من كان علىٰ دين المسيح عليه السلام؛ فإن كلَّ من كان علىٰ دين المسيح عليه السلام الذي لم يبدَّل قبل مبعث محمَّدٍ ﷺ فإنه مؤمنٌ مسلمٌ من أهل الجنَّة.

ومع هذا فليس علىٰ وجه الأرض توراةٌ ولا إنجيلٌ مُعَرَّبٌ من عهد الحواريِّين، بل التَّوراة العِبْرية تُنْقَلُ من اللسان العِبْريِّ أو غيره إلىٰ العربيَّة، وكذلك الإنجيل يُنْقَلُ من اللسان الرُّومي أو السُّرياني أو اليوناني[1] أو غيرها إلىٰ العربيَّة.

فلو كان عند كلِّ أمَّةٍ من الأمم توراةٌ وإنجيلٌ ونبوَّاتٌ بلسانهم لكان نصارىٰ العرب أحقَّ بهذا من نصارىٰ الحبشة والصَّقالبة والهند؛ فإنهم جيران البيت المقدَّس، وهم بنو إسماعيل عليه السلام.

والأناجيل عندهم أربعة، وهم يدَّعون أن كلَّ واحدٍ كتبها بلسانٍ، كُتِبَت بلسان العِبْري والرُّومي واليوناني، مع أن في بعض الأناجيل ما ليس في بعض،

(١) «أو اليوناني» ليست في (د)، وأخرت في (ي) إلىٰ بعد «العربية».



مثل قولهم: «عمِّدوا النَّاس باسم الأب والابن وروح القُدُس» الذي جعلوه أصل دينهم، وهذا إنما هو قوله في إنجيل متَّىٰ[1].

وإذا كان كلُّ واحدٍ من الأربعة كتب إنجيلًا بلسانه لم يكن هناك إنجيلٌ واحدٌ أصليٌّ ترجع إليه الأناجيلُ كلُّها.

ثم هم مع هذا يدَّعون أنها تُرْجِمَت باثنين وسبعين لسانًا، وهذا فيه من الكذب والتناقض أمورٌ سننبه إن شاء الله علىٰ بعضها، لكن غاية ما يدَّعون أنه تُرْجِمَ باثنين وسبعين لسانًا، ومعلومٌ أن الألسنة الموجودة في بني آدم في جميع المعمورة في زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا، كما يعرفه من عَرَف أحوال العالم، بل اللسان الواحد كالعربي والفارسي والتُّركي جنسٌ تحته أنواعٌ مختلفةٌ لا يفهَم بعضُهم لسانَ بعض إلا أن يتعلَّمه منهم.

والعرب أقربُ الأمم إلىٰ بني إسحاق بني إسرائيل والعِيص[2]؛ فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم، فإن أهل الحجاز جيران الشَّام، ومكة لم تزل تَحُجُّ إليها العرب، ولم يكن قطُّ عند العرب توراةٌ ولا إنجيلٌ عربيَّان من عهد المسيح عليه السلام، بل ولا كان بمكة لا توراةٌ ولا إنجيلٌ لا معرَّبٌ ولا غير معرَّب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، فكيف يُدَّعىٰ أن التَّوراة والإنجيل ترجمها الحواريُّون لكلِّ قومٍ من جميع بني آدم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بلسانٍ يفهمونه به؟! وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب النَّاس وأجهلهم؟!

---

(١) إنجيل متىٰ (٢٨: ١٩).

(٢) العيص بن إسحاق بن إبراهيم، أخو يعقوب (إسرائيل)، عليهم السلام. انظر: تاريخ ابن جرير (١/ ٣١٩، ٣٣٠)، و«المنتظم» (١/ ٣٠٧).



الوجه الثاني: أن يقال: ترجمةُ الكلام من لغةٍ إلىٰ لغةٍ لا تحتاج إلىٰ معصوم، بل هذا أمرٌ تَعْلَمُه الأمم، فكلُّ من عرف اللسانين أمكنه التَّرجمة، ويحصُل العلمُ بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرِّقين لا يتواطؤون علىٰ الكذب، وبقرائن تقترن بخبر أحدهم، وبغير ذلك، وهذا موجودٌ معلوم. بل إذا ترجمه اثنان كلٌّ منهما لا يعرفُ ما يقوله الآخر، ولم يتواطئا[1]، حصل بذلك المقصود في الغالب، وهم يذكرون أن التَّوراة ترجمها اثنان وسبعون حبرًا من اليهود، ولم يكونوا معصومين، وأن[2] المَلِك فرَّقهم لئلا يتواطؤوا علىٰ الكذب، واتَّفقوا علىٰ ترجمةٍ واحدة، وهذا كان بعد الخراب الأول، فهكذا يمكنُ ترجمةُ غير التَّوراة.

وهذه التَّوراة في زماننا والإنجيل والزَّبور يُتَرْجَمُ باللغة العربيَّة، ويُعْرَفُ المقصودُ به بلا ريب، فكيف بالقرآن الذي يفهَم أهلُه معناه، ويفسِّرونه، ويترجمونه أكملَ وأحسنَ ممَّا يترجم أهلُ التَّوراة والإنجيل التَّوراة والإنجيل؟!

الوجه الثالث: أن دعوىٰ العصمة في كلِّ واحدٍ من الحواريِّين، وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسىٰ عليهما السَّلام، دعوىٰ ممنوعة، وهي باطلة، وإنما هم رسلُ المسيح عليه السلام، بمنزلة رسل موسىٰ ورسل إبراهيم ورسل محمَّد صلىٰ الله عليهم وسلَّم، وأكثر النَّصارىٰ أو كثيرٌ منهم[3] أو كلُّهم يقولون: هم رسلُ الله وليسوا بأنبياء.

وكلُّ من ليس بنبيٍّ فليس برسولٍ لله[4]، وليس بمعصوم، وإن كانت له خوارقُ عاداتٍ، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم؛ فإنه وإن كانت لهم كراماتٌ

(١) ط. العاصمة: «يتواطئوا»، خلاف الأصول.
(٢) (ي): «فإن».
(٣) (و): «أو أكثرهم».
(٤) (ي، د، ع): «برسول الله».

من الخوارق فليسوا معصومين من الخطأ، والخوارق التي تجري علىٰ يدي غير الأنبياء عليهم السَّلام لا تدلُّ علىٰ أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء، فضلًا عن كونهم معصومين؛ فإن وليَّ الله من يموت علىٰ الإيمان، ومجرَّد الخارق لا يدلُّ علىٰ أنه يموت علىٰ الإيمان، بل قد يتغيَّر عن ذلك الحال.

وإذا قطعنا بأن الرجل وليُّ الله، كمن أخبر النبيُّ ﷺ بأنه من أهل الجنَّة(١)، فلا يجب الإيمانُ بكلِّ ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء، بخلاف الأنبياء عليهم السَّلام؛ فإنهم معصومون، لا يجوز أن يستقرَّ فيما يبلِّغونه خطأ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم، ومن كفر بواحدٍ منهم فهو كافر، ومن يسبُّ واحدًا منهم وجب قتله في شرع الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر(٢).

---

(١) من قوله: «تجري علىٰ» إلىٰ هنا ليس في (د)، واستدرك في طرة (ع)، وهو في (ي، و).

(٢) انظر: «الصفدية» (١/ ٢٦١، ٢/ ٣١١)، و«شرح الأصبهانية» (٦١٥)، و«الصارم المسلول» (١٨٨، ١٩١، ٤٢١، ١٠٤٨)، و«الإخنائية» (٤٧٣)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٢٩٠، ١٩/ ١٨٥).



فصل

وأما قولهم: «لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله، خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسِّكون به يومنا هذا، وسلَّموا إلينا التَّوراة والإنجيل بلغتنا، علىٰ ما يشهد لهما الكتابُ الذي أتىٰ به هذا الرَّجل[1]، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال في النحل[2]: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]»[3].

فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن إثبات رسولٍ من قبله إليكم لا يمنعُ إتيانَ رسولٍ ثانٍ؛ فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسىٰ عليه السلام، وكانوا علىٰ شريعة التَّوراة، ثم بعث الله تبارك وتعالى إليهم المسيح عليه السلام، ووجب[4] عليهم الإيمانُ به، ومن لم يؤمن به كان كافرًا وإن قال: إني متمسِّكٌ بالكتاب الذي أُنزِل إليَّ. فكذلك إذا أرسل الله رسولًا بعد المسيح وجب الإيمانُ به، ومن لم يؤمن به كان كافرًا، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافرًا.

وبنو إسرائيل أكثر اختصاصًا بموسىٰ والتَّوراة من الرُّوم وغيرهم بالمسيح[5] والإنجيل؛ فإنهم كانوا عِبْرانيين والتَّوراة عِبْرانية.

الوجه الثاني: دعواهم أنهم متمسِّكون في هذا الوقت بالدِّين الذي نقله

---

(١) ليست في (د، ي، ع)، وألحقت في (و) مع التصحيح.
(٢) ط. النيل: «سورة النحل».
(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤).
(٤) (ي، د، ع): «وجب».
(٥) مهملة في (ي، و). وفي (د): «فالمسيح»، وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة، والصواب المثبت من (ع).

الحواريُّون عن المسيح عليه السلام كذبٌ ظاهر، بل هم عامَّة ما هم عليه من الدِّين عقائده وشرائعه، كالأمانة، والصَّلاة إلىٰ المشرق، واتِّخاذ الصُّوَر والتماثيل في الكنائس، واتِّخاذها وسائط، والاستشفاع بأصحابها، وجعل الأعياد بأسمائهم، وبناء الكنائس علىٰ أسمائهم، واستحلال الخنزير، وترك الختان، والرَّهبانيَّة، وجعل الصِّيام في الرَّبيع، وجعلِه خمسين يومًا، والصَّلوات، والقرابين، والنَّاموس = لم ينقله الحواريُّون عن المسيح، ولا هو موجودٌ لا في التَّوراة ولا في الإنجيل، وإنما هم متمسِّكون بقليلٍ ممَّا جاءت به الأنبياء.

وأمَّا كفريَّاتهم وبدعهم فكثيرةٌ جدًّا، ولا ينقل[1] أحدٌ عن المسيح والحواريِّين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السَّحَرية: «تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا»، وفي الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله، مريم العذراء، افتحي لنا أبواب الرَّحمة»[2].

الوجه الثالث: قولهم: إنهم سلَّموا إليهم[3] التَّوراة والإنجيل بلغاتهم، إنما يستقيم إن كان صحيحًا في بعض النَّصارىٰ لا في جميعهم؛ فإن العرب من النَّصارىٰ وغير العرب لم يسلِّم أحدٌ إليهم توراةً وإنجيلًا بلسانهم، وهذا أمرٌ معروف، ولا يوجد[4] قطُّ توراةٌ ولا إنجيلٌ معرَّبٌ من زمن الحواريِّين، وإنما عُرِّبت في الأزمان المتأخرة، فإذا كانت النَّصارىٰ من العرب تقوم[5] عليهم الحجَّة قبل محمَّدٍ ﷺ بكتابٍ نزل بغير لسانهم ثم عُرِّبَ لهم، فكيف لا تقوم علىٰ الرُّوم وغيرهم الحجَّة بكتابٍ نزل بغير لسانهم ثم تُرْجِمَ بلسانهم؟!

---

(١) ط. العاصمة: «لم ينقل»، خلاف الأصول.

(٢) انظر: «تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل» (١/ ١٢١، ٣٦٣، ٢/ ٦٢٩).

(٣) (د، ع): «إلينا».

(٤) (و): «توجد».

(٥) (ي): «لن تقوم»، وهو خطأ.

الوجه الرابع: أن يقال: الأمَّة إذا غيَّرت دينَ رسولها الذي أُرسِل إليها وبدَّلته أرسل الله إليها من يدعوها إلىٰ الدِّين الذي يحبُّه الله ويرضاه، كما أن بني إسرائيل لمَّا غيَّروا دينَ موسىٰ وبدَّلوه بعث الله إليهم وإلىٰ غيرهم المسيحَ بالدِّين الذي يحبُّه ويرضاه[1]، وكذلك النَّصارىٰ لمَّا بدَّلوا دينَ المسيح وغيَّروه بعث الله إليهم وإلىٰ غيرهم محمَّدًا ﷺ بالدِّين الذي يحبُّه ويرضاه.

وقد ثبت في الصَّحيح[2] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»، وأولئك البقايا الذين كانوا[3] متمسِّكين بدين المسيح قبل مبعث محمَّدٍ ﷺ كانوا علىٰ دين الله ﷻ، وأما مِن حين بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ فمن لم يؤمن به فهو من أهل النَّار، كما قال ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النَّار**»[4].

الوجه الخامس: أن يقال: دعواهم أن الرُّسل سلَّموا إليهم التَّوراة والإنجيل وسائر النبوَّات باثنين وسبعين لسانًا، وأنها باقيةٌ إلىٰ اليوم علىٰ لفظٍ واحد، دعوىٰ يُعْلَمُ أن قائلها متكلِّمٌ[5] بلا علم، بل مفترٍ كاذب[6]، وذلك أن هذا يقتضي أنه الآن في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعينَ لسانًا، كلها منقولةٌ

---

(١) (د، ع): «يحبه الله».

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٣) (ي): «وأولئك البقايا إن كانوا».

(٤) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) مهملة في (ي)، (د، و، ع): «يتكلم». والأشبه ما أثبت.

(٦) (و): «كذاب».

عن الحواريِّين، وكلها متَّفقةٌ غير مختلفةٍ البتَّة، فهُنَا[1] أربع دعاوىٰ:

* أنها موجودةٌ باثنين وسبعين لسانًا.

* وأنها متَّفقة.

* وأنها كلها منقولةٌ عن الحواريِّين.

* الرابعة: أنهم معصومون.

فيقال: من الذي منكم لو قُدِّرَ أن هذه الكتب التي باثنين وسبعين لسانًا هي عن الحواريِّين، وهي موجودةٌ اليوم، فمن الذي يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضًا؟!

وذلك لا يمكن إلا لمن يَعْلَم الاثنين وسبعين لسانًا، ويكون ما عنده من الكتب يَعْلَم أنها[2] مأخوذةٌ عن الحواريِّين، ويَعْلَم أن كلَّ نسخةٍ في العالم بذلك[3] اللسان توافق النُّسخة التي عنده، وإلا فلو جمَع اثنين[4] وسبعين نسخةً باثنين وسبعين لسانًا لم يَعْلَم أن كلَّ نسخةٍ من هذه هي المأخوذة عن الحواريِّين إن قُدِّرَ أنه أُخِذَ عنهم اثنان وسبعون[5] لسانًا، ولا يَعْلَم أن كلَّ نسخةٍ في العالم توافق تلك النسخة[6]؛ فإنه من المعلوم أنه في زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتبُ تُنْقَل من لسانٍ إلىٰ لسان، كما يُتَرْجَم من العِبْرانيَّة إلىٰ العربيَّة،

---

(١) في الأصول: «فهذا»، وكذلك أثبتتها الطبعات، وهو تحريف. والتركيب كثير الوقوع في كلام المصنف.

(٢) (ع، د): «أنما هي».

(٣) ط. العاصمة: «بهذا»، خلاف الأصول.

(٤) كذا في الأصول، من باب الحمل علىٰ المعنىٰ، والجادة: اثنتين.

(٥) (ع، د): «اثنين وسبعين».

(٦) من قوله: «ولا يعلم أن كل نسخة» إلىٰ هنا ليس في (و، ي).

ومن السُّريانية والرُّومية واليونانية إلىٰ العربيَّة وغيرها، وحينئذٍ فإذا وُجِدت نسخةٌ بالعربيَّة لم يَعْلَم أنها ممَّا عُرِّبَت بعد الحواريِّين، أو هي من المأخوذ عن الحواريِّين، إذا قُدِّرَ أنه أُخِذَ عنهم نسخةٌ بالعربيَّة.

ولا يمكنُ أحدًا[1] أن يجمع جميعَ النُّسخ المعرَّبة، ويقابل بينها، بل وقد وجدنا النُّسخ المعرَّبة يخالف بعضها بعضًا في التَّرجمة مخالفةً شديدةً تمنع الثِّقة ببعضها.

وقد رأيتُ أنا بالزَّبور عدَّة نسخ معرَّبة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط، وما يشهد بأنها مبدَّلةٌ مغيَّرةٌ لا يوثق بها، ورأيتُ من التَّوراة المعرَّبة من النُّسخ ما يكذِّب بكثيرٍ من ترجمتها طائفةٌ من أهل الكتاب.

فكيف يمكنه أن يجمعَ جميع النُّسخ التي بالاثنين وسبعين لسانًا، ويقابل بين نسخ كلِّ لسانٍ حتىٰ يكون فيها النُّسخة القديمة المأخوذة عن الحواريِّين، ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة؟!

ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفًا بالاثنين وسبعين لسانًا معرفةً تامَّة، وليس في بني آدم من يقدر علىٰ ذلك، ولو قُدِّر وجود ذلك فلم يُعْرَف أن القادر علىٰ ذلك فعل ذلك وأخبَرنا باتفاقها.

ولو وُجِد ذلك لكان هذا خبرَ واحد، وأن يُتَرجِم[2] كلَّ لسانٍ من يعلم صحَّة ترجمته حتىٰ تنتهي التَّرجمة إلىٰ لسانٍ واحدٍ كالعربيِّ مثلًا، ويعلم حينئذٍ اتفاقها.

---

(١) غيَّرتها ط. العاصمة إلىٰ «لأحد» متابعة لطبعة المدني ومخالفة للأصول، وهي علىٰ الصواب في ط. النيل.

(٢) (ي، و): «أو أن يترجم».



وإلا فإذا تُرْجِم هذا الكتاب بلسانٍ أو لسانين أو أكثر، وتُرْجِم الآخر كذلك، لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنىٰ بهذا اللسان هو المعنىٰ بهذا اللسان، وهذا لا يكون إلا ممَّن يعرف اللسانين، أو من يُتَرْجَم له اللسانان باللسان الذي يعرفه. ومعلومٌ أن أحدًا لم يُتَرْجَم له الاثنان وسبعون لسانًا بلسانٍ واحد أو ألسنةٍ يعرفها، ولا يُعْرَفُ أحدٌ باثنين وسبعين لسانًا.

وحينئذٍ، فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، أو الجزم بأنَّ نسخ كلِّ لسانٍ متَّفقة، جزمٌ بما لا يُعْلَمُ صحَّتُه، لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لسانًا منقولة عن الحواريِّين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدي النَّاس هو ممَّا تُرْجِمَ بعد ذلك بالعربي وغيره؟!

هذا إذا ثبت أن الحواريِّين سلَّموها باثنين وسبعين لسانًا، وأنها باقيةٌ إلىٰ اليوم، وهذا أمرٌ لا يمكن أحدًا معرفتُه، فليس اليوم توراةٌ وإنجيلٌ ونبوَّاتٌ يشهد لها أحدٌ أنها مترجَمةٌ باللسان العربيِّ من عهد الحواريِّين، بل ولا بأكثر الألسنة، وإلا فإذا قُدِّر أن الحواريِّين سلَّموها باثنين وسبعين لسانًا مع حصول التَّرجمة بعد ذلك وكثرة المترجَمات أمكن وقوعُ التَّغيير في بعض المترجَمات.

وحينئذٍ، فالعلمُ بأن تلك النُّسخ القديمة[1] لا تغيير[2] فيها، لا يمنعُ وقوعَ التغيير في بعض ما تُرْجِم بعدها، أو في بعض ما نُسِخ منها[3]، ولا سبيل إلىٰ العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لسانًا، بخلاف القرآن الذي هو بلسان العرب وخطِّ العرب؛ فإن العلم باتفاق ما يوجد من نُسَخِه[4] ممكنٌ، وهو

---

(١) ليست في (د، ع).

(٢) ط. العاصمة: «تتغير»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (د، ع): «بعدها».

(٤) ط. العاصمة: «نسخة»، وهو خطأ مخالف للأصول.

محفوظٌ في الصُّدور، لا يحتاج إلىٰ حفظٍ في الكتب، فهو منقولٌ بالتواتر لفظًا وخطًّا.

الوجه السادس: قولهم: «وسلَّموا إلينا التَّوراة والإنجيل بلساننا، علىٰ ما يشهد لهما الكتابُ الذي أتىٰ به هذا الرَّجل[1]».

فيقال لهم: ليس في القرآن ما يشهد لكم بأن التَّوراة والإنجيل سُلِّمَت إليكم بلسانكم، فاستشهادكم بالقرآن علىٰ هذه الدعوىٰ من جنس استشهادكم به علىٰ أن دينكم حقٌّ، ومن جنس استشهادكم بالنبوَّات علىٰ ما أحدثتموه وغيَّرتم به دينَ المسيح عليه السلام من التثليث والاتِّحاد وغير ذلك.

وقولهم: «حيث يقول الله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]».

فيقال: لا ريب أن قوم موسىٰ عليه السلام هم بنو إسرائيل، وبلسانهم نزلت التَّوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام، وبلسانهم كان المسيحُ يتكلَّم، فلم يخاطِب واحدٌ من الرَّسولَيْن أحدًا إلا باللسان العِبْراني، لم يتكلَّم أحدٌ منهما لا بروميَّةٍ ولا سُريانيَّةٍ ولا يونانيةٍ ولا قِبْطية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] كلامٌ مطلقٌ عامٌّ، كقوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، ليس في هذا تعرُّضٌ لكون التَّوراة والإنجيل سُلِّمَت إليهم بألسنتهم.

الوجه السابع: أن يقال: عمدتهم في هذه الحجَّة أنهم يقولون: الحواريُّون هم عندنا رسل الله، كإبراهيم وموسىٰ، والمسيح عندنا هو الله، وهو أرسل

---

(١) ليست في (ع، ي، د).

هؤلاء إلينا[1]، فيجب أن يكونوا أُرسِلوا إلينا بلساننا، وأن يكونوا سلَّموا إلينا التَّوراة والإنجيل بلساننا.

فيقال لهم: هَبْ أنكم تدَّعون هذا وتعتقدونه -ونحن سنبيِّن إن شاء الله تعالىٰ أن هذه دعاوىٰ باطلة-، لكن أنتم في هذا المقام تذكرون أن هذا الكتابَ الذي هو القرآن الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ يشهد لكم بذلك، وهذا كذبٌ ظاهرٌ علىٰ محمَّد ﷺ وعلىٰ كتابه، وأنتم صدَّرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم.

ونحن نبيِّن كذبكم وافتراءكم عليه، سواءٌ أقررتم بنبوَّته أو لم تُقِرُّوا بها؛ فإنه من المعلوم يقينًا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله، بل كفَّر من قال ذلك، ولا يشهد للحواريِّين بأنهم رسلٌ أرسلهم الله، بل إنما شهد للحواريِّين بأنهم قالوا: إنا مؤمنون مسلمون، وأنهم قالوا: نحن أنصار الله، كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله، بل وأنهم أفضل من الحواريِّين؛ لكون أمَّته خير الأمم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

---

(١) (و): «إلينا هؤلاء».

وسيأتي الكلام علىٰ هذا مبسوطًا[1]، ونبيِّن أن الرُّسل المذكورين في سورة «يس» ليس هم الحواريِّين[2]، ولا كانوا رسلًا للمسيح، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح، وأهلُ القرية كذَّبوا أولئك الرُّسل، فأهلكهم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٨- ٢٩].

والرُّسل المذكورون في سورة «يس» هم ثلاثة، وكان في القرية رجلٌ آمن بهم، وهذه وإن كانت أنطاكِيَة[3] فكان هذا الإرسال قبل المسيح، والمسيح عليه السلام ذهب إلىٰ أنطاكِيَة اثنان من أصحابه بعد رفعه إلىٰ السَّماء، ولم يُعَزَّزوا بثالث، ولا كان حبيبٌ النَّجار[4] موجودًا إذ ذاك، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح عليه السلام، وهم[5] أول مدينةٍ آمنت به[6]، كما قد بُسِط في غير هذا الموضع[7].

والمقصود هنا أن محمَّدًا ﷺ لم يشهد للمسيح بالإلهيَّة، ولا للحواريِّين بأنهم رسل الله، ولا أنهم سلَّموا إليهم التَّوراة والإنجيل بلسانهم، ولا بأنهم معصومون.

---

(١) (١/ ٤٢٥-٤٣٣).

(٢) (ي، و، د): «الحواريون».

(٣) مدينة تاريخية علىٰ الضفة اليسرىٰ لنهر العاصي، شمال غرب الشام، تبعد ٣٠ كيلًا من شاطئ البحر المتوسط، كانت تابعة لحلب ضمن لواء إسكندرون، ثم آلت إلىٰ تركيا منذ سنة ١٩٣٩ وهي اليوم ضمن محافظة هتاي.

(٤) الرجل الذي جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ، المذكور في سورة يس. انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٧٠).

(٥) ط. العاصمة: «وهي» خلاف الأصول وط. النيل.

(٦) انظر: سِفر أعمال الرسل (١١: ٢٦).

(٧) انظر: «جامع الرسائل» (١/ ٦٦)، وما سيأتي (١/ ٤٢٦).

وما ذكروه من قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤] إنما يتناول رُسُلَ الله، لا رُسُلَ رُسُلِ الله، بل رُسُلُ رُسُلِ الله يجوز أن يبلِّغوا رسالات الرُّسل بلسان الرُّسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رُسُلُ الرُّسل تخاطبهم بلسانهم، لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهيَّة بلسانهم، بل يكفي أن يقرؤوها بلسان الأنبياء عليهم السَّلام، ثم يترجموها بلسان أولئك.

وهو سبحانه قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾، ولم يقل: «وما أرسلنا من رسولٍ إلا إلىٰ قومه»، بل محمَّدٌ أُرسِل بلسان قومه وهم قريش، وأُرسِل إلىٰ قومه وغير قومه، كما يذكرون هم[1] ذلك عن المسيح عليه السلام.

---

(١) ليست في (ي، و).

فصل

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ فحقٌّ، وتمام[1] الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا كقوله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] في أصحِّ الأقوال[2]، أي: ولكل قومٍ داعٍ يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته، كما أنت هادٍ، أي داعٍ لمن أُرسِلتَ إليه.

والهادي بمعنىٰ الداعي المعلِّم المبلِّغ، لا بمعنىٰ الذي يَجعل الهدىٰ في القلوب[3]، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٥٢- ٥٣] وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

ومعلومٌ أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء، بُعِثَ إليهم موسىٰ، وبُعِثَ إليهم بعده أنبياء كثيرون، حتىٰ قيل: إنهم ألف نبيٍّ[4]، وكلهم يأمرون بشريعة

---

(١) (د، ع): «فتمام».

(٢) وضعَّف القول بأن الهادي هنا هو الله، أو النبي ﷺ، أو علي رضي الله عنه. انظر: «منهاج السنة» (٧/ ١٣٨- ١٤٣)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٥٨١، ١٣/ ٣٥٤).

(٣) انظر: «الرد علىٰ البكري» (٤٣٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٥٦، ١٨/ ١٧٢).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا بسندٍ واهٍ من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وهما متروكان، وقال ابن رجب في «فتح الباري» (٤/ ٣٤٣): «هذا إسنادٌ ضعيفٌ لا يعتمد عليه». =

التَّوراة ولا يغيِّرون منها شيئًا، ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعةٍ أخرىٰ غيَّر فيها بعض شرع التَّوراة بأمر الله ﷻ.

فإذا كان إرسالُ موسىٰ والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسالَ المسيح إليهم، فكيف يمتنع إرسالُ محمَّدٍ ﷺ إلىٰ أهل الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ ولهم[1] من حين المسيح لم يأتهم رسولٌ من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]؟!

وهذه الفترة التي كانت بين المسيح ومحمَّد صلوات الله عليهما وسلامه، وهي فيما ذكره غير واحدٍ من العلماء، كسلمان الفارسي وغيره، كانت ستمئة سنة[2]، وقد قيل: ستمئة[3] شمسيَّة، وهي ستمئة وعشرون أو ثمانية عشر هلاليَّة، وذلك أن كل مئة شمسيَّة تكون مئةً وثلاث سنين هلاليَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، وهذه تسعٌ[4] وبعض العاشرة، والتاريخ قد تُحْسَبُ فيه التَّامَّة وتُحْسَبُ فيه النَّاقصة، فمن قال: عشرين حَسَب النَّاقصة، ومن قال: ثمانية عشر حَسَب التَّامَّة فقط[5].

= وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٩٧) عن الأعمش.
وذكره مقاتل في مواضع من تفسيره (١/ ٨٥، ٢١٢، ٤٧٩، ٣/ ٨٣٧).
وأخرج أبو يعلىٰ (٤١٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٤) عن أنس رضي الله عنه بسند ضعيف مرفوعًا: «بُعِث نبيُّ الله ﷺ بعد ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل».

(١) ط. النيل: «وهم».
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٤٨) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.
(٣) ط. النيل: «ستمائة سنة». وكذا الموضع الآتي: «مائة سنة».
(٤) ط. النيل: «التسع».
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٧٠)، و«فتح الباري» (٧/ ٢٧٧).

فصل

وأما قولهم: «نعلم أن الله عدلٌ، وليس من عدله أن يطالب أمَّةً يوم القيامة[1] باتِّباع إنسانٍ لم يأتِ إليهم، ولا وقفوا له علىٰ كتابٍ بلسانهم ولا من جهة داعٍ من قِبَلِه»[2].

فيقال: الجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحدٌ يفهم بالعربيَّة؛ فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربيَّة، وقد قرؤوه وناظَروا بما فيه، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربيَّة كان ذلك أبلغ في قيام الحجَّة عليهم؛ فإنهم يمكنهم فهمُ ما قال بالعربيَّة وتفهيمُ[3] ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثاني: أنهم[4] يفهمون ما في كتبهم الرُّومية والسُّريانية والقِبطية وغيرها، ويترجمونها للعرب من النَّصارىٰ بالعربيَّة، فإذا قامت الحجَّة علىٰ عرب النَّصارىٰ باللسان الرُّوميِّ فلأن تقوم علىٰ الرُّوم باللسان العربيِّ أولىٰ؛ فإن اللسان العربيَّ أكثر انتشارًا في العالم من اللسان الرُّومي، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره، وهو أكمل بيانًا وأتمُّ تفهيمًا[5].

وحينئذٍ، فيكون وصول المعاني به إلىٰ غير أهل لسانه أيسر؛ لكمال معناه، ولكثرة العارفين به، وهؤلاء علماء النَّصارىٰ يقرؤون كتب الطبِّ والحساب

---

(١) رسالة بولس: «أمة من الأمم».
(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤، ٤١٨).
(٣) (د، ع): «ويفهم».
(٤) (ع، و، د): «كما أنهم».
(٥) مهملة في (ي)، (د، ع): «تفهما».

والفلسفة وغير ذلك باللسان العربي، مع أن مصنِّفيها كانوا عجمًا مِن روميٍّ ويونانيٍّ وغير ذلك، فما المانع أن يُقْرَأ القرآنُ العربيُّ وتفسيرُه وحديثُ النبي ﷺ باللسان العِبْري مع أنه أُخِذ عن الرسول بالعربي؟! فهو أولىٰ بأن يُعْرَف به مراد المتكلِّم به.

الوجه الثالث: أن يقال: النَّاس لهم في عدل الله ثلاثة أقوال[1]:

قيل: كلُّ ما يكون مقدورًا لله[2] فهو عدل.

وقيل: العدل منه نظيرُ العدل من عباده.

وهما قولان ضعيفان.

وقيل: مِن عدلِه أن يجزي المحسن بحسناته، لا يَنْقُصه شيئًا منها، ولا يعاقبه بلا ذنب.

ومعلومٌ أنه إذا أمر العبدَ بما يقدر عليه كان جائزًا باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنَّصارىٰ، وإن كان الفعل مكروهًا للإنسان؛ فإن الجنَّة حُفَّت بالمكاره وحُفَّت النَّار بالشَّهوات، وقد كُلِّفَت بنو إسرائيل والنَّصارىٰ من الأعمال ما هو مكروهٌ لهم وشاقٌّ عليهم، فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغةٍ يبيِّن بعضُ المسلمين معناها لهم؟!

والعربُ الذين[3] نزل القرآن بلسانهم طبَّقوا الأرض، ومنهم نصارىٰ لا يُحْصَون، فكلُّ من عَرَف بالعربيَّة[4] من النَّصارىٰ أمكنه فهمُ ما يقال

(١) انظر: «منهاج السنة» (١/ ١٣٤، ٦/ ٤٠٢)، و«تفسير آيات أشكلت» (١/ ٤٤٤)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٢١- ١٤٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٢١٩، ١٨/ ١٣٨)، وما سيأتي (١/ ٣٢٨).

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) لم تحرر في (و، ي). (د، ع): «الذي». والوجه ما أثبت.

(٤) تقدمت الإشارة إلىٰ هذا الاستعمال (١/ ٢٨٧).



بالعربي، ومن كان منهم روميًّا كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم، كالفُرس والتُّرك والهند والبربر والحبشة وغيرهم، وهو متمكِّنٌ من معرفة ما أمره الله والعمل به كما يمكن هؤلاء كلهم[1]، بل الرُّوم أقدر علىٰ ذلك من غيرهم، فلأيِّ وجهٍ يمتنع أن يأمرهم الله بذلك؟!

وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به إذا كان مقدورًا للعبد فعليه أن يفعله، باتفاق أهل الملل المسلمين واليهود والنَّصارىٰ.

وإنما ما تنازع النَّاس فيه: هل يسمَّىٰ واجبًا؟

فقيل: يسمَّىٰ واجبًا.

وقيل: لا يسمَّىٰ واجبًا؛ فإن الآمر لم يقصده بالأمر، وقد لا يخطر بباله إذا كان الآمر مخلوقًا.

قال هؤلاء: ولأن الواجب ما يُذَمُّ تاركُه شرعًا أو يعاقَبُ تاركُه شرعًا، أو ما يستحقُّ تاركُه الذَّمَّ أو العقاب[2]، أو ما يكون تركُه سببًا للذَّمِّ أو العقاب.

قالوا: وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به لا يستحقُّ تاركُه الذَّمَّ والعقاب؛ فإن الحجَّ إذا وجب علىٰ شخصين أحدهما بعيدٌ والآخر قريبٌ، ولم يفعلاه، لم تكن عقوبة البعيد علىٰ التَّرك أعظمَ من عقوبة القريب، مع أن المسافة التي لا بدَّ لهما من قطعها أكثر. وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياجٍ إلىٰ بيع شيءٍ من ماله، ليست عقوبته علىٰ التَّرك بأقلَّ من عقوبة من يحتاج إلىٰ بيع مالٍ له ليقضي به دينه.

وفصل الخطاب: أن ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به هو من لوازم وجود الواجب،

(١) ليست في (ع).
(٢) «أو العقاب» ليست في (و)، ولم تثبتها ط. العاصمة.

ووجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنع، فالمأمور به لا يمكن فعلُه إلا بلوازمه، والمنهيُّ عنه لا يمكن تركُه إلا بترك ملزوماته، لكن هذا الملزوم لزومُه[1] عقليٌّ أو عاديٌّ، فوجوبه وجوبٌ عقليٌّ عاديٌّ، لا أن الآمر نفسه قصد إيجابه والذمَّ والعقابَ علىٰ تركه[2].

وتنازع النَّاس: هل يقال: ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب، سواءٌ كان وجوبه شرعيًّا أو عقليًّا؟ أو يحتاج أن يقال: ما لا يتمُّ الواجب إلا به، وكان مقدورًا للمكلَّف، فهو واجب؟

فالجمهور أطلقوا العبارة الأولىٰ، وبعض المتأخرين قيَّدوها بالقدرة[3]، ولا حاجة إلىٰ ذلك؛ فإن ما لم يكن مقدورًا ينتفي الوجوب مع انتفائه، فيكون شرطًا في الوجوب، لا في فعل الواجب. والجمهور قالوا: ما لا يتمُّ الواجب إلا به فإنه يجب.

والمقصود هنا أن الله إذا أوجب علىٰ العباد شيئًا، واحتاج أداء[4] الواجب إلىٰ تعلُّم شيءٍ من العلم، كان تعلُّمه واجبًا[5].

فإذا كان معرفة العبد لما أمره[6] الله به تتوقَّف علىٰ أن يعرف معنىٰ كلامٍ تكلَّم به بغير لغته، وهو قادرٌ علىٰ تعلُّم معنىٰ تلك الألفاظ التي ليست بلغته، أو علىٰ معرفة ترجمتها بلغته، وجب عليه تعلُّم ذلك.

---

(١) الأصول: «لزوم»، والمثبت أشبه، أو يكون: «لكن هذا اللزوم لزومٌ ...».
(٢) انظر: «المسودة» (١/ ١٨٧- ١٨٩)، و«درء التعارض» (١/ ٢١١- ٢١٣)، و«جامع الرسائل» (٢/ ١٦٨).
(٣) ط. النيل: «بالمقدور»، وفي طرة (د، ع) إشارة إلىٰ أنها في نسخة.
(٤) ليست في (د، ع).
(٥) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٢٧).
(٦) (و): «أمر».

ولو جاءت رسالةٌ من ملكٍ إلىٰ ملكٍ بغير لسانه لطلب من يترجم مقصودَ الملك المُرسِل، ولم يَجُزْ أن يقول: أنت لم تبعث إليَّ من يخاطبني بلغتي، مع قدرته علىٰ أن يفهم مراده بالتَّرجمة، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟!

ولو أمر[1] بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته، وهم قادرون علىٰ معرفة ما أمرهم به، إما بتعلُّم لغته، وإما بمن يترجم لهم ما قاله، لم يكن ذلك ظلمًا، فكيف يكون ظلمًا من ربِّ العالمين، مع أنه ليس بظلمٍ من المخلوقين؟!

ولو وجب لبعض الرَّعيَّة حقٌّ علىٰ بعض، أو ظلم بعضهم بعضًا، لوجب علىٰ الملك أن يُنْصِفَ المظلوم، ويرسل إلىٰ الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف، ويعاقبه إذا لم يُنْصِف إذا كان الظالم متمكِّنًا من معرفة أمر الملك بالتَّرجمة أو غيرها. وهذا هو العدل، ليس العدل أن يترك النَّاس ظالمين في حقِّ الله وحقِّ عباده.

والله تعالىٰ أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم النَّاسُ بالقسط، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فليس لأحدٍ ممَّن أُرسِل إليه رسولٌ، وهو قادرٌ علىٰ معرفة ما أُرسِل به إليه بالتَّرجمة أو غير[2] التَّرجمة، أن يمتنع من شرع الله الذي أنزله، وهو القسطُ الذي بَعَث به رسوله، لكون الرَّسول ليس لغتُه لغتَه، مع قدرته علىٰ أن يعرف مراده بطرقٍ متعددة.

والنَّاسُ في مصالح دنياهم يتوسَّل أحدُهم إلىٰ معرفة مراد الآخر بالتَّرجمة وغيرها، فيتبايعون وبينهم ترجمانٌ يبلِّغ بعضَهم عن بعض، ويتراسلون في

---

(١) (و، ي): «أمر به».

(٢) (و): «وغير».



عمارة بلادهم وأغراض نفوسهم بالتَّراجم الذين يترجمون لهم.

وأمرُ الدين أعظم من أمر الدنيا؛ فكيف لا يتوسَّلون إلىٰ معرفة مراد بعضهم من بعض؟! وكيف يكون أمر الدنيا أهمَّ من أمر الدِّين إلا عند من أغفل الله قلبَه عن ذكر ربِّه، واتَّبع هواه، وأعرض عن ذكر ربِّه، ولم يُرِد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

الوجه الرابع: أنه من العجب أن تَعُدَّ النَّصارىٰ مثل هذا ظلمًا خارجًا عن العدل، وهم قد نسبوا[1] إلىٰ الله من الظُّلم العظيم علىٰ هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحدٌ من الأمم، كما سبُّوه وشتموه مَسَبَّةً ما سبَّه إيَّاها أحدٌ من الأمم.

فهم من أبعد الأمم عن توحيده وتمجيده وحمده والثَّناء عليه، وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشَّجرة غضب الرَّبُّ عليه وعاقبه، وأن تلك العقوبة بقيت في ذرِّيته، إلىٰ أن جاء المسيح وصُلِب، وأنه كانت الذُّرِّيَّة في حبس إبليس، فمن مات منهم ذهبت روحُه إلىٰ جهنَّم في حبس إبليس، حتىٰ قالوا ذلك في الأنبياء: نوح وإبراهيم وموسىٰ وداود وسليمان وغيرهم!

ومعلومٌ أن إبراهيم كان أبوه كافرًا، ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه، فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعَد؟! هذا لو قُدِّر أن آدم لم يَتُبْ، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتَّوبة؟!

---

(١) (ع): «وهم نسبوا».

ثم يزعمون أن الصَّلْبَ الذي هو من أعظم الذُّنوب والخطايا به خَلَّص الله آدم وذريتَه من عذاب الجحيم، وبه عاقبَ إبليس، مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله مستحقًّا للعقاب من حين امتنع من السُّجود لآدم ووسوس لآدم إلىٰ حين مبعث المسيح، والربُّ قادرٌ علىٰ عقوبته، وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم.

فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التي هي مَضَاحِكُ العقلاء، والتي لا تصلح أن تضاف إلىٰ أجهل الملوك وأظلمهم، فكيف يدَّعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسانَ بتعلُّم ما يقدر علىٰ تعلُّمه وفيه صلاحُ معاشه ومعاده، ويجعلون مثل هذا موجبًا لتكذيب كتابه ورسله، والإصرار علىٰ تبديل الكتاب الأوَّل وتكذيب الكتاب الآخر، وعلىٰ أنَّه يتضمَّن مخالفة موسىٰ وعيسىٰ وسائر الأنبياء والرُّسل؟!

والنَّصارىٰ[1] يقولون: إن المسيح الذي هو عندهم اللَّاهُوت والنَّاسُوت جميعًا إنما مكَّن الكفَّار من صَلْبِه ليحتال بذلك علىٰ عقوبة إبليس[2].

قالوا: فأخفىٰ نفسه عن إبليس لئلا يَعْلَم.

قالوا[3]: ومكَّن أعداءه من أخذِه وضربه والبصاق في وجهه ووضعِ الشَّوك علىٰ رأسه وصَلْبِه، وأظهَر الجزع من الموت، وصار[4] يقول: يا إلهي، لم سلَّطتَ أعدائي عليَّ؟ ليختفي[5] بذلك عن إبليس، فلا يعرف إبليس أنه الله

---

(١) قبلها في (ع): «فصل»، ولا وجه له.
(٢) كما سيأتي (٢/ ٣٧).
(٣) ليست في (و، ي).
(٤) (د، ع): «وجعل»، وفي طرتها إشارة إلىٰ أن «صار» في نسخة.
(٥) (د، ع): «ليخفي».



أو ابن الله، ويريد إبليس أن يأخذ روحَه إلىٰ الجحيم كما أخذ أرواحَ نوحٍ وإبراهيم وموسىٰ وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين، فيحتجُّ عليه الربُّ حينئذٍ، ويقول: بماذا استحللتَ يا إبليس أن تأخذ روحي؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك، فيقول: ناسُوتي لا خطيئة له كنَواسِيت الأنبياء، فإنه كان لهم خطايا استحقُّوا بها أن تؤخذ[1] أرواحُهم إلىٰ جهنَّم، وأنا لا خطيئة لي!

قالوا: فلما أقام الله الحجَّة علىٰ إبليس، جاز للرَّبِّ حينئذٍ أن يأخذ إبليس ويعاقبه، ويخلِّص ذريَّة آدم من إذهابهم إلىٰ الجحيم.

وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظُّلم إلىٰ الله ما يطول وصفُه، فمَن هذا قولُه فقد قَدَح في علم الربِّ وحكمته وعدله قدحًا ما قدحه فيه أحد، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يقال: إبليس إن كان أخذ الذُّرِّيَّة بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسُوت المسيح وغيره، وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنب أبيهم، وهم قالوا: إنما أخذهم بذنب آدم.

الثاني: أن يقال: من خُلِق بعد المسيح من الذُّرِّيَّة كمن خُلِق قبله، فكيف جاز أن يمكَّن إبليس من الذُّرِّيَّة المتقدِّمين دون المتأخِّرين، وكلُّهم بالنسبة إلىٰ آدم سواء؟! وهم أيضًا يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدِّمين، فكيف جاز تمكُّن[2] إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدِّمين ولم يمكَّن من عقوبة الكفَّار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟!

---

(١) (د، ي، ع): «تأخذ».

(٢) ط. العاصمة: «تمكين»، خلاف الأصول وط. النيل.

الوجه الثالث: أن يقال: أخذُ إبليس لذريَّة آدم وإدخالهم جهنَّم، إما أن يكون ظلمًا من إبليس، وإما أن يكون عدلًا. فإن كان عدلًا فلا لوم علىٰ إبليس، ولا يجوز أن[1] يُحْتَال عليه ليمتنع من العدل الذي يستحقُّه، بل يجب تمكينُه من المتأخِّرين والمتقدِّمين. وإن كان ظلمًا فلم لا يمنعه الرَّبُّ منه قبل المسيح؟!

فإن قيل: لم يَقْدِر، فقد نسبوه إلىٰ العجز. وإن قيل: قَدِر علىٰ دفع ظلم إبليس، ولم يفعله، فلا فرق بين دفعه في زمانٍ دون زمان، إن جاز[2] ذلك جاز في كلِّ زمان، وإن امتنع امتنع في كلِّ زمان.

الوجه الرابع: أن إبليس إن كان معذورًا قبل المسيح فلا حاجة إلىٰ عقوبته، ولا ملام[3] عليه، وإن لم يكن معذورًا استحقَّ العقوبة، ولا حاجة إلىٰ[4] أن يحتال عليه بحيلةٍ تُقَام بها الحجَّة عليه.

الوجه الخامس: أنه بتقدير أنه لم يُقِم عليه حُجَّةً[5] قبل الصَّلب فلم يُقِم عليه حُجَّةً[6] بالصَّلب؛ فإنه يمكنه أن يقول: أنا ما علمتُ أن هذا النَّاسُوتَ هو ناسوتُ الرَّبِّ، وأنت يا ربِّ قد أذنتَ لي أن آخذ جميع ذريَّة آدم فأَرِدَ بهم[7] إلىٰ

---

(١) «يجوز أن» ليست في (ع).
(٢) (د، ع): «أو جاز»، وهو خطأ.
(٣) (د، ع): «يلام».
(٤) ليست في (د، ع).
(٥) (و): «الحجة».
(٦) ليست في (ي، د، ع).
(٧) مهملة في (ي)، ورسمت في (د، و، ع): «فاوديهم»، وكذلك أثبتتها الطبعات. وأرجو أن الصواب ما قرأت، وقد جاء في التنزيل أن فرعون يورد قومه النار، وبئس الورد المورود. وأما «فأُودِيهم» أو «فأُرْدِيهم» بمعنىٰ «أُهلِكُهم» فلا يلتئم بها سياق الكلام.

الجحيم، وهذا واحدٌ منهم، وما علمتُ أنك أو ابنك اتَّحَد به، ولو علمتُ ذلك لعظَّمتُه، فأنا معذورٌ في ذلك، فلا يجوز أن تظلمني.

الوجه السادس: أن يقال[1]: إن إبليس يقول حينئذٍ: يا ربِّ، فهذا النَّاسُوت الواحد أخطأتُ في أخذِ روحه، لكن سائر بني آدم الذين بعده لي أن أحبس أرواحَهم في جهنَّم، كما حبستُ أرواحَ الذين كانوا قبل المسيح، إمَّا بذنب أبيهم وإما بخطاياهم أنفسهم. وحينئذٍ، فإن كان ما يقوله النَّصارىٰ حقًّا فلا حجَّة لله علىٰ إبليس.

الوجه السَّابع: أن يقال: هَبْ أن آدم أذنبَ وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان، فعقوبة بني آدم علىٰ ذنوبهم هي إلىٰ الله أو إلىٰ إبليس؟! فهل يقول عاقلٌ أن إبليس له أن يغويَ بني آدم بتزيينه لهم، ثم له أن يعاقبهم جميعًا بغير إذنٍ من الله له[2] في ذلك؟!

وهل هذا القول إلا من جنس[3] قول المجوس الثَّنويَّة الذين يقولون: إن كلَّ ما في العالم من الشرِّ من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس، لم يفعل الله شيئًا من ذلك، ولا عاقب الله أحدًا علىٰ ذنب؟

ولا ريب أن هذا القول سرىٰ إلىٰ النَّصارىٰ من المجوس؛ ولهذا[4] لا ينقلون هذا القول في كتابٍ منزَّل، ولا عن أحدٍ من الحواريِّين، ولهذا كان المانَوِيَّة دينهم مركَّبًا من دين النَّصارىٰ والمجوس، وكان رأسهم ماني نصرانيًّا

(١) ليست في (و، ي)، وفي (د): «نقول».
(٢) ليست في (و).
(٣) ليست في (و، د، ع).
(٤) ط. العاصمة: «لهذا» خلاف الأصول.

مجوسيًّا[1]، فالنسبُ بين النَّصارىٰ والمجوس[2] بل وسائر المشركين نسبٌ معروف[3].

الوجه الثامن: أن يقال: إبليسُ عاقَبَ بني آدم وأدخلهم جهنَّم بإذن الله أو بغير إذنه؟

إن قالوا: بإذنه، فلا ذنب له، ولا يستحقُّ أن يحتال عليه ليعاقَب ويُمْنَع[4].

وإن كان بغير إذنه، فهل جاز في عدل الله أن يمكِّنه من ذلك أم لم يَجُزْ؟ فإن جاز ذلك في زمانٍ جاز في جميع الأزمنة، وإن لم يَجُزْ في زمانٍ لم يَجُزْ في جميع الأزمنة، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده.

الوجه التاسع: أن يقال: هل كان الله قادرًا علىٰ منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة، وكان ذلك عدلًا منه لو فعله أم لا؟

فإن كان ذلك مقدورًا له وهو عدلٌ منه لم يَحْتَجْ أن يحتال علىٰ إبليس، ولا يَصْلِب نفسَه أو ابنه. ثم إن كان هذا العدل واجبًا عليه وجب منعُ إبليس، وإن لم يكن واجبًا جاز تمكينُه في كلِّ زمان، فلا فرق بين زمانٍ وزمان.

وإن قيل: لم يكن قادرًا علىٰ منع إبليس، فهو تعجيزٌ للرَّبِّ عن[5] منع إبليس، وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل المِلَل، من جنس قول الثَّنويَّة الذين

---

(١) تقدمت ترجمته (١/ ٥٢).

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٥/ ٣٦٢)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/ ١٦٩)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢/ ٨٤٨).

(٤) مهملة في (و، ي)، (د، ع): «ويمتنع».

(٥) (د، ع): «علىٰ».

يقولون: لم يكن يَقْدِر النُّورُ أن يمنع الظُّلمة[1] من الشَّرِّ، ومن جنس قول دِيمُقراطيس[2] والحَرْنَانيِّين[3] الذين يقولون: لم يمكن واجبُ الوجود أن يمنع النَّفسَ من[4] ملابسة الهَيُولىٰ[5]، بل تعلَّقت النفسُ بها بغير اختياره[6].

الوجه العاشر: أن ما فعله به الكفَّارُ اليهودُ الذين صلبوه، هل كان[7] طاعةً لله أو معصية؟

فإن كان طاعةً لله استحقَّ اليهودُ الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم علىٰ طاعته، كما يثيبُ سائر المطيعين له. والنَّصارىٰ متَّفقون علىٰ أن أولئك من أعظم النَّاس إثمًا، وهم من شرِّ الخلق، وهم يستحلُّون من دمهم ولعنتهم ما لا يستحلُّونه من غيرهم، بل يبالغون في طلب اليهود وعقوبتهم في آخر صومهم الأيام التي تشبه أيَّام الصَّليب.

وإن كان أولئك اليهود عصاةً لله، فهل كان قادرًا علىٰ منعهم من هذه المعصية أم لا؟ فإن لم يكن قادرًا لم يكن قادرًا علىٰ منع إبليس من ظلم الذُّرِّيَّة

---

(١) (ي): «الظلم»، (د، ع) وط. النيل: «العالم»، وهو خطأ.

(٢) فيلسوف يوناني، قبل أفلاطون، كان يقول بالجزء الذي لا يتجزأ. انظر: «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل (٣٣)، و«الملل والنحل» (٢/ ١٤٠، ١٧٠).

(٣) مهملة في (ي، و)، (ع، د): «والحنانين»، وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة.
والحرنانيون: جماعةٌ من الصابئة الكلدانيين، نسبتهم إلىٰ حرَّان (من مدن الجزيرة الفراتية، جنوب شرق تركيا اليوم) علىٰ غير قياس، يقولون بالقدماء الخمسة. انظر: «الفهرست» (٣/ ٣٥٧)، و«الملل والنحل» (٢/ ١١٢)، و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» (٨٤)، و«الصحاح» (حرن).

(٤) (د، ع): «لم يكن واجب الوجود الذي يمنع النفس عن».

(٥) وهي الأصل والمادة، كما مضىٰ (١/ ١٨٠).

(٦) انظر: «درء التعارض» (٩/ ٣٤٧)، و«منهاج السنة» (١/ ٢٠٩)، و«شرح الأصبهانية» (٢٨٠)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٠٦).

(٧) «هل كان» ليست في (و). (ع، د): «قد كان».

في الزَّمن المستقبل، وإن كان قادرًا علىٰ منعهم من المعاصي ولـم يمنعهم كـان قادرًا علىٰ منع إبليس بدون هذه الحيلة، وإذا كان[1] حسنًا منه تمكينُهم من هذه المعصية كان حسنًا منه تمكينُ إبليس من ظلـم الذُّرِّيَّة في الماضي والمستقبل، فلا حاجة إلىٰ الحيلة عليه.

واعلم أن الوجوه الدَّالة علىٰ فساد دين النَّصارىٰ كثيرةٌ جدًّا، وكلَّما تصوَّر العاقلُ مذهبَهم وتصوَّر لوازمه تبيَّن له فساده، لكن المقصود هنا بيانُ تناقضهم في أنهم يُقِيمون عذرَ أنفسهم في ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه سبحانه عدلًا لا يأمر النَّاس بما يعجزون عنه، وهو سبحانه لـم يأمرهم إلا بما يقـدِرون عليه، وقد نسبوا إليه من الظُّلم ما لم ينسبه إليه أحدٌ من بني آدم.

يوضِّح هذا **الوجه الحادي عشر**: وهو أنه إمَّا أن يقال في الظُّلم بقول[2] الجهميَّة المُجْبِرَة الذين يقولون: يفعل ما يشاء بلا حكمةٍ ولا سببٍ ولا مراعاة عدل.

وإما أن يقال بقول القدريَّة أنه يجبُ عليه العدل الذي يجب علىٰ المخلوقين.

وإما أن يقال: هو عادلٌ منزَّه عن الظلم ولكنْ ليس عدله كعدل المخلوق.

فهذه أقوال النَّاس الثلاثة[3].

فإن قيل بالأول جاز أن يسلَّط إبليسُ علىٰ جميع الذُّرِّيَّة بلا ذنب، وأن يعاقبهم جميعًا بلا ذنب، ولا حاجة حينئذٍ إلىٰ الحيلة علىٰ إبليس.

---

(١) (د، ع): «وإن كان».

(٢) (د، ع): «وهو إما أن تقول في الظلم كما تقول».

(٣) كما تقدم في مسألة عدل الله (١/ ٣١٧).

وإن قيل بالثاني فمعلومٌ أن الواحد من النَّاس لو عَلِم أن بعض مماليكِه أمره غيرُه[1] بذنبٍ يكرهه السَّيِّدُ، ففعله، كان العدلُ منه أن يعاقب الآمرَ والمأمورَ جميعًا. وأما تسليطُه للآمر علىٰ عقوبة المأمور فليس من العدل، وكذلك تسليط الآمر الظَّالم علىٰ جميع ذريَّة المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل.

وإن قيل: بل هو استحقَّ أن يستعبدهم لكون أبيهم أطاعه.

قيل: فحينئذٍ يستحقُّ أن يأسر الأوَّلين والآخرين، فلا يجوز أن يُمْنَع من حقِّه بالاحتيال عليه.

وإن قيل: إنما يستحقُّ أخذهم بخطاياهم[2].

قيل: فله أن يأخذ الأوَّلين والآخرين.

وإن قيل: هو لمَّا طلبَ أخذَ روحِ ناسُوتِ المسيح مُنِع بهذا الذَّنب.

قيل: هذا إن كان ذنبًا فهو أخفُّ ذنوبه، فإنه لم يَعْلَم أنه ناسوتُ الإله. وإذا استحقَّ الرَّجلُ أن يَسْتَرِقَّ أولادَ غيره، فطَلَب رجلًا ليَسْتَرِقَّه لظنِّه أنه منهم، ولم يكن منهم، لم يكن هذا ذنبًا يمنعُ استرقاقَ الباقين.

وإن قيل: إن عدل الرَّبِّ ليس كعدل المخلوقين، بل مِن عدلِه أن لا يَنْقُصَ أحدًا من حسناته، ولا يعاقبه إلا بذنبه، لم يَجُزْ حينئذٍ أن يعاقب ذريَّة آدم بذنب أبيهم، ولم يَجُزْ أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنبٌ إلا ذنبٌ تابوا منه بذنب غيرهم؛ فإن[3] الأنبياء معصومون أن يُقَرُّوا علىٰ ذنب، فكلُّ من مات منهم مات

---

(١) (و، ي): «أمر غيره»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٢) ط. العاصمة: «خطاياهم»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (د) وط. النيل: «بأن»، (ي): «وإن». والصواب المثبت من (و، ع).

وليس له ذنبٌ يستحقُّ عليه العقوبة، فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم، إن قُدِّر أنه مات مصرًّا علىٰ الذَّنب؟! مع أن هذا تقديرٌ باطل، ولو قُدِّر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقُّون بها العقوبةَ بعد الموت وتسليطَ إبليس علىٰ عقوبتهم -مع أن هذا تقديرٌ باطل- فمَن بعدَ المسيح من غير الأنبياء أولىٰ بذلك، فكيف يجوز في العدل الذي يوجبُ التَّسوية بين المتماثلَين عقوبةُ الأنبياء ومنعُ عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفَّار؟!

الوجه الثاني عشر: أن الرَّبَّ إذا قصَد بهذا دفعَ ظلم إبليس، فهلَّا اتَّحد بناسُوتِ بعض أولاد آدم ليحتال علىٰ إبليسَ فيمنعَه من ظلم من تقدَّم؟ فإنَّ المنعَ من الشرِّ الكثير أولىٰ من المنع من الشرِّ القليل، أتراه ما كان يعلمُ أن إبليس يعملُ هذا الشرَّ كلَّه؟! فهذا تجهيلٌ له، أو كان يَعْرِفُ[1] وعَجَز عن دفعه؟! فهذا تعجيزٌ له. ثم ما الفرق بين زمانٍ وزمان؟! إن[2] كان تركُ منعِه عدلًا منه فهو عدلٌ في كلِّ زمان.

(١) (د، ع) وط. النيل: «يعترف»، وهو خطأ.

(٢) الأصول: «أم». والمثبت أشبه بالصواب.



فصل

وأما تفسيرهم لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] بأن مراده قومُه، كما قالوا: «وأما قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ يريد بحسب[1] مقتضىٰ العدل قومَه الذين أتاهم بلغتهم، لا غيرهم ممَّن لم يأتهم بما[2] جاء فيه»[3].

فيقال لهم: من فسَّر مرادَ متكلِّمٍ -أيَّ متكلِّم كان[4]- بما يعلم النَّاسُ أنه خلاف مراده فهو كاذبٌ مفترٍ عليه، وإن كان المتكلِّم من آحاد العامَّة، ولو كان المتكلِّم من المتنبِّئين الكذَّابين؛ فإن من عُرِف كذبُه إذا تكلَّم بكلامٍ وعُرِف مراده به لم يَجُزْ أن يُكْذَب عليه، فيقال: أراد كذا وكذا؛ فإن الكذب حرامٌ قبيحٌ علىٰ كلِّ أحدٍ سواءٌ كان صادقًا أو كاذبًا، فكيف بمن يفسِّر مراد الله ورسوله بما يَعْلَم كلُّ[5] من خَبَر حالَه علمًا ضروريًّا أنه لم يُرِد ذلك، بل يعلم علمًا ضروريًّا أنه أراد العموم؟!

فإن قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا ﴾ صيغةٌ عامَّة، وصيغة «مَن» الشَّرطية من أبلغ صيغ العموم، كقوله تعالىٰ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

---

(١) رسالة بولس الأنطاكي: «يريد به حسب».
(٢) رسالة بولس الأنطاكي: «حسبما»، وهو أجود، أي: حسب ما جاء في القرآن من أنه لم يُرسَل إلا للجاهلية من العرب.
(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤).
(٤) ليست في (د، ع).
(٥) ليست في (د، ع).

ثم إن سياق الكلام يدلُّ على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم؛ فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى؛ فإنها نزلت لمَّا قدم على النبيِّ ﷺ وفدُ نجران النَّصارى، ورُوِيَ أنهم كانوا ستِّين راكبًا، وفيهم: السَّيِّد، والأيهَم، والعاقب، وقصَّتهم مشهورةٌ معروفة، كما تقدَّم ذكرُها[1].

وقد قال قبل هذا الكلام يَذُمُّ[2] دينَ النَّصارى الذي[3] ابتدعوه، وغيَّروا به دينَ المسيح، ولَبَسوا الحقَّ الذي بُعِث به المسيحُ بالباطل الذي ابتدعوه، حتى صار دينهم مركَّبًا[4] من حقٍّ وباطل، واختلط أحدُهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يَعْرِف ما نسخه المسيحُ من شريعة التَّوراة ممَّا أقرَّه، والمسيحُ قرَّر أكثر شرع التَّوراة وغيَّر البعض[5]، وعامَّة النَّصارى لا يميِّزون ما قرَّره ممَّا غيَّره، فلا تَعْرِفُ[6] دينَ المسيح[7].

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩- ٨٠]، فقد بيَّن أن من اتَّخذ

---

(١) (١/ ٧٧-٨٨).
(٢) مهملة في (ي)، (د، و، ع): «بذم»، والمثبت أقوم.
(٣) (ع، د): «الذين».
(٤) (ع): «متركبا».
(٥) (ي، ع): «المعنى». وهو تحريف، وأثبتته ط. النيل والعاصمة.
(٦) أي عامة النصارى. وهي مهملة في (ي)، وفي ط. النيل والعاصمة: «يعرف».
(٧) من قوله: «دين المسيح ولبسوا» إلى هنا سقط من (و) لانتقال النظر، وسقط معظمه من (د، ع).

الملائكة والنبيِّين أربابًا فهو كافر، فمن اتَّخذ مَن دونهم أربابًا كان أولىٰ بالكفر، وقد ذكَر أن النَّصارىٰ اتَّخذوا من هو دونهم أربابًا بقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ثم قال تعالىٰ في آل عمران[١]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عبَّاس وغيره من السَّلف: ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعِث محمَّدٌ وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق علىٰ أمَّته لئن بُعِث محمَّدٌ وهم أحياءٌ ليؤمنُنَّ به ولينصرُنَّه[٢].

والآية تدلُّ علىٰ ما قالوا؛ فإن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ يتناول جميع النبيِّين، ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، وهذه اللام الأولىٰ تسمَّىٰ «اللام الموطِّئة للقَسَم»، واللام الثانية تسمَّىٰ «لام جواب القَسَم»، والكلام إذا اجتمع فيه شرطٌ وقَسَمٌ وقُدِّم القَسَمُ سَدَّ جوابُ القَسَمِ مَسَدَّ جواب الشَّرط[٣].

---

(١) ط. النيل: «سورة آل عمران».

(٢) أخرجه ابن جرير (٥/ ٥٤٠، ٥٤١) عن علي رضي الله عنه وقتادة والسدي، وبنحو معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (٤٥٣- ٤٥٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٧٢٨).

والقَسَم كقوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ [النور: ٥٣]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢]، ومنه قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٨]، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨].

ومثلُ هذا كثير.

وحيث لم يُذْكَر[1] القَسَمُ فهو محذوفٌ مراد، تقديرُ الكلام: واللهِ ﴿لَئِنْ

---

(١) (ع): «لا يذكر»، وسقطت «لم» من (و).

﴿أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، واللهِ ﴿لئن[1] قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾.

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذفُ من الكلام ما يدلُّ المذكور عليه، اختصارًا وإيجازًا، لا سيَّما فيما يكثُر استعماله، كالقَسَم.

وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ هي (ما) الشَّرطيَّة، والتقدير: أيَّ شيءٍ أعطيتُكم من كتابٍ وحكمة، ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم، لتؤمنُنَّ به ولتنصرُنَّه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به، ولا يحملنَّكم ما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ علىٰ أن تتركوا متابعتَه، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه، وإن كان معكم من قبله من كتابٍ وحكمةٍ فلا تستغنوا بما آتيتكم[2] عمَّا جاء به؛ فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدلَّ ذلك علىٰ أنه من أدرك محمَّدًا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتابٌ وحكمةٌ فعليه أن يؤمن بمحمَّدٍ وينصره، كما قال: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

وقد أقرَّ الأنبياء بهذا الميثاق، وشهد الله عليهم به، كما قال تعالىٰ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ثم قال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

---

(١) كذا في الأصول، أراد الاستشهاد، والتلاوة: (ولئن).
(٢) (و): «فلا يغنيكم ما آتيتكم».



﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٢- ٨٥].

قال طائفةٌ من السَّلف[١]: لمَّا أنزل الله هذه الآية[٢] قال من قال من اليهود والنَّصارىٰ: نحن مسلمون، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾، فقالوا: لا نحجُّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فكلُّ من لم ير حجَّ البيت واجبًا عليه -مع الاستطاعة- فهو كافرٌ، باتفاق المسلمين، كما دلَّ عليه القرآن، واليهود والنَّصارىٰ لا يرونه واجبًا عليهم، فهم من الكفَّار، حتىٰ إنه روي في حديثٍ مرفوع إلىٰ النبيِّ ﷺ: «**من ملك زادًا وراحلةً تُبْلِغُه إلىٰ بيت الله، ولم يحجَّ، فليمت إن شاء يهوديًّا وإن شاء نصرانيًّا**»[٣]، وهو محفوظٌ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ٦٢٢) عن عكرمة، والبيهقي (٤/ ٣٢٤) عن مجاهد.
(٢) ليست في (ع).
(٣) أخرجه البيهقي (٤/ ٣٣٤) وغيره من حديث أبي أمامة رضي الله عنه بسند ضعيف، وقال ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٤٤٥): «غير محفوظ».
وروي من حديث علي وأبي هريرة رضي الله عنهما ، ولا يثبت في الباب شيءٌ مرفوع إلىٰ النبي ﷺ. انظر: «تنقيح التحقيق» (٣/ ٤٠٤- ٤١٠)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٠٢)، و«البدر المنير» (٦/ ٣٨- ٤٥).
(٤) أخرجه أحمد كما في «السنة» للخلال (٥/ ٤٤، ٤٧). وأخرجه الإسماعيلي في «مسند عمر» بإسناد صحيح، كما قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٤٤٨)، وابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٥١٠).



وقد اتَّفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس: الشهادتين، والصَّلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحجِّ البيت، فإنه كافر.

وأيضًا، فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران[1]: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٨-٢٠].

فقد أمره تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أن يقول: أسلمتُ وجهيَ لله ومن اتَّبعنِ، وأن يقول للذين أوتوا الكتاب -وهم اليهود والنَّصارى-، والأمِّيِّين -وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم-: أأسلمتم؟

فالعرب الأمُّيُّون يدخلون في لفظ «الأمِّيِّين» باتفاق النَّاس، وأما من سواهم فإمَّا أن يشمله هذا اللفظ، أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبيِّنة أنه أُرسِل إلى جميع النَّاس.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ

---

(١) (و): «أول السورة».



بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[1]، فقد أمَر أهلَ الكتاب بالإسلام، كما أمَر به الأمِّيِّين، وجعلهم إذا أسلموا مهتدين، وإن لم يُسْلِموا فقد قال: «إنما عليك البلاغ» أي: تُبَلِّغُهم رسالات ربك إليهم، والله هو الذي يحاسبهم.

فدلَّ بهذا[2] كلِّه علىٰ أنه عليه أن يبلِّغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلِّغ الأمِّيِّين، وأن الله يحاسبهم علىٰ ترك الإسلام كما يحاسب الأمِّيِّين.

وفي الصَّحيحين[3] عن النبيِّ ﷺ في الكتاب الذي كتبه إلىٰ هِرَقل ملك النَّصارىٰ: «**من محمَّدٍ رسول الله إلىٰ هرقل عظيم الرُّوم، سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَم، وأَسْلِمْ يؤتِك الله أجرك مرَّتين، وإن تولَّيتَ فإن عليك إثم الأريسيِّين**».

و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأبلغُ من ذلك أن الله تعالىٰ أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء، كنوحٍ وإبراهيم ويعقوب وأتباعهم إلىٰ الحواريِّين، وهذا تحقيقٌ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأن الدِّين عند الله الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكان.

---

(١) من قوله: «فقد أمره تعالىٰ» إلىٰ هنا ساقط من (ع).

(٢) (و): «هذا».

(٣) صحيح البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

قال تعالىٰ عن نوح أولِ رسولٍ بعثه الله إلىٰ أهل الأرض: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١- ٧٢]، فهذا نوحُ الذي أغرق[1] الله أهل الأرض بدعوته، وجعل جميع الآدميِّين من ذريَّته، يَذْكُر أنه أُمِر أن أكون[2] من المسلمين.

وأما الخليل، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾،[3] ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٨، ١٣٠- ١٣٢]، فقد أخبر تعالىٰ أنه أمَر الخليل بالإسلام، وأنه قال: «أسلمتُ لربِّ العالمين»، وأن إبراهيم وصَّىٰ بنيه ويعقوبُ وصَّىٰ بنيه[4] أن لا يموتُنَّ إلا وهم مسلمون.

وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧- ٦٨].

---

(١) (ي، و): «غرق». وسقط لفظ الجلالة من ط. العاصمة، وهو في الأصول كلها.
(٢) كذا في الأصول علىٰ حكاية لفظ الآية. وفي ط. النيل والعاصمة: «يكون».
(٣) زادت ط. العاصمة هنا: «قال تعالىٰ»، وليست في الأصول.
(٤) «ويعقوب وصىٰ بنيه» ليست في (و).

وقال تعالىٰ عن يوسف الصِّدِّيق ابن يعقوب أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالىٰ عن موسىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال عن السَّحرة الذين آمنوا بموسىٰ: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠- ٥١]، وقالوا أيضًا[1]: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقال تعالىٰ في قصَّة سليمان: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠- ٣١]، وقال: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، وقال: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وقال تعالىٰ عن بلقيس التي آمنت بسليمان: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) ليست في (د، ع). وفي طرة (د) أن في نسخة: «وقال تعالىٰ».

وقال تعالىٰ عن الحواريِّين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]،[1] ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

فهؤلاء الأنبياء[2] وأتباعهم كلُّهم يذكر تعالىٰ أنهم كانوا مسلمين، وهذا ممَّا يبيِّن أن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[3] [آل عمران: ٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، لا يختصُّ بمن بُعِثَ إليه محمَّد ﷺ، بل هو حكمٌ عامٌّ في الأوَّلين والآخرين.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

---

(١) زادت ط. العاصمة هنا: «وقال تعالىٰ»، وليست في الأصول.

(٢) (د، ع): «الأنبياء كلهم».

(٣) أُكمِلت الآية في (د، ع).

فصل

قولهم: «ثم وجدنا في هذا الكتاب مِن تعظيم السَّيِّد[1] المسيح وأمِّه، حيث يقول في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

مع الشَّهادات للسَّيِّد المسيح بالمعجزات، وأنه حبلت به أمُّه من غير مُبَاضَعة رجل، [بل] ببشارة[2] مَلَاكِ[3] الله لأمِّه، وأنه تكلَّم في المهد، وأحيا الميت، وأبرأ الأكمَه، ونقَّىٰ الأبرص[4]، وأنه خَلَق من الطِّين كهيئة الطَّير فنفَخ فيه فكان طيرًا[5] بإذن الله، أي بإذن اللاهُوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت.

ووجدنا أيضًا في الكتاب أن الله رفعه إليه، قال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وفي سورة آل عمران: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال في سورة البقرة: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ

---

(١) ليست في (و).

(٢) (ي، و): «بشارة». (ع، د): «لبشارة». والمثبت وما بين المعقوفين من رسالة بولس.

(٣) (د، ع): «ملائكة»، وفي الطرة إشارة إلىٰ أن «ملاك» في نسخة، وهي التي في رسالة بولس الأنطاكي.

(٤) (ع): «وإحياء الميت وإبراء الأكمه ونقي الأبرص».

(٥) (ي، و): «طائرا».



مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال في سورة الحديد: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال في سورة آل عمران: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

ثم وجدناه يعظِّم إنجيلنا»[١].

الجواب: أمَّا تعظيمُ المسيح وأمُّه فهو حقٌّ، وكذلك مدحُ من كان علىٰ دينه الذي لم يبدَّل قبل أن يُبْعَث ﷺ[٢]، أو بقي علىٰ ذلك إلىٰ أن بُعِث محمَّدٌ ﷺ فآمن به؛ فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون، وكذلك من كان علىٰ دين موسىٰ الذي لم يبدَّل إلىٰ أن بُعِث المسيحُ فآمن به، فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون.

وقد قدَّمنا[٣] أن المسلمين هم عدلٌ متوسِّطون، لا ينحرفون لا[٤] إلىٰ غلوٍّ ولا إلىٰ تقصير، وأما اليهود والنَّصارىٰ فهم علىٰ طرفي نقيض، هؤلاء ينحرفون إلىٰ جهة، وهؤلاء إلىٰ الجهة[٥] التي تقابلها، كما ذكرنا تقابُلهم في النَّسخ، وكذلك تقابُلهم في التَّحريم والتَّحليل والطَّهارة والنجاسة.

---

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤- ٤١٥).
(٢) (د، ع): «قبل أن انبعث محمد ﷺ».
(٣) (١/ ١١-١٤).
(٤) ليس في (و).
(٥) (د، ي، ع): «جهة».

فإن اليهود حرِّمت عليهم الطَّيِّبات، وهم يبالغون في اجتناب النجاسات، حتىٰ إن الحائض لا يؤاكلونها ولا يساكنونها[1] ولا يجامعونها، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب، بل يُقْرَض موضعُها، ويستخرجون الدَّم من العروق، إلىٰ غير ذلك من الآصار والأغلال التي كانت عليهم.

وأما النَّصارىٰ ففي مقابلتهم، تجد عامَّتهم لا يرون شيئًا حرامًا ولا نجسًا إلا ما كرهه الإنسانُ بطبعه، ويصلُّون مع الجنابة والحَدَث وحملِ النَّجاسات، ويأكلون الخبائث، كالدَّم والميتة ولحم الخنزير، إلا من كره منهم شيئًا فتركه.

والمسلمون وسطٌ، كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدلًا خيارًا.

قال[2] تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلىٰ شَبَه اليهود والنَّصارىٰ مأمورًا بترك ذلك الانحراف، واتِّباع الصِّراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم

(١) (ع، د): «يشاربونها».
(٢) (ع، د): «كما قال».



من النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، غير المغضوب عليهم كاليهود، ولا[1] الضَّالِّين كالنَّصارىٰ.

وذلك مثلُ من يبالغ[2] في اجتناب النَّجاسات، فيُنَجِّس ما لم يُنَجِّسه الله ورسوله، ويحرِّم ما لم يحرِّمه الله ورسوله، ويأخذه الوسواس في اجتناب النَّجاسات، ويحرِّم طيِّباتٍ أحلَّها الله للمسلمين، مثل: من يرىٰ أن القياس أن النَّجاسة لا تزول لا بماءٍ ولا بغيره[3]، أو يرىٰ أنها وإن زالت فلم يبق لها أثرٌ فالمحلُّ نجسٌ إذا لم تَزُل بما يشترطه هو من الماء أو غيره، أو يرىٰ أن الطِّيِّبات التي أحلَّ[4] الله حرامٌ خبيثةٌ لأنها مستحيلةٌ عن المحرَّم، مع أن الخَلَّ حلالٌ وإن كان قد كان خمرًا باتفاق المسلمين إذا بدأ اللهُ بإحالته[5]، أو يرىٰ أن الماء الطيِّب والمائعات الطَّيِّبة التي ليس فيها أثرٌ من الخبيث حرامٌ لكون الخبيث لاقاها أو استهلك فيها، مع أنها من الطَّيِّبات لا من الخبائث، أو يرىٰ تحريم ما سوىٰ موضع الدَّم الذي هو أذًىٰ، إلىٰ غير ذلك من أقوالٍ قالها بعض العلماء، ولكنَّ غيرهم نازعهم في ذلك واتَّبع ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة.

---

(١) (و، ي): «وغير».

(٢) (د، ع): «بالغ».

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٤٧٦).

(٤) ط. النيل وما تلاها: «أحلها».

(٥) يشير إلىٰ قول عمر رضي الله عنه: «لا تأكل من خمرٍ أُفْسِدَت حتىٰ يكون الله بدأ فسادَها»، أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤٥٧٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٨/ ٣٩٢)، والبيهقي (٦/ ٣٧) وغيرهم. أي: حتىٰ يكون الله ابتدأ قلبها وإحالتها، فلا يجوز القصد إلىٰ تخليلها. انظر: «شرح العمدة» (١/ ٦٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٤٨٤، ٥٠٣، ٦٠١). وتحرفت الجملة في ط. العاصمة إلىٰ «إذا بدا إلىٰ حالته» متابعة للمطبوعة، وزعمت أن ما في الأصول «جملة مضطربة»!

وأعظمُ من ذلك من يكفِّر من خالفه من المسلمين، ويرىٰ نجاسة الكفَّار، كما عليه[1] كثيرٌ من أهل البدع من الرَّافضة والخوارج وغيرهم، فإذا أكل غيرُهم من وعائهم نجَّسه عندهم.

وأمَّا ما يفعله كثيرٌ من النَّاس -من غير أن يقوله عالمٌ- مثلُ من يغسل يديه وثيابه وحُصُر بيته يتوهَّم[2] نجاستها، أو يأمر الحائض إذا طَهُرَت أن تبدِّل ثيابها الأُوَل أو تغسلها، أو يمنع الجُنُبَ أن يأكل أو يشرب حتىٰ يغتسل، فهذا كثيرٌ فيمن يُشْبِه اليهود، بل يُشْبِه سامرة اليهود[3].

وأما من يشبه النَّصارىٰ فمثل من يُحْسِنُ الظَّنَّ بمن لا يتطهَّر ولا يصلِّي من المنسوبين إلىٰ الفقر والزُّهد والعبادة، مثل من يكون في مواضع الشَّياطين والنجاسات، كالحمَّام والأتاتين[4] والمزابل، وهو متلوِّثٌ بالبول والعَذِرة، ويعاشِر الكلاب، ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة، بل ولا يصلِّي، أو يصلِّي بلا وضوء. وقد عُلِم بالاضطرار من دين الإسلام أن الصَّلوات الخمس فرضٌ علىٰ كل أحد، وأن الوضوء من الحَدَث والاغتسال من الجنابة فرضٌ لا يصلي إلا به مع القدرة، ولا[5] يتيمَّم مع القدرة، فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

ومن جعَل الزَّاهد العابد الذي له نوعٌ من الخوارق -مثل نوعٍ من الكشف والتَّصرُّف الذي يكون من الشَّياطين والجهَّال، يظنُّون أنه من كرامات

(١) (د، ع): «كما دل عليه».
(٢) مهملة في (ي)، (ع، د): «بتوهم».
(٣) يقصد الرافضة. انظر: «منهاج السنة» (١/ ٣٧، ٥/ ١٧٤).
(٤) جمع أتون، وهو الموقد الكبير، كموقد الحمَّام. «المعجم الوسيط» (أتن).
(٥) (د، ع): «وأن لا».

أولياء الله- إذا لم يكن يصلِّي الصَّلوات الخمس، ويتوضأ، ويغتسل من الجنابة = من المؤمنين أو من أولياء الله، فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

ومن لم يحرِّم الخبائث التي حرَّمها الله ورسوله، كالبول، والعَذِرة، والدَّم، والميتة، ولحم الخنزير، والخمر، فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

ومن جعل مستحلَّ ذلك -مع العلم بمخالفته لدين الرَّسول- وليًّا لله، فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

وكذلك فيمن ينتحِلُ الإسلام، ويذمُّ أهل الكتاب، من يكون منافقًا في الدَّرك الأسفل من النَّار، ويكون كثيرٌ من اليهود والنَّصارىٰ أخفَّ عذابًا في الآخرة منه، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

وكذلك المسلمون وأهل السُّنَّة في المسلمين، وكذلك(١) في التَّوحيد.

فإن اليهود شبَّهوا الخالق بالمخلوق فيما يختصُّ بالمخلوق، وهو صفات النَّقص الذي يجب تنزيه الرَّبِّ عنها، والنَّصارىٰ شبَّهوا المخلوق بالخالق فيما يختصُّ بالخالق، وهو صفات الكمال التي لا يستحقُّها إلا الله تبارك وتعالى.

فقال من قال من اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهو بخيل.

وقالوا: إنه خلق العالم، فتَعِبَ، فاستراح.

---

(١) ليست في (د، ع).



وحُكِي عن بعضهم أنه قال: بكىٰ علىٰ الطوفان حتىٰ رَمَدَ وعادته الملائكة، وأنه ناح علىٰ بعض مَن أهلكه من عباده كما ينوحُ المصابُ علىٰ ميِّته.

وأمثال ذلك ممَّا يتعالىٰ الله عنه ويتقدَّس ﷻ[(1)].

وأيضًا، فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله، ويعصون أمره، ويتعدَّون حدوده، ولا يجوِّزون له أن ينسَخ ما شرَعه، بل يَحْجُرون عليه.

والنَّصارىٰ يصفون المخلوق بما يتَّصف به الخالق، فيجعلونه[(2)] ربَّ العالمين، خالق كلِّ شيءٍ ومليكَه، الذي هو بكلِّ شيءٍ عليم، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قدير، واتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيحَ ابن مريم، وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عمَّا يشركون، واتَّخذوا الملائكة والنبيِّين أربابًا من دون الله[(3)]، وصوَّروا تماثيل المخلوقات واتَّخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله، كما فعلت[(4)] عبَّاد الأوثان، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٨]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة: ٤].

---

(١) انظر: «الملل والنحل» (١/ ١٠٦)، و«منهاج السنة» (٢/ ٦٢٨)، و«درء التعارض» (٦/ ١٣٧، ٣٤٨)، وما سيأتي (٣/ ٣٦٠).

(٢) (ي، و): «فجعلوه».

(٣) «من دون الله» ليست في (و، ي).

(٤) (و): «فعل».

والمسلمون وسطٌ، يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله(١) من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ولا تكييفٍ ولا تمثيل، يصفونه بصفات الكمال، وينزِّهونه عن النقائص التي يمتنعُ(٢) على الخالق ولا يتَّصف به المخلوق(٣)، فيصفونه بالحياة والعلم(٤) والقدرة والرَّحمة والعدل والإحسان، وينزِّهونه عن الموت والنَّوم والجهل والعجز والظُّلم والفناء، ويعلمون مع ذلك أنه لا مِثْل(٥) له في شيءٍ من صفات الكمال، فلا أحد يعلمُ كعلمه، ولا يقدرُ كقدرته، ولا يَرحمُ كرحمته، ولا يسمعُ كسمعه، ولا يبصِرُ كبصره، ولا يخلقُ كخلقه، ولا يستوي كاستوائه، ولا يأتي كإتيانه، ولا ينزل كنزوله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

ولا يصفون أحدًا من المخلوقين بخصائص الخالق جلَّ جلاله، بل كلُّ ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقيرٌ إليه عبدٌ له، وهو الصَّمد الذي يحتاجُ إليه كلُّ شيء، ويسأله كلُّ أحد، وهو غنيٌّ بنفسه، لا يحتاجُ إلىٰ أحدٍ في شيءٍ من الأشياء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) (د، ع): «رسله».

(٢) كذا في الأصول، من الحمل علىٰ المعنىٰ، أي النقص الذي يمتنع.

(٣) أقحمت «إلا» في (و) قبل «المخلوق»، وأثبتتها ط. العاصمة وذكرت في تعليقها أنها لازمة للسياق. وليست في سائر الأصول وط. النيل، وهو الصواب، يريد أن ما تنزه المخلوق عن الاتصاف به من النقص فالخالق أولىٰ بالتنزيه عنه. انظر: «التدمرية» (٥٠)، و«درء التعارض» (٤/ ٧)، و«شرح الأصبهانية» (٣٩٥).

(٤) ليست في (د، ع).

(٥) ط. العاصمة: «مثيل»، خلاف الأصول.

وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١- ١٧٣].

وكذلك هم في المسيح.

فالنَّصارىٰ يقولون: هو الله، ويقولون أيضًا: هو[1] ابن الله، وهو إلهٌ تامٌّ وإنسانٌ تامٌّ.

واليهود يقولون: هو ولد زنا، وهو ابن يوسف النَّجَّار[2]، ويقولون عنه: هو ساحرٌ كذَّاب[3]، ويقولون عن مريم: إنها بغيٌّ بعيسىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

---

(١) (ع): «إنه».

(٢) من قرابة مريم، تزعم المصادر النصرانية أنه كان خاطبًا لها. انظر: تفسير ابن جرير (١٥/ ٤٩٤)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (١/ ١١٧) والتعليق عليه.

(٣) تأخرت جملة «ويقولون عنه هو ساحر كذاب» في (و، د، ي) إلىٰ آخر الفقرة.

وأما المسلمون، فيقولون: هو عبد الله ورسوله، وكلمتُه ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول، وروحٌ منه[1]، وهو وجيهٌ في الدُّنيا والآخرة، ومن المقربين. ويصفونه بما وصفه الله به في كتابه، لا يغلون فيه غلوَّ النَّصارىٰ، ولا يقصِّرون في حقِّه تقصير اليهود.

وكذلك قولهم في سائر الأنبياء والمرسلين، وفي أولياء الله.

فاليهود قتلوا النبيِّين والذين يأمرون بالقسط من النَّاس.

والنَّصارىٰ اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيحَ بن مريم، وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون.

ومع هذا، فقد شارك النَّصارىٰ لليهود[2] في نقص حقِّ كثيرٍ من الأنبياء، فيقولون: إن سليمان لم يكن نبيًّا، ويقولون: إن الحواريِّين مثل موسىٰ وإبراهيم، ويقولون: إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء وكان له أن يشرع شريعةً.

وبعض اليهود غلوا في العُزَيْر حتىٰ قالوا: إنه ابن الله.

ولهذا قال نبيُّنا ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النَّصارىٰ عيسىٰ بن مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[3].

والله تعالىٰ ذكر في القرآن في سورة (كهيعص) قصَّة ابني الخالة يحيىٰ وعيسىٰ، ويحيىٰ يسمُّونه النَّصارىٰ «يُوحَنَّا»، وهو يُوحَنَّا المُعْمِدَاني[4] عندهم،

---

(١) من قوله: «وكلمته ألقاها» إلىٰ هنا ليس في (و).

(٢) كذا في الأصول. وفي ط. العاصمة: «اليهود»، وهو الجادة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٤) زعموا أنه كان يعمِّد التائبين في نهر الأردن بعد أن يعترفوا بخطاياهم. انظر: «محيط المحيط» (٦٣١)، و«قاموس الكتاب المقدس» (١١٠٧).

فقال تعالىٰ بعد أن ذكر قصّة يحيىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ[1] لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، ثم قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ١٦-٣٨].

---

(١) كذا في الأصول. وهي قراءة أبي عمرو، قراءة المصنف وأهل الشام لعهده. وسيأتي الكلام عليها (١/ ٣٥٦).

فذكر سبحانه قصَّة مريم والمسيح في هذه السُّورة المكِّيَّة التي أنزلها في أول الأمر بمكَّة في السُّور التي ذكر فيها أصول الدِّين التي اتَّفق عليها الأنبياء، ثم ذكرها في سورة آل عمران، وهي من السُّور[1] المدنيَّة التي يخاطِبُ فيها من اتَّبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين لمَّا قدم عليه نصارىٰ نجران، فكان فيها الخطابُ لأهل الكتاب، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٦].

وفي الصَّحيحين[2] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما من مولودٍ إلا يمسُّه الشَّيطان، فيستهلُّ صارخًا من الشَّيطان، إلا مريم وابنها**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال تعالىٰ[3]: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ثم ذكر قصَّة زكريا ويحيىٰ، ثم قال[4]: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ

(١) من قوله: «التي اتفق عليها» إلىٰ هنا ساقط من ط. العاصمة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) من قوله: «وفي الصحيحين» إلىٰ هنا لحقٌ مختومٌ بالتصحيح في طرة (د، ع).

(٤) كذا في الأصول. والأشبه أن تكون: «فقال».

هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي
فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ
الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ
كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) وَإِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)
يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا
تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ
(٥١) ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ
وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٨- ٦٨].

فهو سبحانه قد ذكر قصَّة مريم والمسيح في هاتين السُّورتين:

إحداهما: مكِّيَّة، نزلت في أوَّل الأمر مع السُّور الممهِّدة لأصول الدِّين، وهي سورة (كهيعص).

والثانية: مدنيَّة، نزلت بعد أن أُمِر بالهجرة والجهاد، ولهذا تضمَّنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتَهم، كما نزلت في براءة مجاهدتُهم.

فأخبر في السُّورة المكِّيَّة أنها لمَّا انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحَه، فتمثَّل لها بشرًا سويًّا، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

قال أبو وائل[1]: «عَلِمَتْ أن المتَّقي[2] ذو نُهْيَة»[3]، أي تقواه ينهاه[4] عن الفاحشة، وأنها خافت منه أن يكون قصدُه الفاحشة، فقالت: أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا، أي تتقي الله.

وما يقوله بعض الجهَّال من أنه كان فيهم رجلٌ فاجرٌ اسمه «تقيّ»[5]، فهو من نوع الهذيان[6]، وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ[7] لَكِ﴾، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[8]، فأخبر هذا الرُّوحُ الذي تمثَّل لها بشرًا سويًّا أنه رسولُ ربها، فدلَّ الكلام علىٰ أن هذا الرُّوح عينٌ قائمةٌ بنفسها ليست صفةً

---

(١) شقيق بن سلمة الأسدي، من كبار التابعين، توفي سنة ٨٢.

(٢) كذا في الأصول. وفي مصادر الأثر: «التقي»، وهو لفظ الآية.

(٣) علقه البخاري مجزومًا به في الصحيح (٤/ ١٦٥، ٦/ ٩٣)، ووصله نعيم بن حماد في زيادات «الزهد» لابن المبارك (٢/ ١٩)، والحربي في «غريب الحديث» (١٠٥٩)، وابن جرير في التفسير (١٥/ ٤٨٧)، وغيرهم. انظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٧).

(٤) كذا في الأصول، من الحمل علىٰ المعنىٰ، والجادة: تنهاه.

(٥) نسبه الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٣٦٣) إلىٰ ابن عباس دون إسناد. وحكاه مكي في «الهداية» (٧/ ٤٥١٠) عن وهب بن منبه، وأخرجه ابن جرير (١٥/ ٤٨٦) عنه مختصرًا، وهو أشبه، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٦/ ١٧): «وهو ضعيفٌ ذاهبٌ مع التخرُّص».

(٦) (ع): «نوع من الهذيان».

(٧) هذه قراءة أبي عمرو، وهي قراءة المصنف وأهل الشام لعهده، كما سلف مرارًا.

(٨) قرأ بها الجماعة غير أبي عمرو ونافع في رواية ورش والحلواني وسالم بن هارون عن قالون. انظر: «جامع البيان» للداني (٣/ ١٣٤٠).

لغيرها، وأنه رسولٌ من الله ليس صفةً من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل عليه السلام[1]؛ فإن الله سمَّاه ﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وسمَّاه ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، وسمَّاه ﴿جِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧][2].

وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسَّد من مريم ومن روح القُدُس، لكن ضلالهم حيث يظنُّون أن روح القُدُس حياة الله، وأنه إلهٌ يخلق ويرزق ويُعْبَد، وليس في شيءٍ من الكتب الإلهيَّة ولا في كلام الأنبياء أن الله سمَّىٰ صفته القائمة به «روح القُدُس»، ولا سمَّىٰ كلامه ولا شيئًا من صفاته «ابنًا».

وهذا أحد[3] ما يتبيَّن[4] به ضلالُ النَّصارىٰ، وأنهم حرَّفوا كلام الأنبياء، وتأوَّلوه علىٰ غير ما أرادت الأنبياء؛ فإن أصل تثليثهم مبنيٌّ علىٰ ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم: «عمِّدوا النَّاسَ باسم الأب والابن وروح القُدُس»[5].

فيقال لهم: هذا إذا كان قد قاله المسيح. وليس في لغة المسيح ولا لغة أحدٍ من الأنبياء أنهم يسمُّون صفة الله القائمة به ولا كلمته[6] ولا حياته لا «ابنًا» ولا «روح قُدُس»، ولا يسمُّون كلمته «ابنًا»، ولا يسمُّونه نفسه «ابنًا» ولا «روح قُدُس»[7]، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يُسَمُّون[8] المصطفىٰ المكرَّم

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٥/ ٤٨٥)، و«الدر المنثور» (١٠/ ٤٩).
(٢) انظر: مسألة في «أن عيسىٰ كلمة الله» لشيخ الإسلام (٤٥، ٤٧، ٥٦- ٥٨).
(٣) (ع): «آخر».
(٤) مهملة في (ي)، ولم تحرر في (و). والتركيب مألوف في كلام المصنف.
(٥) إنجيل متىٰ (٢٨: ١٩).
(٦) (د، ي، ع): «لا كلمته».
(٧) كما سيأتي (٢/ ١٩٧-١٩٨).
(٨) (و): «يصفون».

«ابنًا»، وهذا موجودٌ في حقِّ المسيح وغيره، كما يذكرون أنه قال تعالىٰ لإسرائيل: «أنت ابني بِكْرِي»[١] أي بني إسرائيل[٢].

و«روح القُدُس» يراد به الرُّوح التي تنزل علىٰ الأنبياء، كما نزلت علىٰ داود وغيره؛ فإن في كتبهم أن روح القُدُس كانت في داود وغيره، وأن المسيح قال لهم: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»[٣]، فسمَّاه «أبًا» للجميع، لم يكن المسيح مخصوصًا عندهم باسم «الابن»، ولا يوجد عندهم لفظ[٤] «الابن» إلا اسمًا لمخلوق، لا اسمًا لشيءٍ من صفات الله، ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولَّدت منه[٥].

وإذا كان كذلك، كان في هذا ما يبيِّن أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزليَّة التي يقولون: إنها تولَّدت من الله عندهم، مع كونها أزليَّة، ولا بروح القُدُس حياة الله، بل المراد بالابن ناسوتُ المسيح، وبروح القُدُس ما أُنزِل عليه من الوحي والمَلَكُ الذي نزل به، فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله وبما أنزله علىٰ رسوله والمَلَك الذي نزل به. وبهذا أمرت الأنبياء كلُّهم، وليس للمسيح خاصَّةٌ استحقَّ بها أن يكون فيه شيءٌ من اللاهوت، لكن ظهر فيه نورُ الله وكلامُ الله وروحُ الله، كما ظهر في غيره من الأنبياء والرُّسل؛

---

(١) سفر الخروج (٤: ٢٢).

(٢) كذا في الأصول. ولعل الصواب حذف «بني» كما في (٣/ ٩٩). وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام. وانظر: «تثبيت دلائل النبوة» (١/ ١٢٠)، و«تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (١/ ٢٠٥، ٢٤٣- ٢٦٢)، وما سيأتي (٢/ ١٥٠، ١٩٥، ١٩٨).

(٣) إنجيل يوحنا (٢٠: ١٧).

(٤) (ي): «لغة».

(٥) ط. النيل: «إلا اسمًا للمصطفىٰ المكرم، لا اسمًا لشيء من صفات الله القديمة حتىٰ يكون الابن صفة الله تولدت منه».

ومعلومٌ أن غيره[1] أيضًا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمَّىٰ «ابنًا» وروح القُدُس حلَّت فيه، وهذا مبسوطٌ في غير هذا الموضع[2].

والمقصود هنا التنبيه علىٰ أن كلام الأنبياء عليهم السَّلام يصدِّق بعضه بعضًا، وأنه ليس مع النَّصارىٰ لا حجَّة سمعيَّة ولا عقليَّة توافق ما ابتدعوه، ولكن فسَّروا كلام الأنبياء بما لا يدلُّ عليه، وعندهم في الإنجيل أنه قال: «إن السَّاعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن، وإنما يعلمها الأب وحده»[3]، فبيَّن أن الابن لا يعلم السَّاعة، فعُلِم أن الابن ليس هو القديم الأزليَّ، وإنما هو المُحْدَث الزَّماني.

---

(١) (و): «فإن غيره»، وليس فيها «ومعلوم».

(٢) سيأتي (٣/ ٣٩٥-٣٩٨).

(٣) إنجيل متىٰ (٢٤: ٣٦)، إنجيل مرقس (١٣: ٣٢).

فصل

والمضاف إلىٰ الله نوعان[1]؛ فإن المضاف:

* إما أن يكون صفةً لا تقوم بنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والحياة.

* وإما أن يكون عينًا قائمةً بنفسها.

فالأول: إضافةُ صفةٍ، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصَّحيح حديث الاستخارة: **«إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهمَّ إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك»**[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كلماتُ[3] رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥].

والثاني: إضافةُ عينٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

فالمضافُ في الأول صفةٌ لله قائمةٌ به، ليست مخلوقةً له بائنةً عنه[4]،

---

(١) انظر: «درء التعارض» (٧/ ٢٦٥)، و«الصفدية» (٢/ ٦٧)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٦/ ٥٣٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو.

(٤) (د، ي، ع): «مخلوق له بائن عنه»، وأصلحت في (و).

والمضافُ في الثاني مملوكٌ لله مخلوقٌ له بائنٌ عنه، لكنَّه مفضَّلٌ مشرَّف؛ لما خصَّه الله به من الصِّفات التي اقتضت إضافته إلىٰ الله تبارك وتعالى، كما خصَّ ناقة صالحٍ من بين النُّوق، وكما خصَّ بيته بمكَّة من بين[1] البيوت، وكما خصَّ عباده الصَّالحين من بين الخلق.

ومن هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، فإنه وصف هذا الرُّوح بأنه تمثَّل[2] بشرًا سويًّا، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًّا، وأنه قال: «إنما أنا رسول ربك»، وهذا كلُّه يدلُّ علىٰ أنها عينٌ قائمةٌ بنفسها، وهي التي تسمَّىٰ في اصطلاح النُّظَّار «جوهرًا»، وقد تسمَّىٰ «جسمًا» إذا كانت مشارًا إليها، مع اختلاف النَّاس في الجسم هل هو مركَّبٌ من الجواهر المفردة، أم من المادَّة والصُّورة، أم ليس مركَّبًا لا من هذا ولا من هذا؟[3].

وإذا كان الله قد بيَّن أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها، بل من الأعيان القائمة بنفسها، عُلِم أن المضاف مملوكٌ لله مخلوقٌ له، لكن إضافته إلىٰ الله تدلُّ علىٰ تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيصَ بالإضافة.

وقد ذكرتُ فيما كنتُ كتبته قبل هذا من الرَّدِّ علىٰ النَّصارىٰ الكلام في ذلك وغيره[4]، وبيَّنتُ أن المضافات إلىٰ الله نوعان: أعيانٌ، وصفات.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) ط. النيل: «تمثل لها».

(٣) والصواب ثالثها. انظر: «درء التعارض» (٣/ ٤٤٢، ٤/ ١٣٤، ٨/ ٣٢٠، ١٠/ ٣١٢)، و«منهاج السنة» (٢/ ١٣٦، ١٦٥، ٢١٠، ٥٣١).

(٤) لعله يشير إلىٰ جوابه عن إيراد بعض النصارىٰ علىٰ المسلمين قولهم: إن عيسىٰ كلمة الله وهو مخلوق، والقرآن كلام الله وهو غير مخلوق، وقد نُشِر في رسالة مفردة.

فالصِّفات إذا أضيفت إليه، كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرِّضا والغضب ونحو ذلك، دلَّت الإضافة علىٰ أنها إضافةُ وصفٍ له قائمٍ به، ليست مخلوقة؛ لأن الصِّفة لا تقوم بنفسها، فلا بدَّ لها من موصوفٍ تقوم به، فإذا أضيفت إليه عُلِم أنها صفةٌ له، لكن قد يعبَّر باسم الصفة عن المفعول بها، فيسمَّىٰ[1] المقدورُ قدرةً، والمخلوقُ بالكلمة كلامًا، والمعلومُ علمًا، والمرحومُ به رحمةً، كقول النبي ﷺ: «**إن الله خلق الرَّحمة يوم خلقها مئة رحمة**»[2]، وقوله تعالىٰ فيما يروي عنه نبيُّه أنه قال للجنَّة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[3]، ويقال للمطر والسَّحاب: هذه قدرةُ قادرٍ، وهذه قدرةٌ عظيمة، ويقال في الدعاء: «غفر الله لك علمَه فيك» أي معلومَه[4].

وأما الأعيان إذا أضيفت إلىٰ الله تعالىٰ، فإما أن تضاف بالجهة العامَّة التي يشترك فيها المخلوق، مثل كونها مخلوقةً ومملوكةً له ومقدورةً ونحو ذلك، فهذه إضافةٌ عامَّةٌ مشتركة، كقوله: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١].

وقد يضاف لمعنًىٰ يختصُّ بها يميَّز به المضافُ عن غيره، مثل: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، ورُوح الله؛ فمن المعلوم اختصاصُ ناقة صالح بما تميَّزت به عن سائر النِّياق، وكذلك اختصاص الكعبة، واختصاص العبد الصالح الذي عبَد الله وأطاع أمره، وكذلك الرُّوح المقدَّسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح.

---

(١) (د، ي، ع): «يسمىٰ»، وأصلحت في (و).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الحجة» لأبي علي (٢/ ١٤١)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٣٤٣).

فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقةً مملوكةً مربوبةً لله يجري عليها حكمُه وقضاؤه وقدرُه، وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ولا فضيلة للمضاف علىٰ غيره، وامتاز بعضها بأن الله يحبُّه ويرضاه ويصطفيه ويقرِّبه إليه ويأمر به أو يعظِّمه ويحبُّه، فهذه الإضافة يختصُّ بها بعض المخلوقات، فإضافة[1] البيت والنَّاقة والرُّوح وعباد الله من هذا الباب.

وقد قال تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال في سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١- ١٢].

فذكر امرأة فرعون التي ربَّت موسىٰ بن عمران، وجمعت بينه وبين أمِّه حتىٰ أرضعته أمُّه[2] عندها، وذكر مريم أمَّ المسيح التي ولدته وربَّته، فهاتان المرأتان ربَّتا هذين الرَّسولين الكريمين.

فلمَّا قال هنا: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ أي في المرأة، و﴿فِيهِ﴾ أي في فرجها، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾، وقال هنا: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ[3] لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٧- ١٩] = دلَّ علىٰ أن قوله: ﴿رُوحَنَا﴾

(١) (د، ي، ع): «كإضافة».
(٢) ليست في (ع).
(٣) كذا في الأصول، وهي قراءة أبي عمرو، كما سلف.



ليس المراد به أنه صفةٌ لله، لا الحياة ولا غيرها، ولا هو ربٌّ خالق، فلا هو الربُّ الخالقُ ولا صفة الربِّ الخالق، بل هو روحٌ من الأرواح التي اصطفاها الله وأكرمها، كما تقدَّم في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، وأن الأكثرين علىٰ أنه جبريل[1].

وهذا الأصل الذي ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلىٰ الله بين[2] صفاته وبين مملوكاته أصلٌ عظيمٌ ضلَّ فيه كثيرٌ من أهل الأرض من أهل المِلَل كلِّهم؛ فإن كتب الأنبياء التَّوراة والإنجيل والقرآن وغيرها أضافت إلىٰ الله أشياء علىٰ هذا الوجه وأشياء علىٰ هذا الوجه، فاختلف النَّاسُ في هذه الإضافة:

* فقالت المعطِّلة نفاة الصِّفات من أهل المِلَل: إن الجميع إضافةُ مُلْكٍ، وليس لله حياةٌ قائمةٌ به، ولا علمٌ قائمٌ به، ولا قدرةٌ قائمةٌ به، ولا كلامٌ قائمٌ به، ولا حبٌّ ولا بغض، ولا غضبٌ ولا رضىٰ، بل جميع ذلك مخلوقٌ من مخلوقاته.

وهذا أول ما ابتدعه[3] في الإسلام الجهميَّة، وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصَّحابة وأكابر التَّابعين لهم بإحسان، وكان مُقَدَّمهم رجلٌ يقال له: الجهم بن صفوان[4]، فنُسِبت[5] الجهميَّة إليه، ونفوا الأسماء والصفات، واتَّبعهم المعتزلة وغيرهم، فنفوا الصِّفات دون الأسماء، ووافقهم طائفةٌ من الفلاسفة أتباع[6] أرسطو.

---

(١) (ع): «هو جبريل».
(٢) (د، ع): «من».
(٣) ط. العاصمة: «ابتدعته»، خلاف الأصول.
(٤) الجهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندي، المتكلم، رأس الجهمية وأساس البدعة، قتل سنة ١٢٨. انظر: «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٨٩)، و«لسان الميزان» (٢/ ٥٠١).
(٥) مهملة في (ي)، (و): «فنسب».
(٦) (ي): «وأتباع».

* وقالت الحلوليَّة: بل ما يضاف إلىٰ الله قد يكون هو صفةً له[1] وإن كان بائنًا عنه. بل قالوا: هو قديمٌ أزليٌّ. فقالوا: روح الله قديمةٌ أزليَّةٌ صفةٌ لله. حتىٰ قال كثيرٌ منهم: إن أرواح بني آدم قديمةٌ أزليَّةٌ صفةٌ[2] لله. وقالوا: إن ما يسمعه النَّاسُ من أصوات القرَّاء ومداد المصاحف قديمٌ[3] أزليٌّ وهو صفةٌ لله.

وقال حذَّاق هؤلاء: بل غضبه ورضاه وحبه وبغضه وإرادته لما يخلقه قديمٌ أزليٌّ[4]، وكلامُه الذي سمعه موسىٰ قديمٌ أزليٌّ، وأنه لم يزل راضيًا محبًّا لمن عَلِم أنه يطيعُه قبل أن يُخْلَق، ولم يزل غضبانَ ساخطًا علىٰ من عَلِم أنه يكفر قبل أن يُخْلَق، ولم يزل ولا يزال قائلًا: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، قبل أن يوجدوا، وبعد موتهم، ولم يزل ولا يزال يقول: يا معشر الجنِّ والإنس، قبل أن يُخْلَقوا، وبعدما يدخلون الجنَّة والنَّار.

* وأما سلفُ المسلمين من الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان، وأئمَّة المسلمين المشهورون بالإمامة فيهم كالأربعة وغيرهم، وأهل العلم بالكتاب والسُّنَّة، فيفرِّقون بين مملوكاته وبين صفاته، فيعلمون أن العباد مخلوقون، وصفات العباد مخلوقة، وأجسادهم وأرواحهم وكلامهم وأصواتهم بالكتب الإلهيَّة وغيرها، ومدادهم وأوراقهم، الملائكة[5] والأنبياء وغيرها.

ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة، كعلمه وقدرته وكلامه وإرادته وحياته وسمعه وبصره ورضاه وغضبه وحبِّه وبغضه، بل هو موصوفٌ

---

(١) (و): «بل ما يضاف إلىٰ صفة الله هو صفة له».

(٢) ط. العاصمة: «وصفة»، خلاف الأصول.

(٣) (ع): «حق قديم».

(٤) زادت ط. العاصمة هنا من (ي): «وهو صفة لله»، مع أن الناسخ ضرب عليه وكتب فوقه (لا ... إلىٰ)، وليس في سائر الأصول.

(٥) بدل من «العباد». وتحرفت في (و) إلىٰ «المكتبة». ط. النيل: «والملائكة».

بما وصف به نفسَه وبما وصفته[1] به رسلُه، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفته[2] به رسله، ولا يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه ولا يتأوَّلون كلام الله بغير ما أراده، ولا يمثِّلون صفات الخالق بصفات المخلوق، بل يعلمون أن الله سبحانه ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو موصوفٌ بصفات الكمال، منزَّهٌ عن النقائص، وليس له مِثْلٌ في شيءٍ من صفاته.

ويقولون: إنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال، لم يزل متكلمًا إذا شاء بمشيئته وقدرته، ولم يزل عالمًا، ولم يزل قادرًا، ولم يزل حيًّا سميعًا بصيرًا، ولم يزل مُرِيدًا، فكلُّ كمالٍ لا نقص فيه يمكنُ اتصافُه به فهو موصوفٌ به، لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال والإكرام ﷻ.

والنَّصارىٰ من أعظم النَّاس اضطرابًا في هذا الأصل، فتارةً يجعلون كلامَه الذي تكلَّم به -كالتَّوراة والإنجيل- مخلوقًا منفصلًا عنه[3]، وينفون عنه الصِّفات، وتارةً يجعلون كلمته قديمةً أزليَّةً متولِّدةً عنه، لم تَزَل ولا تزال، ثم يقولون: هذه الكلمة هي ابنُه، ويجعلون هذه الكلمة علمَه أو حكمتَه، ويقولون: إن هذه الكلمة هي إلهٌ خالق، وهو الذي خلق السَّماوات والأرض، ويقولون[4]: هذه الكلمة هي المسيح، والمسيح إلهٌ خالق العالم، ويقولون مع هذا: إن هذه الكلمة ليست هي الأب الذي خلق السَّماوات والأرض.

---

(١) (د، ع): «وصفه».

(٢) (د، ع): «ولا بما وصفه».

(٣) ليس في (ع، د).

(٤) (و، ي): «وأن».

فيجعلون كلمته صفةً قديمةً أزليَّة، ويجعلونها ابنًا له، ويجعلون الصِّفة إلهًا خالقًا، ويجعلون المسيح هو الإله الخالق، ويقولون مع هذا: هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ من جوهر أبيه.

ولهم في كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب، ومخالفة كلام الأنبياء، وتفسيره بغير ما أرادوه، ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول، ما سنذكر إن شاء الله منه ما ييسِّره الله ﷻ؛ إذ بيان فساد أقوال[1] النَّصارىٰ بالاستقصاء لا يتَّسع له هذا الكتاب.

ولمَّا قصَّ الله تعالىٰ قصَّة المسيح قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤] أي يشكُّون ويتمارَون كتَمَاري اليهود والنَّصارىٰ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]، فاختلفت اليهود والنَّصارىٰ فيه.

ثم اختلفت النَّصارىٰ فيه، وصاروا أحزابًا كثيرةً جدًّا، كالنُّسْطُوريَّة، واليعقوبيَّة، والمَلَكيَّة[2]، والمارونيَّة[3]، والمَرْيمانيَّة[4]، والشِّمْشَاطيَّة[5]، وأمثال هذه الطوائف، كما سنذكر إن شاء الله كثيرًا من طوائفهم واختلافهم في مجامعهم كما حكىٰ ذلك عنهم أحدُ أكابرهم سعيدُ بن البطريق[6] وغيره؛ فإنه

(١) (د، ع): «دين».
(٢) تقدم التعريف بهذه الطوائف الثلاث (١-٢٥٣).
(٣) مهملة في (ي، د، ع). وفي ط. النيل والعاصمة: «والباروبية»، تحريف.
(٤) تقدم التعريف بهم (١/ ٢٥٥).
(٥) مهملة في (ي، د، ع). وفي ط. النيل والعاصمة: «والسمياطية»، تحريف.
(٦) تقدمت ترجمته (١/ ٢٥٥).

ليس في الأمم أكثر اختلافًا في ربِّ العالمين منهم[1].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من هذه الطوائف كلِّها ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يقول تعالىٰ: ما أسمعَهم وما أبصرَهم يوم يأتوننا، ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ كالنَّصارىٰ الذين ظَلَموا بإفكهم وشركهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨] ضلُّوا عن الحقِّ في المسيح.

وقد وصف الله النَّصارىٰ بالضلال في مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الكهف: ٤]؛ لأن الغالب عليهم الجهل بالدِّين، وأنهم يتكلَّمون بكلامٍ لا يعقلون معناه، ليس منقولًا عن الأنبياء حتىٰ يُسَلَّم[2] لقائله، بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يُعْرَفُ بالعقول، فيبتدعون كلامًا يعترفون[3] بأنهم لا يعقلونه[4]، وهو كلامٌ متناقضٌ ينقض أوَّلُه آخرَه، ولهذا لا تجدهم يتَّفقون علىٰ قولٍ واحدٍ في معبودهم، حتىٰ قال بعض النَّاس: لو اجتمع عشرة نصارىٰ افترقوا علىٰ أحد عشر قولًا!

---

(١) من قوله: «والمارونية» إلىٰ هنا ليس في (و).

(٢) (ي، ع، د): «سلم». والمثبت من ط. النيل أشبه.

(٣) الأصول: «يعرفون»، وهو خطأ. وانظر ما سيأتي (٣/ ٢١١).

(٤) من قوله: «ليس منقولا» إلىٰ هنا ليس في (و).



وقال الربيعي[1]: النَّصارىٰ أشدُّ النَّاس اختلافًا في مذاهبهم، وأقلُّهم تحصيلًا لها، لا يمكن أن يُعْرَف لهم مذهب، ولو سألتَ قَسًّا من أقسَّائهم[2] عن مذهبهم في المسيح، وسألت أباه وأمَّه، لاختلفوا عليك الثَّلاثة، ولقال كلُّ واحدٍ منهم قولًا لا يشبه قول الآخر.

وقال بعض النُّظَّار: ما من قولٍ يقوله طائفةٌ من العقلاء إلا إذا تأمَّلتَه تصوَّرتَ منه معنًىٰ معقولًا وإن كان باطلًا، إلا قول النَّصارىٰ، فإنَّك كلَّما تأمَّلتَه لم تتصوَّر له حقيقةً تُعْقَل، لكنَّ غايتهم أن يحفظوا «الأمانة» أو غيرها، وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسَّره كلٌّ منهم بتفسيرٍ يكفِّر به الآخر، كما يكفِّر اليعقوبيَّة والمَلَكانيَّة والنسطوريَّة بعضهم بعضًا؛ لاختلافهم في أصل التوحيد والرِّسالة، إذ كان قولهم في التوحيد والرِّسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضًا، كما بُيِّن في موضعٍ آخر[3].

---

(١) مهملة في (ي، د). ولم أعرفه. وفي ط. العاصمة: «الربعي».

(٢) لم أر الجمع في معاجم العربية، علىٰ كثرة وقوعه في كلام المتأخرين، وفي أثر متقدم في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٥٥). وانظر: «تكملة المعاجم» لدوزي (٨/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «الصفدية» (١/ ١٢٨)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ١٢٧)، و«درء التعارض» (٥/ ٤٣، ١٠/ ٢٣٧)، و«التسعينية» (٨٦٠)، و«شرح الأصبهانية» (١١٨)، و«الرد علىٰ الشاذلي» (١٧٠)، و«الرد علىٰ البكري» (١/ ١٨١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٢٧٣-٢٨٥)، وما سيأتي من الكتاب.

فصل

وأما قولهم: «فكان طيرًا بإذن الله، أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت»[1].

فهذا إذا قالوه علىٰ أنه مذهبهم، من غير أن يقولوا: إن محمَّدًا أراده، تكلَّمنا معهم في ذلك، وبيَّنَّا فساد ذلك عقلًا ونقلًا.

وأما قولهم: إن محمَّدًا ﷺ كان يقول: إن المراد إذْنُ اللاهوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت، فهذا من البهتان الظاهر علىٰ محمَّدٍ ﷺ، وهو من جنس قولهم: «إن قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] أراد به: النَّصارىٰ»، ومن جنس قولهم: «إن قوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ [آل عمران: ٨٥] أراد به: من العرب»، ومن جنس قولهم: «﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الحديد: ٢٥] أراد بهم: الحواريِّين»، ومن جنس قولهم: «﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢] أراد به: الإنجيل»[2].

فهذه المواضع التي فسَّروا بها القرآن، وزعموا أن محمَّدًا ﷺ الذي بيَّن للنَّاس ما أُنزِل إليهم كان يريد بما[3] يتلوه من القرآن هذه المعاني التي ذكروها، هي من الكذب الظَّاهر الذي يدلُّ علىٰ غاية جهل قائلها أو غاية معاندته، ولكنَّ مثل هذا التأويل غير مستنكرٍ من النَّصارىٰ؛ فإنهم قد فسَّروا مواضع كثيرةً من التَّوراة والإنجيل والزَّبور والنبوَّات بنحو هذه التفاسير التي حرَّفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفًا ظاهرًا، فبدَّلوا بذلك كتبَ الله

---

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).
(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨).
(٣) (ي، د، ع): «بها ما».

ودينَ الله، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرَّفوا وبدَّلوا وإن اختلف[1] جهةُ التَّحريف والتبديل.

فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتَّوراة والإنجيل، وهم من الذين يَدَعون المُحْكَم ويتَّبعون ما تشابه[2] منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، لكن في هذه المواضع حرَّفوا المُحْكَم الذي معناه ظاهرٌ لا يحتمل إلا معنًىٰ واحدًا، فكانوا من الجهل والمعاندة أبعدَ عن الصَّواب ممَّن حرَّف معنىٰ المتشابه.

وذلك أنه قد عُلِم بالاضطرار من دين محمَّدٍ ﷺ أنه كان يقول: إن المسيح عبدٌ لله[3] مخلوقٌ كسائر المرسلين، وأنه يكفِّر النَّصارىٰ الذين يقولون: هو الله أو ابن الله.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) كذا في الأصول. وفي ط. النيل: «اختلفت».

(٢) ط. العاصمة: «نشأ به»، وهو تحريف مخالف للأصول.

(٣) (ع): «عند الله».

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٧].

فقد ذكر كُفْرَ النَّصارىٰ في قولهم: «هو الله» مرَّتين، وذكر أنه ليس المسيحُ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسل، فغايته الرِّسالة، كما قال في محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وغاية أمِّه أن تكون صِدِّيقة، ودلَّ بهذا أنها ليست بنبيَّة[١]، ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وهذا من أظهر الصِّفات النافية للإلهيَّة؛ لحاجة الآكِلِ إلىٰ ما يدخل في جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفَضَلات.

والربُّ تعالىٰ أحدٌ صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والنَّصارىٰ يقولون[٢]: إنه يلد، وإنه يولد، وإن له كفوًا، كما قد بيِّن في موضعٍ آخر[٣].

وقد أخبَر بعبوديَّة المسيح في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ

(١) انظر: «الصفدية» (١/ ١٩٨)، و«النبوات» (٥٢٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٩٦، ١١/ ٣٦٤، ١٨/ ٢٦٦)، وما سيأتي (١/ ٥٠٠).
(٢) (د، ي، ع): «تقول».
(٣) سيأتي (٢/ ٢٢٣).

﴿إِلَّا جَدَلًاۢ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٧- ٥٩].

وأخبر تعالىٰ أن أوَّل شيءٍ نطق به المسيح قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ الآيات إلىٰ قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآيات كلها [النساء: ١٧١- ١٧٣].

فإذا كان قد عُلِم بالاضطرار من دين محمَّدٍ ﷺ، وبالنَّقل المتواتر عنه، وبإجماع أمَّته إجماعًا يستندون فيه إلىٰ النَّقل عنه، وبكتابه المنزَّل عليه، وبسنَّته[1] المعروفة عنه، أنه كان يقول: إن المسيح عبد الله ورسوله، ليس هو إلا رسولٌ، وأنه يكفِّر النَّصارىٰ الذين يقولون: هو الله وهو ابن الله، والذين يقولون: ثالث ثلاثة، وأمثال ذلك = كان بعدَ هذا تفسيرُهم لقول الله الذي بلَّغه نبيُّه محمَّدٌ ﷺ: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: «أي بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة بالنَّاسوت» كذبًا ظاهرًا علىٰ محمَّدٍ ﷺ.

وهذا ممَّا يعرف كذبَهم فيه علىٰ محمَّد ﷺ جميعُ أهل الأرض العالِم بحال محمَّدٍ ﷺ، سواءٌ أقرُّوا بنبوَّته أو أنكروها.

(١) (و، ي): «وسنته».

فالمقصود في هذا المقام أن هؤلاء كذبوا علىٰ محمَّدٍ ﷺ كذبًا ظاهرًا معلومًا للخلق المؤمنين به والمكذِّبين له، ليس هو كذبًا خفيًّا، وإن قُدِّر أن ما قالوه يكون ممكنًا[1] معقولًا، فكيف إذا كان ممتنعًا في صرائح العقول؟! بل هو قولٌ غير معقول، أي غير معقولٍ ثبوتُه في الخارج، وإن كان يُعْقَلُ ما يَخْتَلِقون[2] ويُعْلَم به فساد عقولهم، كمن قال[3] سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التي يمتنع ثبوتها في الخارج، وذلك كما قد بُسِط في موضعٍ آخر.

فإن قولهم: «بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت» باطلٌ من وجوه:

منها: أن تلك الكلمة إما أن تكون هي الله، أو صفةٌ لذاته، أو لا هي ذاته ولا هي[4] صفةٌ له، أو الذَّات والصِّفة جميعًا.

فإن لم تكن هي ذات الله ولا صفته، ولا الذَّات والصِّفة، كانت بائنةً عنه مخلوقةً له، ولم تكن لاهوتًا، بل ولا خالقةً. وحينئذٍ فلم يتَّحد بالمسيح لاهوتٌ، بل لم يتَّحد به -إن كان[5] اتَّحد به- إلا مخلوق.

وإن كانت الكلمة هي الذَّات أو الذَّات والصِّفة فهي ربُّ العالمين، وهي الأب عندهم، وهم متَّفقون علىٰ أن المسيح ليس هو الأب، ولم يتَّحد به الأب، بل الابن.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.
(٢) الأصول: «يختلفون». والمثبت أشبه.
(٣) الأصول: «لمن قال». وبما أثبت يلتئم السياق.
(٤) ليست في (و، ي).
(٥) ط. العاصمة: «بل إنه لم يتحد به إنه كان»، وهو خطأ مخالف للأصول.

وإن كانت الكلمة صفةً لله ﷿ فصفة الله ليست هي الإله الخالق، والمسيح عندهم هو الإله الخالق. وأيضًا، فصفة الله قائمةٌ بذاته، لا تفارق ذاته وتحلُّ بغيره وتتَّحد به، وكلمة الله عندهم اتَّحدت بالمسيح.

وإن قالوا: قولنا هذا كما تقول[1] طائفةٌ من المسلمين: إن القرآن أو التَّوراة أو الإنجيل حلَّ في القرَّاء أو اتَّحد بهم، وإن القديم حلَّ في المخلوق أو اتَّحد به، ونحو ذلك.

قيل: لو كان قول هؤلاء صوابًا لم يكن لهم فيه حجَّة؛ فإنه علىٰ هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التَّوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن، وأنتم تدَّعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصًا بذلك دون غيره.

وأيضًا، فهؤلاء وجميع الأمم متَّفقون علىٰ أن قرَّاء القرآن وسائر الكتب الإلهيَّة ليس واحدٌ منهم هو الله، ولا هو ابن الله، ولا أنه خالقٌ للعالم، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيحُ هو الله ولا ابن الله ولا ربًّا للعالم.

وأيضًا، فلم نعلم[2] أحدًا من هؤلاء قال: إن اللاهوت اتَّحد بالنَّاسوت، ولا إن القديم اتَّحد بالمُحْدَث، ولا إن كلام الله صار هو والمخلوق شيئًا واحدًا، فالاتِّحاد باطلٌ باتفاق هؤلاء وغيرهم، ولكن طائفةً منهم أطلقت لفظ «الحلول»، وطائفة أنكرت لفظ «الحلول» وقالوا: إنما نقول ظهَر القديمُ في المُحْدَث لا حلَّ فيه، لكن قالوا ما يستلزم الحلول.

---

(١) (د، ع): «يقول».
(٢) (ع، د): «يعلم».

وسلفُ المسلمين وجمهورهم يخطِّئون هؤلاء، ويبيِّنون خطأهم عقلًا ونقلًا، وقولهم ليس هو قول أحدٍ من أئمَّة المسلمين، ولا قول طائفةٍ مشهورةٍ من طوائف المسلمين، كالمالكيَّة والشافعيَّة والحنفيَّة والحنبليَّة والثوريَّة والدَّاوديَّة والإسحاقيَّة وغيرهم، ولا قول طائفةٍ من طوائف المتكلِّمين من المسلمين، لا المنتسبين إلىٰ السُّنَّة كالأشعريَّة والكرَّاميَّة، ولا غيرهم كالمعتزلة والشِّيعة وأمثالهم.

وإنما قال ذلك طائفةٌ قليلةٌ انتسبت إلىٰ بعض علماء المسلمين، مثل قليلٍ من المالكيَّة والشافعيَّة والحنبليَّة، وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفةٍ من صفات الله.

وكذلك من قال بحلول الربِّ واتِّحاده في العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلىٰ التشيُّع[1] والتصوُّف أو غيرهم، فهم ضُلَّالٌ كالنَّصارىٰ، مع أنه لا حجَّة للنصارىٰ علىٰ هؤلاء؛ إذ كان ما يقولونه لا يختصُّ به المسيح، بل هو مشتركٌ بينه وبين غيره من الأنبياء والصَّالحين، والنَّصارىٰ تدَّعي اختصاص المسيح بالاتِّحاد، مع أن المتَّحد بالنَّاسوت صار هو والنَّاسوت شيئًا واحدًا، ومع الاتِّحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعلٌ أو صفةٌ خارجٌ عن الآخر، والنَّصارىٰ يدَّعون الاتِّحاد ثم يتناقضون، فمنهم من يقول: جوهرٌ واحد، ومنهم من يقول: جوهران، ومنهم من يقول: مشيئةٌ واحدة، ومنهم من يقول: مشيئتان، كما سيأتي الكلام إن شاء الله علىٰ ذلك[2].

(١) (د، ي، ع): «الشيع»، وكلاهما صحيح، والمثبت من (و) أجود.
(٢) (٣/ ٥-٢٦).



فصل

وأما قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] فهذا حقٌّ كما أخبر الله به، فمن اتَّبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة، وكان الذين اتبعوه علىٰ دينه الذي لم يبدَّل قد جعلهم الله فوق اليهود، وأيضًا فالنَّصارىٰ فوق اليهود الذين كفروا به إلىٰ يوم القيامة.

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به، بل لمَّا بدَّل النَّصارىٰ دينه، وبعث الله محمَّدًا ﷺ بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء، جعل الله محمَّدًا وأمته فوق النَّصارىٰ إلىٰ يوم القيامة، كما في الصَّحيحين عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولىٰ النَّاس بابن مريم لأنا، أنه ليس بيني وبينه نبيٌّ**»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١- ٥٣].

فكلُّ من كان أتمَّ إيمانًا بالله ورسله كان أحقَّ بنصر الله تعالىٰ؛ فإن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾

---

(١) تقدم تخريجه والكلام علىٰ لفظه في صدر الكتاب (١/ ١٠).

[غافر: ٥١]، وقال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

واليهود كذَّبوا المسيح ومحمَّدًا صلىٰ الله عليهما وسلَّم، كما قال الله فيهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، فالغضب الأول بتكذيبهم للمسيح، والثاني بتكذيبهم لمحمَّدٍ[١] ﷺ.

والنَّصارىٰ لم يكذِّبوا المسيح؛ فكانوا[٢] منصورين علىٰ اليهود، والمسلمون منصورون علىٰ اليهود والنَّصارىٰ؛ فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله، ولم يكذِّبوا بشيءٍ من كتبه، ولا كذَّبوا أحدًا من رسله، بل اتَّبعوا ما قال الله لهم حيث قال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولمَّا[٣] كان المسلمون هم المتَّبعون لرسل الله كلِّهم المسيح وغيره، وكان الله قد وعد أن ينصر[٤] الرُّسل وأتباعهم، قال النبيُّ ﷺ في الحديث

---

(١) (د، ع): «تكذيبهم المسيح والثاني تكذيبهم محمدًا».
(٢) (د، ع): «وكانوا».
(٣) (ي): «فلما».
(٤) «أن ينصر» ليست في (ع، د).

الصَّحيح: «**لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرةٌ علىٰ الحقِّ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة**»[1].

وقال أيضًا: «**سألتُ ربي أن لا يسلِّط علىٰ أُمَّتي عدوًّا من غيرهم، فيجتاحهم، فأعطانيها**» الحديث[2].

فكان ما احتجُّوا به حجَّةً عليهم لا لهم.

(١) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢٤) من حديث ثوبان وعقبة بن عامر رضي الله عنهما. وهو حديثٌ متواتر، كما سبق (١/ ٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٢٥) من حديث معاذ رضي الله عنه. وبمعناه عند مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه. وشواهده كثيرة من حديث ابن عمر وعلي وأنس وخباب بن الأرت وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم.



فصل

وأما قوله تعالىٰ[1]: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، فهذا حقٌّ كما أخبر الله به[2].

وقد ذكر تعالىٰ تأييد عيسىٰ بن مريم بروح القُدُس في عدَّة مواضع، فقال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

وقد[3] قال تعالىٰ في القرآن: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ

---

(١) (د، ع): «وأما قولهم» يعني احتجاج النصارىٰ بالآية.

(٢) (د، ع): «كما قال تعالىٰ».

(٣) «قد» ساقطة من ط. العاصمة.

﴿عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] [البقرة: ٩٧].

فروح القُدُس الذي نزل[2] بالقرآن من الله هو الرُّوح الأمين، وهو جبريل.

وثبت في الصَّحيح[3] عن أبي هريرة أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول لحسَّان بن ثابت: «**أجب عنِّي، اللهمَّ أيِّده بروح القُدُس** ».

وفي صحيح مسلم[4] وغيره عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: سمعت النبيَّ ﷺ يقول لحسَّان بن ثابت: «**إن روح القُدُس لا يزال يؤيِّدك ما نافحتَ عن الله ورسوله**».

وفي الصَّحيحين[5] عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسَّان بن ثابت: «**اُهْجُهم** -أو هاجِهم- **وجبريلُ معك**».

فهذا حسَّان بن ثابت واحدٌ من المؤمنين، لمَّا نافح عن الله ورسوله وهجا المشركين الذين يكذِّبون الرَّسول أيَّده الله بروح القُدُس، وهو جبريل عَلَيهِٱلسَّلَامُ.

وأهل الأرض يعلمون أن محمَّدًا ﷺ لم يكن يجعل اللاهوتَ متَّحدًا بناسوت حسَّان بن ثابت، فعُلِم أن إخباره بأن الله أيَّده بروح القُدُس لا يقتضي اتِّحاد اللاهوت بالنَّاسوت، فعُلِم أن التَّأييد بروح القُدُس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يُقِرُّون بذلك، وأن غيره من الأنبياء كان مؤيَّدًا بروح القُدُس، كداود وغيره، بل يقولون: إن الحواريِّين كانت فيهم روح القُدُس.

---

(١) زادت ط. العاصمة: «مصدقا» خلاف الأصول.

(٢) (ي): «ينزل».

(٣) صحيح البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٤) (٢٤٩٠).

(٥) صحيح البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).

وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنَّصارىٰ أن روح القُدُس يكون في غير المسيح، بل في غير الأنبياء، كما سيأتي إن شاء الله[1].

وإنما المقصود في هذا المقام بيان كذبهم علىٰ محمَّدٍ ﷺ.

وهذا التَّأييد نظيرُ قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فهذا التَّأييد برُوحٍ منه عامٌّ لكلِّ من لم يحبَّ أعداء الرُّسل وإن كانوا أقاربه، بل يحبُّ من يؤمن بالرُّسل وإن كانوا أجانب، ويبغض من لم يؤمن بالرُّسل وإن كانوا أقارب.

وهذه ملَّة إبراهيم، قال[2] تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨] وقال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهذا التَّأييد بروح القُدُس لمن ينصر الرُّسلَ عامٌّ في كلِّ من نصرهم علىٰ من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب، كما تقدَّم[3].

---

(١) (٣/ ٣٩٥-٣٩٨).

(٢) ط. العاصمة: «وقال»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٣) (ي): «كما كان»، (و): «كما كان تقدم».

وليس في القرآن ولا في الإنجيل ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القُدُس الذي أُيِّد به المسيحُ هو صفة الله القائمة به، وهي حياته، ولا أن روح القُدُس ربٌّ[1] يَخْلُق ويَرْزُق، فليس روح القُدُس هي الله ولا صفةٌ من صفات الله، بل ليس في شيءٍ من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمَّىٰ ابنًا ولا روح القُدُس.

فإذا تأوَّل النَّصارىٰ قول المسيح: «عمِّدوا النَّاسَ باسم الأب والابن وروح القُدُس»[2] علىٰ أن الابنَ صفتُه التي هي العلم، وروحَ القُدُس صفتُه التي هي الحياة = كان هذا كذبًا بيِّنًا علىٰ المسيح؛ فلا[3] يوجد قطُّ في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ولا شيئًا من صفاته «ابنًا» ولا حياته «روحَ القُدُس».

وأيضًا، فهم يذكرون في «الأمانة»[4] أن المسيح تجسَّد من مريم ومن روح القُدُس، وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسَل روحه الذي هو جبريل، وهو روح القُدُس، فنفخ في مريم، فحملت بالمسيح، فكان المسيح متجسِّدًا مخلوقًا من أمِّه ومن ذلك الرُّوح، وهذا الرُّوح ليس صفةً لله، لا حياته ولا غيرها.

بل «روح القُدُس» قد جاء ذكرها كثيرًا في كلام الأنبياء، ويراد بها إما المَلَك، وإمَّا ما يجعله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدىٰ والتَّأييد ونحو ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا

(١) ليس في (ع، د).
(٢) إنجيل متىٰ (٢٨: ١٩).
(٣) (د، ع): «ولا».
(٤) تقدم ذكرها بتمامها (١/ ١٧٣).

﴿ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[1] [النحل: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى[2] ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فسمَّىٰ المَلَكَ روحًا، وسمَّىٰ ما ينزل به المَلَكُ روحًا، وهما متلازمان، والمسيح عليه السلام مؤيَّدٌ بهذا وهذا. ولهذا قال كثيرٌ من المفسِّرين: إنه جبريل، وقال بعضهم: إنه الوحي[3].

وهذا كلفظ «النَّاموس» يراد به صاحبُ سرِّ الخير، كما يراد بالجاسوس صاحبُ سرِّ الشَّرِّ، فيكون «النَّاموس» جبريل، ويراد به الكتاب الذي نزل به وما فيه من الأمر والنهي والشَّرع، ولمَّا قال ورقة بن نوفل للنبيِّ ﷺ: «هذا هو النَّاموس الذي كان يأتي موسىٰ»[4]، فُسِّر «الناموس» بهذا وهذا[5]، وهما متلازمان.

---

(١) أتمت ط. العاصمة الآية خلافًا للأصول.

(٢) زادت ط. العاصمة قبلها: «ذو العرش» وليست في الأصول.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٢٢٣، ١٧/ ٦٤١، ٢٠/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) لم أر من ذكر التفسير الثاني. قال النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٠٣): «واتفقوا علىٰ أن جبريل عليه السلام يسمىٰ الناموس، واتفقوا علىٰ أنه المراد هنا». وانظر: «أعلام الحديث» للخطابي (١/ ١٣٠)، و«فتح الباري» (١/ ٢٥)، و«شرح الحديث المقتفىٰ في مبعث النبي المصطفىٰ» لأبي شامة (١٥٧).

فصل

وأما قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٥- ٢٦] فهو حقٌّ كما قال تعالىٰ، وليس في ذلك مدحٌ للرَّهبانيَّة، ولا لمن بدَّل دين المسيح، وإنما فيه مدحٌ لمن اتَّبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرَّأفة والرَّحمة[1]، حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وابتدعوا رهبانيَّةً ما كتبناها عليهم، وهذه الرَّهبانيَّة لم يشرعها الله[2] ولم يجعلها مشروعةً لهم، بل نفىٰ جَعْلَه عنها، كما نفىٰ ذلك عمَّا ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وهذا الجَعْل المنفيُّ عن البدع هو الجَعْل الذي أثبته للمشروع بقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧].

فالرَّهبانيَّة ابتدعوها[3]، لم يشرعها الله.

---

(١) ط. العاصمة: «الرحمة والرأفة» خلاف الأصول ونظم الآية.

(٢) (ي، و): «لم يشرعها لهم».

(٣) ليست في (ع).



وللناس في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ قولان[1]:

أحدهما: أنها منصوبة، يعني: ابتدعوها، إمَّا بفعلٍ مضمرٍ علىٰ قومه وأصحابه[2]، يفسِّره ما بعده.

أو يقال: هذا الفعل عمل[3] في المُضْمَر والمُظْهَر، كما هو قول الكوفيِّين، حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما.

ونظيره قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعلىٰ هذا القول فلا تكون الرَّهبانيَّة معطوفةً علىٰ الرَّأفة والرَّحمة.

والقول الثاني: أنها معطوفةٌ عليها، فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرَّأفة والرَّحمة والرَّهبانيَّة المبتدعة، ويكون هذا جَعْلًا خَلْقِيًّا كونيًّا. والجَعْل الكوني يتناول الخير والشَّرَّ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٣٠)، و«الإيضاح العضدي» لأبي علي الفارسي (٣١)، و«البسيط» (١٢/ ٣١٥)، و«إعراب القرآن» للباقولي (١/ ٣٧٨)، و«البحر المحيط» (٢٤/ ٢٠٢)، و«الدر المصون» (١٠/ ٢٥٤)، و«مغني اللبيب» (٦/ ٢٠٩)، و«مدارج السالكين» (١٤٧٦). وقال الزجاج: «هذه الآية صعبةٌ في التفسير».

(٢) الأصول: «قوله وأصحابه»، والمثبت أشبه، أي عائد علىٰ قوم عيسىٰ وأصحابه. وهو أولىٰ من التأويل المذكور في طرة (د): «المعنىٰ ابتدعوا رهبانيَّةً ابتدعوها. **وأصحاب هذا يقولون:** يفسِّره ما بعده». وجملة «علىٰ قومه وأصحابه» ثابتة في جميع الأصول، وأسقطتها ط. العاصمة، وقال محققها: «يبدو لي أنها زائدة لا مكان لها»!

(٣) (د، ع): «يعمل».

وعلىٰ هذا القول فلا مدح للرَّهبانيَّة بجَعْلِها[1] في القلوب.

فثبت علىٰ التقديرين أنه ليس في القرآن مدحُ للرَّهبانيَّة[2].

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي لم يَكْتُب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمَر به لا بما يُبْتَدَع.

وهذا يسمىٰ استثناء منقطعًا[3]، كما في قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ٢٠- ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢].

وهذا أصحُّ الأقوال في هذه الآية، كما هو مبسوطٌ في موضعٍ آخر. ولا يجوز أن يكون المعنىٰ: أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن الله لا يفعل شيئًا ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنىٰ أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه، كما يظنُّ هذا وهذا بعض الغالطين، كما قد بُسِط في موضعٍ آخر[4].

---

(١) (ي، د، ع): «لأنها».

(٢) ليست في (د، ع).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٨٢).

(٤) سيأتي (١/ ٣٩٠-٣٩١).

وذكر أنهم ابتدعوا الرَّهبانيَّة وما رعوها حقَّ رعايتها، وليس في ذلك مدحٌ لهم، بل هو ذمٌّ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

ولو أريد: الذين آمنوا بالمسيح أيضًا، فالمراد من اتَّبعه علىٰ دينه الذي لم يبدَّل، وإلا[1] فكلُّهم يقولون: إنهم مؤمنون بالمسيح.

وبكلِّ حال، فلم يمدَح سبحانه إلا من اتَّبع المسيح علىٰ دينه الذي لم يبدَّل، ومن آمن بمحمَّدٍ ﷺ، لم يمدَح النَّصارىٰ الذين بدَّلوا دين المسيح، ولا الذين لم يؤمنوا بمحمَّدٍ ﷺ.

فإن قيل: قد قال بعض النَّاس: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ عطفٌ علىٰ ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وإن المعنىٰ: أن الله جعل في قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيَّةً أيضًا[2] ابتدعوها، وجعلوا الجَعْلَ شرعيًّا ممدوحًا.

قيل: هذا غلط؛ لوجوه:

منها: أن الرَّهبانيَّة لم تكن في كلِّ من اتبعه، بل الذين صحبوه كالحواريِّين لم يكن فيهم راهبٌ، وإنما ابتُدِعَت الرَّهبانيَّة بعد ذلك، بخلاف الرَّأفة والرَّحمة، فإنها جُعِلت في قلب كلِّ من اتَّبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرَّهبانيَّة، بخلاف الرَّأفة والرَّحمة فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم. فإن كان المراد هو

(١) (د، ع): «والآن».
(٢) ليست في (د، ي، ع).



الجَعْل الشَّرعيَّ الدينيَّ لا الجَعْل الكونيَّ القدريَّ فلم تدخل الرَّهبانيَّة في ذلك، وإن كان المراد الجَعْل الخَلْقِيَّ الكونيَّ فلا مدح للرَّهبانيَّة في ذلك.

ومنها: أن الرَّأفة والرَّحمة جعلها في القلوب، والرَّهبانيَّة لا تختصُّ بالقلوب، بل الرَّهبانيَّة تتضمَّن[1] ترك المباحات من النكاح واللَّحم وغير ذلك.

وقد كان طائفةٌ من الصَّحابة رضوان الله عليهم همُّوا بالتَّرهُّب[2]، فأنزل الله تعالىٰ نهيَهم عن ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧][3].

وثبت في الصَّحيحين[4] أن نفرًا من أصحاب النبيِّ ﷺ قال أحدهم: أمَّا أنا فأصوم لا أفطر، وقال الآخر: أمَّا أنا فأقوم لا أنام، وقال الآخر: أمَّا أنا فلا أتزوَّج النساء، وقال آخر: أمَّا أنا فلا آكل اللَّحم، فقام النبيُّ ﷺ خطيبًا، فقال: «**ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكنِّي أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوَّج النساء، وآكل اللَّحم، فمن رغب عن سنَّتي فليس منِّي**».

وفي «صحيح البخاري»[5] أن النبيَّ ﷺ رأىٰ رجلًا قائمًا في الشَّمس، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: هذا أبو إسرائيل[6]، نذر أن يقوم في الشَّمس،

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (و): «بالرهبانية». وما في باقي الأصول أجود. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٥١١، ١١/ ٥٨٤، ١٤/ ٤٥٦، ١٧/ ١٨١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٨/ ٦٠٧- ٦١٦) من وجوه كثيرة. وأصله في البخاري (٤٦١٥) ومسلم (١٤٠٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) (٦٧٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) الأنصاري أو القرشي. اسمه يسير، وقيل قشير. قال الحافظ عبد الغني بن سعيد: ليس في الصحابة من يكنىٰ أبا إسرائيل غيره. انظر: «الإصابة» (١٢/ ٢٠).



ولا يستظلَّ، ولا يتكلَّم، ويصوم، فقال: «**مُرُوه فليجلس، وليستظلَّ، وليتكلَّم، وليتمَّ صومه**».

وثبت في «صحيح مسلم»(١) عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقول في خطبته: «**خير الكلام كلام الله(٢)، وخير الهدي هدي محمَّد، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ بدعةٍ ضلالة**».

وفي السُّنن(٣) عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ بدعةٍ ضلالة**». قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيح(٤).

وقد بيَّنت النُّصوص الصَّحيحة أن الرَّهبانيَّة بدعةٌ وضلالة، وما كان بدعةً وضلالةً لم يكن هدًىٰ، ولم يكن الله جَعَلَها بمعنىٰ أنه شَرَعَها، كما لم يَجْعَل الله ما شرعه المشركون من البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحَامِ.

فإن قيل: قد قال طائفة: معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وقالت طائفة: ما فعلوها أو ما(٥) ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

---

(١) (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) كذا يورد المصنف رحمه الله الحديث في كتبه معزوًّا إلىٰ مسلم، ولفظه في الصحيح: «خير الحديث كتاب الله». وعند النسائي (١٣١١): «أحسن الكلام كلام الله».

(٣) سنن ابن ماجه (٤٣)، وأبي داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٤) وصححه طائفة من أهل العلم. وانظر تخريجًا له مبسوطًا في التعليق علىٰ «ذم الكلام» لأبي إسماعيل الأنصاري (٣/ ١٢٢-١٤٨ ط. الغرباء).

(٥) (و): «وما».

قيل: كلا القولين خطأ، والأول أظهر خطأً؛ فإن الرَّهبانيَّة لم يكتبها الله عليهم، بل لم يشرعها لا إيجابًا ولا استحبابًا.

ولكن ذهبت طائفةٌ إلىٰ أنهم لمَّا ابتدعوها كَتَب عليهم إتمامها.

وليس في الآية ما يدل علىٰ ذلك؛ فإنه قال: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، فلم يذكر أنه كَتَب عليهم نفس الرَّهبانيَّة ولا إتمامها ولا رعايتها، بل أخبَر أنهم ابتدعوا بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حقَّ رعايتها.

فإن قيل: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يدلُّ علىٰ أنهم لو رعوها حقَّ رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل: ليس في الكلام ما يدلُّ علىٰ ذلك، بل يدل علىٰ أنهم مع عدم الرِّعاية يستحقُّون من الذَّمِّ ما لا يستحقُّونه بدون ذلك، فيكون ذمُّ من ابتدع البدعة ولم يرعها حقَّ رعايتها أعظمَ من ذمِّ من رعاها، وإن لم يكن واحدٌ منهما محمودًا، بل مذمومًا، مثل نصارىٰ بني تَغْلِب[1] ونحوهم ممَّن دخل في النَّصرانيَّة ولم يقوموا بواجباتها، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم[2]، فكان كفرُهم وذمُّهم أغلظ ممَّن هو أقلُّ شرًّا منهم، والنَّار دركاتٌ كما أن الجنَّة درجات.

وأيضًا، فالله تعالىٰ إذا كتب شيئًا علىٰ عباده لم يَكْتُب ابتغاء رضوانه، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله.

---

(١) (ع): «نصارىٰ تغلب».

(٢) قيل: إنهم لم يأخذوا من دين أهل الكتاب إلا شرب الخمر. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٥٦، ٣٢/ ١٩٠، ٣٥/ ٢٢٣).

وأيضًا، فتخصيص الرَّهبانيَّة بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيصٌ بغير موجِب؛ فإن ما كتبه ابتداءً لم يَذْكُر أنه كتبه ابتغاء رضوانه، فكيف بالرَّهبانيَّة؟!

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، فهذا المعنىٰ لو دلَّ عليه الكلام لم يكن في ذلك مدحٌ للرَّهبانيَّة[1]؛ فإن من فعل ما لم يأمر الله به بل نهاه عنه مع حُسْنِ مقصده غايتُه أن يثاب علىٰ قصده، لا يثاب علىٰ ما نُهِيَ عنه، ولا علىٰ ما ليس بواجب ولا مستحبٍّ، فكيف والكلام لا يدلُّ عليه؟! فإن الله قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

ولو كان المراد: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، لكان منصوبًا علىٰ المفعول[2]، ولم يتقدَّم لفظ الفعل ليعمَل فيه، ولا نفىٰ الابتداع، بل أثبته لهم، وإنما تقدَّم لفظ الكتابة.

فعُلِم أن القول الذي ذكرناه هو الصَّواب، وأنه استثناءٌ منقطع، فتقديره: وابتدعوا رهبانيَّةً ما كتبناها عليهم، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن إرضاء الله واجبٌ مكتوبٌ علىٰ الخلق، وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحظور، لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينهه[3] عن تركه، والرَّهبانيَّة فيها فعلُ ما لم يأمر به وتركُ ما لم ينهه عنه.

---

(١) (ع): «الرهبانية».

(٢) المفعول له. وفي (ع): «الفعل». ط. النيل: «المفعولية»، ولا تجري هذه اللفظة علىٰ قلم المصنف. انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٦)، و«الصارم المسلول» (٣/ ٧١١، ٧٢٣)، و«جامع المسائل» (١/ ١٦٠، ٦/ ٦٠).

(٣) (و): «يؤمر بفعله وبترك ما لم ينه» في الموضعين.

فصل

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤] فهذه الآية لا اختصاصَ فيها للنَّصارىٰ، بل هي مذكورةٌ بعد قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٠- ١١٣].

ومعلومٌ أن الصِّفة المذكورة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ صفة اليهود، وكذلك قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾، فقوله عقب ذلك: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ لا بدَّ أن يكون متناولًا لليهود.

ثم قد اتَّفق المسلمون والنَّصارىٰ علىٰ أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمَّدٍ صلىٰ الله عليهما وسلَّم ليس فيهم مؤمن، وهذا معلومٌ بالاضطرار من دين محمَّدٍ ﷺ، والآية إذا تناولت النَّصارىٰ كان حكمهم في ذلك حكم اليهود، والله تعالىٰ إنما أثنىٰ علىٰ من آمن من أهل الكتاب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرىٰ[(١)] في آل عمران نزلت في النجاشيِّ[(٢)] ونحوه ممَّن آمن بالنبيِّ ﷺ، لكنه لم تُمْكِنه الهجرةُ إلىٰ النبيِّ ﷺ، ولا العمل بشرائع الإسلام؛ لكون[(٣)] أهل بلده نصارىٰ لا يوافقونه علىٰ إظهار شرائع الإسلام.

وقد قيل: إن النبيَّ ﷺ إنما صلىٰ عليه لمَّا مات لأجل هذا، فإنه لم يكن هناك من يُظْهِر الصَّلاة عليه في جماعةٍ كثيرةٍ ظاهرةٍ كما يصلِّي المسلمون علىٰ جنائزهم[(٤)].

ولهذا جُعِل من أهل الكتاب، مع كونه آمن بالنبيِّ ﷺ، بمنزلة من يؤمن[(٥)] بالنبيِّ ﷺ في بلاد الحرب ولا يتمكَّن من الهجرة إلىٰ دار الإسلام، ولا يمكنه العملُ بشرائع الإسلام الظَّاهرة، بل يعمل ما يمكنه ويَسْقُط عنه ما يعجز عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فقد يكون الرَّجل في الظَّاهر من الكفَّار وهو في الباطن مؤمنٌ كما كان مؤمنُ آل فرعون.

---

(١) (ي، د): «الآخرة». وسقط من (و) من «الآية» إلىٰ «عمران».
(٢) كما سيأتي عن جماعة من السلف. وانظر: تفسير ابن جرير (٦/ ٣٢٧).
(٣) (د، ي، ع): «لكونه».
(٤) ذكر ذلك الخطابي وغيره. انظر: «معالم السنن» (١/ ٣١٠)، و«التمهيد» (٦/ ٣٣١)، و«إكمال المعلم» (٣/ ٤١٤)، و«فتح الباري» (٣/ ١٨٨)، و«جامع المسائل» (٤/ ١٧٦).
(٥) (ي): «من لم يؤمن»، وهو سهو.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ
رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ
كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ
مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ (٢٨) يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ
ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ
ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠) مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ
وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ
(٣٢) يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣) وَلَقَدۡ
جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ
قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ
(٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (٣٥) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ
ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ (٣٦) أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ
فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ (٣٩)
مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٤٠) ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ
أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ
مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ
لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ

بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٢٨- ٤٦].

فقد أخبر سبحانه أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب، وأخبر أنه كان من آل فرعون رجلٌ مؤمنٌ يكتم إيمانه، وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره، فهو من آل فرعون[1] باعتبار النَّسب والجنس والظَّاهر، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشدَّ العذاب.

وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، وامرأة الرَّجل من آله؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[2] [الحجر: ٥٩- ٦٠].

وهكذا أهل الكتاب، فيهم من هو في الظاهر منهم وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمَّد ﷺ، يعملُ بما يقدِر عليه، ويَسْقُط عنه ما يعجز عنه علمًا وعملًا، ولا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها، وهو عاجزٌ عن الهجرة إلىٰ دار الإسلام كعجز النجاشيِّ[3].

(١) ليست في (ي).
(٢) (د، ي، و): «إلا امرأته كانت من الغابرين»، وهو سهو، تلك آية أخرىٰ في سورة الأعراف: ٨٣. وأصلحت في (ع) لتوافق الصواب.
(٣) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ١١١- ١٢٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٧١، ٣٥/ ٢٥)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (٥٨).

وكما أن الذين يُظْهِرون الإسلام فيهم من هو[1] في الظاهر[2] مسلمون وفيهم من هو منافقٌ كافرٌ في الباطن إمَّا يهوديٌّ وإمَّا نصرانيٌّ وإمَّا مشركٌ وإمَّا معطِّل، كذلك في أهل الكتاب والمشركين من هو في الظاهر منهم وهو[3] في الباطن من أهل الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله، ويَسْقُط[4] ما يعجز عنه من ذلك[5].

وفي حديث حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، قال: لمَّا مات النجاشي قال النبي ﷺ: «**استغفروا لأخيكم**»، فقال بعض القوم: تأمرنا أن نستغفر لهذا العِلْج يموت بأرض الحبشة؟! فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم[6].

وذكره حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قال: «**استغفروا لأخيكم النجاشيِّ**»، فذكر مثله[7].

---

(١) ط. النيل: «هم».

(٢) (ي): «الذين يظهرون الإسلام هم في الظاهر».

(٣) (و): «ومن هو». والمثبت من سائر الأصول أقوم.

(٤) (ي، ع، د): «ويسقط عنه».

(٥) ط. العاصمة: «في ذلك» خلاف الأصول.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٧)، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٦٤٩)، وليس إسناده بالقوي، قال ابن حجر في «العجاب» (٢/ ٨٢٠): «وهو من رواية مؤمل بن إسماعيل عن حماد، وفيه لين».
وروي من طريق حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه. أخرجه البزار (٦٥٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٢٢، ١١٠٢٣)، وابن المنذر في «التفسير» (١٢٨٧) وغيرهم، وخرجه الضياء في «المختارة» (٢٠٣٧، ٢٠٣٨)، وفي إسناده اختلاف.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦). والمرسل أشبه بالصواب.

وكذلك ذكر[١] طائفةٌ من المفسِّرين عن جابر بن عبد الله[٢]، وابن عبَّاس، وأنس، وقتادة، أنهم قالوا: نزلت هذه الآية في النجاشيِّ ملك الحبشة، واسمه أصحمة، وهو بالعربية: عطيَّة. وذلك أنه لمَّا مات نعاه جبريل للنبيِّ ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**اخرجوا فصلوا علىٰ أخ لكم مات بغير أرضكم**» قالوا: ومن[٣] هو؟ قال: «**النجاشي**»، فخرج رسول الله ﷺ إلىٰ البقيع[٤].

وزاد بعضهم: وكُشِف له من المدينة إلىٰ أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشيِّ، وصلَّىٰ عليه، وكبَّر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: «**استغفروا له**»، فقال المنافقون: انظروا[٥] إلىٰ هذا، يصلِّي علىٰ عِلْجٍ حبشيٍّ نصرانيٍّ لم يره قطُّ وليس علىٰ دينه! فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية[٦]: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩][٧].

---

(١) ليست في (و).

(٢) «بن عبد الله» من (و).

(٣) ط. العاصمة: «من» خلاف الأصول.

(٤) هذا سياق الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٥٨٥- ٥٨٦)، وعنه نقل الواحدي في «أسباب النزول» (٢٧١)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ١٥٥). وانظر لتفصيل رواياته: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ٢٦٥، ٢٦٦)، و«العجاب» لابن حجر (٢/ ٨١٩- ٨٢٢)، و«الفتح السماوي» للمناوي (١/ ٤٩٩).

(٥) (ي، د، ع): «ابصروا».

(٦) «هذه الآية» ساقطة من ط. العاصمة.

(٧) تتمة سياق الرواية السابقة عند الثعلبي.

وقـد ذهبـت طائفـةٌ مـن العلمـاء إلـىٰ أنهـا نزلـت فـيمن كـان علـىٰ ديـن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أن بُعِث محمَّدٌ ﷺ فآمن به، كما نُقِل ذلك عن عطاء[1].

وذهبت طائفةٌ إلىٰ أنها نزلت في مؤمن[2] أهل الكتاب كلِّهم[3].

والقول الأول أجود[4]؛ فإن من آمن بمحمَّدٍ ﷺ، وأظهرَ الإيمان به، وهـو مـن أهـل دار الإسـلام، يعمـل مـا يعملـه المسـلمون ظـاهرًا وباطنًـا، فهـذا مـن المؤمنين، وإن كان قبل ذلك مشـركًا[5] يعبـد الأوثـان، فكيـف إذا كـان كتابيًّـا؟! وهذا مثلُ عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهما.

وهـؤلاء لا يقـال: إنهـم مـن أهـل الكتـاب، كمـا لا يقـال في المهـاجرين والأنصار: إنهم من المشـركين وعبَّـاد الأوثـان، ولا يُنْكِـر[6] أحـدٌ مـن المنـافقين ولا من غيرهم أن يصلَّىٰ علىٰ واحدٍ منهم، بخلاف من هـو في الظَّـاهر مـنهم وفي الباطن من المؤمنين.

وفي بلاد النَّصارىٰ من هذا النوع خلقٌ كثيرٌ يكتمون إيمانهم، إمَّا مطلقًا، وإمَّا يكتمونه عن العامَّة ويظهرونه لخاصَّتهم[7]، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]،

---

(١) نقله الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٥٨٧)، وذكره المصنف بالمعنىٰ.
(٢) ط. العاصمة: «مؤمني» متابعة لطبعة المدني، وخلافًا للأصول وط. النيل.
(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦) عن مجاهد، ورجحه ابن جرير.
(٤) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ١١٤ - ١٢١).
(٥) (و): «قبل ذلك من المشركين».
(٦) (و): «يمكن»، وهو تحريف مفسد للمعنىٰ، وأثبتته ط. العاصمة، وزادت «من» قبل «أن يصلىٰ» خلافًا للأصول.
(٧) «يكتمونه» و«يظهرونه لخاصتهم» سقطت من (و).

فهؤلاء لا يَدَعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مالٍ يأخذونه، كما يفعل كثيرٌ من الأحبار والرُّهبان الذين يأكلون أموال النَّاس بالباطل، ويصدُّونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم من[1] الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤]، فهذه الآية تتناول اليهود أقوىٰ ممَّا تتناول النَّصارىٰ.

ونظيره[2] قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وهذا[3] مدحٌ مطلقٌ لمن تمسَّك بالتَّوراة، ليس في ذلك مدحٌ لمن كذَّب المسيح، ولا فيها مدحٌ لمن كذَّب محمَّدًا ﷺ.

وهذا الكلام يفسِّره[4] سياقُ الكلام، فإنه قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فقد جعلهم نوعين: نوعًا مؤمنين، ونوعًا فاسقين وهم أكثرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يتناول من كان منهم مؤمنًا قبل مبعث

---

(١) ليست كذلك في (و).

(٢) (و): «ونظيرها».

(٣) (د، ع، ي): «هذا».

(٤) (د، ع): «تفسيره».

محمَّد ﷺ[1]، كما يتناولهم قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقوله عن إبراهيم الخليل: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

ثم لمَّا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١١- ١١٢]

وضربُ الذِّلَّة عليهم أينما ثُقِفُوا، ومَبَاؤهم بغضبٍ من الله[2]، وما ذُكِر معه من قتل الأنبياء بغير حقٍّ، وعصيانهم، واعتدائهم = كان اليهود متَّصفين به قبل مبعث محمَّدٍ ﷺ، كما قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا

---

(١) (د، ع): «لقوله تعالىٰ منهم المؤمنون يتناول من كان مؤمنًا قبل من كان قبل مبعث محمد ﷺ». والصواب المثبت من (و، ي).

(٢) من قوله: «ذلك بأنهم كانوا» إلىٰ هنا ليس في (و). ووقع في الأصول هنا زيادة كلمة «الآية»، ولعل المراد إن صح إثباتها: ما ذُكِر في الآية من ضرب المسكنة عليهم. والأشبه أن المصنف لم يكمل الآية أولًا وكتب «الآية» كما في (و)، ثم ألحق تتمتها والعبارة التي بعدها كما وقع في الأصول الأخرىٰ، وسها عن الضرب علىٰ «الآية». وأسقطت ط. العاصمة «الآية» استشكالًا لها.



﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه[1] المِلَل الأربع متمسِّكًا بها[2] قبل النَّسخ بغير تبديل.

كذلك آية آل عمران لمَّا وصف أهلَ الكتاب بما كانوا متَّصفًا به أكثرهم قبل محمَّدٍ ﷺ من الكفر، قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤].

وهذا يتناول من كان متَّصفًا منهم بهذا قبل النَّسخ، فإنهم كانوا على الدِّين الحقِّ الذي[3] لم يبدَّل ولم يُنسَخ، كما قال في الأعراف: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ

---

(١) ليست في (ي).
(٢) «متمسكًا بها» ليس في (و).
(٣) ليست في (و).

سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨- ١٧٠].

وقد قال تعالىٰ مطلقًا[١]: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فهذا خبرٌ من الله عمَّن كان متَّصفًا بهذا[٢] الوصف قبل مبعث محمَّدٍ ﷺ، ومن أدرك من هؤلاء محمَّدًا ﷺ فآمن به كان له أجرُه مرَّتين[٣].

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (و): «به بهذا».

(٣) في (د) ههنا زيادة مضروب عليها، وليست في سائر الأصول وط. النيل.

فصل

قالوا: «ثم وجدناه يعظِّم إنجيلنا، ويقدِّم صوامعَنا ويشرِّف مساجدنا[1]، ويشهد بأن اسم الله يُذْكَر فيها كثيرًا، وذلك مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]»[2].

والجواب: أن فيها ذكر الصَّوامع والبِيَع، وأمَّا قوله: ﴿يُذْكَرُ[3] فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فإنما ذكره عقب ذكر[4] المساجد، والمساجدُ للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النَّصارىٰ، فإنها هي البِيَع.

ثم قوله تعالىٰ: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ إمَّا أن يكون مختصًّا بالمساجد، فلا يكون في ذلك إخبارٌ بأن اسم الله يُذْكَر كثيرًا في الصَّوامع والبِيَع، وإمَّا أن يكون ذكرُ اسم الله[5] في الجميع، فلا ريب أن الصَّوامع والبِيَع قبل أن يبعث الله محمَّدًا ﷺ كان فيها من يتَّبع دينَ المسيح الذي لم يبدَّل ويذكر فيها اسم الله كثيرًا.

وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يُذْكَر فيها اسمُ الله كثيرًا، وإن الله يحبُّ أن يُذْكَر اسمُه.

---

(١) في رسالة بولس: «ويقدِّم صوامعنا وبِيَعنا علىٰ المساجد» يعني في الآية، وهو أجود مما وقع في الأصول.

(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٣) الأصول: «ويذكر»، يريد الاستشهاد لا التلاوة، وأثبتُّ لفظ الآية.

(٤) (و): «ذكره».

(٥) (ي): «ذكر الله».

قال الضحَّاك: «إن الله يحبُّ أن يُذْكَر اسمُه وإن كان يُشْرَكُ به»[1]، يعني أن المشركَ به خيرٌ من المعطِّل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحالٍ.

وأهل الكتاب خيرٌ من المشركين، وقد ذكرنا[2] أنه لمَّا اقتتل فارس والرُّوم، وانتصرت الفُرس، ساء ذلك أصحابَ رسول الله ﷺ، وكرهوا انتصار الفُرس على النَّصارىٰ؛ لأن النَّصارىٰ أقربُ إلىٰ دين الله من المجوس.

والرُّسل بُعِثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وتقديم خير الخيرَيْن علىٰ أدناهما حسب الإمكان، ودفع شرِّ الشَّرَّيْن بخيرهما، فهدمُ صوامع النَّصارىٰ وبِيَعهم فسادٌ إذا هدمها المجوسُ والمشركون، وأمَّا إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجدَ يُذْكَر فيها اسمُ الله كثيرًا فهذا خيرٌ وصلاح.

وهذه الآية ذُكِرَت في سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وهذه الآية أولُ آيةٍ نزلت في الجهاد، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]، فيدفع بالمؤمنين الكفَّار، ويدفع شرَّ الطَّائفتين بخيرهما، كما دفع المجوسَ بالرُّوم النَّصارىٰ، ثم دفع النَّصارىٰ بالمؤمنين أمة محمَّد ﷺ، وهذا كما قال تعالىٰ في سورة البقرة ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ

(١) لم أره بهذا اللفظ، وهو لازم قول الضحاك بالعموم في الآية وأن اسم الله يُذْكَر كثيرًا في البيع والصوامع والمساجد، كما أخرجه ابن جرير (١٦/ ٥٨٦).
(٢) في صدر الكتاب (١/ ١٣١-١٣٥).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأمَّا التقديم في اللفظ، فإنه يكون للانتقال من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، وقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ١-٤]، ونظائره متعدِّدة.

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾، بيَّن[1] سبحانه أنه لولا دفعُ الله النَّاس بعضهم ببعض لهُدِّمت مواضعُ العبادات، وهدمُها فسادٌ إذا هدمها من لا يبدِّلها بخيرٍ منها، وأدناها هي الصوامع؛ فإن الصومعة تكون لواحدٍ أو طائفةٍ[2] قليلة، فبدأ بأدنىٰ المعابد، وختَم بأشرفها، وهي المساجدُ التي يُذْكَر فيها اسمُ الله كثيرًا.

ففي الجملة حكمُ هذه المعابد حكمُ أهلها، وأهلها قبل النَّسخ والتَّبديل مؤمنون مسلمون، وهدمُ معابد المؤمنين المسلمين فساد.

وبعد النَّسخ والتَّبديل إذا غلب أهلَ الكتاب من هو شرٌّ منهم كالمجوس والمشركين، وهدموا معابدهم، كان ذلك فسادًا. وإذا هدمها من هو خيرٌ منهم كأمَّة محمَّد ﷺ، وأبدلوها مساجد يُذْكَر فيها اسمُ الله كثيرًا ولا يُشْرَكُ به، ويُذْكَر فيها الإيمانُ بجميع كتبه ورسله، كان ذلك صلاحًا لا فسادًا.

---

(١) (و): «فبين».

(٢) (و): «لطائفة».

ولهذا أمر النبيُّ ﷺ أن تتَّخذ[1] المساجدُ مواضعَ معابد الكفَّار[2]، كما كان لثقيف أهل الطَّائف معبدٌ يعبدون فيه اللّات التي قال الله فيها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، فأمر النبيُّ ﷺ أن يُهْدَم ذلك المعبد، ويتَّخذ مكانه المسجدُ الذي يُعْبَد الله وحده فيه[3].

فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الآية إلىٰ قوله: ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الآية إلىٰ قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٥- ٣٨].

---

(١) مهملة في (ي)، (د، ع): «يتخذ».

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٦)، و«زاد المعاد» (٢/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٤٣)، وأبو داود (٤٥٠) عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ «أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم»، وجوَّده النووي في «المجموع» (٢/ ١٨٠)، وصححه مغلطاي في «الإعلام» (٤/ ١٢٢٩)، وفي سنده من لا يعرف. وروي من وجه آخر غريب عند ابن منده في «معرفة الصحابة» (١/ ٣٢٨)، وأبي نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٤٥٨)، ولا يصح.
وأقوىٰ منه أمره ﷺ أهل اليمامة أن يتخذوا مسجدًا مكان بيعةٍ كانت عندهم. أخرجه أحمد (٣٩/ ٤٦٢)، والنسائي (٧٠١) بسند حسن من حديث قيس بن طلق عن أبيه طلق بن علي رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (١١٢٣)، وخرجه الضياء في «المختارة» (٨/ ١٦٣). وانظر: «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ١٤٤)، و«تهذيب الكمال» (٢٤/ ٥٧)، و«البدر المنير» (٢/ ٤٦٦).

ثم لمَّا ذكر المؤمنين ذكر الكفَّار من أهل الكتاب والمشركين، فذكر أهل الجهل المركَّب والبسيط، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩- ٤٠].

فقد تبيَّن أنه ليس لهم حجَّةٌ في شيءٍ ممَّا جاء به محمَّد ﷺ، بل ما جاء به حجَّةٌ عليهم من وجوهٍ متعدِّدة.

فصل

قالوا: «وهذا وغيره أوجب لنا التمسُّك بديننا، وأن لا نهمل ما معنا، ولا نرفض مذهبنا، ولا نتَّبع غير السَّيِّد المسيح كلمة الله وروحه، وحواريِّيه الذين أرسلهم إلينا»[1].

والجواب: أنهم احتجُّوا بحجَّتين باطلتين:

إحداهما[2]: أن محمَّدًا ﷺ لم يُرسَل إليهم، بل إلىٰ العرب[3]، وقد تبيَّن أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء علىٰ محمَّدٍ ﷺ؛ فإنه لم يقل قطُّ: إني لم أُرسَل إلىٰ أهل الكتاب، ولا قال قطُّ: إني لم أُرسَل إلا إلىٰ العرب، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبيِّن أنه مرسلٌ إلىٰ جميع أهل الأرض أمِّيِّهم وكتابيِّهم.

والحجة الثانية: قولهم: إن محمَّدًا ﷺ أثنىٰ علىٰ دين النَّصارىٰ بعد التَّبديل والنَّسخ[4]، وهي أيضًا أعظم كذبًا عليه من التي قبلها.

كيف يثني عليهم وهو يكفِّرهم في غير موضعٍ من كتابه، ويأمر بجهادهم وقتالهم، ويذمُّ المتخلِّفين عن جهادهم غاية الذَّمِّ، ويصف من لم ير طاعته في قتالهم بالنفاق والكفر، ويَذْكُر أنه يدخل جهنَّم؟!

وهذا كلُّه يخبر به عن الله ويَذْكُره تبليغًا لرسالة ربه، وإنما يضاف إليه لأنه بلَّغه وأدَّاه، لا لأنه أنشأه وابتداه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).
(٢) (ي، د، ع): «أحدهما»، من الحمل علىٰ المعنىٰ.
(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٤، ٤١٨).
(٤) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥- ٤١٧).

﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٤٠- ٥٢].

وأمَّا ثناء الله ورسوله علىٰ المسيح وأمِّه، وعلىٰ من اتَّبعه وكان علىٰ دينه الذي لم يبدَّل، فهذا حقٌّ، وهو لا ينافي وجوبَ اتِّباع محمَّدٍ ﷺ علىٰ من بُعِث إليه[١].

فلو قُدِّر أن شريعة المسيح لم تبدَّل، وأن محمَّدًا ﷺ أثنىٰ علىٰ كلِّ من اتَّبعها، وقال مع ذلك: إن الله أرسلني إليكم، لم يكن[٢] متناقضًا، وإذا كفَّر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذِّبوه. فكيف وهو إنما مدح من اتَّبع دينًا لم يبدَّل؟! وأمَّا الذين بدَّلوا دين المسيح فلم يمدحهم، بل ذمَّهم، كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤][٣].

(١) في طرة (و) تعليق لأحد القراء: «بل يجب عليهم اتباعه ولو سكت عن دعوتهم؛ لأمر الله تعالىٰ لهم في كتبهم السابقة باتباعه، بل ولو لم يؤمروا في الكتب السابقة؛ لظهور معجزاته الخارقة، وتحديهم بالقرآن، وصدق ما أخبر فيه مما تقدم وما تأخر وما وعد به المؤمنين من الفتوح والنصر والظفر والظهور علىٰ الدين كله».

(٢) (و): «لم يكن ذلك».

(٣) في طرة (و) تعليق آخر: «وكفىٰ بها معجزة دالة علىٰ صدقه ﷺ؛ فإن العداوة من حين نزولها إلىٰ قيام الساعة دائمة كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله» .

وقد قدَّمنا[(١)] أن النَّصارىٰ كفروا كما كفرت اليهود، كفرًا[(٢)] بتبديلهم ما في الكتاب الأوَّل، وكفرًا بتكذيبهم بالكتاب الثاني. وأمَّا من لم يبدِّل الكتاب أو أدرك محمَّدًا ﷺ فآمن به، فهؤلاء مؤمنون.

وممَّا يبيِّن ذلك أن تعظيم المسيح للتَّوراة، واتِّباعه لها، وعمله[(٣)] بشرائعها، أعظمُ من تعظيم محمَّدٍ ﷺ للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطًا عن اليهود وجوبَ اتِّباعهم للمسيح، فكيف يكون تعظيمُ محمَّدٍ ﷺ للإنجيل مسقطًا عن النَّصارىٰ[(٤)] وجوبَ اتِّباعه؟!

---

(١) (١/ ١٨٩).

(٢) ط. النيل: «كفروا». وكذلك الموضع الثاني.

(٣) (ي): «وعلمه».

(٤) من قوله: «وجوب اتباعهم» إلىٰ هنا سقط من (ع) لانتقال النظر.

فصل

وأمَّا قولهم: «وحواريِّيه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغاتنا[1]، وسلَّموا لنا[2] ديننا، الذين قد عُظِّموا في هذا الكتاب بقوله في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأعنىٰ[3] بقوله: أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك[4] الحواريِّين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم، وبشَّروا بالكتاب الواحد الذي هو الإنجيل الطاهر؛ لأنه لو عنىٰ[5] عن إبراهيم وداود وموسىٰ ومحمَّد لكان قال: معهم الكتب؛ لأن كلَّ واحدٍ منهم جاء بكتابٍ دون غيره، ولم يقل إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتىٰ جماعةٌ مبشِّرين بكتابٍ واحدٍ غير الحواريِّين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر.

وجاء أيضًا في الكتاب: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، يعني الحواريِّين، لم يقل: «رسول» إنما قال: المرسلين»[6].

---

(١) ط. العاصمة: «بلغتنا»، خلاف الأصول.

(٢) (ع): «إلينا». وضرب علىٰ الجملة في (و).

(٣) كذا في الأصول. أي: عنىٰ. وسيرد كذلك في مواضع. وليس بمسموع، وهو من عجمة كاتب الرسالة، وكذلك قوله: «عنىٰ عن».

(٤) أي: يقصد.

(٥) وردت في الموضع الآتي (١/ ٤٣٤): «أعنىٰ».

(٦) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥)، وفي النص الذي بين أيدينا من الرسالة اختصار.

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه ليس فيما ذُكِر ولا في غيره ما يوجبُ تكذيب الرَّسول الذي أُرسِل إليكم وإلىٰ غيركم، وتمسُّككم بدينٍ مبدَّلٍ منسوخ، كما أنه ليس فيما يعظِّم به موسىٰ والتَّوراة ومن اتَّبع موسىٰ ما يوجب لليهود تكذيب الرَّسول الذي أُرسِل إليهم وتمسُّكهم بدينٍ مبدَّل منسوخ.

الثاني: أن قولهم: «ولا نتَّبع غير المسيح وحواريِّيه» قولٌ باطل؛ فإنهم ليسوا متَّبعين لا للمسيح ولا لحواريِّيه لوجهين:

أحدهما: أن دينهم مبدَّل، ليس كلُّه عن المسيح والحواريِّين، بل أكثر شرائعهم أو كثيرٌ منها ليست عن المسيح والحواريِّين.

الثاني: أن المسيح بشَّر بأحمد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فإذا لم يتَّبعوا أحمد كانوا مكذِّبين للمسيح.

وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ما هو مبسوطٌ في موضعٍ آخر[١] كما سيأتي إن شاء الله[٢]، وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشيءٍ ممَّا جاء به محمَّد ﷺ، وبيان أنه حجَّةٌ عليهم لا لهم؛ إذ زعموا أن في بعضه حجَّةً لهم.

الثالث: أن قولهم عن الحواريِّين: «إنهم الرُّسل الذين عُظِّموا في هذا الكتاب» قولٌ باطلٌ فسَّروا به القرآن تفسيرًا باطلًا من جنس تفسيرهم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بالنَّصارىٰ، وتفسيرهم ﴿بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] أي: ينفخ

---

(١) (٤/ ٥-١٠٢).

(٢) «كما سيأتي إن شاء الله» ليست في (و)، وكأنها مما ألحقه المصنف.

فيه فيكون طيرًا بإذن اللاهوت الذي هو كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت، وتفسيرهم ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١] بالإنجيل، وتفسيرهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] [البقرة: ٣] هم النَّصارىٰ، وتفسيرهم قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] هم النَّصارىٰ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم اليهود[2]، وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن بمثل[3] ما يفسِّرون به التَّوراة والإنجيل والزَّبور من التَّفاسير التي هي من تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في آيات الله، والكذب علىٰ أنبيائه، بما يظهَر أنه كذبٌ علىٰ الأنبياء[4] لكلِّ من تدبَّر ذلك.

وبطلان ذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أن الله قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ اسمُ جمعٍ مضافٍ يعمُّ جميع من أرسله الله تعالىٰ.

الثاني: أن أحقَّ الرُّسل بهذا الحكم الرُّسلُ[5] الذين سمَّاهم الله[6] في القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ

---

(١) زادت ط. العاصمة الآية التي بعدها، وليست في الأصول.
(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٦، ٤١٨).
(٣) (و): «مثل».
(٤) (و): «أنبيائه».
(٥) ساقطة من ط. العاصمة.
(٦) لفظ الجلالة ليس في (و، ي).

﴿وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥].

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

---

(١) زادت الأصول هنا: «فاتقوا الله وأطيعون»، وليس هو موضعها من المصحف.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وذكر قصَّته، ثم قال بعد[1] ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم لما قضىٰ[2] قصَّته قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾، فذكر إرسال رسله ﴿تَتْرَا﴾ أي متواترة، ثم ذكر إرسال موسىٰ وهارون، وإرسالُ موسىٰ وهارون قبل المسيح[3] بمدَّةٍ طويلة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذا إخبارٌ منه سبحانه وتعالى بأنه بعث في كلِّ أمَّةٍ رسولًا يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده.

وقال تعالىٰ في المسيح صلوات الله عليه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فأخبر أن المسيح رسولٌ من هؤلاء الرُّسل، قد خلت من قبله الرُّسل، وقبله قد بعث في

---

(١) ط. النيل: «من بعد».

(٢) كذا في الأصول. ويشبه أن يكون الصواب: «قصَّ».

(٣) ط. النيل: «قبل إرسال المسيح».

كلِّ أمَّةٍ رسولًا[1].

وقد رُوِي في حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ **أن الأنبياء مئة ألفٍ وأربعةٌ وعشرن ألف**[2] **نبيٍّ، وأن الرُّسل منهم ثلاثمئة وثلاثة عشر**[3]، وبعض النَّاس يصحِّح هذا الحديث، وبعضهم يضعِّفه، فإن كان صحيحًا فالرُّسل ثلاثمئة وثلاثة عشر، وإن لم تُعْرَف صحَّتُه أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر، كما يمكن أن يكونوا أقلَّ؛ فإن الله تعالىٰ أخبَر أنه بَعَث في كلِّ أمَّةٍ رسولًا، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]،

---

(١) (و): «رسول».

(٢) «وأربعة وعشرون ألف» ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨) في سياق طويل من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة رضي الله عنه، وعلي بن يزيد الألهاني والراوي عنه ضعيفان.

وأخرجه ابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦) وغيرهما من حديث إبراهيم بن هشام بن يحيىٰ الغساني عن أبيه عن جده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه، وهذا إسنادٌ شديد الضعف.

وأصحُّ ما في الباب: حديث زيد بن سلام عن أبي سلام عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، كم كانت الرسل؟ قال: «ثلاثمئة وخمسة عشر»، أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦١٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١١٨) وغيرهما بسند قوي، وصححه ابن حبان (٦١٩٠) دون موضع الشاهد، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٨) علىٰ شرط مسلم، وأبو عبد الله ابن منده في كتاب «التوحيد» (٣/ ١٤١)، وقال: «وروي من حديث القاسم أبي عبد الرحمن وغيره عن أبي أمامة عن أبي ذر بأسانيد فيها مقال».

قال ابن حجر في «الكاف الشاف» (٤/ ٢٠٤- الكشاف): «وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات، ولم يصب في ذلك»، ثم أورد بعض متابعاته. وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٣١): «أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن الجوزي في الموضوعات، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيفٌ لا صحيحٌ ولا موضوع».

وانظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٧٨)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٩٠)، و«مجمع الزوائد» (١/ ١٥٩، ١٩٦، ٨/ ٢١٠)، و«الروض البسام» (٤/ ٢٤٣).

ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال[1]: «**أنتم تُوفُون سبعين أمَّةً أنتم أكرمُها وأفضلُها على الله**»[2]، وهو حديثٌ جيِّد.

وقد قال تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالىٰ في سورة تبارك: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وقال تعالىٰ[3]: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾، فهذا إخبارٌ منه بأن كلَّ فوجٍ ممَّن[4] يلقىٰ في النَّار قد[5] جاءهم نذير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

---

(١) (و): «أن النبي ﷺ قال».

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٩)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والترمذي (٣٠٠١) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وصححه الحاكم (٤/ ٨٤) ولم يتعقبه الذهبي، وقال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢٢٥): «حديث حسن صحيح».

(٣) «وقال تعالىٰ» ليست في (و)، وأكملت فيها الآيات في سياق واحد.

(٤) ليست في (و، ي).

(٥) (ي، ع، د): «وقد». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلًا كثيرين إلىٰ جميع الأمم، فكيف يجوز أن يدَّعىٰ أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] هم الحواريُّون فقط الذين أرسلهم المسيح؟!

مع أن الحواريِّين رسل المسيح بمنزلة رسل موسىٰ وإبراهيم ورسل محمَّد ﷺ، ومن أرسله رسولُ الله ﷺ وجبت علىٰ النَّاس طاعتُه فيما يبلِّغه عن رسول الله، كما في الصَّحيحين[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن عصىٰ أميري فقد عصاني**».

وبيَّن[2] أن أميره إنما تجبُ طاعتُه في المعروف الذي أمر الله به ورسوله لا في كلِّ ما يأمر به.

ففي الصَّحيحين[3] عن عليٍّ أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا، وأمَّر عليهم رجلًا، وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا، فأغضبوه، فقال: اجمعوا لي حطبًا، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا نارًا، فأوقدوا نارًا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلىٰ، قال: فادخلوها. فنظر بعضهم إلىٰ بعض، فقالوا: إنما فررنا إلىٰ رسول الله من النَّار. فكانوا كذلك حتىٰ سكن غضبُه، فلمَّا رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا**»، وقال: «**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**».

---

(١) صحيح البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) (و، ع، ي): «فبين».
(٣) صحيح البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

وفي الصَّحيحين[1] عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: **«علىٰ المرء المسلم السَّمعُ والطَّاعة فيما أحبَّ وكَرِه، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمِر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة»**.

وفي صحيح[2] مسلم[3] عن أمِّ الحصين سمعت رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع يقول: **«ولو استُعمِل عليكم عبدٌ أسودٌ يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا»**.

وفي الصَّحيحين[4] عنه ﷺ أنه قال: **«فليبلِّغ[5] الشاهدُ الغائب؛ فربَّ مبلَّغٍ أوعىٰ له من سامع»**.

وفي «صحيح البخاري»[6] عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: **«بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النَّار»**.

وفي السُّنن[7] عنه أنه قال: **«نضَّر الله امرأً سمع منَّا حديثًا، فبلَّغه[8] إلىٰ من لم يسمعه، فربَّ حامل فقهٍ غير فقيه، وربَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقه منه»**.

فالحواريُّون في تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء في تبليغهم عنهم.

---

(١) صحيح البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).
(٢) ساقطة من ط. العاصمة.
(٣) (١٢٩٨، ١٨٣٨).
(٤) صحيح البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٥) (و): «ليبلغ». وكلاهما مرويّ.
(٦) (٣٤٦١).
(٧) تقدم تخريجه (١/ ٢٨٥).
(٨) (ي، د، ع): «استمع فسمع منا حديثًا ويبلغه».

وقال الله تعالىٰ في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم العلماء والأمراء، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله وجبت طاعتُهم، وإن تنازع النَّاس في شيءٍ وجب ردُّه إلىٰ الله والرَّسول ﷺ، لا يُردُّ إلىٰ أحدٍ دون الرُّسل الذين أرسلهم الله.

كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، والكتاب اسم جنسٍ لكلِّ كتابٍ أنزله الله، ليس المراد به كتابًا معيَّنًا.

كما قال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتابٍ معيَّنٍ واحد، بل هذا[1] يتضمَّن الإيمان بالتَّوراة والإنجيل والقرآن وكلِّ ما أنزله الله من كتاب.

كما قال في سورة الشورىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، فأمره الله تعالىٰ أن يؤمن بكلِّ ما أنزله الله من كتاب، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالتُه.

---

(١) (و): «بل وهذا». وهو سائغ، والمثبت أفصح.

كما قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكلُّ من بلغه القرآن فهو مخاطبٌ به يتناوله خطاب القرآن(١)، وفي الصَّحيحين(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «بلِّغوا عنِّي ولو آية».

وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي القراءة الأخرىٰ ﴿وكتابه وَرُسُلِهِۦ﴾(٣)، وكلا القراءتين موافقةٌ للأخرىٰ(٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: فاختلفوا بعد ذلك، كما قال في السورة الأخرىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْ﴾ [يونس: ١٩].

فلما اختلف بنو آدم بعث الله(٥) النبيِّين مبشِّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب، وذلك يتناول كلَّ كتابٍ أنزله الله؛ ليحكم الله ويحكم كتابه بين النَّاس بالحقِّ، فالحاكم بين النَّاس هو الله تعالىٰ، وحكمُه في كتبه المنزَّلة؛ فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في شيءٍ أن يردُّوه إلىٰ الله والرَّسول، والردُّ إلىٰ الله هو الردُّ إلىٰ كتابه؛ فأمرهم بالردِّ إلىٰ كتابه ورسوله.

وقد ذمَّ تعالىٰ من لم يتحاكم إلىٰ كتابه ورسوله، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى

---

(١) قوله: «فكل من بلغه» إلىٰ هنا وقع متأخرًا بعد الحديث في (د، ع، ي).
(٢) تقدم تخريجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وهو من أفراد البخاري كما في «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣/ ٤٤٠).
(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (١٩٥)، و«حجة القراءات» (١٥٢).
(٤) (ع، ي، د): «الأخرىٰ».
(٥) لم يثبت لفظ الجلالة في ط. العاصمة.

﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

فقد تبين أن الرُّسل الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] يتناول الرُّسل الذين أرسلهم الله تعالىٰ كلَّهم، ومِن أحقِّهم بذلك الرُّسلُ الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلىٰ عباده، فظهر بطلان قولهم: إنهم الحواريُّون.

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥]، فذكر أنه أنزل الحديد أيضًا؛ ليتبيَّن من يجاهد في سبيل الله بالحديد. والنَّصارىٰ يزعمون أن الحواريِّين والنَّصارىٰ لم يؤمروا بقتال أحدٍ بالحديد[1].

---

(١) انظر: إنجيل متىٰ (٥: ٣٨-٤٤).



الوجه الرابع: أنه قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٦، ٢٧]، وإخباره بإرسال نوحٍ وإبراهيم بعد قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ وبيان ما اختصَّ به الخاصُّ من الأحكام التي امتاز بها عن غيره ممَّا دخل في العامِّ، كما يأمر السلطانُ العسكرَ بالجهاد، ويأمر فلانًا وفلانًا بأن يفعلوا كذا وكذا، ومثل أن يقال: أرسل رسله إلىٰ فلانٍ وفلان[1]، وأرسل إليهم فلانًا وأمره بكذا وكذا.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، فنوحٌ هو أبو الآدميِّين الذين حَدَثوا بعد الطُّوفان؛ فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السَّفينة، وقال في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريَّته، كما قال تعالىٰ في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم، وأنه جعل في ذريتهما النبوَّة والكتاب: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فأخبر أنه قفَّىٰ علىٰ آثارهم برسله، وقفَّىٰ بعيسىٰ بن مريم وآتاه الإنجيل،

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

وهؤلاء رسلٌ قبل المسيح، وآخرهم المسيح، ولم يذكر أنه أرسل أحدًا من أتباع المسيح، بل أخبر أنه جعل في قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمة، فكيف يجوز أن يقال: إن مراده بالرُّسل الذين أرسلهم بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان هم الحواريُّون دون الرُّسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح؟!

الوجه الخامس: أنه ليس في القرآن آيةٌ تنطق بأن الحواريِّين رسلُ الله[1]، بل[2] ولا صرَّح في القرآن بأنه أرسلهم، لكن قال في سورة يس: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

---

(١) ط. النيل: «هم رسل الله».

(٢) ليست في (ي).

فهذا كلام الله ليس فيه ذكرُ أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريِّين، ولا أن الذين أُرسِلوا[1] إليهم آمنوا بهم، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أُرسِل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون.

وقد ذكر طائفةٌ من المفسِّرين أن هؤلاء كانوا من الحواريِّين، وأن القرية أنطاكِيَة، وأن هذا الرَّجل[2] اسمه حبيب النَّجَّار، ثم إن بعضهم يقول: إن المسيح أرسلهم في حياته[3]، لكن المعروف عند النَّصارىٰ أن أهل أنطاكِيَة آمنوا بالحواريِّين واتَّبعوهم[4]، لم يهلك الله أهل أنطاكِيَة، والقرآن يدلُّ علىٰ أن الله أهلك قوم هذا الرَّجل الذي آمن بالرُّسل.

وأيضًا، فالنَّصارىٰ يقولون: إنما جاءوا إلىٰ أهل أنطاكِيَة بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث، قيل: أحدهما شمعون الصَّفا، والآخر بولص[5]. ويقولون: إن أهل أنطاكِيَة آمنوا بهم. ولا يذكرون حبيب

---

(١) (د، ع): «أرسل».

(٢) الذي جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ، كما تقدم (١/ ٣١٢).

(٣) قدَّمه ابن جرير في التفسير (١٩/ ٤١٢)، وأخَّره في التاريخ (٢/ ١٩)، ورواه فيهما عن قتادة. ورواه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٣٣٤). وحكاه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/ ٢٦٠) عن «العلماء بأخبار الأنبياء». وعليه أكثر المفسرين، قال ابن كثير (٦/ ٥٧٣): «وهو الذي لم يَذكر غيرُ واحدٍ من متأخري المفسرين غيرَه». وانظر: «البسيط» (١٨/ ٤٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧)، و«معالم التنزيل» (٧/ ١٠)، و«مفاتيح الغيب» (٢٦/ ٢٦٠).

(٤) انظر: سِفر أعمال الرسل (١١: ٢٦).

(٥) في سِفر أعمال الرسل (١١: ٢٥) أن اللذين ذهبا إلىٰ أنطاكية هما: برنابا، وشاول. وانظر: «التحرير والتنوير» (٢٢/ ٣٥٩). وفي تسميتهم خلافٌ في المصادر. وذكر أبو عبيد البكري في «المسالك والممالك» (١/ ١٤٢) أسماءهم بالسريانية والرومية. وفيما حكاه الثعلبي (٢٢/ ٢٦١) عن العلماء بأخبار الأنبياء أن شمعون الصفا هو الثالث وهو الذي دعا الله.

النَّجَّار، ولا مجيء رجلٍ من أقصىٰ المدينة، بل يقولون: إن شمعون وبولص دعوا الله حتىٰ أحيا ابن المَلِك.

فالأمر المنقول عند النَّصارىٰ أن هؤلاء الرُّسل[1] المذكورون[2] في القرآن ليسوا من الحواريِّين، وهذا أصحُّ القولين عند علماء المسلمين وأئمَّة المفسِّرين[3]، ذكروا[4] أن الرُّسل[5] المذكورين في القرآن في سورة «يس» ليسوا من الحواريِّين، بل كانوا قبل المسيح، وسمَّوهم بأسماءٍ غير أسماء[6] الحواريِّين، كما ذكر محمَّد بن إسحاق.

قال سلمة بن الفضل: كان من حديث صاحب «يس» فيما حدَّثني محمَّد بن إسحاق، عن ابن عباس، وعن كعب، وعن وهب بن منبه: أنه كان رجلًا من أهل أنطاكِيَة، وكان اسمه حبيبًا، وكان يعمل الحرير[7]، وكان رجلًا سقيمًا قد أسرع فيه الجُذَام، وكان منزله عند بابٍ من أبواب المدينة يُتَاجِر[8]، وكان مؤمنًا ذا صدقةٍ، يجمع كسبَه إذا أمسىٰ -فيما يذكرون- فيقسمه نصفين، فيطعِم نصفَه عياله ويتصدَّق بنصفه، وكان بالمدينة التي هو بها -مدينة أنطاكِيَة- فرعونٌ من

---

(١) ليست في (و، ي).
(٢) ط. النيل: «المذكورين»، وهي الجادة.
(٣) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ١١): «وهو ظاهر القرآن»، ومال إليه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٧/ ٢٣٩)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (١٨/ ٨٢)، ونصره ابن كثير (٦/ ٥٧٣).
(٤) (و، ي): «وذكروا».
(٥) ليست في (و، ي).
(٦) ليست في (و).
(٧) ط. النيل: «بالحرث». وفي بعض أصول تفسير ابن جرير: «الجرير» بالمعجمة، ووقع تفسيرها بالحِبَال إدراجًا عند ابن كثير. وعن السُّدي: «أنه كان قصَّارًا»، وهو مبيِّض الثياب. وقيل: كان إسكافًا. وقيل: كان حرَّاثًا.
(٨) ط. النيل: «يتأجر». وعند ابن جرير: «قاصيًا»، وهو أقرب للفظ الآية.

الفراعنة يقال له: أنطخس بن أنطخس[1]، يعبد الأصنام، صاحب شركٍ، فبعث الله إليه المرسلين، وهم ثلاثة: صادق، وصدوق، وشلوم[2]، فقدَّم الله إليه وإلىٰ أهل المدينة منهم اثنين، فكذَّبوهما، ثم عزَّز الله بالثالث[3].

وروىٰ الرَّبيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾: لكي تكون الحجَّة عليهم أشدَّ، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلىٰ الله وحده وعبادته لا شريك له، فكذَّبوهم، فأتوا علىٰ رجلٍ في ناحية القرية في زرعٍ له، فسألهم الرَّجل: ما أنتم؟ قالوا: نحن رسل ربِّ العالمين، أرسلنا إلىٰ أهل هذه القرية ندعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، قال لهم: أتسألون علىٰ ذلك أجرًا؟ قالوا: لا، قال: فألقىٰ ما في يده، ثم أتىٰ أهل المدينة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4].

وهذا القول هو الصَّواب[5]، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلًا لله قبل المسيح، وإن كانوا[6] قد أُرسِلوا إلىٰ أنطاكِيَة وآمن بهم حبيب النَّجَّار فهم كانوا قبل المسيح، ولم تؤمن أهل القرية[7] بالرُّسل، بل أهلكهم الله تعالىٰ، كما أخبر في القرآن، ثم بعد هذا عمِّرت أنطاكِيَة، وكان أهلها مشركين، حتىٰ جاءهم من جاءهم من الحواريِّين، فآمنوا بالمسيح علىٰ أيديهم، ودخلوا دين المسيح.

---

(١) اضطربت المصادر وأصولها في رسم هذا الاسم: «أبطيحس، أنطبخس، أنطيخس».

(٢) (د، ي، ع): «سلوم» بالمهملة. وكذلك اختلفت المصادر.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٩/ ٤١٤، ٤١٩)، والتاريخ (٢/ ١٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٣٣٥).

(٥) انظر: «جامع الرسائل» (١/ ٦٥- ٦٦).

(٦) (و): «وأنهم كانوا». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٧) (و): «المدينة».

ويقال: إن أنطاكِيَة أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، وذلك بعد رفعه إلىٰ السَّماء، ولكن ظنَّ من ظنَّ من المفسِّرين أن المذكورين في القرآن هم رسلُ المسيح، وهم من الحواريِّين.

وهذا[2] غلطٌ؛ لوجوه[3]:

منها: أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرُّسل، وأهلُ أنطاكِيَة لمَّا جاءهم من دعاهم إلىٰ دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا.

ومنها: أن الرُّسل في القرآن ثلاثة، وجاءهم رجلٌ من أقصىٰ[4] المدينة يسعىٰ، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين، ولم يأتهم رجلٌ يسعىٰ لا حبيبٌ ولا غيره.

ومنها: أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح، فلم يكن الله أرسلهم.

وهذا كما أن الله ذكر في القرآن أنه أهلك أهل[5] مَدْيَن بالظُّلَّة لمَّا جاءهم شعيب، وذكر في القرآن أن موسىٰ أتاها وتزوَّج ببنت واحدٍ منها، فظنَّ بعض النَّاس أنه شعيبٌ النبيُّ ﷺ، وهذا غلطٌ عند علماء المسلمين، مثل ابن عباس والحسن البصري وابن جريج وغيرهم، كلُّهم ذكروا أن الذي صاهره موسىٰ ليس هو شعيبًا النبيَّ ﷺ[6]، وحُكِي أنه شعيبٌ عمَّن لا يُعْرَف[7]، ولم يثبت

---

(١) في سِفر أعمال الرسل (١١: ٢٦): «ودُعِي التلاميذ مسيحيِّين في أنطاكية أولًا».

(٢) (د، ي، ع): «فهذا».

(٣) ذكر بعضها ابن كثير في التفسير (٦/ ٥٧٣).

(٤) (د، ي، ع): «أهل».

(٥) ليست في (و).

(٦) آثارهم في «الدر المنثور» (١١/ ٤٥٤، ٤٥٥).

(٧) زادت (و): «من العلماء». وممن ذهب إليه مقاتل وطائفة من المؤرخين والمفسرين، وروي في حديث مرفوع لا يثبت، أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٧٠). انظر: تفسير مقاتل (٣/ ٣٤١)، و«المحبَّر» لابن حبيب (٣٨٩)، وتفسير ابن جرير (١٨/ ٢٢٣)، وتاريخه =

ذلك[1] عن أحدٍ من الصَّحابة والتَّابعين، كما قد بسطناه في موضعٍ آخر[2].

وأهل الكتاب يُقِرُّون بأن الذي صاهره موسىٰ ليس هو شعيبًا، بل رجلٌ من أهل مدين. ومنهم من يقول: إنها غير مدين التي أهلك الله أهلها، والله أعلم.

وكذلك ذكر المفسِّرون في «المرسلين»، هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسيح؟ قولين: **أحدهما**: أن الله هو الذي أرسلهم.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: وهذا ظاهر القرآن، وهو مرويٌّ عن ابن عباس، وكعب، ووهب بن منبه[3].

قال: وقال: المفسِّرون في قوله: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٢٩]: أخذ جبريل بعِضَادَتَي باب المدينة، ثم صاح[4] بهم صيحةً واحدة، فإذا هم ميِّتون[5] لا يُسْمَع لهم حِسٌّ، كالنَّار إذا أطفئت، وذلك قوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾، أي:

= (١/ ١٦٧)، و«زاد المسير» (٦/ ٢١٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٢٣٠)، وتاريخه (٢/ ٤٧)، و«الدر المنثور» (١١/ ٤٤٦). قال ابن جرير: «وهذا مما لا يُدْرَك علمُه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجَّته».

وإنما قال شيخ الإسلام: «وحُكِي أنه شعيبٌ عمَّن **لا يُعْرَف**» مع أنه قول مقاتل وطائفة من المؤرخين والمفسرين اعتمادًا علىٰ قول الحسن: «يقولون: إنه شعيب، وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذ»، قال شيخ الإسلام: «فالحسن يذكر أنه شعيب عمَّن **لا يُعْرَف**، ويردُّ عليهم ذلك، ويقول ليس هو شعيب». «جامع الرسائل» (١/ ٦٣).

(١) ليس في (و).

(٢) (و، ي): «في موضعه». وقد بسط ذلك المصنف في رسالة لطيفة مفردة منشورة في «جامع الرسائل» (١/ ٥٩- ٦٦). وانظر: «الانتصار لأهل الأثر» (٢٢٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٠/ ٤٢٩).

(٣) «زاد المسير» (٧/ ١١).

(٤) (و): «وصاح».

(٥) (ع): «فإذا هم خامدون أي ميتون».

ساكنون كهيئة الرَّماد الخامد[١].

ومعلومٌ عند النَّاس أن أهل أنطاكِيَة لم يُصِبهم ذلك بعد مبعث المسيح، بل آمنوا قبل أن يبدَّل دينُه، وكانوا مسلمين مؤمنين به علىٰ دينه، إلىٰ أن تبدَّل دينُه بعد ذلك.

وممَّا يبيِّن ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التَّوراة لم يهلك الله مكذِّبي الأمم بعذابٍ سماويٍّ[٢] يعمُّهم[٣]، كما أهلك قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وفرعون وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفَّار، كما أمر بني إسرائيل علىٰ لسان موسىٰ بقتال الجبابرة. وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذابٍ من السَّماء، فدلَّ ذلك علىٰ أن هؤلاء الرُّسل[٤] المذكورين في «يس» كانوا قبل موسىٰ عليه السلام.

وأيضًا، فإن الله لم يذكر في القرآن رسولًا أرسله غيرُه[٥]، وإنما ذكر الرُّسل الذين أرسلهم هو.

وأيضًا، فإنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، فأخبر أنه أرسلهم، كما أخبر أنه أرسل نوحًا وموسىٰ وغيرهما، وفي الآية: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ [يس: ١٥]، ومثل هذا هو

---

(١) «زاد المسير» (٧/ ١٤).

(٢) (و): «بعذاب من السماء».

(٣) وهو عذاب الاستئصال. انظر: «النبوات» (١/ ٢٠٩)، و«جامع الرسائل» (٢/ ٣٣٦)، وما سيأتي (٤/ ٥٣٧).

(٤) ليست في (و).

(٥) غير الله عز وجل.



خطابُ المشركين لمن قال: إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي، لا لمن[1] جاء رسولًا من عند رسول. وقد قال بعد هذا: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وهذا إنما هو في الرُّسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله.

وأيضًا، فإن الله ضرب هذا مثلًا لمن أرسل إليه محمَّدًا ﷺ، يحذِّرهم أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء. ومحمَّدٌ إنما يُضْرَب له المثلُ برسولٍ نظيره، لا بمن أصحابه أفضلُ منهم؛ فإن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا أفضل من الحواريِّين باتفاق علماء المسلمين. ولم يبعث الله بعد المسيح رسولًا، بل جعل ذلك الزمان زمان فترة؛ لقوله[2]: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩].

وأيضًا، فإنه قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: ١٤، ١٥]، ولو كانوا رُسُلَ رسولٍ لكان التكذيبُ لمن أرسلهم، ولم يكن في قولهم: «إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا» شبهة؛ فإن أحدًا لا ينكر أن يكون رسلُ رسلِ الله بشرًا، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشرًا.

وأيضًا، فلو كان التكذيبُ لهما وهما رسلُ الرّسول لأمكنهما أن يقولا: فأرسِلوا إلىٰ من أرسلَنا أو إلىٰ أصحابه؛ فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه. بخلاف ما إذا كانا رسل الله.

---

(١) (ع، د، ي): «من».

(٢) (ي): «كقوله». وهو خطأ، وأثبتته ط. النيل والعاصمة.

وأيضًا، فقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٤] صريحٌ في أن الله هو المرسِل، ومن أرسلهم غيرُه إنما أرسلهم ذلك، لم يرسلهم الله، كما لا يقال لمن أرسله محمَّد بن عبد الله: إنهم رسلُ الله، فلا يقال لِدِحْيَة بن خليفة الكلبيِّ: إن الله أرسله، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن حُذَافة، وأمثالهما ممَّن أرسلهم الرَّسول، وذلك أن النبيَّ ﷺ أرسل رسله إلىٰ ملوك الأرض، كما أرسل دِحْيَة بن خليفة إلىٰ قيصر، وأرسل عبد الله بن حُذَافة إلىٰ كسرىٰ، وأرسل حاطبَ بن أبي بلتعة إلىٰ المُقَوقس، كما تقدَّم ذكر ذلك(١).

ومعلومٌ أنه لا يقال في هؤلاء: إن الله أرسلهم، ولا يُسَمَّون عند المسلمين «رسل الله»، ولا يجوز باتِّفاق المسلمين أن يقال: هؤلاء داخلون في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فإذا كانت رسلُ محمَّدٍ ﷺ لم يتناولهم اسمُ «رسل الله» في الكتاب الذي جاء به، فكيف يجوز أن يقال: إن هذا الاسم يتناول رسلَ رسولٍ غيره؟!

والمقصود هنا بيان معاني القرآن، وما أراده الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٣، ١٤]، هل مراد الله ورسوله محمَّدٍ ﷺ مَن أرسلهم الله أو من أرسلهم رسوله؟ وقد عُلِم يقينًا أن محمَّدًا ﷺ لم يدخل في مثل هذا، فمن قال: إن محمَّدًا ﷺ أراد بذلك من أرسله رسولٌ فقد كذب علىٰ محمَّدٍ ﷺ عمدًا أو خطأً.

---

(١) (١/ ١٣٠-١٦٦).

فصل

وقد تبيَّن بما ذكرناه فساد قولهم في تفسير آية البقرة، فإنهم قالوا: «وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]».

قالوا: «فأعنىٰ بقوله: أنبياءه المبشِّرين ورسله، ينحو بذلك عن[1] الحواريِّين الذين داروا في سبعة أقاليم العالم، وبشَّروا بالكتاب الواحد[2] الذي هو الإنجيل الطاهر؛ لأنه لو كان أعنىٰ عن إبراهيم وموسىٰ وداود ومحمَّد لكان قال: ومعهم الكتب؛ لأن كل واحدٍ منهم جاء بكتابٍ دون غيره، ولم يقل: إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتىٰ جماعةٌ مبشِّرين بكتابٍ واحدٍ غير الحواريِّين الذين أتوا بالإنجيل الطَّاهر»[3].

فيقال لهم: قد تقدَّم بعض ما يدلُّ علىٰ فساد هذا التَّفسير[4].

وأيضًا، فإنه قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، والحواريُّون ليسوا من النبيِّين، وإن كان المسيحُ أرسلهم، ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء، كمن أرسلهم موسىٰ ومحمَّدٌ وغيرهما، ولهذا تسمِّيهم عامة النَّصارىٰ «رسلًا» ولا يسمُّونهم «أنبياء».

وأيضًا، فإنه قال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والحواريُّون لم ينزل معهم الكتاب، إنما أُنزِل الكتابُ مع المسيح، ولكن الأنبياء أُنزِل معهم جنسُ الكتاب؛ فإن الكتاب اسمُ جنس، فيدخل فيه الكتب المنزَّلة كلها، كما في قوله:

---

(١) كذا في الأصول. وتقدم النص (١/ ٤١٢) بدون «عن».

(٢) ساقطة من ط. العاصمة.

(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥). وقد تقدم (١/ ٤١٢).

(٤) (١/ ٤١٣-٤٣٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وكتابه وَرُسُلِهِۦ﴾(١)، وكذلك قوله عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وكتابه﴾(٢).

وأيضًا، قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالىٰ في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]، وهذا يدلُّ أنه لمَّا اختلفت بنو آدم بعث الله النبيِّين، وكان اختلافهم(٣) قبل المسيح، بل قبل موسىٰ، بل قبل الخليل، بل قبل نوح، كما قال ابن عباس: «كان بين آدم ونوح عشرةُ قرونٍ كلُّهم علىٰ الإسلام، ثم حدث فيهم الشِّرك»(٤).

والاختلافُ علىٰ وجهين:

* تارةً يختلفون، فيؤمن بعضهم، ويكفر بعضهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] يعني أهل الإيمان والكفر.

---

(١) من قوله: «وفي القراءة» إلىٰ هنا ليس في (و).

(٢) قرأ بالأولىٰ حمزة والكسائي، وبالثانية عامة القراء غير أبي عمرو وحفص عن عاصم. انظر: «السبعة» (١٩٥)، و«حجة القراءات» (٧١٥).

(٣) (و): «واختلافهم كان».

(٤) أخرجه ابن جرير (٣/ ٦٢١)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٨٠) ولم يتعقبه الذهبي، وثبته شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (٥/ ٢٥٧).

* وقد يكون المختلفون كلُّهم علىٰ باطل، كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وأيضًا، فالإنجيل ليس فيه حكمٌ بين النَّاس فيما اختلفوا فيه، بل عامَّته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح، بخلاف التَّوراة والقرآن، فإن فيهما من الحكم بين النَّاس فيما اختلفوا فيه ما ليس في الإنجيل.

وأيضًا، فإنه قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وذلك يقتضي أن الله هدىٰ الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغيًا بينهم لما اختلفوا فيه من الحقِّ، وهذا ذمٌّ لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا، والنَّصارىٰ داخلون في هذا الذَّمِّ، ولو كان المراد الإنجيل لكانوا(١) هم المذمومين دون غيرهم، وليس كذلك، بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضًا.

وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختَلف أولئك فيه من الحقِّ بإذنه، وهذا يتناول أمة محمَّد ﷺ قطعًا، وقد يتناول كلَّ من آمن من الأمم المتقدمة، كالذين كانوا علىٰ دين موسىٰ والمسيح وإبراهيم الخليل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

---

(١) (د، ي، ع): «كانوا».



وأمَّا أمة محمَّدٍ ﷺ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأممُ قبلهم من الحقِّ بإذنه. وهذا بيِّن؛ فإنهم على الحقِّ والعدل الوسط بين طرفي الباطل، وهذا ظاهرٌ في اتِّباعهم الحقَّ الذي اختلفت فيه اليهودُ والنَّصارىٰ في التوحيد، والأنبياء، والأخبار، والتشريع، والنَّسخ، والحلال والحرام، والتصديق والتكذيب، وغير ذلك[1].

أمَّا التوحيد، فإن اليهود شبَّهوا الخالق بالمخلوق، فوصفوا الرَّبَّ سبحانه بصفات النَّقص الذي يختصُّ بها المخلوق، فقالوا: إنه فقير[2]، وبخيل، وإنه يَتْعَبُ، وغير ذلك.

والنَّصارىٰ وصفوا المخلوق بصفات الخالق، صفاتِ الكمال التي[3] يختصُّ بها الخالق، فقالوا عن المسيح: إنه خالق السَّماوات والأرض، القديم الأزليُّ، علَّام الغيوب، القادر علىٰ كلِّ شيء، و﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية[4] [التوبة: ٣١].

والمسلمون هداهم الله لما اختُلِف[5] فيه من الحقِّ، فلم يشبِّهوا الخالق بالمخلوق، ولا المخلوق بالخالق، بل أثبتوا لله ما يستحقُّه من صفات الكمال، ونزَّهوه عن النقائص، وأقرُّوا بأنه أحدٌ ليس كمثله شيء، وليس له كفوًا أحدٌ في شيء من صفات الكمال، فنزَّهوه عن النقائص خلافًا لليهود[6]، وعن مماثلة المخلوق له خلافًا للنَّصارىٰ.

---

(١) (و): «وغير ذلك من التصديق والتكذيب».
(٢) (و): «إن الله فقير».
(٣) (و): «الذي».
(٤) ليست في (ي، د).
(٥) (و): «اختلفوا».
(٦) (و): «خلاف اليهود».

وأمَّا الأنبياء عليهم السَّلام، فإن اليهود قتلوا بعضًا وكذَّبوا بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والنَّصارىٰ أشركوا بهم وبمن هو دونهم، فعبدوا المسيح، بل اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وجعلوا الحواريِّين رسلًا لله، وزعموا أن الإنسان يصير بطاعته[1] بمنزلة الأنبياء، وصوَّروا تماثيل الأنبياء والصَّالحين وصاروا يدعونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم، وإذا مات فيهم الرَّجلُ الصَّالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا وصوَّروا فيه تماثيلهم.

وفي الصَّحيحين[2] أن النبيَّ ﷺ ذُكِر له كنيسةٌ بأرض الحبشة، وذُكِر مِن حُسْنِها وتصاوير فيها، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرَّجلُ الصَّالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك التَّصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**».

وأمَّا المسلمون، فهداهم الله لما اختُلِف فيه من الحقِّ بإذنه، فآمنوا بأنبياء الله كلِّهم، ولم يفرِّقوا بين أحدٍ منهم، ولم يَغْلُوا فيهم غلوَّ النَّصارىٰ، ولا قصَّروا في حقِّهم تقصيرَ اليهود.

وكذلك قَتَل اليهودُ الذين يأمرون بالقسط من النَّاس، والنَّصارىٰ يطيعون من يأمر بالشِّرك و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ويطيعون من يحرِّم الحلال ويحلِّل الحرام، والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله.

---

(١) (ي، د، ع): «بطاعته يصير».

(٢) صحيح البخاري (٤٢٧) ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والنَّصارىٰ فيهم الشِّرك بالله، واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله، كما قال تعالىٰ في النَّصارىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

والإسلام هو أن يستسلم العبدُ لله وحده، فيعبده وحده بما أمره به، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، والله لا يغفر أن يُشْرَك به، ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممَّن قيل فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

فلهذا كان جميعُ الأنبياء وأممهم مسلمين لله، يعبدونه وحده بما أمرهم به، وإن تنوَّعت شرائعهم، فالمسيح لم يزل مسلمًا لمَّا كان متَّبعًا لشرع التَّوراة ولمَّا نسَخ الله له ما نسخه[1] منها، ومحمَّدٌ ﷺ لم يزل مسلمًا لمَّا كان يصلِّي إلىٰ بيت المقدس، ثم لمَّا صلىٰ إلىٰ الكعبة، ولمَّا بعثه الله إلىٰ الخلق كانوا كلُّهم مأمورين بطاعته، وكانت عبادة الله طاعته، فمن لم يطعه لم يكن عابدًا لله، فلم يكن مسلمًا.

وأمَّا التَّشريع، فإن اليهود زعموا أن ما أمر[2] الله به يمتنعُ منه أن ينسَخه، والنَّصارىٰ زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه، فهدىٰ الله المؤمنين لما اختُلِف[3] فيه من الحقِّ، فقالوا: إن الله سبحانه له أن ينسخ ما

(١) ط. العاصمة: «نسخ الله له نسخة». وهو خطأ مخالف للأصول.
(٢) (ع، د، ي): «أمره».
(٣) (و): «اختلفوا».

شَرَعه خلافًا لليهود، وليس للمخلوق[1] أن يغيِّر شيئًا من شرع الخالق خلافًا للنَّصارىٰ.

وأمَّا الحلال والحرام، والطَّهارة والنجاسة، فإن اليهود حُرِّمت عليهم الطَّيِّبات، وشُدِّد عليهم في أمر[2] النجاسات، فمُنِعوا[3] من مؤاكلة الحائض والجلوس معها في بيتٍ، ومن إزالة النجاسة، وحُرِّم عليهم شحمُ الثَّرْب[4] والكُليتين وكلُّ ذي ظُفرٍ وغير ذلك[5].

والمسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أحلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، فقابلهم النَّصارىٰ، فقالوا: ليس شيءٌ محرَّمٌ لا الخنزير ولا غيره، بل ولا شيء نجس، لا البول ولا غيره، وزعموا أن بعض أكابرهم رأىٰ مُلاءةً[6] صُوِّر له فيها صورُ الحيوان وقيل له: كُل ما طابت نفسُك ودع ما تكره، وأنه أبيح لهم جميعُ الحيوان، ونَسَخوا شرع التَّوراة بمجرَّد ذلك[7]، فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسُهم، والحرام عندهم ما كرهته أنفسُهم[8].

فهدىٰ الله الذين آمنوا لما اختُلِف فيه من الحقِّ، فأحلَّ الله لهم الطَّيِّبات، وحرَّم عليهم الخبائث، وأزال عنهم الآصار والأغلال التي كانت علىٰ بني إسرائيل خلافًا لليهود، وأمرهم بالطَّهارة -طهارة الحَدَث والخَبَث- خلافًا للنَّصارىٰ.

---

(١) (د، ع): «لمخلوق»، (ي): «المخلوق».
(٢) (و): «وشددت عليهم من أمر». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.
(٣) (و): «حتىٰ منعوا».
(٤) وهو شحمٌ رقيقٌ يغشي الكرش والأمعاء. «التاج» (ثرب).
(٥) قيل: إن المحرمات عليهم ثلاثمئة وستون نوعًا. «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٧٢).
(٦) وهي الملحفة تكون من ثوب رقيق. «المعجم الوسيط» (ريط، لحف، ملأ).
(٧) من قوله: «وأنه أبيح لهم» إلىٰ هنا ليس في (و).
(٨) ليست في (و).

والمسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جعلته اليهودُ ولد زنًا كذَّابًا ساحرًا، وجعلته النَّصارىٰ هو الله خالق السَّماوات والأرض، فهدىٰ الله الذين آمنوا لما اختُلِف[1] فيه من الحقِّ بإذنه، فشهدوا أنه عبدُ الله مخلوقٌ خلافًا للنَّصارىٰ، وأنه رسولُ الله[2] وجيهٌ في الدُّنيا والآخرة ومن المقرَّبين خلافًا لليهود.

وأمَّا التَّصديق والتَّكذيب، فإن اليهود من شأنهم التَّكذيب بالحقِّ، والنَّصارىٰ من شأنهم التصديق بالباطل؛ فإن اليهود كذَّبوا من كذَّبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، والنَّصارىٰ يصدِّقون بمُحَالات العقول والشَّرائع، كما صدَّقوا بالتَّثليث والاتِّحاد ونحوهما من الممتنعات.

---

(١) (و): «اختلفوا».

(٢) ليس في ط. العاصمة.

فصل

ثم[1] قالوا عن القرآن: إنه شهد[2] لهم أنهم أنصار الله، حيث يقول: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ[3] مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤][4].

فيقال: هذا حقٌّ، والحواريُّون مؤمنون مسلمون، وهم أنصار الله، لكن ليس في هذا أنهم رسلُ الله، ولا في هذا أنَّ كلَّ ما أنتم عليه من الدِّين مأخوذٌ عنهم، ولا في هذا أنَّ الواحد من الحواريِّين معصومٌ من الغلط.

بل أمر[5] الله المؤمنين من أمَّة محمَّدٍ ﷺ أن يكونوا أنصار الله، كما طلب المسيحُ ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وقد وصف الله المؤمنين أصحابَ النبيِّ[6] ﷺ من أهل المدينة النَّبويَّة بأنهم أنصارٌ[7] بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، والمهاجرون

---

(١) ليست في (ي، د، ع).
(٢) (و): «يشهد».
(٣) ساقطة من (و، ي).
(٤) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥). ولم تحسن ط. العاصمة قراءة هذا الموضع.
(٥) (د، ع): «يأمر».
(٦) (ي): «من أصحاب النبي».
(٧) (و): «أنصار الله».

أفضل من الأنصار[1]، وهم أيضًا من أنصار الله، نصروه كما نصره الأنصار، لكن لمَّا كان لهم اسمٌ يخصُّهم وهو «المهاجرون» وهو أفضل الاسمين خصَّ الأنصار بهذا الاسم.

والمهاجرون والأنصار أفضلُ ممَّن آمن بموسىٰ ومن آمن بعيسىٰ عند المسلمين، ومع هذا فليس فيهم عندهم نبيٌّ ولا رسولٌ لله، ولكن فيهم رسلُ رسول الله ﷺ تسليمًا.

(١) انظر: «منهاج السنة» (٧/ ١٥٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ١٣٢، ١٦/ ١٩١).

فصل

قالوا: «وأمَّا تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا[1]، فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ[2] ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال في سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

وقال في سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]، فأعنىٰ بالكتاب الإنجيلَ، و﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ نحن النَّصارىٰ الذين آمنَّا بالمسيح وما رأيناه، ثم أتبع بالقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فأعنىٰ بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتىٰ به وما أتىٰ من قبله.

وقال في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى[3] وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧]، وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، فأعنىٰ أيضًا بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدَّس.

---

(١) (و): «بأيدينا».

(٢) في الأصول: «ثم أنزلنا عليك». وهو خطأ في أصل رسالة بولس، كما سينبه المصنف إلىٰ ذلك، ولم أستجز إثبات لفظ الآية المحرَّف.

(٣) سقط من ط. العاصمة من أول الآية إلىٰ هنا.

وقال أيضًا: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

فثبت بهذا ما معنا. ونفىٰ عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التُّهم والتَّبديل[١] والتَّغيير لما فيها بتصديقه إيَّاها»[٢].

والجوابُ -بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولىٰ في[٣] سورة المائدة ﴿وَأَنزَلْنَآ[٤] إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾- أن يقال:

أمَّا تصديقُ خاتم الرُّسل محمَّدٍ[٥] ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب، ولمن جاء قبله من الأنبياء، فهذا معلومٌ بالاضطرار من دينه، متواترًا تواترًا ظاهرًا، كتواتر إرساله إلىٰ الخلق كلهم.

وهذا من أصول الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ

---

(١) رسالة بولس: «بالتبديل». وهو أجود.
(٢) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).
(٣) ط. العاصمة: «من»، خلاف الأصول.
(٤) الأصول: «ثم أنزلنا»، سها عن إصلاح هذه، وأصلح كلمة «إليك».
(٥) (و): «محمد رسول الله».

أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٤ - ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

وتصديقُه للتَّوراة والإنجيل مذكورٌ في مواضع من القرآن، وقد قال: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [يوسف: ٣].

فبيَّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمنًا علىٰ ما بين يديه من الكتب، والمهيمنُ: الشَّاهد المؤتمَن الحاكم، يشهدُ[1] بما فيها من الحقِّ، وينفي[2] ما حُرِّف فيها، ويحكم بإقرار ما أقرَّه الله من أحكامها، وينسَخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمنٌ في ذلك عليها.

وأخبر أنه أحسنُ الحديث، وأحسنُ القصص، وهذا يتضمَّن أنه[3] كلُّ من كان متمسِّكًا بالتَّوراة قبل النَّسخ من غير تبديل شيءٍ من أحكامها فإنه من أهل الإيمان والهدىٰ، وكذلك من كان متمسِّكًا بالإنجيل من غير تبديل شيءٍ من أحكامه قبل النَّسخ فهو من أهل الإيمان والهدىٰ، وليس في ذلك مدحٌ لمن تمسَّك بشرعٍ مبدَّل، فضلًا عمَّن تمسَّك بشرعٍ مبدَّلٍ[4] منسوخٍ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرُّسل وما أنزل إليه من الكتب، بل قد بيَّن سبحانه كفر اليهود والنَّصارىٰ بتبديل الكتاب الأوَّل وبترك الإيمان بمحمَّد ﷺ في غير موضع.

وأمَّا تأويلهم قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أنه الإنجيل، وأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عنىٰ بهم النَّصارىٰ، فهو من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله، كما فعلوه في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] أي بإذن اللاهوت[5]، وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وفي غير ذلك ممَّا ذكروه وتأوَّلوه من القرآن علىٰ غير المعنىٰ الذي أراد الله به.

---

(١) (د، ع): «فشهد».
(٢) ط. النيل: «ويبين»، وفي طرة (د، ع) إشارة إلىٰ أنها في نسخة.
(٣) كذا في الأصول.
(٤) ساقطة من ط. العاصمة.
(٥) (و): «أي باللاهوت».

وهذا ممَّا يؤيِّد أنهم فعلوا كذلك بالتَّوراة والإنجيل؛ فإنه إذا كان القرآن الذي قد عَرَف تفسيره والمرادَ به العامُّ والخاصُّ، ونُقِل ذلك عن الرَّسول نقلًا متواترًا حتىٰ عُرِف معناه علمًا يقينيًّا[1] اضطراريًّا، فيبدِّلون معناه، ويحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتَّوراة والإنجيل ولم يُنْقَل لفظُ ذلك ومعناه كما نُقِل القرآن، وليس في أهل تلك الكتب ممَّن[2] يذبُّ عن لفظها ومعناها كما يذبُّ المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟!

وهؤلاء غرَّهم قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فظنُّوا أن لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لمَّا كان يشار بها إلىٰ الغائب أشير بها إلىٰ الإنجيل!

فيقال لهم: هذا كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وأشار بذلك إلىٰ ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ[3] بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ[4] ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، ومثله قوله تعالىٰ بعد أن ذكر خبر يوسف الصِّدِّيق: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال أيضًا لمَّا ذكر خبر مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، كما قال لمَّا ذكر آياتٍ يخبر

---

(١) مهملة في (و)، (ي): «يقينًا».
(٢) ط. النيل: «من». والمثبت من الأصول مستقيم.
(٣) الأصول: «سرحوهن»، وهو سهو، تلك آية البقرة: ٢٣١.
(٤) «وأقيموا الشهادة لله» ليست في الأصول.

فيها عن نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ الآية[1] [هود: ٤٩].

وقال: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١ - ٢]، و«تلك» في المؤنَّث مثل «ذلك» في المذكَّر، ومع هذا فأشار إلىٰ القرآن بها[2]، ومنه قوله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وقوله: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]، ومنه قوله: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [القصص: ١ - ٢]، ومنه قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورىٰ: ١ - ٣]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورىٰ: ٧]، وقوله: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية [الرعد: ١]، ومثل هذا كثير.

وذلك أنه لما أنزل قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، و﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ونحو ذلك، لم يكن الكتابُ المشارُ إليه قد أُنزِل تلك السَّاعة، وإنما كان قد أُنزِل قبل ذلك، فصار كالغائب الذي يشار إليه كما يشار إلىٰ الغائب.

وهو باعتبار حضوره عند النبيِّ ﷺ يشار إليه كما يشار إلىٰ الحاضر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ولهذا قال غير واحدٍ من السَّلف: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: هذا الكتاب[3]، يقولون: المراد هذا الكتاب، وإن كانت الإشارة تكون تارةً إشارة غائب، وتارةً إشارة حاضر.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) رسمها مشتبه في (د)، وليست في (ي، ع، و).

(٣) ذكر ابن جرير (١/ ٢٢٨) أنه قول «عامة المفسرين»، ورواه عن مجاهد وعكرمة وابن جريج والسُّدي.

وقد قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقد وصف النَّصارىٰ بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأنهم كافرون ظالمون، فكيف يجعلهم المتَّقين الذين يؤمنون بالغيب؟!

قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأوَّل التقوىٰ تقوىٰ الشِّرك، وقد وَصَف النَّصارىٰ بالشرك في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالىٰ لمَّا ذكر المسيح: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٧ - ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

ونهىٰ عن موالاتهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقد أخبر أن الله وليُّ المتقين، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

فلو كانوا من المتَّقين -فضلًا عن أن يكونوا هم المتَّقين- لكان الله وليَّهم، ولكانت موالاتهم واجبةً على المؤمنين، وهو قد نهى عن موالاتهم، وجعل من يتولَّاهم ظالمًا، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفَّار بعضهم أولياء بعض.

ولهذا لمَّا قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الكافرين قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**لا يَرِثُ المسلمُ الكافرَ، ولا يَرِثُ**[1] **الكافرُ المسلمَ**»[2]، واتفق المسلمون على أن اليهوديَّ والنصراني لا يرث مسلمًا ولو كان ابنه وأباه[3]؛ لأن الله قطع الموالاة بينهما، وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأيضًا، فإنه قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهي الصلاة التي أمر بها في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقد قال ﷺ: «**لا يقبل الله صلاةً بغير طهور**»[4]، والنَّصارى يُصَلُّون بغير طهور، وقال ﷺ: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**»[5]، وهم لا يقرؤونها.

---

(١) ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «الاستذكار» (١٥/ ٤٩٢)، و«الإقناع» لابن القطان (٢/ ١٠٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرج البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

والصَّلاة التي فرضها وأثنىٰ عليها مشتملةٌ علىٰ استقبال الكعبة، وعلىٰ ركوعٍ وسجدتين في كلِّ ركعة، وغير ذلك ممَّا لا يفعله النَّصارىٰ، فكيف يمدحهم بإقامة الصلاة وهم لا يقيمون الصَّلاة التي أَمَر[1] بإقامتها؟!

ثم لو قال اليهوديُّ: المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ التَّوراة، وبالمتقين اليهود، لكان هذا -مع بطلانه- أقرب من قول القائل: إن المراد بالكتاب الإنجيل؛ لأن التَّوراة أحقُّ بذلك من الإنجيل؛ فإنها الأصل، والله تعالىٰ يَقْرِن بينها وبين القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وقد قالت الجن لمَّا سمعت القرآن: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال النجاشيُّ لمَّا سمع القرآن: «إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاةٍ واحدة»[2]، وكذلك ورقةُ بن نوفل قال: «هذا هو النَّاموسُ الذي كان ينزل[3] علىٰ موسىٰ بن عمران»[4].

(١) (ع): «أمرنا».
(٢) تقدم تخريجه (١/ ١١٨) في حديث أم سلمة الطويل.
(٣) (ي): «نزل».
(٤) تقدم تخريجه (١/ ٣٨، ١٢٨، ٣٨٤).

وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوا[1] لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي: التَّوراة والقرآن، و﴿قَالُوا۟ سَٰحِرَانِ[2] تَظَٰهَرَا﴾ أي: موسىٰ ومحمَّد، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾، قال الله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]، فقد بيَّن أنه لم يأت من عند الله كتابٌ أهدىٰ من التَّوراة والقرآن.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي: الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ[3] ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٢].

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فهي صفةٌ ثانيةٌ للذين يؤمنون بالغيب، وَصَفهم بالإيمان بالغيب[4] مجملًا، ثمَّ وَصَفهم بإيمانٍ مفصَّلٍ بما أُنزِل إليه[5] وما أُنزِل من قبله.

---

(١) الأصول: «وقالوا».

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، كما سلف (١/ ٣٨).

(٣) ألحقت الجملة التفسيرية في طرة (د، ي) مختومة بالتصحيح، ووقعت في المتن بعد الآية في (ع)، وخلت منها (و)، ولم تثبتها ط. العاصمة.

(٤) «وصفهم بالإيمان بالغيب» ساقطة من ط. العاصمة.

(٥) ط. العاصمة: «إليك»، وهو خطأ مخالف للأصول.

والعطفُ بالواو يكون لتغاير الذَّوات، ويكون لتغاير الصِّفات[1]، كقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١ - ٥]، والذي خلق فسوَّىٰ هو الذي قدَّر فهدىٰ، وهو الذي أخرج المرعىٰ.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ٩ - ١٢].

ومثله[2] قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، فهم صنفٌ واحدٌ وصَفَهم[3] بهذه الصِّفات بحرف الواو.

وكذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ

---

(١) تقدم تقرير ذلك (١/ ٤٨-٤٩).

(٢) (ي): «ومثل».

(٣) (ع): «وصفهم الله».

حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٥].

وقد قيل: إنَّ قوله[١]: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب، كمشركي العرب، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ صفةُ من آمن به[٢] من أهل الكتاب[٣].

وعلىٰ هذا القول هؤلاء غير هؤلاء، لكن هذا ضعيف؛ فإنه لا بدَّ في المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أُنزِل إليه وما أُنزِل من قبله، ولا بدَّ في مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب، فكلٌّ من الإيمانين واجبٌ علىٰ كلِّ واحد، ولا يكون أحدٌ علىٰ هدًىٰ من ربِّه مفلحًا إلا بهذا وهذا.

وأمَّا قول النَّصارىٰ: «نحن الذين آمنَّا بالسَّيِّد المسيح وما رأيناه»، فهكذا اليهود آمنوا بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما رأوه، والمسلمون آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ وما رأوه، بل المسلمون آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ وسائر النبيِّين وما رأوهم، بخلاف اليهود والنَّصارىٰ الذين آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض.

---

(١) (ع): «وقد فسر قبل إن قوله». (و): «وقد فسر قوله». وكلاهما خطأ. وصُحِّح كما أثبتُّ في طرة (د، ي). وفي ط. العاصمة: «وقد فسر قبل قوله».

(٢) ليست في (ي).

(٣) يروىٰ عن ابن عباس وغيره، واختاره ابن جرير، كما مضىٰ (١/ ٤٨).

ثم «الغيب» ليس المراد به صورة النبيِّ عليه السلام؛ فإن صورة النبيِّ ليست من الغيب، فإن النَّاس يرونها، وليس في رؤيتها ما يوجب إيمانًا ولا كفرًا، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق، وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب، فيدخل فيه الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهو الإيمان بأنهم رسلُ الله، وسواءٌ رُئِيَت[1] أبدانهم أو لم تُرَ فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم، وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم. والمقصود الإيمانُ برسالتهم، لا بنفس صورهم حتىٰ يقول القائل: آمنَّا بنبيٍّ ولم نره، وقد يَعْلَم من دلائل نبوَّته وأعلام رسالته من لم يره أكثر ممَّا يعلمها من رآه.

(١) (ع): «كانت رئيت».

فصل

وأمَّا قوله في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ[1] وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧]، فهذا ثناءٌ منه على المسيح والإنجيل، وأمرٌ للنَّصارىٰ بالحكم بما أنزل فيه، كما أثنىٰ علىٰ موسىٰ والتَّوراة بأعظم ممَّا عظَّم به المسيحَ والإنجيل.

فقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قائلون للكذب، مصدِّقون مستجيبون مطيعون لقومٍ آخرين لم يأتوك، فهم مصدِّقون للكذب، مطيعون لمن[2] يخالفك وأنت رسول الله، فكلٌّ من تصديق الكذب والطَّاعة لمن خالف رسول الله ﷺ من أعظم الذُّنوب.

ولفظ «السَّمع»[3] يراد به الإحساسُ بالصَّوت، ويراد به فهمُ المعنىٰ[4]، ويراد به قبولُه، فيقال: فلانٌ سَمِعَ ما يقول فلان، أي: يصدِّقه أو يطيعُه ويقبل منه[5].

---

(١) «مصدقًا لما بين يديه من التوراة» ليست في الأصول.

(٢) ط. النيل: «لما».

(٣) ط. العاصمة: «السميع»، وهو خطأ مخالف للأصول.

(٤) في طرة (د، ع) إشارة إلىٰ أن في نسخة: «فهم الصوت».

(٥) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٨/ ٤٣٤ - ٤٣٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٢٠٨)، و«قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق» (١٣٣)، و«مفتاح دار السعادة» (٢١٨ - ٢١٩).

فقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي: مصدِّقون به، وإلا مجرَّد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذمومًا علىٰ الإطلاق.

وكذلك ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ أي: مستجيبون لهم مطيعون لهم[1]، كما قال في حقِّ المنافقين: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: مستجيبون مطيعون لهم.

ومن قال: إن المراد به الجاسوس، فهو غالطٌ كغلط من قال: ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ هم الجواسيس[2]؛ فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلىٰ من لا يعرفه، ومعلومٌ أن النبيَّ ﷺ كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كلُّ من بالمدينة مؤمنُهم ومنافقُهم، ولم يكن يَقْصِد أن يَكْتُمَ يهودَ المدينة ما يقولُه ويفعلُه، خلاف من كان يأتيه من اليهود[3] وهم يصدِّقون الكذبَ ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه[4].

والله نهىٰ نبيَّه ﷺ أن يُحْزِنَه المسارعون في الكفر من هاتين[5] الطَّائفتين: المنافقين[6] الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم، ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتَّبعوا حكمَه، بل إن حَكَم بما يَهْوَونه قبلوه، وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه؛ لكونهم مطيعين

---

(١) ليست في (و، ع).

(٢) انظر: «درء التعارض» (٥/ ٢٦٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٤/ ٤٥٢، ٢٨/ ١٩٤).

(٣) في طرة (د) إشارة إلىٰ أن في نسخة: «من يأتيهم من اليهود».

(٤) (و، ي): «ويطيعون لليهود الآخرين ويسارعون في الكفر من الذين لم يأتوه». وضرب علىٰ «ويسارعون في الكفر من» في (د).

(٥) (و، ي): «أن تحزنه هاتين».

(٦) ط. العاصمة: «المنافقتين»، وهو خطأ مخالف للأصول.

لقومٍ آخرين لم يأتوه.

قال تعالىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ[(١)]﴾ أي: لم يأتك أولئك القوم الآخرون، ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقول السَّمَّاعون: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

والحكمُ يفتقر إلىٰ الصِّدق والعدل، فلا بدَّ أن يكون الشاهدُ صادقًا والحاكمُ عادلًا، وهؤلاء يصدِّقون الكاذبين من الشُّهود[(٢)]، ويبغون[(٣)] حكمَ المخالفين للرُّسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وإذا لم يكن قصدُهم اتِّباع الصِّدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم، بل إن شئتَ فاحكم بينهم وإن شئتَ فلا تحكم، ولكن إذا حكمتَ فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك؛ إذ هو العدل.

قال تعالىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ

---

(١) «لم يأتوك» ساقطة من ط. العاصمة.

(٢) (ي، و): «اليهود».

(٣) مهملة في (ي، و). (ع): «يبتغون». وفي ط. النيل والعاصمة: «يتبعون»، وهو تحريف. يشير المصنف إلىٰ قوله تعالىٰ عن اليهود: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٢- ٤٥].

فهذا ثناؤه على التَّوراة، وإخباره أن فيها حكم الله، وأنه أنزل التَّوراة وفيها ﴿هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وقال عقب ذكرها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وهذا أعظمُ ممَّا ذكره في الإنجيل؛ فإنه قال في الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال فيه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقال في التَّوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وقال عقب ذكرها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فهو سبحانه مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التَّوراة بأعظم ممَّا يصف به الإنجيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتَّوراة لم يوجب ذلك مدحَ اليهود الذين كذَّبوا المسيح ومحمَّدًا صلى الله عليهما وسلَّم تسليمًا[1]، وليس فيه ثناءٌ

---

(١) ليست في (و).

علىٰ دين اليهود المبدَّل المنسوخ باتِّفاق المسلمين والنَّصارىٰ، فكذلك[1] أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدحُ النَّصارىٰ الذين كذَّبوا محمَّدًا ﷺ، وبدَّلوا أحكام التَّوراة والإنجيل، واتَّبعوا المبدَّل المنسوخ.

واليهود توافق المسلمين علىٰ أنه ليس فيما ذُكِر مدحٌ للنَّصارىٰ، والنَّصارىٰ توافق المسلمين علىٰ أنه ليس فيما ذُكِر مدحٌ لليهود بعد النَّسخ والتَّبديل، فعُلِم اتفاقُ أهل الملل كلِّها -المسلمين[2] واليهود والنَّصارىٰ- علىٰ أنه ليس فيما ذُكِر في القرآن من ذكر التَّوراة والإنجيل وموسىٰ وعيسىٰ مدحٌ لأهل الكتاب الذين كذَّبوا محمَّدًا ﷺ، ولا مدحٌ لدينهم المبدَّل قبل مبعثه، فليس في ذلك مدحٌ لمن تمسَّك بدينٍ مبدَّلٍ ولا بدينٍ منسوخ، فكيف بمن تمسَّك بدينٍ مبدَّلٍ منسوخ؟!

---

(١) (ي، د): «وكذلك». وأشار في طرة (د) إلىٰ أن «فكذلك» في نسخة.

(٢) (د، و، ي): «المسلمون». والمثبت من (ع) علىٰ الجادة.

فصل

وهنا[1] أصلٌ لا بدَّ من بيانه[2]، وهو أنه قد دلَّت النُّصوص علىٰ أن الله لا يعذِّب إلا من أرسَل إليه رسولًا تقوم به الحجَّة عليه.

قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالىٰ عن أهل النَّار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[3] [الملك: ٨ - ٩]، وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

(١) (د، ع): «وهذا». وفي طرة (ع) إشارة إلىٰ أن «هنا» في نسخة.

(٢) (د، ع): «ثباته».

(٣) أكملت الآية في (د، ع).

﴿ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟[(١)] رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٧ - ٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)] [المائدة: ١٥]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وإذا كان كذلك، فمعلومٌ أن الحجَّة إنما تقوم بالقرآن علىٰ من بَلَغَه؛ لقوله[(٣)]: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بَلَغَه بعضُ القرآن دون بعضٍ قامت عليه الحجَّة بما بَلَغَه دون ما لم يَبْلُغْه.

وإذا اشتبه معنىٰ بعض الآيات، وتنازع النَّاسُ في تأويل الآية، وجب ردُّ ما تنازعوا فيه إلىٰ الله ورسوله[(٤)]، فإذا اجتهد النَّاسُ في فهم ما أراده الرَّسول ﷺ فالمصيبُ له أجران والمخطئ له أجر.

---

(١) في الأصول: «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا»، وهو سهوٌ وانتقال ذهن إلىٰ الآية الأخرىٰ في سورة طه: ١٣٤.
(٢) الآية ليست في (د، ع).
(٣) (د، ع): «كقوله».
(٤) (ي، د، ع): «والرسول».

فلا يمتنع[1] أن يقال ذلك في أهل الكتاب قبلنا، فمن لم يبلغه جميعُ نصوص الكتاب قبلنا لم تقم عليه الحجَّة إلا بما بَلَغَه، وما[2] خفي عليه[3] معناه منه، فاجتهد في معرفته، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، وخطؤه محطوطٌ عنه. فأمَّا من تعمَّد تحريف الكتاب لفظِه أو معناه، وعرف ما جاء به الرَّسول فعانَدَه، فهذا مستحقٌّ للعقاب، وكذلك من فرَّط في طلب الحقِّ واتِّباعه، متبعًا لهواه، مشتغلًا عن ذلك بدنياه.

وعلىٰ هذا، فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرَّفوا بعض الكتاب، وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك، وهم[4] مجتهدون في اتِّباع ما جاء به الرَّسول = لم يجب أن يُجْعَل هؤلاء من المستوجبين للوعيد.

وإذا[5] جاز أن يكون في أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح، بل خفي عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه، فاجتهد = لم يعاقب علىٰ ما لم يَبْلُغْه.

وقد تُحْمَل أخبار اليهود الذين كانوا مع تُبَّع[6]، والذين كانوا ينتظرون

---

(١) (و): «يمنع».

(٢) (د، ع): «لم تقم عليه الحجة بما بلغه فيما».

(٣) (و، د، ع): «عليهم».

(٤) (و): «فهم». وهو خطأ.

(٥) (د، ع): «فإذا».

(٦) تُبَان أسعد أبو كَرِب، من ملوك حمير باليمن، قدم المدينة يريد قتال أهلها، فجاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة فقالا له: لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة؛ فإنها مهاجر نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره. فتناهىٰ، ورأىٰ أن لهما علمًا، وانصرف عن المدينة، وصحبهما معه، واتبعهما علىٰ دينهما. انظر: «السيرة» لابن هشام (١/ ٢٠، ٢٢).

الإيمان بمحمَّد ﷺ من أهل المدينة، كابن الهَيِّبان[1] وغيره = علىٰ هـذا، وأنهـم لم يكونوا مكذِّبين للمسيح تكذيبَ غيرهم من اليهود.

وقد تنازع النَّاس: هـل يمكـن مـع الاجتهـاد واستفراغ الوُسْع أن لا يَبِين للنَّاظر[2] المستدلِّ صدقُ الرَّسول أم لا؟ وإذا لم يَبِن[3] له ذلك هل يستحقُّ العقوبة في الآخرة أم لا يستحقُّها[4]؟

بل تنازع[5] بعض النَّاس في المقلِّد منهم أيضًا.

والكلام في مقامين:

[المقام الأول][6]: في بيان[7] خطأ المخالف للحقِّ وضلاله. وهـذا ممـا يُعْلَم بطرقٍ متعدِّدةٍ عقليَّة وسمعيَّة، وقد يُعْرَفُ الخطأ في أقوال كثيرٍ[8] من أهل القبلة المخالفين للحقِّ وغير أهل القبلة بأنواعٍ متعددة من الدَّلائل.

---

(١) أبو عمير، رجلٌ صالحٌ من يهود الشام، قدم المدينة قبل الإسلام يلتمس بعثة النبي ﷺ، فلم يدركه، وكان يبشِّر بظهوره ويحثُّ اليهود علىٰ اتباعه. انظر: «السيرة» لابن إسحاق (٨٥)، و«الطبقات» لابن سعد (١/ ١٣٤، ٥/ ٣٩٥)، وسيذكر المصنف خبره فيما يأتي. وتحرف اسمه في (ع): «الهيتاني»، وعلىٰ الصواب في (و، ي). وفي ط. النيل: «الهتيان». وغيَّره محقق ط. العاصمة إلىٰ «التيِّهان»، وترجم لأبي الهيثم ابن التيِّهان الأنصاري الصحابي رضي الله عنه!

(٢) (د، ع): «للمناظر».

(٣) (و): «يبين». (ي): «يتبين» مهملة.

(٤) ليست في (و).

(٥) (و، ي): «بل وتنازع». وسقطت «بل» من ط. العاصمة.

(٦) من ط. النيل، وليس في الأصول.

(٧) (د، ع): «شأن».

(٨) (و، د، ع): «كثيرة».

والمقام الثاني: الكلام في كفرهم واستحقاقهم الوعيد في الآخرة. فهذا فيه ثلاثة أقوالٍ للناس، بل كلٌّ[1] من أصحاب الأئمَّة المشهورين مالك والشافعي وأحمد لهم الأقوال الثلاثة[2]:

قيل: إنه يعذَّبُ في النَّار من لم يؤمن، وإن لم يُرسَل إليه رسول؛ لقيام الحجَّة عليه بالعقل. وهذا قول كثيرٍ ممَّن يقول بالحكم العقليِّ من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم، وهو اختيار أبي الخطَّاب[3].

وقيل: لا حجَّة عليه بالعقل، بل يجوز[4] أن يعذب من لم تقم عليه حجَّةٌ لا بالشَّرع ولا بالعقل. وهذا قول من يجوِّز تعذيب أطفال الكفَّار ومجانينهم، وهذا قول كثيرٍ من أهل الكلام، كالجهم، وكأبي الحسن الأشعري وأصحابه، والقاضي أبي يعلىٰ، وابن عقيل، وغيرهم[5].

والقول الثالث، وعليه السَّلف والأئمَّة: إنه لا يعذَّب إلا من بلغته الرِّسالة، ولا يعذَّب إلا من خالف الرُّسل، كما دلَّ علىٰ ذلك[6] الكتابُ والسُّنَّة، قال تعالىٰ لإبليس[7]: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

---

(١) «بل كل» لحقٌ في (ي) مع التصحيح، وليس في (و، ع).

(٢) وهو من فروع الخلاف في مسألة الحسن والقبح العقليَّين. انظر: «التحسين والتقبيح» للشهراني (٢/ ٢٢٤- ٢٢٧)، وما سيأتي (١/ ٤٧١-٤٧٤).

(٣) انظر: «التمهيد» لأبي الخطاب الكلوذاني (٤/ ٢٩٤- ٣٠٦).

(٤) (د، ع): «لا يجوز». وهو خطأ مبطلٌ للمراد، وأثبتته ط. العاصمة.

(٥) انظر: «الواضح» لابن عقيل (١/ ٤٩٥)، و«درء التعارض» (٨/ ٤٩٣)، و«النبوات» (٤٦٨- ٤٧٠).

(٦) (ع، ي، د): «دل عليه».

(٧) ليست في (ع، د).

وإذا كان كذلك، فنحن فيما نناظِر[1] فيه أهل الكتاب متقدِّميهم ومتأخِّريهم:

* تارةً نتكلَّم في المقام الأوَّل، وهو بيان مخالفتهم للحقِّ وجهلهم وضلالهم، فهذا تنبيهٌ لجميع الأدلة الشرعية والعقلية.

* وتارةً نبيِّن[2] كفرَهم الذي يستحقُّون به العذابَ في الدُّنيا والآخرة، فهذا أمره إلىٰ الله ورسوله، لا يُتكلَّم فيه إلا بما أخبرت به الرُّسل[3]، كما أنَّا أيضا لا نشهدُ بالإيمان والجنَّة إلا لمن شهدت له الرُّسل، ومن لم تَقُم عليه الحجَّة في الدنيا بالرِّسالة -كالأطفال والمجانين وأهل الفترات- فهؤلاء فيهم أقوالٌ أظهرها ما جاءت به الآثار: أنهم يُمْتَحنون يوم القيامة، فيبعث الله إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقُّوا الثَّواب، وإن عصوه استحقُّوا العقاب[4].

---

(١) (د، ع): «فهو كما نناظر».

(٢) (و، د، ع): «ونبين»، بلا «تارة».

(٣) (و): «أخبر به الرسول».

(٤) روي في ذلك حديث الأسود بن سريع ﵁ عن النبي ﷺ عند أحمد (١٦٣٠١)، والبزار (٩٥٩٧)، وصححه ابن حبان (٧٣٥٧).

وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس ومعاذ بن جبل وثوبان ﵃. قال المصنف في «درء التعارض» (٨/ ٤٣٧): «روي به آثار متعددة عن النبي ﷺ حسانٌ يصدِّق بعضها بعضًا». وانظر: «الصفدية» (٢/ ٢٤٥).

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ تضعيف تلك الآثار وما دلت عليه، قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٨/ ٤٠٣): «وهي كلها أسانيد ليست بالقوية، ولا تقوم بها حجة ....، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء ...».

وأجاب عنه ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (١١٤٩ - ١١٥٨) جوابًا جيدًا من جهتي الثبوت والدلالة.

وانظر: «درء التعارض» (٨/ ٤٠٠)، و«جامع المسائل» (٣/ ٢٣٤، ٢٣٨)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٤٦، ٢٧٧، ٣٠٣، ٢٤/ ٣٧٢).

وإذا كان كذلك، فنحن نشهد لمن كان مؤمنًا بموسىٰ متَّبعًا له أنه[1] مؤمنٌ مسلمٌ مستحقٌّ للثَّواب، وكذلك من[2] كان مؤمنًا بالمسيح متَّبعًا له.

ونشهد لمن قامت عليه الحجَّة بموسىٰ فلم يتَّبعه -كآل فرعون- أنهم من أهل النَّار، وكذلك من قامت عليه الحجَّة بالمسيح الذين قال الله فيهم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، والذين قال فيهم: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

وأمَّا من بَعُدَ عهدُه بالمسيح وبَلَغَته بعض أخباره دون بعض، أو بموسىٰ وبَلَغته[3] بعض[4] أخباره دون بعض، فهؤلاء قامت عليهم الحجَّة بما بلغهم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخباره.

وإذا اختلفوا في تأويل بعض التَّوراة والإنجيل، فمن قَصَد الحقَّ واجتهد في طلبه لم يَجِب أن يعذَّبَ وإن كان مخطئًا للحقِّ جاهلًا به ضالًّا عنه، كالمجتهد في طلب الحقِّ من أمة محمَّدٍ ﷺ.

---

(١) ليست في (د، ع).
(٢) (د، ع): «لمن».
(٣) (و، ي): «وبلغه».
(٤) ساقطة من ط. العاصمة.

وعلىٰ هذا، فإذا قيل: إن الحواريِّين أو بعضهم، أو كثيرًا من أهل الكتاب أو أكثرهم، كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صُلِب، كانوا مخطئين في ذلك، ولم يكن هذا الخطأ ممَّا يقدح في إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به، ولا يوجبُ لهم النَّار[1]؛ فإن الأناجيل التي بأيدي أهل الكتاب فيها ذِكرُ صَلْبِ المسيح، وعندهم أنها مأخوذةٌ عن الأربعة: مرقس، ولوقا، ويوحنَّا، ومتَّىٰ، ولم يكن في الأربعة من شهد صلبَ المسيح، ولا من الحواريِّين، بل ولا في أتباعه من شهد صلبَه[2]، وإنما الذين شهدوا الصَّلبَ طائفةٌ من اليهود.

فمن النَّاس من يقول: إنهم علموا أن المصلوب غيرُه، وتعمَّدوا الكذب في أنهم صلبوه، وشُبِّه صلبُه علىٰ من أخبروهم. وهذا قول طائفةٍ من أهل الكلام المعتزلة وغيرهم، وهو قول ابن حزمٍ وغيره[3].

ومنهم من يقول: بل اشتبه علىٰ الذين صلبوه. وهذا قول أكثر النَّاس[4].

والأولون يقولون: إن قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] أي: شُبِّه للنَّاس الذين أخبرهم أولئك بصلبه، والجمهور يقولون: بل شُبِّه للذين صلبوه[5]، كما قد ذُكِرَت القصَّة في غير هذا الموضع[6].

والمقصود هنا أن النَّاس في هذا المقام علىٰ طرفين ووسط:

أمَّا **الطرف الواحد**، فهم الغلاة من النَّصارىٰ الذين يدَّعون أن الحواريِّين

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ١٠٨- ١٠٩).
(٢) (د، ع): «الصلب».
(٣) انظر: «الفصل» لابن حزم (١/ ٥٦).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ٦٥٠- ٦٦٠)، وما سيأتي (٢/ ٧٥).
(٥) (د، ع): «للذين يقولون صلبوه».
(٦) انظر: «تثبيت دلائل النبوة» (١/ ١٢١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٨٤).

كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويَرَونه، وكذلك يقولون بتصويب علماء النَّصارىٰ فيما تقوله[1] من تأويل الإنجيل.

والطرف الآخر يقول: بل كلُّ من غلط وأخطأ في شيءٍ من ذلك فإنه مستحقٌّ للوعيد[2]، بل كافر.

والثالث الوسط: أنهم لا يُعَصَّمون ولا يُؤَثَّمون، بل قد يكونون مخطئين خطأً مغفورًا لهم إذا كانوا مجتهدين في معرفة الحقِّ واتِّباعه بحسب وسعهم وطاقتهم. وعلىٰ هذا تدلُّ[3] الأدلَّة الصَّحيحة. وكُتُبُ الله تدلُّ علىٰ ذمِّ الضَّالِّ والجاحد[4] ومقتِه، مع أنه لا يعاقَب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت في الصَّحيح[5] عن عياض بن حِمَار عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمَقَتَهم عربَهم وعجمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»، فأخبر أنه مَقَتهم إلا هؤلاء البقايا، والمَقْتُ هو البغض، بل أشدُّ البغض.

ومع هذا، فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذِّبهم حتىٰ يبعث إليهم رسولًا، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: ٤٧]

---

(١) (د، ع): «يقولونه».

(٢) (د، ع): «يستحق الوعيد».

(٣) (د، ع): «تصح».

(٤) ليست في (ي).

(٥) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤][1]، فدلَّ ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم، ولكنَّ شرط العذاب هو بلوغ[2] الرسالة، ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي الصَّحيحين[3] عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أحدٌ أحبّ إليه العذرُ من الله؛ من أجل ذلك أرسل الرُّسل وأنزل الكتب**»، وفي رواية: «**من أجل ذلك بعث الرُّسل مبشِّرين ومنذرين، وما أحدٌ أحبّ إليه المدحُ من الله؛ من أجل ذلك مَدَح نفسه، وما أحدٌ أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[4].

وقد تنازع النَّاسُ في حُسْنِ الأفعال وقُبْحِها، كحُسْنِ العدل والتَّوحيد والصِّدق، وقُبْحِ الظُّلم والشِّرك والكذب، هل يُعْلَمُ بالعقل أم لا يُعْلَمُ إلا بالسَّمع؟ وإذا قيل: إنه يُعْلَمُ بالعقل، فهل يعاقَب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول؟ على ثلاثة أقوالٍ معروفةٍ في أصحاب الأئمَّة الأربعة[5] وغيرهم، وهي ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم[6].

---

(١) وقع في الأصول هاهنا اضطراب في سياق الآيتين، ولم ترد الثانية في (و، ي)، وسيأتي سياقهما على الوجه.

(٢) (د، ع): «بعد بلوغ».

(٣) صحيح مسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٥) ساقطة من ط. العاصمة.

(٦) انظر: «النبوات» (٤٥٢- ٤٦٠)، و«الرد على المنطقيين» (٤٢٠- ٤٢٢)، و«التسعينية» (٩٠٧- ٩٠٨)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٤٨)، و«درء التعارض» (٨/ ٤٩٢- ٤٩٣، ٩/ ٤٩-٥٠)، و«شرح الأصبهانية» (٧٠٣- ٧٠٥)، و«منهاج السنة» (٣/ ٢٨، ٥/ ١٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٠، ٤٢٨- ٤٣٦)، و«جامع المسائل» (٧/ ٣٧٧- ٣٩٠).

فقالت طائفة: لا يُعْرَفُ ذلك إلا بالشَّرع، لا بالعقل. وهذا قول نظَّار المُجْبِرة، كالجهم بن صفوان وأمثاله، وهو قول أبي الحسن الأشعري وأتباعه من أصحاب الأئمة الأربعة، كالقاضي أبي بكر بن الطيِّب، وأبي عبد الله بن حامد، والقاضي أبي يعلىٰ، وأبي المعالي، وأبي الوفاء ابن عقيل، وغيرهم.

وقيل: بل قد يُعْلَمُ حُسْنُ الأفعال[1] وقُبْحُها بالعقل. قال أبو الخطَّاب محفوظ بن أحمد: «وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلِّمين»[2]. وهذا هو المنقول عن أبي حنيفة نفسه، وعليه عامَّة أصحابه، وكثيرٌ من أصحاب مالك والشافعيِّ وأحمد وأهل الحديث، كأبي الحسن التَّميمي، وأبي الخطَّاب، وأبي بكر القفَّال، وأبي نصر السِّجزي، وأبي القاسم سعد بن علي الزَّنجاني، وهو قول الكرَّاميَّة وغيرهم من نظَّار المثبتة للقدر، وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظَّار القدريَّة.

ثم هؤلاء علىٰ قولين:

منهم من يقول: يستحقُّون عذاب الآخرة بمجرَّد مخالفتهم للعقل، كقول المعتزلة والحنفيَّة وأبي الخطَّاب. وقول هؤلاء مخالفٌ للكتاب والسُّنَّة.

ومنهم من يقول: بل[3] لا يعذَّبون حتىٰ يُبْعَث إليهم رسول، كما دلَّ عليه الكتابُ والسَّنَّة، لكن أفعالهم تكون مذمومةً ممقوتة، يذمُّها الله ويبغضها، ويوصَفون بالكفر الذي يذمُّه الله ويبغضه، وإن كان لا يعذِّبهم حتىٰ يبعث إليهم

---

(١) (د، ع): «الأقوال».

(٢) في «التمهيد» (٤/ ٢٩٥): «وإلىٰ هذا ذهب عامة أهل العلم من الفقهاء والمتكلمين، وعامة الفلاسفة».

(٣) ليست في (د، ع).

رسولًا، كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح[1] كما تقدَّم: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمَقَتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن ربي قال لي: قم في قريشٍ فأنذِرهم، قلت: إذًا يَثْلَغُوا رأسي حتىٰ يَدَعوه خُبْزَةً. قال: إني مبتليكَ ومُبْتَلٍ بك، ومُنْزِلٌ عليك كتابًا لا يَغْسِله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا، فابعَثْ جندًا أبعثْ مِثْلَيهم، وقاتِلْ بمن أطاعك من عصاك، وأنفقْ أُنفِقْ عليك. وقال: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشَّياطين، وحرَّمَت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**».

وقال النبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**كلُّ مولودٍ يولد علىٰ الفطرة**» - وفي رواية: «**علىٰ هذه الملة**» - «**فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء؟**»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]. قيل: يا رسول الله، أرأيتَ من يموتُ من أطفال المشركين[2] وهو صغير؟ قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[3].

ومع مقتِ الله لهم، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذِّبهم حتىٰ يبعث إليهم رسولًا، وهذا يدلُّ علىٰ إبطال قول من قال: إنهم لم يكونوا مسيئين ولا مرتكبين لقبيحٍ حتىٰ جاء السَّمع، وقول من قال: إنهم كانوا معذَّبين بدون السَّمع، إمَّا لقيام الحجَّة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدريَّة، وإمَّا لمحض المشيئة كما يقوله المُجْبِرة.

---

(١) حديث عياض بن حمار رضي الله عنه المتقدم (١/ ٣٠٦، ٤٧٠)، وقد أخرجه مسلم (٢٨٦٥) باختلافٍ في سياقه وبعض ألفاظه.

(٢) «من أطفال المشركين» ليست في (و، د، ع).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).



قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤]، فهذا يبيِّن أنه لم يكن ليعذِّب الكفَّار حتىٰ يبعث إليهم رسولًا، وبيَّن أنهم كانوا قبل الرَّسول[1] قد اكتسبوا الأعمال التي توجب المقتَ والذَّمَّ، وهي سببٌ للعذاب[2]، لكن شرط العذاب قيام الحجَّة عليهم بالرسالة.

(١) (و، ي): «قبل الرسول كانوا».

(٢) (و): «سبب العذاب».

فصل

ومما ينبغي أن يُعْلَم أن سبب ضلال النَّصارىٰ وأمثالهم من الغَالِيَة، كغَالِيَة العُبَّاد والشِّيعة وغيرهم، ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظٌ متشابهةٌ مجملةٌ مشكلةٌ منقولةٌ عن الأنبياء، عَدَلوا[1] عن الألفاظ الصَّريحة المحكمة وتمسَّكوا بها، وهم كلَّما سمعوا لفظًا لهم فيه شبهةٌ تمسَّكوا به وحملوه علىٰ مذهبهم، وإن لم يكن دليلًا علىٰ ذلك. والألفاظ الصَّريحة المخالفة لذلك إمَّا أن يفوِّضوها، وإمَّا أن يتأوَّلوها كما يصنع أهلُ الضَّلال، يتَّبعون المتشابه من الأدلَّة العقليَّة والسَّمعيَّة، ويَعْدِلون عن المُحْكَم الصَّريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنُّوها آياتٍ[2]، وهي من أحوال الشَّياطين، وهذا ممَّا ضلَّ به كثيرٌ من الضُّلَّال المشركين وغيرهم، مثل دخول الشَّياطين في الأصنام وتكليمهم[3] للنَّاس، ومثل إخبار الشَّياطين للكهَّان بأمورٍ غائبة، ولا بدَّ لهم مع ذلك من كذب، ومثل تصرُّفاتٍ تقع من الشَّياطين.

والثالث: أخبارٌ منقولةٌ إليهم ظنُّوها صدقًا، وهي كذب، وإلا فليس مع النَّصارىٰ ولا غيرهم من أهل الضَّلال علىٰ باطلهم لا معقولٌ صريح، ولا منقولٌ صحيح، ولا آيةٌ من آيات الأنبياء.

بل[4] إن تكلَّموا بمعقولٍ تكلَّموا بألفاظٍ متشابهةٍ مجملة، فإذا استُفْسِروا عن معاني تلك الكلمات، وفُرِّق بين حقِّها وباطلها، تبيَّن ما فيها من التلبيس

---

(١) (د، و، ع): «وعدلوا».

(٢) (د، ع): «الآيات». ط. النيل: «من الآيات».

(٣) (و، ي): «وتكليمها».

(٤) ليست في (د، ع).

والاشتباه. وإن تكلَّموا بمنقول، فإمَّا أن يكون صحيحًا لكن[1] لا يدلُّ علىٰ باطلهم، وإمَّا أن يكون غير صحيحٍ[2] ثابت، بل مكذوب.

وكذلك ما يذكرونه[3] من خوارق العادات، إمَّا أن يكون صحيحًا قد ظهر علىٰ يد نبيٍّ، كمعجزات المسيح ومَن قبله كإلياسَ واليَسَع وغيرهما من الأنبياء، وكمعجزات موسىٰ ﷺ، فهذه حق.

وإمَّا أن تكون قد ظهرت علىٰ يد بعض الصَّالحين، كالحواريِّين، وذلك[4] لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء؛ فإن الأنبياء معصومون فيما يبلِّغونه، لا يُتَصَوَّر أن يقولوا علىٰ الله إلا الحق، ولا يستقرُّ في كلامهم باطلٌ لا عمدًا ولا خطأً.

وأمَّا الصَّالحون، فقد يغلط أحدهم ويخطئ، مع ظهور الخوارق علىٰ يديه، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلًا صالحًا، ولا يوجب أن يكون معصومًا إذا كان هو لم يدَّعِ العصمة، ولم يأت بالآيات دلالةً[5] علىٰ ذلك. ولو ادَّعىٰ العصمة وليس بنبيٍّ لكان[6] كاذبًا لا بدَّ أن يظهر كذبُه، فتقترن[7] به الشَّياطين فتضلُّه، ويدخل في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١].

---

(١) ليست في (د، ع).

(٢) ليست في (د، ي، ع).

(٣) (د، ع): «يظهرونه».

(٤) (د، ع): «ذلك».

(٥) (د، ي، ع): «دالة».

(٦) (ي): «إذ كان».

(٧) (و، ي): «وتقترن».

والنَّصارىٰ عندهم منقولٌ في الأناجيل[1] أن الذي صُلِب ودُفِن في القبر رآه بعض الحواريِّين وغيرهم بعد أن دُفِن قام من قبره، رأوه[2] مرَّتين أو ثلاثًا، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنُّوا أني شيطان. وهذا إذا كان صحيحًا فذاك شيطانٌ ادَّعىٰ أنه المسيح، والتبس[3] علىٰ أولئك[4].

ومثل هذا قد جرىٰ لخلقٍ كثيرٍ[5] في زماننا وقبل زماننا، كناسٍ كانوا بتَدْمُر، فرأوا شخصًا عظيمًا طائرًا في الهواء، وظهر لهم مرَّاتٍ بأنواعٍ من اللباس، وقال لهم: أنا المسيحُ ابن مريم، وأمرهم بأمورٍ يمتنع أن يأمر بها المسيحُ ﷺ، وحضروا إلىٰ عند النَّاس وبيَّنوا لهم أن ذلك هو شيطانٌ أراد أن يضلَّهم[6].

وآخرون يأتي أحدُهم إلىٰ قبر من يعظِّمه ويحسنُ به الظنَّ من الصَّالحين وغيرهم، فتارةً يرىٰ القبر قد انشقَّ وخرج منه إنسانٌ علىٰ صورة ذلك الرَّجل،

---

(١) إنجيل يوحنا (٢٠: ١٤- ٢٩)، إنجيل متىٰ (٢٨: ٩- ٢٠)، إنجيل مرقس (١٦: ٩- ١٤)، إنجيل لوقا (٢٤: ١٥- ٥١).
(٢) ليست في (د، ع).
(٣) مهملة في (ي). (ع، د): «وألبس».
(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٩٤، ١٠٧، ٢٧/ ٣٩٠).
(٥) (و، ي): «عظيم».
(٦) ذكر المصنف هنا وفي مواضع من كتبه كثيرًا من صور تمثُّل الشيطان بالإنس لإضلال الناس وإغوائهم. انظر: «النبوات» (١٠٥٣- ١٠٥٩، ١٠٩٦)، و«الرد علىٰ البكري» (١٤٦، ٤٨٠، ٥١١، ٥٦٣، ٥٩١، ٦٧٨)، و«الإخنائية» (١٩٠)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٦٨)، و«منهاج السنة» (١/ ٤٨٣)، و«الصفدية» (٢/ ٢٩٢)، و«بغية المرتاد» (٣٧٢)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (١٨٤، ١٨٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٨٢، ١٦٨- ١٧٨، ٣٥٠، ٣٦٠، ١٠/ ٤٠٦، ١١/ ٣٠٩، ٦٦٤، ١٣/ ٧١- ٧٩، ٨٤، ٩١- ٩٤، ١٤/ ٢٨٣- ٢٨٤، ١٧/ ٤٥٦، ٢٧/ ١٨، ٣٩١، ٣٥/ ١١٥)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٩٥- ١٩٦)، و«جامع المسائل» (١/ ٩١، ٢١٦).

وتارةً يرىٰ ذلك الإنسان قد دخل في القبر، وتارةً يراه إمَّا راكبًا وإمَّا ماشيًا داخلًا إلىٰ مكان ذلك الميِّت كالقبَّة المبنيَّة علىٰ القبر، وتارةً يراه خارجًا من ذلك المكان ويظنُّ أن ذلك هو ذلك الرَّجل الصَّالح، وقد يظنُّ أن قومًا استغاثوا به فذهب إليهم، ويكون ذلك شيطانًا تصوَّر بصورته[1]، وهذا جرىٰ لغير واحدٍ ممَّن أعرفهم.

وتارةً يستغيث أقوامٌ بشخصٍ يحسنون به الظنَّ إمَّا ميِّتٍ وإمَّا غائب، فيرونه بعيونهم قد جاء، وقد يكلِّمهم، وقد يقضي بعض حاجاتهم، فيظنُّونه ذلك الشخص الميِّت، وإنما هو شيطانٌ زعم أنه هو وليس هو إيَّاه، وكثيرًا ما يأتي الشَّخصُ بعد الموت في صورة الميِّت، فيحدِّثهم ويقضي ديونًا ويردُّ ودائع ويخبرهم عن الموتىٰ، ويظنُّون أنه هو الميِّت نفسه قد جاء إليهم، وإنما هو شيطانٌ تصوَّر بصورته.

وهذا كثيرٌ جدًّا، لا سيَّما في بلاد الشِّرك، كبلاد الهند ونحوها.

ومن هؤلاء من يراه ابنُه[2] تحت سريره آخذًا بيد ابنه في الجنازة[3]، ومنهم من يقول: إذا متُّ فلا تدعوا أحدًا يغسِّلني، فأنا آتي من هذه الناحية أغسِّل نفسي، فيأتي بعد الموت شخصٌ في الهواء علىٰ صورته يغسِّله هو والذي أوصاه، ويظنُّ ذاك أنه جاء، وإنما هو شيطانٌ تصوَّر بصورته[4].

وتارةً يرىٰ أحدهم شخصًا، إمَّا طائرًا في الهواء، وإمَّا عظيم الخِلقة، وإمَّا أن يخبره بأشياء غائبة، ونحو ذلك، ويقول له: أنا الخَضِر، ويكون ذلك شيطانًا

---

(١) (ي، د): «بصورة».
(٢) مهملة في (ي)، (د، ع): «تراه انت»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٧٨، ١٣/ ٧٩).
(٤) من قوله: «ومن هؤلاء من تراه» إلىٰ هنا ليس في (و).

كذب علىٰ ذلك الشَّخص، وقد يكون الرَّائي من أهل الدِّين والزُّهد والعبادة، وقد جرىٰ هذا لغير واحد.

وتارةً يرىٰ عند قبر نبيٍّ أو غيره أن الميِّت قد خرج إمَّا من حجرته وإمَّا من[1] قبره، وعانق ذلك الزَّائر وسلَّم عليه، ويكون شيطانًا تصوَّر بصورته.

وتارةً يجيء من يجيء إلىٰ عند قبر ذلك الشَّخص، فيستأذنه في أشياء، ويسأله عن أمور، فيخاطبه شخصٌ يراه، أو يسمع صوتًا ولا يرىٰ[2] شخصًا، ويكون ذلك شيطانًا أضلَّه.

وقد يرىٰ أشخاصًا في اليقظة، إمَّا ركبانًا وإمَّا غير ركبان، ويقولون: هذا فلانٌ النبيُّ، إمَّا إبراهيم وإمَّا المسيح وإمَّا محمَّد، وهذا فلانٌ الصِّدِّيق، إمَّا أبو بكرٍ وإمَّا عمر وإمَّا بعض الحواريِّين، وهذا فلانٌ لبعض من يُعْتَقَدُ فيه الصَّلاح، إمَّا جُرْجِس[3] أو غيره[4] ممَّن تعظِّمه النَّصارىٰ، وإمَّا بعض شيوخ المسلمين[5]، ويكون ذلك شيطانًا ادَّعىٰ أنه ذلك النبيُّ أو ذلك الشَّيخ أو الصِّدِّيق أو القِدِّيس.

ومثل هذا يجري كثيرًا لكثيرٍ من المشركين والنَّصارىٰ، وكثيرٍ من

---

(١) (ع): «أو من».
(٢) (د، ع): «أو يرىٰ»، وهو خطأ.
(٣) مار جرجس، قديسٌ صالح، ولد في الرملة في النصف الآخر من القرن الثالث بعد مولد عيسىٰ عليه السلام، وقيل: أدرك بقايا من حوارييه. عذبه بعض القياصرة وقتله بفلسطين، والنصارىٰ تعظمه وتنسب له كثيرًا من الخوارق. انظر: «نظم الجوهر» (١/ ١١٦)، و«تاريخ ابن جرير (٢/ ٢٤- ٣٦)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/ ١٤٣)، و«التحرير والتنوير» (١٥/ ٣٦٣)، و«النصرانية وآدابها» (١٢٦، ١٥٢).
(٤) (د، ع): «وإما غيره».
(٥) (و): «المتكلمين».



المسلمين، ويرىٰ أحدهم شيخًا يحسنُ به الظنَّ، ويقول: أنا الشَّيخ فلان، ويكون شيطانًا.

وأعرف من هذا شيئًا كثيرًا، وأعرف غير واحدٍ ممَّن يستغيث ببعض الشُّيوخ الغائبين والموتىٰ، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرىٰ مثلُ هذا لي ولغيري ممَّن أعرفه، ذكر غيرُ واحدٍ أنه استغاث بي من بلادٍ بعيدة، وأنه رآني قد جئته، ومنهم من قال: رأيتك راكبًا بثيابك[(١)] وصورتك، ومنهم من قال: رأيتك علىٰ جبل، ومنهم من قال غير ذلك، فأخبرتهم أني لم أُغِثهم، وإنما ذلك شيطانٌ تصوَّر بصورتي؛ ليضلَّهم لمَّا أشركوا بالله ودعوا غير الله[(٢)].

وكذلك غير واحدٍ ممَّن أعرفه من أصحابنا، استغاث به بعضُ من يحسنُ به الظنَّ، فرآه قد جاءه وقضىٰ حاجته، قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذلك.

ومن هؤلاء الشُّيوخ[(٣)] من يقول[(٤)]: إنه يسمع صوت ذلك الشَّخص المستغيث به، ويجيبُه، وتكون الشَّياطين أسمعته صوتًا يشبه صوتَ[(٥)] المستغيث به، فأجابه الشَّيخُ بصوته، فأسمعَت المستغيثَ صوتًا يشبه صوتَ

---

(١) (و): «بلباسك».

(٢) قال شيخ الإسلام: «فذكرت لهم أني ما دريتُ بما جرىٰ أصلًا وحلفتُ لهم علىٰ ذلك حتىٰ لا يظنوا أني كتمتُ ذلك كما تُكْتَم الكرامات». وهذا من دلائل صدقه وتجرُّده، ورغبته عن طلب الرياسة والعلو في الأرض، رحمه الله ورفع درجته. انظر: «قاعدة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق» (١٥٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٣٥٠، ٣٦٠، ١٣/ ٩٢، ١٧/ ٤٥٨، ١٩/ ٤٧، ٣٥/ ١١٥)، و«جامع الرسائل» (١/ ١٩٥).

(٣) (ي): «من الشيوخ». وضرب علىٰ «من» في (و).

(٤) (ي، و): «يقال».

(٥) ط. العاصمة: «صوت الشيخ»، وهو خطأ مخالف للأصول.

الشَّيخ، فيظنُّ أنه صوتُ[1] الشَّيخ.

وهذا جرىٰ لمن أعرفه، وأخبر[2] بذلك عن نفسه، وقال: بقي الجنِّيُّ الذي يحدِّثني يبلِّغني مثل صوت المستغيثين بي، ويبلِّغهم مثل[3] صوتي، ويريني في شيءٍ أبيض نظيرَ ما أُسأَل عنه، فأُخبِر به النَّاسَ أني رأيته، وأنه سيأتي، ولا أكون قد رأيته، وإنما رأيت شبيهه[4].

وهكذا تفعلُ الجنُّ بمن يُعَزِّم عليهم[5] ويُقْسِم عليهم.

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصَّليب الذي رآه من نجوم[6]، والصَّليب الذي رآه مرَّةً أخرىٰ، هو ممَّا مثَّلته الشَّياطين، وأرتهم ذلك؛ لتُضِلَّهم به[7]، كما فعلت الشَّياطينُ ما هو أعظم من ذلك لعبَّاد[8] الأوثان.

وكذلك من ذَكَر أن المسيح جاءه في اليقظة وخاطبه بأمور، كما يُذْكَر عن بولس؛ فإنه إذا كان صادقًا كان ذلك الذي رآه في اليقظة[9] وقال: إنه المسيحُ شيطانًا من الشَّياطين، كما جرىٰ مثل ذلك لغير واحد.

---

(١) من قوله: «المستغيث» إلىٰ هنا سقط من (و) لانتقال النظر.
(٢) (د، ع): «فأخبر».
(٣) (و): «من».
(٤) مهملة في (ي)، (ع، د): «شبهه».
(٥) المعزِّم: الراقي بالعزائم، وهي الرقىٰ التي يُعْزَم بها علىٰ الجن، كأنه يُقْسَم بها عليهم. انظر: «المطلع» (٤٦٢)، و«تاج العروس» و«المعجم الوسيط» (عزم)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ٤٥)، و«تحريم أقسام المعزِّمين» للمصنف.
(٦) سيأتي ذكر قصته نقلًا عن تاريخ ابن البطريق (٣/ ١٣٦، ٢٩١، ٢٩٢).
(٧) (د، ع): «مثله الشياطين وأراهم ذلك ليضلهم به»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.
(٨) (و): «بعباد».
(٩) من قوله: «وخاطبه» إلىٰ هنا ليس في (ع، د).

والشَّيطان إنما يضلُّ النَّاس ويغويهم بما يظنُّ[1] أنهم يطيعونه فيه، فيخاطب النَّصارىٰ بما يوافق دينهم، ويخاطب من يخاطب من ضُلَّال المسلمين بما يوافق اعتقاده، وينقله إلىٰ ما يستجيب له[2] فيه بحسب اعتقادهم.

ولهذا يتمثَّل لمن يستغيث من النَّصارىٰ بجُرْجِس[3] في صورة جُرْجِس أو بصورة من يستغيث به النَّصارىٰ[4] من أكابر دينهم، إمَّا بعض البتاركة، وإمَّا بعض المَطارنة، وإمَّا بعض الرُّهبان.

ويتمثَّل لمن يستغيث به من ضُلَّال المسلمين بشيخٍ من الشُّيوخ في صورة ذلك الشَّيخ، كما تمثَّل لجماعةٍ ممَّن أعرفهم[5] في صورتي وفي صورة جماعةٍ من الشُّيوخ الذين ذكروا لي[6] ذلك، ويتمثَّل كثيرًا في صورة بعض الموتىٰ، تارةً يقول: أنا الشَّيخ عبد القادر[7]، وتارةً يقول: أنا الشَّيخ أبو الحجَّاج الأقصُري[8]، وتارةً يقول: أنا الشَّيخ عَدِيّ[9]، وتارةً يقول: أنا أحمد ابن

---

(١) (و): «والشياطين إنما تضل الناس وتغويهم بما تظن».

(٢) (و، ي): «لهم».

(٣) تقدمت ترجمته قريبًا. وذكر المصنف فتنة النصارىٰ به في مواضع. انظر: «الإخنائية» (١٩٨)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣٠٩، ١٧/ ٤٥٥، ٤٥٦، ١٩/ ٤٧).

(٤) (د، ع): «من النصارىٰ».

(٥) (ع، ي، د): «أعرفه».

(٦) (د، و، ع): «في». وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٧) الجيلي الحنبلي الإمام العارف. توفي سنة ٥٦١. «السير» (٢٠/ ٤٣٩).

(٨) يوسف بن عبد الرحيم، شيخ زاهدٌ صوفي له أتباعٌ ومريدون. توفي سنة ٦٤٤. «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٥٠٩)، و«الطالع السعيد» (٧٢٢).

(٩) عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسىٰ الشامي، الشيخ الصالح، زاهد وقته. توفي سنة ٥٥٧. «السير» (٢٠/ ٣٤٢). ولشيخ الإسلام رسالةٌ جليلة إلىٰ أتباعه، في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٦٦- ٤٣٠)، أثنىٰ عليه فيها ثناء حسنًا (٣/ ٣٧٧).

الرِّفاعي[1]، وتارةً يقول: أنا أبو مَدْيَن المغربي[2].

وإذا كان يقول: أنا المسيح، أو إبراهيم، أو محمَّد، فغيرهم بطريق الأولىٰ.

والنبيُّ ﷺ قال: **«من رآني في المنام فقد رآني حقًّا؛ فإن الشَّيطان لا يتمثَّل في صورتي»**[3]، وفي رواية: **«في صور**[4] **الأنبياء»**[5]، فرؤيا الأنبياء في المنام حقٌّ، وأمَّا رؤية الميِّت في اليقظة فهذا جنِّيٌّ تمثَّل في صورته.

وبعض النَّاس يسمي هذا «روحانيَّة الشَّيخ»، وبعضهم[6] يقول: هي رقيقتُه[7].

---

(١) أحمد بن علي ابن رفاعة المغربي، الشيخ الزاهد، توفي سنة ٥٧٨. وللمنتسبين إليه من الرفاعية الأحمدية مخارق وضلالات، ولشيخ الإسلام معهم مناظراتٌ وصولات. قال الذهبي: «ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا لا عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه». انظر: «العبر» (٤/ ٢٣٤)، و«تاريخ الإسلام» (١٢/ ٦٠٥)، و«النبوات» (١٥٨، ١٦٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٤٤٥-٤٧٦، ٤٩٤)، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (١٦٠، ١٦١، ٢٠٩، ٥٠٣).

(٢) شعيب بن الحسين، أبو مدين الأندلسي، الزاهد العارف، شيخ أهل المغرب، وكبير الصوفية في عصره. توفي سنة ٥٩٤. «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٩٢٢)، و«نيل الابتهاج بتطريز الديباج» (١٩٣). ولم يقف علىٰ ترجمته محقق ط. العاصمة.

(٣) أخرجه البخاري (١١٠، ٦٩٩٤)، ومسلم (٢٢٦٦، ٢٢٦٨) من حديث أبي هريرة وأنس وجابر ﷺ، دون قوله: «حقًّا».

(٤) (و): «صورة».

(٥) لم أقف عليها. وقد جعل بعض أهل العلم هذا مما خُصَّ به النبيُّ ﷺ دون غيره من الأنبياء. انظر: «غاية السول» لابن الملقن (٢٩٣). وذهب بعضهم إلىٰ عموم ذلك للأنبياء. انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ٢٢٨)، و«شرح المصابيح» لابن ملك (٥/ ١٣٤). والأول أظهر.

(٦) (د، ع): «وبعض الناس».

(٧) مهملة في (ي). وتحرفت في (د، ع) إلىٰ «رفيقه»، وكذلك أثبتتها المطبوعات. وعلىٰ =

وكثيرٌ من هؤلاء يُرىٰ[1] يقوم من مكانه ويَدَعُ في مكانه صورةً مثل صورته، وكثيرٌ من هؤلاء ومن هؤلاء من يُرىٰ[2] في مكانين، ويُرىٰ واقفًا بعرفاتٍ وهو في بلده لم يذهب، فيبقىٰ النَّاسُ الذين لا يعرفون حائرين؛ فإن العقل الصَّريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون في الوقت الواحد في مكانين، والصَّادقون قد رأوا ذلك عيانًا لا يشكُّون فيه، ولهذا يقع النزاع كثيرًا بين هؤلاء وهؤلاء، كما قد جرىٰ ذلك غير مرَّة، وهذا صادقٌ فيما رأىٰ وشاهَدَ، وهذا صادقٌ فيما دلَّ عليه العقلُ[3] الصَّريح، لكن ذلك المرئيَّ كان جنِّيًّا تمثَّل في صورة[4] الإنسان، والحِسِّيَّاتُ إن لم يكن معها عقليَّاتٌ تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلطٌ كثير[5].

وهذا القسم المشهود في الخارج غيرُ ما يتخيَّله الإنسان في نفسه؛ فإن هذا يعرفه جميعُ النَّاس، ويُقِرُّ به[6] جميعُ العقلاء، يتخيَّلون أشياء في أنفسهم كما يتخيَّله النَّائم في منامه، وتكون تلك الصُّورة موجودةً في الخيال لا في الخارج.

= الصواب في (و). وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٥٨، ١٧٣، ١٧٨، ١٣/ ٧٨، ١٤/ ٢٨٤). وذكر محقق ط. العاصمة أن المقصود: قرينه ورفيقه من الشياطين!

و«الرقيقة» من مصطلحات المتصوفة، يعنون بها اللطيفة الروحانية والواسطة اللطيفة الرابطة بين الشيئين. انظر: «لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام» للقاشاني (١/ ٤٠٥)، و«التعريفات» (١١١)، و«المعجم الصوفي» لسعاد الحكيم (٥٣٥).

وترد كذلك بمعنىٰ الجزء اليسير من الشيء، كالأنموذج. انظر: «طريق الهجرتين» (١/ ٦٩)، و«زاد المعاد» (٤/ ٣٣).

(١) (د، ع): «من».

(٢) ليست في (ي). (و): «من يقول يرىٰ».

(٣) ليست في (و، د، ع).

(٤) (ي، و): «بصورة».

(٥) ط. العاصمة: «كبير»، خلاف الأصول.

(٦) (و): «ويصوبه»، (د، ع): «ويعرفه». والمثبت من (ي) أشبه.

والفلاسفة وسائر[1] العقلاء يعترفون بهذا، لكنْ كثيرٌ من الفلاسفة يظنُّ أن ما رأته الأنبياء من الملائكة وما سمعته من الكلام كان من هذا النَّوع، ويظنُّون أن ما يُرىٰ من الجنِّ هو من هذا النوع، وهؤلاء جهَّالٌ غالطون في هذا، كما جهلوا وغلطوا في ظنِّهم أن خوارق العادات سببها قوًى نفسانيَّة أو طبيعيَّة أو قوًى فلكيَّة، وأن الفرق بين النبيِّ ﷺ والسَّاحر إنما هو[2] حُسْنُ قصدِ هذا وفسادُ قصد[3] الآخر، وإلا فكلاهما خوارقُه[4] سببها قوًى نفسانيَّة أو فلكيَّة. وهذا النفيُ باطل، كما قد بسطنا الكلام عليه وبيَّنَّا جهل هؤلاء وضلالهم في غير هذا الموضع[5].

والذين شاهدوا ذلك في الخارج، وثبت عندهم بالأخبار الصَّادقة المتواترة وغير المتواترة[6] وجودُ ذلك في الخارج، يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضالُّون، ويعلمون أن الملائكة تظهر في صورة البشر، كما ظهرت لإبراهيم ولوط ومريم في صورة البشر، وكما كان جبريلُ يظهر للنبيِّ ﷺ تارةً في صورة دِحْيَة الكلبيِّ، وتارةً في صورة أعرابيٍّ، ويراه كثيرٌ من النَّاس عيانًا، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره.

وكذلك الشَّياطين[7]، كما ظهر إبليسُ[8] للمشركين في صورة الشَّيخ

---

(١) (د، ع): «وجميع».
(٢) (ع): «ما هو إلا».
(٣) (د، ع): «قصد ظن».
(٤) ط. النيل: «خوارق». وتبعتها ط. العاصمة خلافًا للأصول.
(٥) انظر: «النبوات» (١٣٨، ٥٠٦، ٦٧٨-٧٠٤، ٨٣٧-٨٦٦)، «الصفدية» (١/ ١٣٤-١٦٣، ١٦٥، ٢٢٢)، و«شرح الأصبهانية» (٥٧٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٣٣٧، ١٩/ ١٥٨).
(٦) «وغير المتواترة» ساقطة من ط. النيل والعاصمة.
(٧) ليست في (و، ع، د). ولم تثبتها ط. العاصمة.
(٨) (د، ع): «لما ظهر الشيطان».

النَّجديِّ[1]، وظهر لهم يوم بدرٍ في صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، فلمَّا رأىٰ الملائكة هرب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وروي عن ابن عبَّاس وغيره قال: تبدَّىٰ إبليسُ في جندٍ من الشَّياطين ومعه رايةٌ في صورة رجالٍ من مُدْلِج، والشَّيطانُ في صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، فقال: لا غالب لكم اليوم من النَّاس، وإني جارٌ لكم، وأقبل جبريلُ عليه السلام علىٰ إبليس، فلمَّا رآه وكانت يده في يد رجلٍ من المشركين انتزع[2] إبليسُ يده وولَّىٰ مدبرًا هو وشيعته، فقال الرَّجل: يا سُراقة، أتزعم أنك لنا جار؟! فقال: إني أرىٰ ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب. قال ابن عباس: وذلك لمَّا رأىٰ الملائكة[3].

قال الضَّحَّاك: سار الشَّيطان معهم برايته وجنوده، وألقىٰ في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم، وأنتم تقاتلون علىٰ دينكم ودين آبائكم[4].

وكثيرٌ من النَّاس تحمله الجنُّ إلىٰ مكانٍ بعيد، فتحمل كثيرًا من النَّاس إلىٰ عرفاتٍ وغير عرفات، وإذا رئي واحدٌ من هؤلاء في غير بلده يكون تارةً محمولًا قد حملته[5] الجنُّ، وتارةً قد[6] تصوَّرت علىٰ صورته، ولا يكون هذا من أولياء

---

(١) (د، ع): «النجدي وغيره».
(٢) (د، ع): «نزع».
(٣) أخرجه ابن جرير (١١/ ٢٢٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٧٩).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٥).
(٥) (د، ع): «تارة قد حملته».
(٦) ليست في (ي، و).

الله المتَّقين الذين لهم كرامات، بل قد[1] يكون من الكافرين أو الفاسقين، وأعرف من ذلك قضايا كثيرةً ليس هذا موضع تفصيلها[2].

وعند المشركين والنَّصارىٰ من ذلك شيءٌ كثيرٌ يظنُّونه من جنس الآيات التي للأنبياء، وإنما[3] هي من جنس ما للسَّحرة والكهَّان.

ومن لم يفرِّق بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان، ويفرِّق بين معجزات الأنبياء وكرامات الصَّالحين، وبين خوارق السَّحرة والكهَّان ومن تقترن بهم الشَّياطين، وإلا التبس عليه الحقُّ بالباطل، فإمَّا أن يكذِّب بالحقِّ الذي جاء به الأنبياء الصَّادقون، وإمَّا أن يصدِّق بالباطل الذي يقوله الكاذبون[4] والغالطون.

وهذه الأمور مبسوطةٌ في موضعٍ آخر[5]، والمقصود هنا التَّنبيه علىٰ هذا الأصل.

وعلماء النَّصارىٰ يسلِّمون هذا، وعندهم من ذلك أخبارٌ كثيرةٌ من حكايات أولياء الشَّيطان الذين عارضهم أولياء الرَّحمن وأبطلوا أحوالهم، كما أبطل موسىٰ صلوات الله عليه ما عارضته به السَّحرة من الخوارق، كما ذُكِر ذلك[6] في التَّوراة[7]، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مثل حكاية سِيمون السَّاحر مع الحواريِّين[8]، وغير ذلك.

---

(١) ليست في (ي).

(٢) (د، ع): «قصصًا كثيرة ليس تفصيلها في هذا الموضع».

(٣) ط. العاصمة: «إنما»، خلاف الأصول.

(٤) (د، ع): «الكافرون».

(٥) بسطها في قاعدة «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، والمصادر السابقة في الفرق بين خوارق العادات من الأنبياء والسحرة.

(٦) ليست في (د، ع).

(٧) سِفر الخروج (٧: ٩- ١٣).

(٨) سِفر أعمال الرسل (٨: ٩- ٢٤). ومعنىٰ سِيمون بالعبرانية: السَّامع، ولفظه في الأصل نفس لفظ الاسم «سمعان». وقد كان لسيمون الساحر أتباعٌ يعتبرونه مسيحهم. انظر: «موسوعة الكتاب المقدس» (٥٠٩).

فإذا كان هذا معلومًا كان ما يذكرونه من هذا الجنس إذا كان مخالفًا لما ثبت عن الأنبياء من الشَّيطان، فلا يجوز أن يُحْتَجَّ به علىٰ ما يخالف شرائع الأنبياء الثَّابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدَّجَّال الكبير الذي أنذرت به الأنبياء كلُّهم، حتىٰ نوحٌ أنذره[1] قومَه، وقال خاتم الرُّسل ﷺ: «**ما من نبيٍّ إلا قد أنذره أمَّته، حتىٰ نوحٌ أنذره قومَه. وسأقول لكم فيه قولًا لم يقله نبيٌّ لأمَّته: إنه أعور، وإنَّ ربَّكم ليس بأعور، مكتوبٌ بين عينيه: كافر (ك ف ر)، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ قارئٍ وغير قارئ**»، وقال: «**واعلموا أن أحدًا منكم لن يرىٰ ربَّه حتىٰ يموت**»[2].

وقد أخبَر أن المسيحَ عيسىٰ بن مريم مسيحَ الهدىٰ ينزل إلىٰ الأرض علىٰ المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق، فيقتل مسيحَ الضَّلالة، وهذا هو الذي تنتظره اليهودُ ويجحدون المسيحَ عيسىٰ بن مريم، ويقولون: هذا هو الذي بشَّرت به الأنبياء، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا مُطَيْلَسِين، ويقتلهم المسلمون مع عيسىٰ بن مريم شرَّ قِتْلة، حتىٰ يقول الشَّجر والحجر: يا مسلمُ هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ اقتُلْه[3].

وكلُّ هذا ثابتٌ في الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ.

ولهذا أمر أمَّته أن يستعيذوا بالله من فتنته، فقال: «**إذا قعد أحدكم في التَّشهُّد في الصَّلاة فليتعوَّذ بالله من أربع: من عذاب جهنَّم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدَّجَّال**»[4].

---

(١) غيَّرته ط. العاصمة إلىٰ «أنذر» هنا وفي الموضعين الآتيين في نصِّ الحديث، مخالفة للأصول ومتابعة للمطبوعة، وزعمت أنه خطأ واضح!

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٥٧) ومسلم (٤/ ٢٢٤٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو في الصحيحين من حديث أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم.

(٣) مضىٰ تخريجه (١/ ٢٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والأنبياء كلُّهم أنذروا بالكذَّابين الذين يتشبَّهون بالأنبياء، لكن من النَّاس من يتعمَّد الكذب، وكثيرٌ منهم لا يتعمَّد، بل يلتبس عليه، فيغلط، فيخبر بما يظنُّه حقًّا ولا يكون كذلك، ويرىٰ في اليقظة ما يظنُّه فلانًا الوليَّ أو النبيَّ ﷺ أو الخَضِر ولا يكون كذلك[1].

والغلط جائزٌ علىٰ كلِّ أحدٍ إلا الأنبياء عليهم السَّلام، فإنهم معصومون لا يُقَرُّون علىٰ خطأ، فمن لم يَزِن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم[2] عن الأنبياء وإلا كان ضالًّا، فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصِّراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

والمسلمون وأهل الكتاب متَّفقون علىٰ إثبات مسيحَيْن: مسيح هدًىٰ من ولد داود، ومسيح ضلالٍ يقول أهل الكتاب: إنه من ولد يوسف.

ومتَّفقون علىٰ أن مسيح الهدىٰ سوف يأتي كما يأتي مسيح الضَّلالة، لكنْ المسلمون والنَّصارىٰ يقولون: مسيح الهدىٰ هو عيسىٰ بن مريم، وإن الله أرسله، ثم يأتي مرَّةً ثانية.

لكنْ المسلمون يقولون: إنه ينزل قبل يوم القيامة، فيقتل مسيحَ الضلالة، ويكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ولا يبقي دينًا إلا دين الإسلام، ويؤمنُ به أهلُ الكتاب اليهود والنَّصارىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، والقول الصَّحيح الذي عليه الجمهور: قبل موت

---

(١) من قوله: «ويرىٰ في اليقظة» إلىٰ هنا سقط من (د، ع).

(٢) (ع، د): «بالعلوم».

المسيح[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١].

وأمَّا النَّصارىٰ فتظنُّ أنه الله، وأنه يأتي يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم، وهذا ممَّا ضلُّوا فيه، واليهود تعترف بمجيء مسيح هدًىٰ يأتي، لكن يزعمون أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن مسيح هدًىٰ؛ لظنِّهم[2] أنه جاء بدين النَّصارىٰ المبدَّل، ومن جاء به فهو كاذب، وهم ينتظرون المسيحَيْن[3].

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ٦٦٣ - ٦٦٦، ٦٧٢)، وما سيأتي (٢/ ٤٦٨).

(٢) (د، ي، ع): «لزعمهم».

(٣) من قوله: «والمسلمون وأهل الكتاب» إلىٰ هنا وقع متأخرًا خطأً في (ع، د) وط. النيل بعد صفحات، وهذا حاقّ موضعه.

فصل

والخوارق التي تُضِلُّ(١) بها الشَّياطين لبني(٢) آدم، مثلُ تصوُّر الشَّيطان بصورة شخصٍ غائبٍ أو ميِّتٍ ونحو ذلك، ضلَّ بها خلقٌ(٣) كثيرٌ من النَّاس من المنتسبين إلىٰ المسلمين أو إلىٰ أهل الكتاب وغيرهم، وهم بَنَوا ذلك علىٰ مقدمتين:

إحداهما: أن من ظهرت هذه علىٰ يديه فهو وليٌّ لله، وبلغة النَّصارىٰ: هو قِدِّيسٌ عظيم.

الثانية: أن من يكون كذلك فهو معصوم، وكلُّ(٤) ما يخبر به فهو حقٌّ، وكلُّ ما يأمر به فهو عدلٌ، وقد لا يكون ظهرت علىٰ يديه خوارقُ لا رحمانيَّة ولا شيطانيَّة، ولكنْ صَنَع حيلةً من حِيَل أهل الكذب والفجور، وحِيَلُ أهل الكذب والفجور كثيرةٌ جدًّا، فيُظَنُّ أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك، مثل الحِيَل المذكورة عن الرُّهبان(٥).

وقد صنَّف بعض النَّاس مصنَّفًا(٦) في حِيَل الرُّهبان.

---

(١) مهملة في (ي)، (د، ع): «يضل».

(٢) كذا في الأصول.

(٣) ليست في (ع، د).

(٤) (و، ي): «فكل».

(٥) انظر: «جامع المسائل» (٥/ ٢٢٤)، و«إغاثة اللهفان» (١٠٥٦، ١٠٥٩- ١٠٦١).

(٦) ذكر شيخ الإسلام في مواضع أخرىٰ أنها مصنفاتٌ وكتب. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٦٠٩، ٦٦١). وقد أفرد زين الدين الجوبري (من علماء القرن السابع) فصلًا لكشف حيل الرهبان ومخاريقهم في كتابه «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار» (٨٠- ٨٧)، والخزرجي (ت: ٥٨٣) في «مقامع الصلبان» (١٧٣- ١٧٧)، والقرطبي (ت: ٦٧١) في «الإعلام» (٣٨٤- ٣٨٦)، والقرافي (ت: ٦٨٤) في «الأجوبة الفاخرة» (٦١- ٦٦)، وأشار الجاحظ إلىٰ طرف منها في «الحيوان» (٤/ ٤٨٣).

مثل الحيلة المحكيَّة عن أحدهم في جعلِ الماء زيتًا، بأن يكون الزَّيتُ في جوف منارة، فإذا نقص صبَّ فيها ماءً، فيطفو الزَّيت علىٰ الماء، فيظنُّ الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتًا.

ومثل الحيلة المحكيَّة عنهم في ارتفاع النَّخلة، وهو أن بعضهم مرَّ بدَيْر راهب، وأسفل منه نخلة، فأراه النَّخلة صعدت شيئًا شيئًا حتىٰ حاذت الدَّير، فأخذ من رُطَبها، ثم نزلت حتىٰ عادت كما كانت. فكشف الرَّجلُ الحيلة، فوجد النَّخلة في سفينةٍ في مكانٍ منخفضٍ إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتىٰ تصعد السَّفينة، وإذا صرف الماء إلىٰ موضعٍ آخر هبطت السَّفينة.

ومثل الحيلة المحكيَّة عنهم في التكحُّل بدموع السَّيِّدة، يضعون كحلًا في ماءٍ متحرِّكٍ حركةً لطيفة، فيسيل حتىٰ ينزل من تلك الصُّورة، فيخرج من عينها، فيُظَنُّ أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصُّورة التي يسمُّونها «القُونَة»[1] بصَيْدَنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعد القُمَامة وبيت لحم حيث وُلِد المسيح وحيث قُبِر؛ فإن هذه هي[2] صورة السَّيِّدة مريم، وأصلها خشبةُ نخلةٍ سُقِيَت بالأدهان حتىٰ تنعَّمت[3]، وصار الدُّهن يخرج منها دهنًا مصنوعًا[4] يُظَنُّ أنه من بركة الصُّورة.

ومن حِيَلهم الكثيرة: النَّار التي يظنُّ عوامُّهم أنها تنزل من السَّماء في

---

(١) قال المصنف: «ويحجُّون إلىٰ القونة التي بصيدنايا، والقونة الصورة، وغير ذلك من كنائسهم التي بها الصُّور التي يعظمونها ويدعونها ويستشفعون بها». مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٥٥). والقونة والأيقونة: التمثال والصورة، معرَّب إيكونيا باليونانية. انظر: «محيط المحيط» (٢٣، ٧٦٤)، و«تفسير الألفاظ الدخيلة» للعنيسي (٥).

(٢) ليست في (و).

(٣) (د، ع): «سمت». ط. النيل: «سمنت».

(٤) (د، ع): «يخرج منها مصنوع».

عيدهم في قُمَامة[1]، وهي حيلةٌ قد شهدها غيرُ واحدٍ من المسلمين والنَّصارىٰ، ورأوها بعيونهم أنها نارٌ مصنوعةٌ يُضِلُّون بها عوامَّهم، يظنُّون أنها نزلت من السَّماء ويتبرَّكون بها، وإنما هي صنعةُ صاحبِ مُحَالٍ وتلبيس.

ومثل ذلك كثيرٌ من حِيَل النَّصارىٰ، فجميع ما عند النَّصارىٰ المبدِّلين لدين المسيح من الخوارق إمَّا حالٌ شيطانيٌّ وإمَّا مُحَالٌ بهتانيٌّ ليس فيه شيءٌ من كرامات الصَّالحين.

وكذلك أهل الإلحاد المبدِّلين لدين محمَّدٍ ﷺ، الذين يتَّخذون دينًا لم يشرعه الله ورسوله، ويجعلونه طريقًا إلىٰ الله، وقد يختارونه علىٰ الطَّريق التي شرعها الله ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدُّفوف والشَّبَّابات[2] علىٰ سماع كتاب الله تعالىٰ، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشَّيطاني ما يَلْبَسُه معه الشَّيطان حتىٰ يتكلَّم علىٰ لسان أحدهم بكلامٍ لا يعرفه ذلك الشَّخص إذا أفاق، كما يتكلَّم الجنِّيُّ علىٰ لسان المصروع، وقد يخبر بعضَ الحاضرين بما في نفسه، ويكون ذلك من الشَّيطان، فإذا فارق الشَّيطانُ ذلك الشخص لم يدر ما قال.

ومنهم من يحمله الشَّيطان ويصعد به قدَّام النَّاس في الهواء.

ومنهم من يشير إلىٰ بعض الحاضرين، فيموت، أو يمرض، أو يصير مثل الخَشَبة.

ومنهم من يشير إلىٰ بعض الحاضرين، فيَلْبَسُه الشَّيطان، ويزول عقلُه،

---

(١) أعظم كنيسة لهم ببيت المقدس، وتقدم التعريف بها وبكنيسة صيدنايا (١/ ١٨٧).

(٢) جمع شبَّابة، وهي اليراعة، قصبةٌ يُزَمَّر بها. انظر: «التلخيص» لأبي هلال (٤٢٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣٤٦)، و«شفاء الغليل» للخفاجي (١٨٤). وظن محقق ط. العاصمة أن المراد بها التشبيب بالنساء!

حتىٰ يبقىٰ دائرًا زمانًا طويلًا بغير اختياره.

ومنهم من يدخل النَّار ويأكلها، ويبقىٰ لَهَبُها في بدنه وشعره.

ومنهم من تُحْضِر له الشَّياطينُ طعامًا أو شيئًا من لادَنٍ[1] أو سكَّر أو زعفران أو ماء ورد.

ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشَّياطينُ من بعض المواضع، ثم من هؤلاء من[2] إذا فرَّق الدَّراهم علىٰ الحاضرين أُخِذَت منهم، فلا يُمَكَّنون من التصرُّف فيها.

إلىٰ أمور يطول وصفُها.

وآخرون ليس لهم من يُعِينُهم علىٰ ذلك من الشَّياطين، فيصنعون حِيَلًا ومَخَاريق.

فالملحدون المبدِّلون لدين الرُّسل -دين المسيح أو دين محمَّدٍ صلىٰ الله عليهما وسلَّم- هم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضَّلال الكفَّار المرتدِّين والمشركين[3] ونحوهم[4]، كمُسَيْلِمة الكذَّاب، والأسود العَنْسِي، والحارث الدمشقي، وبابا الرُّومي[5]، وغيرهم ممَّن لهم خوارقُ شيطانية.

وأمَّا أهل الحِيَل فيَكْثُرون، وهؤلاء ليسوا أولياء الله، بل خوارقهم إذا

---

(١) وهو رطوبةٌ وندًى يكون علىٰ نباتٍ ترعاه المعزىٰ، فيتعلَّق بها، ويتَّخذ منه دواءٌ وعطر. انظر: «الفروع» (٤/ ١٢٤)، و«تاج العروس» (لذن)، و«المعتمد» (٣١٩)، و«تكملة المعاجم» (٩/ ٢٢٥).

(٢) ليست في (ع، د).

(٣) (د، ع): «المشركين».

(٤) (و، د، ع): «وغيرهم».

(٥) مضت ترجمته وترجمة الحارث الدمشقي (١/ ٢٦٧).

كانت شيطانيَّةً من جنس خوارق الكهنة والسَّحرة، لم يكن لهم حالٌ شيطانيٌّ بل مُحَالٌ بهتانيٌّ، فهم متعمِّدون للكذب والتلبيس، بخلاف من تقترن به الشَّياطين، فإن فيهم من يلتبسُ[1] عليه فيظنُّ أن هذا من جنس كرامات الصَّالحين، كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشَّياطين ويفعله لتحصيل أغراضه.

فالمقصود أنه كثيرٌ[2] من الخوارق ما يكون من الشَّياطين أو يكون حِيَلًا ومَخَاريق، ويُظَنُّ أنها من كرامات الصَّالحين، فإن ما يكون سببُه[3] الشِّرك أو الفجور إنما يكون من الشَّيطان، مثل أن يشرك الرَّجلُ بالله، فيدعو الكواكبَ، أو يدعو مخلوقًا من البشر ميِّتًا أو غائبًا، أو يُعَزِّم ويُقْسِم بأسماء مجهولة لا يَعْرِف معناها أو يَعْرِف أنها أسماء الشَّياطين، أو يستعين بالفواحش والظُّلم، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشَّيطان، كما قد بُسِط الكلام علىٰ ذلك في غير هذا الموضع[4].

والصَّالحون لهم كرامات، مثل كرامات صالحي هذه الأمَّة، ومثل كرامات الحواريِّين وغيرهم ممَّن كان علىٰ دين المسيح، لكن وجود الكرامات علىٰ أيدي الصَّالحين لا توجبُ أن يكونوا معصومين كالأنبياء، بل[5] يكون الرَّجلُ صالحًا وليًّا لله وله كراماتٌ ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنُّه، أو فيما يسمعه ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب.

---

(١) (د، ع): «يلبس».

(٢) كذا في الأصول، وهو سائغ.

(٣) مهملة في (ي). وفي (و): «شبيه»، وهو تحريف، وأثبتته ط. العاصمة. وسيأتي علىٰ الصواب في قوله: «فإن ما كان هذا سببه من الخوارق ...».

(٤) تقدمت الإحالة إلىٰ مظانٍّ هذا (١/ ٤٨٥، ٤٨٧).

(٥) (و): «لكن»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

ولهذا كان كلُّ من سوىٰ الأنبياء يؤخذ من قولهم[1] ويُتْرَك، بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فإنه يجب تصديقهم في كلِّ ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كلِّ ما أمروا به.

ولهذا أوجب الله الإيمان بكلِّ ما أوتوه[2]، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرُهم. قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولهذا اتَّفق المسلمون علىٰ أن من كذَّب نبيًّا معلوم النبوَّة فهو كافرٌ مرتدٌّ، ومن سبَّ نبيًّا وجب قتله[3]، بل يجب الإيمانُ بجميع ما أوتيه النبيُّون كلُّهم، وأن لا يُفَرَّق بين أحدٍ منهم فيؤمَن ببعضٍ ويُكْفَر ببعض[4]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

---

(١) (ع): «قوله».

(٢) (ي، و): «الإيمان بما أوتوه».

(٣) حكىٰ إسحاق بن راهويه الإجماع علىٰ كفر من شتم نبيًّا، كما في «تعظيم قدر الصلاة» (٩٣٠)، وانظر لقتله: «الصارم المسلول» (١٨٨، ٤٢١، ١٠٤٨).

(٤) (و): «نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض».

وليس هذا لأحدٍ غير الأنبياء، ولو كان من رُسُل الأنبياء وكانوا من أعظم الصِّدِّيقين القدِّيسين[١].

فضلال الضُّلَّال من هؤلاء مبنيٌّ علىٰ مقدِّمتين:

إحداهما[٢]: أن هذا له كرامة، فيكون وليًّا لله.

والثانية: أن وليَّ الله لا يجوز أن يخطئ، بل يجب تصديقُه في كلِّ ما أخبر، وطاعته في كلِّ ما أمر. وليس لأحدٍ من البشر أن يصدَّق في كلِّ ما أخبَر به ويطاع في كلِّ ما أمر به[٣] إلا أن يكون نبيًّا.

والمقدِّمتان المذكورتان قد تكون إحداهما باطلة، وقد تكون كلاهما باطلة[٤]. فالرَّجل المعيَّن:

* قد لا يكون من أولياء الله، وتكون[٥] خوارقُه من الشَّياطين.

* وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ.

* وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارق، ولكن له مُحَالاتٌ وأكاذيب[٦].

---

(١) (و، د): «المقدمين».
(٢) (د، ع): «أحدهما ... والثاني».
(٣) ليست في (و، ع، د). وفي ط. العاصمة: «في كل أمر»، خلاف الأصول.
(٤) ط. العاصمة: «باطلًا»، خلاف الأصول.
(٥) (ي، و): «تكون».
(٦) هنا موضع النص الذي سبقت الإشارة إلىٰ وقوعه متأخرًا في (د، ع) وط. النيل، ويبدأ بقوله: «والمسلمون وأهل الكتاب متفقون علىٰ إثبات مسيحين» إلىٰ آخر الفصل.

فصل

قالوا: «وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، فأعنىٰ أيضًا بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدَّس»[١].

فيقال: قد تقدَّم أن «الرُّسل» تتناول[٢] قطعًا الرُّسل الذين ذكرهم الله في القرآن، لا سيَّما أولو العزم، كنوحٍ وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ بن مريم؛ فإن هؤلاء مع محمَّد ﷺ خاتم النبيِّين -صلوات الله عليهم وسلامه- خصَّهم الله وفضَّلهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧ - ٨]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

فالدِّينُ دينُ رسل الله دينٌ واحد، كما بيَّنه الله في كتابه وكما ثبت في الصَّحيحين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولىٰ النَّاس بابن مريم لأنا، إنَّه[٣] ليس بيني وبينه نبيٌّ**»[٤].

ويتناول أيضًا اسم «الرُّسل» من لم يسمِّهم[٥] بأعيانهم في القرآن، قال

---

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٦).

(٢) (د، ع): «يتناول».

(٣) (د، ع): «وأنا أولىٰ الناس بابن مريم لأنه».

(٤) تقدم تخريجه في صدر الكتاب (١/ ١٠).

(٥) (ي): «يسم».

تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وأمَّا الحواريون، فإن الله تعالىٰ ذكرهم في القرآن، ووصفهم بالإسلام واتباع الرَّسول وبالإيمان بالله، كما أنزل في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ولم يذكر الله تعالىٰ في القرآن أنه أرسلهم البتة، بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله، وأنهم أُمِروا باتباع رسوله.

وقولُه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ لا يدلُّ علىٰ النبوَّة؛ فإنه قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وأمُّ موسىٰ لم تكن نبيَّة، بل ليس

في النساء نبيَّة[1]، كما تقوله عامَّة علماء المسلمين[2]، وقد ذكر إجماعهم على ذلك غيرُ واحد، مثل القاضيين: أبي بكر بن الطيِّب وأبي يعلىٰ ابن الفرَّاء[3]، والأستاذ أبي المعالي الجويني، وغيرهم[4].

ويدلُّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فجعل غاية مريم الصِّدِّيقيَّة، كما جعل غاية المسيح الرِّسالة.

وقد ثبت في الصَّحيحين[5] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**كَمَل من الرِّجال كثير، ولم يَكْمُل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مُزاحِم**»، يعني من نساء الأمم قبلنا. وهذا يدلُّ علىٰ أن أمَّ موسىٰ ليست ممَّن كَمَل من النساء، فكيف تكون نبيَّة؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، والكتاب اسمُ جنسٍ كما تقدَّم[6]، يتناول كلَّ كتابٍ أنزله تعالىٰ.

---

(١) كما تقدم في مريم (١/ ٣٧٢).

(٢) (ع) وط. النيل: «عامة علماء النصارىٰ والمسلمين»، وأشار في طرة (د) إلىٰ أنها في نسخة. وفي ط. العاصمة: «عامة النصارىٰ والمسلمين». وكلاهما خطأ.

(٣) (د، ع): «ابن أبي الفراء»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.

(٤) انظر: «الأذكار» للنووي (١١٩)، و«شرح مسلم» (١٥/ ١٩٩). وخالف في ذلك أبو الحسن الأشعري وابن حزم والقرطبي. انظر: «الفصل» (٥/ ١٢)، و«فتح الباري» (٦/ ٤٤٧).

(٥) صحيح البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٦) (١/ ٤٧، ٤٢١، ٤٣٤).

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]، وقوله: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفي[1] تَعُمُّ[2] كلَّ كتابٍ منير، ولو لم يكن إلا الإنجيل لقيل: «ولا الكتاب المنير».

وأيضًا، فالتَّوراة أعظمُ من الإنجيل، وقد بيَّن الله أنه لم ينزل كتابًا أهدىٰ من التَّوراة والقرآن، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ[3] أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾ - وقرئ[4]: ﴿سَٰحِرَانِ﴾ - ﴿تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨- ٤٩].

وهذا تعجيزٌ لهم أن يأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدىٰ منهما، كقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ[5]﴾ [يونس: ٣٨]، وهذا يبيِّن أنه ليس الإنجيل ولا الزَّبور أهدىٰ من التَّوراة والقرآن، فكيف يُجْعَل «الكتابُ المنير» هو الإنجيل دون التَّوراة والزبور؟!

وأيضًا، فإن الله تعالىٰ إنَّما يخصُّ بالذِّكر من الكتب المتقدِّمة التَّوراة دون غيرها، فهي التي يَقْرِنها بالقرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ

---

(١) ط. العاصمة: «المعنىٰ»، وهو تحريف مخالفٌ للأصول.

(٢) (و): «فيعم».

(٣) وقع صدر الآية في الأصول: «وقالوا لن نؤمن حتىٰ نؤتىٰ مثل ما أوتي موسىٰ»، وهو سهو وانتقال ذهن إلىٰ آية الأنعام: ١٢٤. وأصلحها ناسخ (ع) في الطرة.

(٤) قرأ بها ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر، كما تقدم (١/ ٣٨).

(٥) الأصول: «من مثله»، وهو سهو، تلك آية البقرة: ٢٣.

يَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٢]، وقد وصف التَّوراة بأن فيها نورًا وهدًىٰ للناس، فكيف يُجْعَلُ النور في الإنجيل دونها؟!

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٤ - ١٥٦]، فقد ذكر التَّوراة والقرآن، وقولَهم: أُنزِل الكتابُ علىٰ طائفتين[1]، فبيَّن أن «الكتاب» اسمُ جنسٍ يتناول هنا التَّوراة والإنجيل، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فذكر «الكتاب» بلفظ المفرد[2]، ومعلومٌ أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهودَ والنَّصارىٰ، لا يختصُّ ذلك بالنَّصارىٰ، كما قال: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾.

وقد تبيَّن[3] بطلانُ قول هؤلاء الذين يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، ويفسِّرون كلام الله ورسوله بما يَعْلَمُ كلُّ من عرف حاله من مؤمنٍ وكافرٍ أنه لم يُرِدْه.

---

(١) زادت ط. النيل: «من قبلنا».
(٢) (و): «المنفرد»، وهو خطأ، وأثبتته ط. العاصمة.
(٣) (و): «بين». وكذا الموضع الآتي.

وتبـيَّن أن الله لـم يُـرِد بالكتـاب الإنجيـلَ وحـده، كمـا لـم يُـرِد بالرُّسـل الحواريِّين، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله مـن الكتـب كـالتَّوراة والإنجيـل، كما أراد بالرُّسل مـن أرسـله الله مطلقًـا كنـوحٍ وإبـراهيم وموسىٰ والمسـيح ابـن مريم صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.

فصل

قالوا: «وقال أيضًا: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]»[1].

فيقال لهم: من المعلوم بالاضطرار أنه ليس المراد بهذا النَّصارىٰ فقط، كما تقدَّم[2]، بل اليهود يقرؤون الكتاب من قبلنا، والنَّصارىٰ يقرؤون الكتاب من قبلنا، و«الكتاب» اسمُ جنس، كما تقدَّم نظائره في قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤] في غير موضع، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٨ - ٢٠].

وقد قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ

---

(١) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).
(٢) (١/ ٤٢١، ٥٠٢).



﴿أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، وتناوُلُ لفظ «أهل الكتاب» هنا لليهود أظهر من تناوله للنَّصارىٰ؛ لذكره لعنة أصحاب السَّبت.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فهذا خبرٌ عن[1] طائفةٍ من اليهود قالوا ذلك.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وسبب نزولها أنه[2] أراد طائفةٌ من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين[3]، فهم داخلون قطعًا، وإن كان الخطاب مطلقًا يتناول الطائفتين.

وأمرُه تعالىٰ بسؤال الذين يقرؤون الكتاب من قبله علىٰ تقدير الشَّكِّ لا يقتضي أن يكون الرَّسولُ شكَّ ولا سأل[4]، إن قيل: الخطابُ له، وإن قيل: لغيره فهو أولىٰ وأحرىٰ؛ فإن تعليق الحكم بالشَّرط لا يدلُّ علىٰ تحقيق الشَّرط، بل قد يعلَّق بشرطٍ ممتنعٍ لبيان حكمه.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ

---

(١) ليست في (و).

(٢) ليست في (ي، د). وألحقت في (و، ع).

(٣) روي عن جماعة من السلف. انظر: «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٧٢٣- ٧٢٨)، و«الدر المنثور» (٣/ ٦٩٨- ٧٠١).

(٤) (ع): «يشك ولا يسأل».

﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1] [الأنعام: ٨٤ - ٨٨]، فأخبر أنهم لو أشركوا لحَبِط عنهم ما كانوا يعملون، مع انتفاء الشِّرك عنهم، بل مع امتناعه؛ لأنهم قد ماتوا، ولأن[2] الأنبياء معصومون من الشِّرك به[3].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦]، فهذا خطابٌ للجميع، وذكر هنا لفظ «إن»[4] لأنه خطابٌ لموجود، وهناك خبرٌ عن ميِّت[5].

وكذلك قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ﴾ لا يدلُّ علىٰ وقوع الشكِّ ولا السُّؤال[6]، بل النبيُّ ﷺ لم يكن شاكًّا، ولا سأل أحدًا منهم، بل رُوِي عنه أنه قال: **«والله لا أَشُكُّ ولا أَسأل»**[7].

---

(١) سقطت الآيتان الأخيرتان من ط. العاصمة. وهي في الأصول وط. النيل.

(٢) ط. العاصمة: «لأن»، وهو خطأ مخالف الأصول.

(٣) ليست في (د، ي، ع).

(٤) في قوله تعالىٰ: «لئن أشركت».

(٥) انظر: «الرد علىٰ البكري» (٤٦٣).

(٦) انظر: «النبوات» (١٨٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٠٩، ١٦/ ٣٢٥)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٩- ١٠٥).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١١٧٣)، وابن جرير (١٢/ ٢٨٨) عن قتادة قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل». وهو مرسلٌ صحيح الإسناد.
وأخرج ابن أبي حاتم (١٠٥٨٣) من طريق سعيد بن شرحبيل عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لم يشكَّ رسول الله ﷺ ولم يسأل»، وظاهر إسناده الصحة، وخرجه الضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٤)، وصححه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٤/ ١٣٧)، إلا أنه معلول، والصواب روايته من قول سعيد بن جبير، كما أخرجه سعيد بن منصور (١٠٧٦، ١٠٧٧)، وابن جرير (١٢/ ٢٨٧) من طريق جماعة من الثقات الكبار عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد.

ولكن المقصود بيانُ أن أهل الكتاب عندهم ما يصدِّقك فيما كذَّبك فيه الكافرون، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ الآية[1] [القصص: ٥٢- ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ[2]﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فالمقصود بيانُ أن أهل الكتاب عندهم ما يصدِّقك فيما كذَّبك فيه الكافرون، وذلك من وجوه:

---

(١) كذا في الأصول. وأسقطتها ط. العاصمة.

(٢) ألحق في (و) بقلم حديث فوق السطر كلمة «إليك»، وليست في سائر الأصول.

أحدها: أن الكتب المتقدِّمة تنطق بأن موسىٰ وغيره دعوا إلىٰ عبادة الله وحده ونَهَوا عن الشِّرك، فكان في هذا حجَّةٌ علىٰ من ظنَّ أن الشِّرك دينٌ.

ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلىٰ النَّاس بشرًا مثلهم، لم يرسل إليهم مَلَكًا؛ فإن من الكفَّار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكًا أو بشرًا معه مَلَك، ويتعجَّبون من إرسال بشرٍ ليس معه مَلَكٌ ظاهر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤- ٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ الآية[1] [القمر: ٢٣- ٢٤].

(١) يعني الآيات. وأسقطتها ط. العاصمة.

وكذلك قال الذين من بعدهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

وكذلك قال قوم فرعون لموسىٰ وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢- ٥٣].

وكذلك قالوا لمحمَّدٍ ﷺ، قال[(١)] تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[(٢)] [يونس: ١- ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ - ٩].

فبيَّن سبحانه أنكم لا تطيقون التَّلقِّي عن المَلَك، فلو أنزلناه مَلَكًا لجعلناه في صورة بشر، وحينئذٍ كنتم تظنُّونه بشرًا، فيحصل[(٣)] اللَّبسُ عليكم، فأمر الله تعالىٰ بسؤال أهل الكتاب عمَّن أُرسِل إليهم أكان بشرًا أم كان مَلَكًا؟ ليقيم الحجَّة بذلك علىٰ من أنكر إرسال بشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]،

---

(١) (و، ي): «وقال». وضرب علىٰ الواو في (د).
(٢) أكملت الآية في ط. العاصمة، خلافًا للأصول.
(٣) مهملة في (ي)، (ع): «فيجعل» وهو خطأ، وأصلحت في (د) لتوافق الصواب.

وقال تعالىٰ[1]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ - ٩]، وأهل الذِّكر هم أهل الذِّكر الذي أنزله[2] الله تعالىٰ.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عمَّا جرىٰ للرُّسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذِّبين لهم.

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدِّين الذي بعث الله به رسله، وهو دينُ الإسلام الذي اتَّفقت عليه الرُّسل، كالأمر بالتَّوحيد والصِّدق والعدل وبرِّ الوالدين وصلة الأرحام، والنَّهي عن الشِّرك والظُّلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عمَّا وصفت به الرُّسل ربَّهم هل هو موافقٌ لما وصفه به محمَّدٌ أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترةٌ عند أهل الكتاب، معلومةٌ لهم، ليست مما يشكُّون فيه. وليس إذا كان مثلُ هذا معلومًا لهم بالتَّواتر، فيُسألون[3] عنه، يجب أن يكون كلُّ ما يقولونه معلومًا لهم بالتَّواتر.

وأيضًا، فإنهم يُسألون أيضًا عمَّا عندهم من الشَّهادات والبشارات بنبوَّة محمَّد ﷺ.

وقد أخبر الله بذلك في القرآن، فقال تعالىٰ[4]: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦

---

(١) من أول الآية السابقة هنا سقط من (و) لانتقال النظر، ولم تثبته المطبوعات.
(٢) (و): «أنزل».
(٣) (و): «يسألون».
(٤) «فقال تعالىٰ» ليست في (و).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، فقد أخبر عن عيسىٰ أنه صدَّق بالرَّسول والكتاب الذي قبله وهو التَّوراة، وبشَّر بالرَّسول الذي يأتي بعده وهو أحمد.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ(١) فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤- ١٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧].

وقال تعالىٰ عن من أثنىٰ عليه من النَّصارىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(٢) [المائدة: ٨٣].

---

(١) أول الآية في الأصول: «ومن حيث خرجت»، وهو سهوٌ وانتقال ذهنٍ للآية الأخرىٰ. وأثبتُّ الصواب، كما صنعت في نظائره.

(٢) زادت ط. العاصمة: «يقولون ربنا آمنا»، وليست في الأصول.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥١ - ٥٤].

وقال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

والأخبارُ بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ ﷺ عندهم في الكتب المتقدِّمة متواترةٌ عنهم.

وكان قبل أن يُبْعَث النبيُّ ﷺ تجري حروبٌ وقتالٌ بين العرب وبين أهل الكتاب، فيقول(١) أهل الكتاب: قد قَرُبَ مبعثُ هذا النبيِّ ﷺ الأمِّيِّ الذي يُبْعَثُ بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتَّبعناه وقتلناهم معه شرَّ قِتلة(٢)، فلمَّا بُعِثَ النبيُّ

---

(١) مهملة في (د، ي)، (و): «فتقول».

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٨٤)، ومن طريقه ابن جرير (٢/ ٢٣٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٧٥) عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخٍ له من الأنصار.

ﷺ كان منهم من آمن به ومنهم من كفر به، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون بمحمَّدٍ ﷺ علىٰ الذين كفروا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ولهذا كان النبيُّ ﷺ في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «**والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله**»[١]، وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سَلَام كان يقول لغيره من أهل الكتاب: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنَّه رسول الله ﷺ»[٢]، وهذا أمرٌ معروفٌ في الأحاديث الصِّحاح المخرَّجة في الصَّحيحين وغيرهما.

فظهر بما ذكرناه تحريفُ هؤلاء لكلام الله، وأنه لا حجَّة لهم فيما أُنزِل علىٰ محمَّدٍ ﷺ، كما تقدَّم نظائر ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) جزء من حديث أنس السابق.

فصل

قالوا: «فثبت بهذا ما معنا. نعم، ونفىٰ عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التُّهَم والتَّبديل[1] لها والتَّغيير لما فيها بتصديقه[2] إيَّاها»[3].

فيقال: كلامكم الذي تحتجُّون به في هذا الموضع وغيره إمَّا أن يكون باطلًا محضًا، وإمَّا أن يكون ممَّا لَبَسْتُم فيه الحقَّ بالباطل.

فإنَّ قولكم: «بتصديقه إيَّاها» إن أردتم أنه صدَّق التَّوراة والإنجيل والزَّبور التي أنزلها الله علىٰ أنبيائه فهذا لا ريب فيه؛ فإن هذا مذكورٌ في القرآن في غير موضع، وقد أوجب علىٰ عباده أن يؤمنوا بكلِّ كتابٍ أنزله، وكلِّ نبيٍّ من الأنبياء، مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن، وأنزل القرآن مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

قال[4] تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ③ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١]،

---

(١) رسالة بولس: «بالتبديل». وهو أجود.

(٢) (د، و، ع): «تصديقه». ومضىٰ علىٰ الصواب غير مرة.

(٣) رسالة بولس الأنطاكي (٤١٥).

(٤) ط. العاصمة: «وقال»، خلاف الأصول.

وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧][1].

وقد أوجب علىٰ عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكَم بكفر من آمن ببعضٍ وكفر ببعض، فقال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

فذمَّ التَّفريق[2] بينهم بأن يُؤمَن ببعض دون بعض، وبيَّن أنه فضَّل بعضهم علىٰ بعض، فقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]،

---

(١) وقع في سياق الآيات اضطرابٌ في الأصول، ولعل ذلك لأن المصنف ألحق بعضها في طرر نسخته فاشتبهت مواضعها علىٰ النساخ، وقد أثبتُّ مجموعها.

(٢) ط. النيل: «المفرِّق»، وتبعتها المطبوعات، خلاف الأصول.

فبيَّن أنه فضَّل بعضهم علىٰ بعض، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥][١].

وقد اتَّفق المسلمون علىٰ ما هو معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنه يجبُ الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله[٢] الله من الكتب.

فمن كفر بنبيٍّ واحدٍ تُعْلَمُ نبوَّتُه، مثل: إبراهيم ولوط وموسىٰ وداود وسليمان ويونس وعيسىٰ، فهو كافرٌ عند جميع المسلمين، حكمُه حكمُ الكفَّار، وإن كان مرتدًّا استُتِيب، فإن تاب وإلا قُتِل.

ومن سبَّ نبيًّا واحدًا من الأنبياء قُتِل أيضًا باتفاق المسلمين.

وما عَلِم المسلمون أن نبيًّا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديقُ به، كما يصدِّقون بما أخبر به محمَّدٌ ﷺ، وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف.

وما لم يعلموا أن النبيَّ أخبَر به فهو كما لم يعلموا أن محمَّدًا أخبَر به صلىٰ الله عليهم أجمعين، ولكن لا يكذِّبون إلا بما علموا أنه كذب، كما لا يجوز أن يصدِّقوا إلا بما علموا أنه صِدق.

وما لم يعلموا أنه كذبٌ ولا صدقٌ لم يصدِّقوا به ولم يكذِّبوا به، كما أمرهم نبيُّهم محمَّدٌ ﷺ[٣]، وبهذا أمر[٤] المسيحُ عليه السلام، فقال: «الأمور ثلاثة:

---

(١) من هنا إلىٰ آخر الفصل كتبه ناسخ (د) في ورقة طيارة، وأشار إليه في الطرة بقوله: «الوريقة»، وهي من جملة ما أعاد الناسخ المتأخر ترميمه من النسخة.

(٢) (د، ع): «أنزل».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) (و، د، ع): «أمرهم»، وهو خطأ، وأثبتته المطبوعات.

أمرٌ تبيَّن رشدُه فاتَّبعوه، وأمرٌ تبيَّن غيُّه فاجتنبوه، وأمرٌ اشتبه عليكم فكِلُوه إلىٰ عالِمه»[1].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٦٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٣٨٧)، وغيرهما بإسناد ضعيف جدًّا من طريق هشام بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن عيسىٰ بن مريم قام في قومه فقال ...» فذكره في سياق طويل. وهشام متروك الحديث. وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٠)، فتعقبه الذهبيُّ في تلخيصه وأعله بهشام وحكم ببطلانه، وأعله به في «معجم الشيوخ» (١/ ٣٦)، وكذا البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٧/ ٤٠٧)، وضعف إسناده العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١٧٧٥).

ولم يسمعه هشام من محمد بن كعب، وإنما يرويه عن يحيىٰ بن فلان عن محمد بن كعب، كما ذكر عفان بن مسلم فيما رواه عنه مسلم في مقدمة «الصحيح» (١/ ١٨)، ورواه من طريق عفان ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٣٦٠). قال ابن حجر في «النكت الظراف» (٥/ ٢٣٥): «فأفادت هذه الطريق أن بين هشام ومحمد بن كعب فيه شخصًا مجهولًا».

وسرقه بعض المتروكين من هشام، ولم يحدث به عن محمد بن كعب ثقة، كما قال العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٤٦٩)، وانظر: «نصب الراية» (٣/ ٦٣).

وأخرج أبو دواد طرفًا من الحديث (١٤٨٥) من طريق راوٍ لم يسمَّ -ويشبه أن يكون هشامًا، كما ذكر ابن عدي في «الكامل» (١٠/ ٣٢٩) في إسنادٍ نحوه- عن محمد بن كعب به، وقال: «روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب، كلُّها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيفٌ أيضًا». وقال العقيلي في «الضعفاء» (٦/ ٢٦٠): «ليس لهذا الحديث طريقٌ يثبت»، وقال ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٤١٨): «لم يرو ذلك الخبر أحدٌ يجوز الاحتجاج بخبره».

ولم يصب الحافظ المنذري حين قال في «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٩): «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به»، ولا الهيثمي إذ قال في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٧): «رجاله موثقون».

فهرس موضوعات المجلد الأول



